

الإسلام والعلماء

تأليف

فريد الدين
عبد القادر بن محمد

مقدمة الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ م

مطبعة المعاهد بحوار قسم الخالية بمصر

من كتاب الاسلام في عصر العلم

ألفت هذا الكتاب وأنا في ميعة السن قريب عهد بدور التحصيل والدرس ، فهو أصدق كتاب يمثلني مناضلاً عن الفلسفة الروحانية والدين باعتبار أنهما الركنان القويان من أركان الاجتماع والترقى ، في أول أدوارى وأنا أدفع بالدليل تلو الدليل اكتساباً للانصار حول هذا الأصل ، وهو أن الجماعة التي أقامها الاسلام في أول عهدها بالوجود يجب أن يكون هو الذى ينعشها من كبوتها .

على هذا الأصل سرت في تأليف كتابى هذا ، رامية الى افقت نظر المتعلمين الذين فتتهم فواتن الفلسفة الحديثة فتخلوا أنها الطريق للتوحيد لبلوغ الغاية القصوى من الرقى الانسانى ، واذا قلت الفلسفة الحديثة عنيت بها الفلسفة المادية التي تفرض أن الانسان حيوان راق وأن الغاية التي أمامه هي وصوله الى آخر ماتيله اياه العلوم الكونية . وما يعدده استعدادة لقبوله منها .

كنت في ذلك العهد أى منذ ثلاثين سنة قد أتممت جولة شاقة متعبة قد جلتها وأنا فى السن وحيدا فى متاحات خالية من الهداة والاداة . وفى وسط جماعات علمية لا تمت الى هذه المباحث بسبب . فكنت

أرتطم في الشبهة العلمية وأصلي بنارها وحدي لأجد من يهدينى الى حلها ، ولا من يدلنى على مقابلها ، فما كدت أخرج منها ، سليم الأيمان ، قوياً على النضال ، حتى ألقيت بنفسى من هذا الكتاب فى مجال لا يجسر أن يقفه المقرمون الفحول ، فما ظنك بناشىء لا يزال من هو أسن منه فى دور التعلم والتحصيل ؟

خضت من البحث فى نفسية الانسان بحراً خضياً ، فألقيت بنفسى بين أواذيه وليس لى من وسائل النجاة من طغيانها الا عزيمة قوية للوصول الى ساحله ، فلم أدع من عوامله الذاتية وعوامله الخارجية وروح العصر باباً للبحث الا ولجته ، ولا كلاماً عن الدين والعقل والروح العلمية وما طوحت بى اليه من درس أول مناشئها وما أثر عن اليونانيين الأقدمين عنها . وما أتى به فلاسفتهم وحكماؤهم فيها ، وما أنتجته الحروب بين الفرس وبينهم من الآثار على العلم والفلسفة ، وما أحدثته جامعة الاسكندرية من النوض العلمى فى العالم ، وما اقتضاه هذا الخوض من دراسة مذاهب الفلاسفة اليونانيين الخ الخ ، ثم الخروخ من ذلك كله الى دراسة الروح الاسلامية ، والمثل الأعلى الذى أوجده رسول الله صلى الله عليه وسلم للانسان ، وما استدعاه ذلك من البحوث فى ماهية الدين الفطرى ، وعرض الأدوار التى تتاب العقائد ، وكنه الفضيلة والرديلة ، وغاية المدنية الاسلامية ، وما استتبعه هذا الدرس العميق من النظر فى المادة وماوراءها ، والالمام بالبحوث التجريبية التى يقوم عليها ، اوروبا فى هذا العصر بها لاثبات العالم الروحانى الخ الخ ،

إلا درستها درس تعمق ، فخرجت منها وأنا أشد إيماناً بصحة النتائج التي وصلت إليها مني بها قبل أن أخوضها ، فلم أشأ أن أختص بها فأخذت ادونها وأنشرها بين الناس حتى ملأت مجلدين ضخمين ، نالا من إعجاب القارئ قسطاً كبيراً ، فلم يمر عليها غير زمن يسير حتى نفذت طبعتهما الأولى ، وانصرفت لخوض غمرات أخرى فأهملت إعادة طبعهما سنين رغماً عن كثرة طلبهما ومضت مدة كانت تكفي للتعفية على رسومه ، ومحو اسمه من الأذهان ، غير أن الذين وعوا ذكره كانوا لا يفتأون يلحون في إعادة نشره ، فأمكننا الله من ذلك ويسره وها نحن نقدمه للقراء مطبوعاً أجمل طبع ، راجين من الله التوفيق فيما تتوخى من نشر الحقيقة ، وبث الفضيلة ، وتغذية الروح ، انه ولي الكفاية وهو المستعان ؟

محمد فريد وهبى

الإسلام والعلماء

تأليف

مفتي مصر
عبد القادر بن عبد الله

١٩٣٢ - ١٣٥٠ هـ



١٩٣٢ - ١٣٥٠ هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٣٢ - ١٣٥٠ هـ

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر

إمامها مصطفى محمد

١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ م

مطبوعة بمقتضى قرار قسم المطابع
إدارة جمهورية مصر العربية

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم على أن هديتنا لدينك القويم ، وأقمتنا بكلامك القديم ، على صراطك المستقيم ، حمد عبد معترف بالقصور عن حصر آلائك ، مفر بالعجز عن توفيتك الشكر على جزيل نعمائك ؛ وصل اللهم وسلم على الانسان الكامل الذي بعثه بالنور الشامل والبرهان الفاصل ، فنصرت به الحق على الباطل ، وأقمت به وبأتباعه الأماثل ، ميزان حكمك العادل سيد الوجود محمد عبدك ورسولك خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين آمين .

(أما بعد) فاني استخرت الله تعالى في وضع كتاب كبير الحجم أضمنه موجز أبحاثي في المواضع الفلسفية التي لها علاقة بالاسلام خصوصا وبالدين المطلق عموماً ، وأريد من هذا العمل الشاق إقامة صرح مشيد للدين الاسلامي في هذا العصر الذي اشتهر بزعة أركان الأديان وهدم صروحها وتقويض أساطين المعتقدات ونسف قصورها وسأتوخى ان شاء الله في بناء هذا الصرح تسخير ذلك العلم الهادم للعقائد غير ذاهب بمدركاته مذاهب التعسف والتأويل ، ولا ناهج بمقرراته مخالجه التكلف والتحريف . ولكني سأسير معها سيرها الطبيعي

وأسلك بها مسلكها التحليلي ولم لا يتفق العلم والدين ويكون الأول مؤيد الثاني وناصره ، وحاميه من شائبات الشكوك وموازره ، مادام العلم منتزعا من أشياء الكون والدين وحى من خالقه ؟ وهل يعقل أن يكون وحى سماوى مخالفا لوضع طبيعى وكلاهما مستمد وجوده من خالق واحد تنزه أفعاله عن التناقض وتعالى أفاضاته عن التعارض ؟ بل الذى يخشى صولة العلم ويتهيب سطواته ، رجل يريد أن يعطف حقائق الكون على خيالاته ، وأن يرى نواميس الوجود مطابقة لوهمياته ، هذا هو الذى يرى العلم عدوا لدوداً ، فيصد عنه صدوداً ، ويكون أمامه حيودا شرودا ، هذا هو الذى ان ذكر العلم بحضرتة عبس وبسر ، وأدبر واستكبر ، وقال ان هذا الا قول البشر . أما المسلم فمضى عهدناه أحجم عن العلم أو تهيب ورده ؟ وانى رأينا صدف عنه وخاف بطشه ؟ العلم فى كل عصر ظهير الاسلام ومؤيده ، وناصر تعاليمه ومعضده . لم يسقط المسلمون الى ما هم عليه الآن الا بلويهم عن العلم كشحا ، وضربهم عن الخوض فى مناحيه صفحا ، ألم تر أن فى كل دور من أدوار العلم كتبنا المسلمين اتخذت أرقى مدركاته سلاحا للدفاع عن الاسلام وتأيينه ، وجعلت أعضل مسائله آلة لنتييد صرحه وتأييده ؟ فما الاشعري وابن تيمية و "غزالي وغيرهم الا من مرسان تلك الخلفاء ، وأعلام ذلك الميدان ، وقد قاروا وهازوا فى انتدى بهم فى كل عصر على أعداء فوزا ليس بعده مصاب للمريد . فلهذا لا يكون هذا "عبر نفسه فى هذا العصر الانور جاراً على سنة الطبيعة "فى سائرهم مع "الاسلام

في كل عصر سابق ؟

أكبر سبب نراه لتراخي روابط الدين من قلوب بعض المتعلمين اليوم هو لاشك عدم استخدام القوام عليه العلم لتقرير حقائقه كما كانت هذه عادة آبائنا الأولين ، وستهم في نشر الدين لهذا الاهمال ظن أولئك المتعلمون ان أسامة الاسلام أقل مضاء من أسلحة علومهم الكونية، فانتبذوا لأنفسهم مكانا بعيدا عن اخوانهم في المدرجات والعقائد . نرى كثيراً من المتكلمين في الدين لا يسلكون في تأييد دعاويه الا مسلك القضايا المنطقية ، والفلسفة العقلية ، بينما يرى هؤلاء المتعلمون أنفسهم في عصر الفلسفة الحسية ، والبراهين الطبيعية التحليلية فكيف يقر هؤلاء لأوائك بزعامة ويعترفون لهم برئاسة وهم يريدون أن يلبسوا ما يعتقدونه أو يدركوه بصفة تقرب من ذلك .

يقرأ هؤلاء المتعلمون من كتب الغرب ما يستدلون به على أن الانسان مترق من سلسلة حيوانية ، وان يذنه وبين القرودة والكلاب قرابة أصلية فتتكشط من أذهانهم بسبب هذه الشبهة الواحدة كثيراً من المدرجات الدينية في أصل الخليقة ومنابع الأخلاق ووجود النفس وخلودها وحقيقة الفضيلة وليسوا من العلم بمكانة يستطيعون معها النظر في أدلة أولئك القائلين ومحاكماتها فتلتا أفكارهم بشبه لا يجدون أمامهم من أكثر القوام على العقائد رجالا نصبوا أنفسهم لتحليل أمثال هذه المسائل التي طم بها العلم العصري وصار بذلك جائحة على ما يسمونه الدين : فلا يرى أولئك الشبان الا السكوت على مضض

والجمود على هواجس تجيش في صدورهم وترغهم على عدم التعلق بالدين لتوهمهم أنه أضعف من أن يقاوم هذا التيار الجارف الذي لم يترك أمامه سدا أثريا إلا هدمه ، ولا بناء قديما إلا اكتسحه ، فيحسبون أنه في حركته هذه قد نسف صرح الاسلام أيضا قياساً على غيره ويفوتهم أن صرح الاسلام ليس مبنيا من أجر الخزعبلات متماسكة بطين الأوهام ، حتى يعدو عليه تيار أو يقابله في جريه اعصار « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »

هذا هو السبب الأكبر في عدم تمسك أكثر المتعلمين منابالدين ، وهروبهم من كل ما يشم منه رائحة الدين ، وهم أنفسهم لو رأوا من المدافعين عنه قوة حقيقية في حمايتهم لبيضته لكانوا أعزأبناءه وأقوى اعضاءه . بناء على هذه الاعتبارات كلها رأينا أن نشرع في هذا العمل الشاق اقتداء بأسلافنا الاولين الذين استخدموا علوم عصورهم للدين وسنجعل ان شاء الله عمداً في الدفاع عنه المقررات العلمية ، والمدرجات الفلسفية الثابتة ، سالكين بها أقصد المسالك الاستقرائية والتحليلية ، غير تاركين فيما نظن هاجسا يهجس بالضمير بسبب أى مسألة من المسائل العلمية الحديثة التي لها ارتباط بالعقائد الا أتينا على تحليلها وبيان الحقيقة منها مع البرهنة على أنها أقوى مؤيد لمدرجات الاسلام وأشد ناصر لحقائقه ، حتى أن القارىء سوف يرى ان شاء الله ان ما كان يخاله في العلم الطبيعي ناسفا لأصول الدين ومبددا لفروعه أحسن مقرر لها وأمتن مثبت لبنائها وليس ذلك بعجيب ، فقد قال الله تعالى : « سنريهم »

آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك
انه على كل شيء شهيد » « ولتعلن نبأه بعد حين » وعندئذ يليق بنا
أن تتمثل بقول الشاعر :

(أفلت شمس الأولين وشمسنا ٤ أبدا على أفق العلا لا تغرب)
وقد رأينا أن نقسم كتابنا هذه الى أربعة أجزاء كل منها يشتمل
على بحث قائم بنفسه ولكنها كلها ترمى الى غاية واحدة هي اقامة
أقوى الأدلة العلمية لتقرير « ان الدين عند الله الاسلام »
سنتكلم ان شاء الله في الجزء الأول على (الانسان) ثم في الثاني
على (المدنية) ثم في الثالث على (ما وراء المادة) ثم في الرابع على (حياة
خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم) أما مبحث (الانسان) فسندرس
فيه ان شاء الله الانسان من كل جهاته التي لها ارتباط بالدين والفلسفة .
ولا يعجب قارئ من تخصيص كتاب ضخم في موضوع الانسان
وحده فان حقيقة الانسان أعوص مسائل الانسان ، وقد سهل عليه
أن يدرس الكون ويستخدم كثيراً من نواميسه ، ولكن صعب
عليه جدا درس نفسه والوقوف على سرها

نحن لانعنى بدرس الانسان درس جثمانه فانا لا نعد ذلك الهيكل
اللحمي على ادهاشه للعقل وتحيره للفكر الا جزءا من الكون المادي
الذي تغلغل الانسان في اكتشافه ، ولا نعنى به أيضاً اكتناه سر
روحه والوقوف على جوهرها ؛ هيات ذلك مما لانطمع فيه ولا
نسمح لعقولنا بالتطفل عليه ؛ ولكننا نريد به درس علاقاتنا بالوجود

المحسوس وبوجود آخر نشعر به ونذوب شوقاً لمعرفته .
لو كان الا نـ ان مدفوعاً بالفطرة الى انتهاج سبيل خاص في أمور حياته كما هو الشأن عند سائر الحيوانات لما كان ثمت حاجة الى درس علاقاته بالوجود الا من جهة محدودة ، ولكانت سعادته تبعاً لذلك محصورة بمحدود الدائرة التي حجر عليه تعديها ولكنه خلق مطلق القوى مرخي العنان لا يدرك لسعادته حداً ، ولا يتخيل لكمالها تخماً ؛ كلما ارتقى في معارج احدى سعادته درجة لاحت له درجات ، وكلما جاز باحة تراءت له باحات ، وهو مع ذلك يجد من كنز فطرته مادة تمكنه من مداومة الجـد والتعب ، ومن فيض مبدعه عوناً على معاناة النصب ، حتى سمح لنفسه أن يقول وقد جال في موامى المطالب وجاب ، وجاس في انحاء الكون فأخطأ وأصاب :

(ولكن قلباً بين جنبي ماله * مدى ينتهي بي في مراداجده)
الانسان في كل جولة من جولات معناه ، وفي كل جوبة من جوبات فكره ، حتى في كل همسة من همسات ضميره ، أو حركة من حركات وجدانه يحاول أن يستجلي جمال ذاته ، ويستكشف محاسره ، ويستديم مع ذلك وجوده الشخصي على أكمل صفة يدركها في نفسه ، فهو لا يأكل أو يشرب ، ولا يلبس أو يتزين ، ولا يفكر أو يتدبر وبالاختصار لا يتحرك حركة مهما كانت بسيطة الا وهو مدفوع بدافع مبهم لتسجيل ذاته وشخصيته في سجل الوجود ، ونقش معناه في صفحاته نقشا يأمن عليه العاديات من كل نوع .

مضى على الانسان زمن كان فيه قريب العهد بهذا المشهد المدهش (الدنيا) فكان شغله بنفسه واهتمامه بدفع الطوارئ عنه . مانعا له من التفكير في كنه القوى التي تصرفه ولكن حدثت عليه أزمان بعد ذلك تم له فيها التغلب على المييدات الفجائية فما شعر الا وضميره يطالبه بأمر جلل وخطب عظيم ، وإذا بصائح في قواده يصيح : ماذا أنا ؟ ما هذا العالم ؟ ماهي هذه المحسوسات التي تحتفبني من كل جانب ؟ ماهي علاقتي بها ؟ أين أنا ذاهب بعد فناء هذا الجسد ؟ أأتلاشي كما تتلاشي الأشياء أم أدوم في عالم غير هذا العالم وعلى شكل غير هذا الشكل ؟ الوجود قديم أم حديث ؟ إن كان قديما فكيف وجد وان كان حديثا فمتى وجد ولماذا وجد ؟ أهو أبدي لا يزول أم فان لا بد له من أفول ؟ ان كان أبديا فماذا يكون في المستقبل وبأى شكل يتشكل ؟ وان كان فانيا فالى أين يذهب وما الذي يحل مكانه حين يعطب ؟ أيحل مكانه لاشيء أم الفضاء ؟ ما معنى لا شيء وما معنى الفضاء ؟

دعنا من هذا كله : فما هي المادة في ذاتها وما هي أسباب وجودها ودوامها وماهي عوامل رقيها وتدرجها ؟ كيف استحالت من تراب الى انسان ؟ وماهي الحياة وكيف نشأت في الجماد وما هو هذا العقل المكرم وكيف تولد في هذا الطين الأصم الآبهم ؟ ثم دعنا من هذا أيضا وهلم تفكر كيف نشأ الحيوان ووجد الانسان وتدرج في مراقب العرم فان ؟ كيف اهتدى وتصرف وكيف نما وتطور

ثم دعنا من هذا فما هذه النباتات ولم وجدت بهذه الاختلافات ؟

وما سبب تلوين أزهارها و تطييب أنوارها وتحلية ثمارها ؟ هل خلقت للانسان والحيوان ، أو هي عوالم مستقلة خلقت لذاتها ولها أغراض وقوانين ؟ كيف اهتدت الى ما فيه حياتها وتمتعت بما به بقاءها واستمرارها ؟ ثم ماهذه الحيوانات ولم يختلف في الصور والهيئات وتنوعت في الأقدار والأحجام وتباينت في التراكيب والأجسام ؟ كيف نشأ فيها ذلك الإلهام العجيب الذي يهديها لبناء مساكنها وتغذية صغارها والهيمنة على أحوالها وأمورها واني اهتدت الى معاشها ووقفت لسبل غذائها وما يقيم أمر حياتها ؟ وما الانسان من بينها ؟ كل هذه المسائل جاشت في صدر الانسان وتراءت له على مالا يعد من الصور على حسب المؤثرات التي أثرت على ذهنه ، والمناسبات التي أحاطت به في مكانه وزمنه ، واشتغل بها قديما وحديثا وبنى عليها علومه وصناعاته وأخلاقه وسجاياه ، وقاس عليها فضائله ومزاياه ، وشرع على موجبها قوانينه ، ونظم على مقتضاها عقائده ودينه ، وعلى قدر تمكنه من درسها وتدر به على فحصها والقرب من أسرارها فاز من وجوده بقسط من السعادة محدودا ، ونال من حياته جزءا مقدورا فمنهم من حكم على وجوده بالحدوث والعدم ، ومنهم من قضى له بالبقاء والقدم . فجرى الأولون فيه على سمت شكلوا على مقتضاه علومهم وعقائدهم ؛ وسار الآخرون على طريق خالفوا فيه مناظيرهم على الحملة وبنوا عليه علومهم وعقائدهم أيضا وجرى الاثنان من قديم الزمن في حلبة واحدة كان السبق بينهما سجالا فكان حكم العقل عليهما

في كل زمن يختلف عن سابقه ولا حقه مما لا يجوز أن نخفيه عن عقولنا اليوم
قال الأولون بأن للوجود الها لا نهاية لحوله وفوته ، وللإنسان
روحا خالدة بعد موته ، وله فضائل مستمدة من دينه وعقيدته ، ولأعماله
في هذه الدار صور تنتظره في آخرته ، وإن الوجود وما فيه مسخر
لسيطرته ، يحول في ضمائرهم بما تقتضيه أمور مصلحته ، وتستدعيه
مطالب سعادته ، جعلوا هذه العقائد تسلية للإنسان في دار محنته ،
وروحا يتنسّمها في كربته ، وأملا يدفع به اليأس في شدته

أما الآخرون فانغصوا رؤوسهم تخفية وهزوا ، وهزوا أعطافهم
زهوا وعجبا ، ثم رفعوا عقيرتهم كبرا و صلفا وقالوا : هذه آثار الماضين
وبقية من بقايا الأقدمين . فقد حكم العلم (معاذ الله) بأن نواميس
الكون كافية في تعليل كل ظواهره وقوانينه قد فسرت أكثر غوامضه ،
فلا داعي لفرض وجود قوى وراء الطبيعية ، ولا موجب لتوهم عالم
علوي وراء هذه المرائي المحسوسة . أما الوجود فقديم إن لم يكن بصورته
فبمادته الأولية وأما القوى التي تصرفه فلا استقلال لها في ذاتها بل هي
صفة هيولاه الأصلية . فلا مادة بلا قوة ولا قوة بلا مادة ، بل المادة
نفسها مظهر من مظاهر القوة المتحركة في الأثير من الأزل . أما الإنسان
وما نسبتّموه إليه من نفس مستقلة عن الجسد ، وما منحتّموها من مزية
الخلود بعد فناءه وتبعثر ذراته ، فمات بطله الشواهد العلمية وتحيله البدائية
الشريحية فقد قرر العلم (معاذ الله) أنه لا فرق بينه وبين غيره من
الكائنات السفلية ، ولا ميزة له على سواه من الأنواع الحيوانية بل ليس

هو في ذاته الا حيوانا فاق في قوة التعقل غيره من بنى نوعه ؛ على أن بنى نوعه (الحيوانات) ليست محرومة من قسط مناسب من العقل والفطنة ، واذا أردت الدليل فدونك كتب حياة الحيوان تر من آثار الفكر وتأتج العقل مايدلك تمام الدلالة على أن العقل ليس وصف الإنسان المميز ولا حد الاتصال بين العالمين الحيوانى والانسانى . فاذا نسبت للانسان روحا مستقلة عن الجسد ومنحتها مزية الخلود والبقاء ، فلم لاتحكم هذا الحكم نفسه بالنسبة للحيوانات . اليس هذا من آثار المعلومات السابقة الناقصة حينما كان الناس لا يميزون بين ما يؤيده الحس والعيان وبين ما هو من قبيل الخيالات التى تنشأ فى الوجدان بلا رواية ولا امان ؟

أما الفضائل التى تقررعون الآذان بها ، وتضربون وجوه مناظريكم بسلاحها ، مدعين أنكم قادتها وزعماؤها ، وأن يسدكم حلها وعقدها ، وأن لكم حق السيطرة على الناس بها ، فليست فى الحقيقة تبعاً لتعليم من التعليم ولا حقاً لناس دون ناس ، بل هى تابعة لنواميس طبيعية تظهر فى الأمم الحية ظهور آثار سائر النواميس الأخرى ولا علاقة لها بدين البتة ؛ بل الدين مشتق منها ومتفرع عنها . الا ترى أن أكثر المتدينين بعداء عن الفضيلة مغمورين فى غمرات الرذيلة ؟ دونك الاحصائيات المدققة التى يستقصيها علماء الجرائم مثل (لومبروزو) و (فيريرو) و (سيرجى) وغيرهم ترى بعينك ان أكثر الجرائم صادرة من المتدينين الذين يزعمون أن لهم ارتباطاً

بالدين ، وغيره على تعاليمه ثم انظر بعد ذلك للأمم التي تركت الأديان ، وجعلتها خبراً لكان والتفتت للمدنية والعلوم الطبيعية ، ترأنها قد دبرت أمورها ، ونظمت شئونها ، فقامت على قطب الاستقامة والاستقلال ونحت منحى الكرامة والجلال ، وكشفت لها المدنية عن وجهها الباسم ، وتجلت لها الحضارة في شكلها الفاتن ، فسيطرت على الأمم الأخرى بعلومها وصنائعها ، وقهرتهم بقوتها وسطوتها ، كما أنها صارت بالنسبة اليهم علماً في فضائلها وآدابها ؟

إذا كان لا فضيلة بغير الدين ، وأنها مطابقة لذات التعريف التي تكلفون أنفسكم باثباتها في كتب الأخلاق ، فما سبب هذه الآثار المدهشة للعقول المضللة للبدارك ؟ إذا كان الانسان كما تقولون خالق مستقلاً وأنه من طبيعة علوية ، وأنه مستعد لأن يسمو بروحه إلى أرق منصة للحياة الملكية ، فلماذا هبطتم وعلا عليكم أولئك الذين يزعمون ان الانسان من سلالة القرود وان بينه وبين الحيوانات أواصر من القربى ، وشائج من الرحم ؟ إذا كانت الفضيلة كما تقولون لا تثبت للانسان بغير دين ولا تلتصق بضميره بأى عامل غيره ، فلماذا حرمتكم من أصغر أنواعها ، وسبقكم فى باحاتها أولئك الذين يقولون إن الفضيلة صفة من صفات الحياة الانسانية والرزيلة كذلك ، تنشأ الأولى عند ما تكون شئون تلك الحياة جارية على سمت طبيعى ملائمة لسنن الكون ، وتبرز الثانية فى ضد تلك الحالة ؟

أماما تزعمونه من أن لا قيام للأمم بغير الدين ، ولا نظام لهم سوى

حبله المتين ، فمالا تحتاج معكم فيه إلى كبير جدال ، ولا كثير قيل وقال ، فدوّنكم الأمم الغربية الكبرى قد بنت عظمته بملاشاته ، وأقامت وحدتها بمنايذة أشياعه ، وتشيت شمل أتباعه ، ومع ذلك فلها كل يوم في سجل المعالي أثر جديد ، وفي حدائق الفخار والمجد صرح مشيد ؛ فان كان الأمر كما تزعمون فما هذا الأثر المنعكس ، وما تفسير هذا الأمر الملتبس ؟ أليست كل هذا البراهين المحسوسة تدل على أنكم متمسكون بأقوال لا يقوم عليها من عالم الشهود شاهد ، ولا ينهض لها من واقع الحوادث مدافع ! لا جرم أنكم تتأخرون وتتقدم ، وتخضعون وتتحكم ، ولا غرو إن علونا وسفلتم ، وعززنا وذللتم ، كما لا عجب أن استخدمنا نواميس الكون وأسرتكم ، واستدررنا خيرات الطبيعة وحرمتكم .

كل هذه الشبه المتعاصية قد نشأت في وسط هذا العلم الأوربي ، ونبع سمها من بين ذرات دسم هذه المدنية العجيبة . فالتأت أكثر العقول بأقذارها ، وتسممت بسمومها ، فدارت على محاورها ، وجرت على مخالجها ، فتأدت إلى حال سندرسه هنا إن شاء الله درساً مدققاً . هذه السموم بعينها سرت إلى أكثر أفراد شيتتنا الإسلامية ، التي نهلت من دن العلوم الأجنبية ، نخلعتها عن مجموعها وذهبت بها مذهباً لا يجعلها مع هؤلاء ولا هؤلاء . وكفى أمة عجزاً أن لا يكون لشيتتها وجهة

حلت هذه الشكوك والشبه من قادة النشأة وزعماء التقدم في

البلاد الأجنبية محلاً علياً ، جعلتهم يذبذبون معتقداتهم ظهرياً ، ويجعلونها نسياً منسياً ، وأمرأ فرياً ، ولكن قام مقامها مؤقتاً لديهم غيرة قومية ، وحمية جنسية أولغوية ، لمت شعثهم ، وضمت أجزاءهم ، ولا امت بين أميالهم حيناً ظنوا فيه إمكان قيامهم بدون الدين ؛ بل زعموا أن مصدر رقيهم ، ومنبع نظامهم والثامهم ومنشأ ألفتهم ووثامهم ، هدم تعاليمه وتذريتها في الهواء . ثم لما استقاموا على هذه المفازة الخطرة حيناً من الزمان ورآى قادتهم ورؤساء معارفهم أن هذه خطة عوجاء ، وسراب ليس وراءه ماء ، وأنهم بالادمان على متابعة خطتهم هذه الهلاك الملائشى والبلاء والمستأصل والحاجة الكبرى التى تهدم عروش مدنياتهم ، وتطفىء نور حضارتهم ، وساعد هذا الأثر عندهم ما أحسسته نفوسهم من الفراغ الموحش لفقد العقيدة بمستقبل أرواحهم ، ومصير حياتهم ، حنت فطرهم إلى الدين الصحيح حنين البائس ينتظر فرجة ، ويتنسم من روح الخلاص نسمة ، ولكن أين الدين ؟

كانت الفلسفة الحسية فلسفة الفيلسوف (اجوست كونت) واتباعه القائلين بأن كل معقول لا يؤيده شاهد من الحس جاز أن يكون ضلالاً آخذة من الأفكار مكانة لا يمكن قلعها منها ، ولما كانت أسس الدين من عقيدة وجود الروح وخلودها فى دار غير هذه الدار مما لا يمكن الاستدلال عليه بمحسوس جازت أن تكون ضلالاً لا حقيقة له فى الواقع ، وهى على حسب أسلوب هذا المذهب الكثير الأشياء من قبيل مالا يمكن إثباته ، ومالا بدمن عدم الخوض فيه .

وما معنى دين بدون روح وخلود ونعيم وشقاء في دار بعد هذه الدار ؟
 اذن كيف يمكن الاعتقاد بدين في عصر هذه فلسفة بنيه وتلك مبادئها ؟
 لكن الله أكرم من أن يخيب سائلا ، وارحم من أن يطرد عن بابه
 طارقا . ارسل عليهم من جهة فلسفتهم هذه آيات تأخذ بالأغناق
 خضوعا ، وبالأبصار والبصائر دهشة وخشوعا ، فنشأت أبحاث سموها
 (ابنوتزم وما نيتيزم) التنويم المغناطيسي و (اسبرتزم) استحضار
 الارواح وغير ذلك استدل منها عليهم على أن الإنسان روحا
 فأنشؤا مئات من المجلات والمجامع . وعقدوا لها المؤتمرات والمحافل .
 وألفوا فيها الكتب والرسائل . وبلغ عددهم من العلماء الاعلام ،
 وقادة المعارف العظام . والمحامين الأماثل . والكتاب الفطاحل . ما
 لا يقل عن عشرين مليونا وكل يوم يزيدون على هذا فهم لم يقعوا
 حتى نهضوا . ولم يضلوا حتى كادوا يهتدون ، ولكن شبيبتنا التي شربت
 من حوض علمهم . وتشبحت في أذهانها صور معلوماتهم ، لم يشاؤوا
 ان يوسعوا دائرة معارفهم وكأنهم لم يعلموا أن ما يدرس في المدارس
 من العلوم الطبيعية والرياضة ليس الا قطرة من بحر لا تنقع صدى ،
 ولا تروى غلة ؛ بل كأنهم يعتقدون أن العلم واقف حيث هو عن عهد
 (اقمرازير) و (تورسلي) و (ماريوط) و (قولتا) وان باب الرحمة
 الالهية اغلق في وجه بني آدم والعياذ بالله ، فلا مرمى بعد مرماهم
 ولا مذهب بعد مذهبهم ! ثم نسوا ما تعلموه أيضا ولم تحفظ ذاكرتهم
 منه الا شكلا مشوها ليس له أصل يعتمد عليه ولا ركن يرتكن

اليه. فهم على مذهب (اجوست كونت) و (داروين) بدون أن يكلفوا أنفسهم معرفة ماهية مذهبهما ولا أصول نظريتهما، وكأنهم كفاهم أن يكونوا (اجوستيين) و (داروينيين) أن يروا شيئاً من فلسفتها في بعض الكتب ليس آتياً على أسلوب صحيح، ولا سلك فيه كاتبه مسلك التحليل والاستقراء. ثم أنهم على فرض تعمقهم في مبادئ فلسفة هذا العصر وتغلغلهم في مناحيها تدقيقاً وتمحيصاً، لم يكلفوا أنفسهم النظر في ماهية الاسلام ليروا إن كانت مبانيه مما يهدمها مثل هذه النظريات أو بالعكس تقويها وتسندها.

نحن لسنا من أعداء المعارف الحقّة، ولا من أضداد فرع من فروع العلوم الأجنبية الصحيحة، لان الاسلام دين غايته العليا الحقيقة، وغرضه الاسمي تخليص الانسانية مما ران على فطرتها من خبت الأوهام، وقدر المعتقدات الباطلة، فغايتها وله المثل الأعلى كغاية مذاهب (اجوست كونت) و (باكون) وغيرها في تنقية المدارك من أدران الباطل، وأسلوبه أدق من أسلوبهما واجمع للشرائط الموصلة للكمال الانساني من كل وجوهه كما سيتضح لك ذلك عند إيراد تلك المذاهب ومقارنتها بالاسلام إن شاء الله

سيشمل الجزء الأول من مؤلفنا هذا عدا عما سبق على كلام مشبع على حياة الانسان وتطوراته وأسباب شقائه ومناشئ بلائه وماهية سعادته وطريق الوصول اليها.

خلق الحيوان على حال لا يستطيع عنها محيصاً، ولا يرتقى فوقها

(م - ٢ - أول)

درجة ، وحصرت قواه العقلية والفكرية في دوائر لا يستطيع تعديها من تلقاء نفسه ولا بواسطة غيره ؛ ولكنه وهب في مقابل هذا سوقاً طبعياً يهديه إلى مصالح وجوده جملة وتفصيلاً ؛ حتى أنه ليأتى في تربية صغاره والعناية بها أموراً يعجز أكثر أفراد النوع الانساني عن معرفتها وإدراك أسرارها . فبينما ترى مثلاً أن أكثر الأمهات والآباء من نوعنا الآدمي يقتلون أفلاداً أكبادهم باتخامهم بالأغذية الدسمة قبل وصولهم إلى السن المناسب لتعاطيها، ترى الهرة بجانبهم لا تعطى صغارها شيئاً من المأكولات الدهنية إلا لما يبلغون سناً معلوماً قتراها قائمة بتربيتهم على سنة قديمة صالحة حتى يشبوا صحاح الأجسام سليمة البنية مستعدين لمكافحة العوارض من كل نوع . لا تجد فيهم عمياً ولا عمشاً ولا مهزولين ولا ولا مما يكثر في صغار عالمنا الانساني وكباره ، وما ذلك إلا لأن الخالق جل شأنه فطرهم على قوانين حكيمة لا يتعدونها فهم يقضون حياتهم في سعادة مناسبة لهم تمام المناسبة . أما الانسان المفطور على غير هذه الفطرة قتراه جارياً على غير هذه السنة : تتناوله الجهالة من جميع جهاته ، من يوم ميلاده إلى يوم وفاته ، فتقاسمه الأمراض والأوصاب ، وتتنازعه الأعراض والمعاطب ، حتى أن كثيراً من أفرادهم يموت على أتعس حالة بعد أن يكون قد عاش حياة كلها نكد وكدر ، ومضى عمراً كان عبثاً ثقيلاً على البشر . لم هذا ؟ هل خلق الانسان أحمط من الحيوان ؟ هل متع الحيوان لجهاده الحيوى في العالم بأسلحة أمضى وانسب لنوال غايته من أسلحة الانسان ؟ هل

كتب على الانسان الشقاء والبلاء وقضى عليه أن يمضى أيامه بين مزعجات الكون ومبيداته يقذفه تيار من المصائب ، ويتناوله آخر من النوائب ، وهو بينهما لا يكاد يستفيق حتى يغشى عليه ، ولا يتخلص حتى يوثق من رجله ويديه ! فهل سألنا أنفسنا يوماً قائلين ماهو الانسان ، وماهى الحياة ، وماهى المصائب ، وما علاقتها بالانسان ، وما حكمتها ولم صبت عليه صبادون غيره من الكائنات الارضية وكيف التخلص منها إن كان يمكن منها الخلاص ، وهل الخلاص معقود بما هداى العلوم أو مرتبط بعلائق الدين ، ماهو الدين وماهى الدنيا ، كيف يتحدان وكيف يتنافيان وكيف هما ضروران لحياة الانسان ، ماهى الفضيلة وماهى الرذيلة وماهو كنه ارتباطهما بالانسان ، هل الانسان مقصور على هذه الحياة فقط أم له عالم آخر بعد هذا الشكل المحسوس ، ماهو ذلك العالم وماهى نسبة الانسان اليه وعلاقته به ؟

هذه كلها أسئلة يرى كل إنسان نفسه شيقة إلى حلها ، مغرمة برفع الحجب عن حقيقتها ، وشوقه وغرامه هذان دليلان حسيان على أنه مفطور على البحث عليها ومتمتع من القوة بما يمكنه من الوصول الى معرفتها ؛ لأنه لو لم يكن مستعداً ومتأهلاً لها لما خلق الله تعالى فيه الميل اليها . فماله اذن مقصر عنها وواقف على ساحلها خائفاً من الخوض فيها ؟ ماله يئن ويتألم ، ويدوب طول حياته بين نيران المعاطب والجوائح ، ويموت فى اليوم ألف موة مما يحتف من شؤون الحياة ومصاعبها ، ولا تتحرك فيه عاطفة همة تسوقه الى كشف المستور عنه

من الحقائق التي ترتبط بها سعادته تمام الارتباط ؟ قلنا الحيوان سعيد لكونه فطر على حال خاص وله وظيفة محدودة ولقواه الادراكية دوائر محصورة وتخوم معلومة ، وسعادته كلها مقصورة على أكل وشرب وسفاد وتناسل فما للانسان وهو الانسان يريد أن تكون سعادته حيوانية واحط ؟ فانه يريد أن (يسرف) في الأكل ولا يتخم ، وفي الشرب ولا يمتلىء ، وفي السفاد ولا يضعف ، وإن يعتدى ولا يعاقب ، ويجهل ولا يضل ، مع أنه لم يخلق حيوانا ولكن إنسانا ، له ذهن يجيله في ضمائر الكون ، وقوى يتسلط بها على النواميس فيأسرها ومواهبه تستخدم الجن والملائكة ، وله مستقبل لا يمكن لعقله مهما اتسع نطاقه تصوره ولا تحديده ؟ .

أليست هذه هي السعادة الموهومة التي تتطلبها صباح مساء وهي التي نستخدم لها قوانا ومداركنا ، ونستهلك في تمنياتنا عواطفنا واحساساتنا ، وتنقشها في أذهان أبنائنا ونبنى عليها أشعارنا ودعواتنا وصلواتنا ؟ أليست هذه هي السعادة الحيوانية بعينها المبنية على الالتذاذ بالطاعم ، والاكتثار من المشارب ، والتفاخر بالملابس ، وعدم الشعور بالحياة ، بتمضية الوقت بين الدنان والحدايق ، والغزلان والكواعب ؟ هذه هي السعادة التي يطلبها أكثر النوع الانساني وليست هي سعادته المكتوبة له ، ولا المخلوقة مطابقة لاستعداداته ومواهبه ، فمما طلبها فلا يجدها لأنها لا تليق لسمو ملكاته ولا تتناسب مع علو عنصره . لذلك يموت أكثر الناس وفي قلوبهم من الحياة حسرة ، وفي أحشاءهم من

لواعجها نار . ولهذا يسب أكثرهم حظه وبخته ، ويمقت نفسه وجسمه ، ويدعى أن السعادة اسم لا مسمى له ، ولفظ لا يعنى شيئاً ، وليس ذلك فيما نعلم الا جوراً بينا في الحكم ، وشططا ظاهراً في العقل ، فان الخالق الحكيم قرن بكل قابلية ما يناسبها من الكمال والمدة ، فكيف يعقل أو يتصور أنه يخاق الانسان وهو أكمل الموجودات وأجملها مجرداً من غاية في الحياة يسكن اليها ؛ ويستتب أمره عليها ؟ اذن لا بد من ان يكون للإنسان سعادة عالية ؛ قطوفها دانية ؛ وحدائقها مزهرة زاهية ؛ وانه منح كل الأسباب التي تؤهلها لها ، ومتع بكل الأساحة التي تسهل له الجهاد لنوالها ، من أقرب الطرق وأمثلها ، فاذا لم يحصلها بعد ذاك فلا يكون ذلك دليلاً على عدمها ، ولكن حجة ناطقه على أنه سائر على غير صراطها وناهج غير سبيلها ، وتائه عن مطلوبه ، وموجه فكره لما ليس له أي أنه يريد أن تكون سعادته على ما وصفناه سابقاً على نسق حيواني ولم يخلق استعداداً مناسباً لذلك . فما هي إذن السعادة الانسانية ، وما هي شرائطها وكيف يسلك الانسان منهاجها ليصل اليها ؟ هذا مما يحتاج الى شرح طويل ، وتفسير كبير ، وتقديم مقدمات ، واستنتاج نتائج ليست من الفلسفة العويصة ، ولا من العبارات لضخمة ذات الألفاظ التي يذهب فيها الفكر مذهب الحيرة .

اذا انتهى معنا القارئ الى هنا تحقق أن الجزء الأول من مؤلفنا هذا لن يدع ان شاء الله تعالى شاردة من شوارد أحوال الانسان الاقيدها ، ولا مدركا من مدركات الفلاسفة والعلماء فيه الا عقلها ، ولا رأيا من

آراء أكثر الفرق المعروفة في كيفية نشوء الانسان وحياته وخلوده أو فناءه
 إلا أثبتنا ، ولا شبهة ولا شبهة مما يقيمه غلاة المذاهب المادية
 أمام حماة الفضائل ، وما يتدافع به الفريقان من البراهين والحجج
 إلا سجلها . ثم يتبع كل فصل من هذه الفصول تحليلات فلسفية ،
 واستقراآت عليية ، ومحاكمات جدلية ، يتضح منها للقارىء صالح الآراء
 من فاسدها ، وصحيحها من سقيمها ، ومشتبهاتها من صريحها ، وتنجلي له
 النفس الانسانية جوهره نقية صافية من كل درن ، مشخصة في أكمل
 صورها ، وأجلى مظاهرها ، في النفس المحمدية العلية ، التي هي النموذج
 الكامل لكل نفس بشرية تريد أن تتكامل وتهذب لتستقيم على جادة
 الحق الأذلى الأبدى وتصل بحركتها الذاتية الى ما أعد لها من مقاوم الرفع
 ومكانات الكمال الأقدس . هنالك يعرف الانسان معنى قوله تعالى
 « انا هديناه السبيل » وقوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا
 وان الله لمع المحسنين » وقوله تعالى « ان هذا القرآن يهدي للتي هي
 أقوم » وقوله تعالى « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » وقوله تعالى
 « ولتعلن نبأه بعد حين » وسيلي هذا الجزء جزء ثان هو تابع للأول
 في الحقيقة ولكننا فصلناه لأهمية موضوعه وسعة مجال أبحاثه وهو في
 مبحث المدنية .

المدنية لفظ شاع وذاع ، وملاً كما يقولون الأسماع ، وصالت
 به الأقلام في ميادين التعبير ، وجالت به القرائح في مجالات التحرير ،
 وسرى الى العامة ودخل في مصطلحاتهم فطال معناه مرة وقصر ، وقل

محصوله آونة وكثر ، وعسر فهمه طوراً ويسر ، حتى أصبح الناس والمدينة أقل الالفاظ مدلولاً ، وايسر الكلمات مفهوماً ، فما هي في عرف الكثيرين الا زخارف الصناعة الأوربية في الالبسة الجسمية ، والفرش البيتية ، والأواني الفضية والذهبية ، وما تقتضيه هذه المصنوعات من التهيؤ لاستعمالها ، والتظاهر بها من تعلم لغة القوم وتقليدهم في عاداتهم وطبائعهم ، وان شئت فقل وما تستدعيه من خفر ذمة الحشمة ، وخلع ازر التقية والجري وراء ما تهواه النفس تمتعاً بقانون الحرية الشخصية . هذا كل أو جل ما يفهمه الكثيرون من معنى المدينة . أما المدينة بمعناها الحقيقي من أنها روح سامية تهبط على النفوس المتهية لها فتزعجها الى الحركة والتقدم وتثقل بها من اوج الى اوج حتى تجلسها على عرش الكمال الانساني صورياً ومعنويًا فما لم نعتد في بلادنا هذه على الخوض فيه كائناتنا قنعنا من كل شيء بقشره الظاهري وغلافه الخارجى ، اللهم الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . بناء على هذا رأينا ان الانسانية تطالبنا على عجزنا بتلافي هذا النقص بدرس هذا الموضوع الهائل درساً مناسباً لأهميته مبتدئين بإيراد التعاريف الكثيرة التي حددوا بها المدينة ، مارين بالقارىء على معظم الاختلافات بين العلماء في أمرها ، واقفين به على كل مرمى من مرامى مداركهم ، داليه على جهات قوة كل منهم وضعفه ثم مشهديه بعد ذلك محاكمة دقيقة بين مذاهبيهم فيها ليكتفه بنفسه كنه الحقيقة النقية .

هذا الدرس التحليلي الشاق يستلزم بالطبع الاستمداد من جملة

علوم مهمة مثل علوم العمران والنفس وأحوال الانسان وطبائعه والتشريع وأساليه والسياسة وقوانينها والاقتصاد ودستوره ؛ هذا عدا عما يجيء عرضاً من مباحث التشريح أو الظواهر الجوية وطبائع البلدان والأمم المختلفة وما يستدعيه الحال من المرور على كل مدينة قامت في العالم القديم وما كان فيها من علل وجراثيم أمراض وما كان من أمر هذه العلل من السريان في جسم الأمة وما كان من شأن تلك الجراثيم من الكمون في جسمها ثم ظهورها وتفشيها بالفواعل الاجتماعية المختلفة ؛ ويمر في أثناء ذلك طبعاً الباعث الحقيقي لكل من تلك المدينيات والدور الذي لعبته في الوجود والدائرة المحدودة التي حكم عليها بعدم تخطيها بسبب قصر نظر واضعها ، ومقدار ما جاءت به كل منها من النفع للعالم ، وما جنته من جناية عليه وكيفية تسلسل تلك المنافع والجنايات بحكم الوراثة الى يومنا هذا . كل هذه الابحاث ستكون بطريقة سهلة يفهما الخاص والعام بعيدة عن مصطلحات الفلسفة والتعبيرات العويصة .

هذا النوع من البحث التحليلي وان يكن شاقاً متعباً الا ان فائدته كبيرة وعائده لا تقدر فان الانسان لا يستطيع أن يتحلى بما يحمله ، ولا أن يتسم بما لا يعرف حدوده اليك متلاً لذلك بسيطاً ليس لدى الانسان أحب من المال بعد نفسه وولده ، وربما فاقهما عند بعض افراده ، لانه يعينه على كل رغبة سواء كانت أدبية أو مادية ؛ وليست أمم الشرق بأقل طلباً له وشرها فيه من أمم الغرب ؛ ولـسـكنـك مع ذلك

تراهم أقل من سواهم فيه قسطا ، وأهون من غيرهم منه نصيبا ! لماذا ؟ لأنهم يحبونه ولا يعرفون أساليب جلبه ، ويهوونه ولا يدرون طريق استدراجه . هذه حادثة اجتماعية محسوسة . كذلك الحال بالنسبة للمدنية فانهم يحبونها ويتمنونها وتنسبط نفوسهم الى رؤيا مجاليها ومعاهدها ولا يمكن أن يقال انهم لا يودون طلبها كما يطلبها غيرهم ، ولا أنهم مرتاحون من حالهم المخجل أمام مزاحمهم من أمم الغرب ، اذن ما المانع لهم عن الوصول اليها ، وما الآخذ بخناقهم دونها ؟ اليس ذلك المانع القاهر هو جهلهم سبيلها ، وعدم المامهم بحدودها وأصولها .

الإنسان مفطور على التكمل والترقى فهو ان تدنى وهبط فلا يكون ذلك لمحبه للهبوط ، فهو لا يهبط الا رغم أنفه ، ويكاد فؤاده في كل دركة من دركات هويه يتمزق حسرة ، وتسيل مهبته اسى وأسفا ، وأنه لورآى وهو في تلك الحالة شبعا يميل لجذبه بيده لا يأنف أن يضحى نفسه له ، تحمسابه وفرحا بمعوثته . ولكنه قد يعصى ناصحه الأمين ، ويستغش دليله الخريت ، ويهجو طبيبه وربما ضربه ؛ ولا يقال ان هذا عكس مانقول ، لأن الانسان في تلك الحالة المتناقضة يكون غير فاهم مايراد به ، ولا عارف بنتيجة أمره فان رحمته وتركته حتى يفهم وصبرت عليه أن يؤوب الى رشده أذاك تأبيا ، وعانقك متحبا متقربا ، ورجاك أن تغفر له ماقد سلف .

هذه حالة الانسان في كل مايجمله فان قال قائل بأن الشرقيين ميتون ، أو أنهم لهذا الشكل البديع من المدنية لا يصلحون ، أو أن دورهم انقضى

ونجمهم أقل ، فكل ذلك كلام يصح أن يكون شعرا لا علما ، وخيالا لا حقيقة ، ولا يجوز لمسلم دستور القرآن أن يصدق فانه يحرم عليه ذلك ؛ بل ربما أداه اعتقاده ذلك الى الكفر ، فانه اليأس بعينه ، واليأس والاسلام لا يجتمعان في قلب رجل . كيف ييأس مسلم يعرف أن واضع مجده هذه الأمة بأسرها وباني أسس عظمتها التي أدهشت بها العالم كله ولم تزل تدهشه حتى اليوم ، رسول قام بلا جند ولا مال ، ولا أعوان ولا أنصار ، في وسط أمة لم تعرف للبدنية اسما ولا معنى ولم تستأهل بسبب قحولة أرضها وحالة حياتها الى شيء من الرقي الاجتماعى مطلقا ، والدليل على ذلك انها لبثت فيما كانت فيه من يوم وجودها ليوم البعثة بدون اقل تغير في شؤونها ، ولا ترق في أمورها ، فلم يلبث فيها زمنا قصيرا حتى نهضت نهضة لورام الشاعر لها من عالم الخيال صورة تحاكيها ، لضاق به على سعة ارجائه ضيقا يرى معه أن الحقيقة لو تجلت في كمالها لا غتته عن تكلف الا كاذيب ولا اغتنت هي بذاتها عن كل تفخيم وتجسيم .

فالمسلم اذا تدبر في هذه الحادثة التاريخية وحدها يصبح وفؤاده مملوء أملا ورجاء بأن حياته مرتبطة بذلك الاكسير الأعظم ، والدواء المكرم ، الذى حمله الى العالم ذلك الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ، وانه لو أدرك سره وتركيبه وتعاطاه كما تعاطاه من قبله آباؤه الأولون لم تضره المزاحمات التى تحيط به من كل جانب ، ولم تعجزه المقاومات التى تحتف به من كل وجهة كما لم تضرهم مدنية الرومان والأعجام ، ولم تعجزهم بمؤثراتها عن مزاحمتهم في مضمار العلاء وميادين الرقى والتقدم ،

بل سبقوهم وسيطروا عليهم بعد ان جاروهم وبزوهم . فما هي تلك الروح العالية التي هبطت على هذه الأمة بواسطة نبيها وما هو ذلك السر العظيم الذي حمله اليهم فقرطوا في حفظه ؟ ذلك مايجب ان يسأل عنه كل مسلم نفسه ؛ وهو ما سنجعله موضوع بحثنا في هذا المؤلف الضافي الذبول إن شاء الله .

اما الجزء الثالث من مؤلفنا هذا فقد أعدناه للبحث فيما وراء المادة وقصرناه على ذلك الا مايمس الموضوع نفسه من المعارف المرتبطة به التي لامندوحة للسير فيه من الاتيان عليها والالمام بها .

الانسان لما كان في دور الفطرة كان يعتقد أن له روحاً لها حياة أبدية في عالم غير هذا العالم ، وعلى حال غير هذه الحال لا يقرب به في هذه العقيدة شك ولا يخالج صدره ريب ، ولكنه لما خرج من هذا الدور الطفلى إلى دور أرقى منه ، ودارت فيه القوة العقلية على محور البحث والتنقيب ، وتيقظت فيه عوامل اكتناه المساتير والمجاهيل ، وأراد أن لا يصدق العقيدة الملتصقة بضميره الا بدليل ، جعل أهم مباحثه البحث عن ذاته للوصول إلى حقيقتها ، لاسيما وهي أحب شيء اليه ، وأعز عزيز عليه ، فظل يسأل نفسه : ما هي الروح في ذاتها ؛ هل لها استقلال وتميز عن الجسد وقوام بدونه ؛ هل لها خلود في دار بعد هذه الدار ؛ ان كان نعم فبجسم أم بغير جسم ؛ ان كان بجسم فهل هو جسمها القديم أم بجسم آخر ينشأ لها جديداً ؛ ان كان بجسمها القديم ، فكيف يتأتى ذلك بعد ما تضيع ذراته في أحشاء الأرض ، وربما

دخلت في تركيب الأشجار والحيوانات بل وربما في انسان آخر ، وإن كان ينشأ لها جسم جديد فكيف يكون ذلك بدون خلق تدريجي وأدوار متتالية كما هي العادة المحسوسة ؟ وإن كان ذلك الخلود بغير جسم فكيف يحصل ذلك وعلى أى صفة يكون وكيف يتأتى السمع والأبصار والذوق واللس بدون الحواس الموضوعة لها ؟

خلنا من كل ذلك. الا يحتمل أن تكون الروح عبارة عن مجموع وظائف الجسم ولا استقلال لها في نفسها ؟ ألا ترى الانسان لو حرم الغذاء أو الهواء أو اتزف دمه مات وبطل حراكه كأن ما يسمى روحا متعلق بذلك كله ؟ فما معنى وجود روح مستقلة في الجسم بعد هذه المشاهدات ؟ إنا نرى الرجل مثلا اذا قتر على نفسه في الغذاء ، أو لو سكن في محل فاسد الهواء ، أو ولو توالى عليه الأدوية . قل عقله وهبطت حركته وقرب من الزوال والتلاشي ، ألا يدل هذا الارتباط بين وظائف الجسم والعقل أن ما يسمى روحا هو الخاصية العمومية الناتجة من كل هذه الوظائف والحاجات الجسمية ؟ اذ لو كانت فيه روح مستقلة عن الجسد لدام عقله مؤديا وظيفته لآخر لحظة من حياته ولما وجد ذلك الارتباط التام بين مادة جسمه وقوى عقله . ثم دعنا من هذا أيضا ولنسأل : لماذا قلنا ان لنا روحا لها كيت وكيت من الصفات والامتيازات ، ولم نرض للحيوان ببعض شئ من ذلك ، بل حكمنا عليه حكما قاسيا وشبهناه بالآلات الصناعية المحضة مع أنه يشاهد فيه ادراك وفكر واختيار ؟ ألا يعد هذا من الجور في الحكم ؟ ان كنا

نحكم لأنفسنا بكل تلك الامتيازات بناء على ما لدينا من الادراك والفكر ، فلماذا لانحكم بشيء من ذلك لتلك الحيوانات أيضا وفيها ما هو أعقل وأحكم من كثير من متوحشى النوع الانسانى ،

كل هذه الشبه ترددت فى نفس الانسان من زمن مديد فكان يحاربها بما لديه من الأسلحة العلمية النظرية ، والقضايا الكلامية المنطقية ، ولكننا اليوم فى عصر تشبعت الأفكار فيه بأن العقيدة اذا لم يسند لها من جهة الحس دليل ملموس ، جاز أن تكون خرافة كما ثبت ويثبت مثله فى عقائد المتوحشين ، فما المخلص اليوم من هذه الشبه الهائلة والشكوك المتعاصية ،

اضطربت هذه المسائل فى عقول علماء الغرب اضطرابا شديدا استدعاه ، غلواء أبناء ملتهم فى التشدد فى العقيدة ، والجمود على خرافات الأقدمين ، وتهالكهم على تقليد أسلافهم ، ولونابذ العلم وجافى البديهة العلمية ، فحملهم هذا التفريط الى افراط أشد منه ، فنهضوا نهضة المنتقم ولم يدعوا صقعا من أصقاع الأرض الا وذرخوا فيه من هذه الشبه ما لا يدع العقيدة محلا فى النفس ، وتذرع حزبهم لذلك بكل وسيله حتى زعموا أن العلم عدو العقيدة وعدو كل ما يثمره الفكر المجرد ، وانه سينتهى أمر هذا التنازع بين العلم والعقائد الى تلاشى هذه الأخيرة مرة واحدة ، وطفقوا يفسرون كل مجاهيل الوجود بالنواميس الطبيعية المعروفة ، ويحلون جل المشكلات الكونية بالقوانين المكتشفة ، فوقعوا فى تفريط مخجل كانت غايته تشويه حياة الانسان وسلبه أغلا

مسلياته ، والهبوط به الى عالم الحيوانية السفلى ، وآل الأمر الى خلل
فى تركيب معناه السامى ، وفساد فى جوهره المكرم ، مما سلم به ان شاء
الله فى موضعه الماماً لا يدع للاستزادة مساعاً .

هذه الطائفة انكرت الروح والخلود والبعث والحشر والعقاب
والثواب وزعمت أن ذلك كله من خيالات الافكار القديمة وبقية
من بقايا السالفين ، سيلاشيها العلم والعرفان ، ويجعلها التمدن فى زوايا
النسيان ، فانهم لكذلك يمجون فى قفص من الحيرة ، ويضطربون فى
غيب من الوحشة ، واذا بآية عظمى ، وقارعة كبرى ، ظلت الأعناق لها
خاضعة والرموس اليها منكسة والألباب أمامها حائرة ، والعقول بازاءها
باهتة واذا هم بالتنويم المغناطيسى والاستهواء ثم تلاه فن استحضر
الأرواح وتجسدها فهبوا ينادون تلك الخوارق جرياً على سنتهم
السابقة مع كل ما يشم فيه عالم ما وراء المادة . ولكن هيهات ، لم تزل
تلك الخوارق تخترق كل ماسد لوه أمامها من الحجب ، وتمزق ما وضعوه
حيالها من الأغشية ، حتى دخلت دور العلوم ، وغرف العلماء ، وقصور
الملوك ، ومكاتب السياسيين ، وثكنات رجال الحرب ، ولم تدع مجالاً
من مجالات الحياة الا وجالت فيه جولة استلفتت لها الانظار والبصائر ،
فلم يمر ربح من الزمن الا وعشرون مليوناً من العلماء والرؤساء يعتقدون
بها ويروجونها بواسطة مائتى مجلة تطبع وتنشر فى العالم اجمع بجميع
اللغات الحية . فماذا كان من نتيجة هذه القارعة العظمى ؟ كانت النتيجة
انهزام الماديين هزيمة كبرى لا يقوم لهم بعدها علم ، ولا يرفع لهم صوت

ولكن اين الشرقيون من هذه الانقلابات المدهشة ؟ اين شبانهم الذين تعلموا اللغات الاوربية وتشبعوا بفلسفتها الالحادية فينظروا كم في ضمائر الغيوب من آية وكم في رحمة الله من سعة ؟

يقول قائلهم اذا انتهى الى هذا الموضع : هذا تجسيم لوهم وتجسيد لخيال قام ببعض العقول الساذجة في أوروبا فطننوا به كما هي عادتهم في كل أمر ، فقام صاحبنا هذا يردد صدامهم ، ويؤمن لدعاهم ، بدون تحكيم العقل ، ولا استقضاء العلم . هذا مما يمكن أن يقوله بعضهم ممن لم يطالعوا في هذا الأمر سطرا ، ولم يجيلوا فيه فكرا ، مع أن الحقيقة فوق ماصورناه ، وأهمية تلك المسائل اليوم بين العلماء أكبر مما ذكرناه ، وسيرى مطالع مؤلفنا هذا مما سنرويهِ عنهم ، ونسندهُ الى علمائهم وفلاسفتهم خاصة من الذين كانوا بالأمس ماديين لا يصدقون بشيء ، ما يجعله يقول كما قال الاستاذ الأميركي الشهير (هيزلوب) « العالم على وشك حصول انقلابات كبيرة » ويردد ما فاه به العلامة (لودج) الانجليزى : « إن الحائط الموجود بين العالمين المادى والروحانى أخذ يرق شيئا فشيئا وسينتهى أمره بالزوال مرة واحدة » ويرجع مقاله الاستاذ الألماني (كارل دوبرل) « العلوم الطبيعية تجارت على التكذيب بعقيدة الآخرة فسيعاقبها الله بأن يجعلها تقيم على وجودها البرهان القاطع »

أما كتابنا الرابع فسيكون موضوعه حياة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم .

لا نعلم بحثاً أدق موضوعاً ، وأدعى إلى العناية والاهتمام بالنسبة للعالم الاسلامي بل الانساني من هذا الموضوع السامي . اذا كنا نعتقد أنه لا سبيل الى صلاح حال المسلمين ولا طريق الى استردادهم لمجدهم القديم ، وسؤددهم الأثيل ، الا بالرجوع الى دينهم الفطري خالياً من درن البدع التي ألصقت به ، والقائم بأنفسهم بين يديه ، فلا يتأتى ذلك البتة الا بالمسامهم بماهيته واسرارها ، ووقوفهم على حقيقته وأنوارها ؛ ولا يمكن الوصول الى تلك الحقيقة النقية ، وذلك النور الناصع الا بدرس ذلك القلب السامي الذي أشرق فيه هذا الدين باديء بدء ثم انعكس منه على غيره . بهذه الطريقة نستطيع أن نعرف ماهية الدين في ذاته وندرك كنه تأثيره على المعنى الانساني النقي من ران الوسوس ، فنكون بهذه الصفة قد درسنا الشيء في منبعه ، واستشرقنا البدر من مطلعته .

نعم إن درس هذا القواد الكبير أمر عسير ، بل إدراكه على حقيقته مستحيل على من لم يبلغ مبلغه من السمو الروحاني ، ولم يضرب مثله بسهم من العلاء الملكوتي ، لأنه لا يعرف الفضل الا ذوو الفضل ، وهيات أن يحدد التصور درجة ذلك القلب العالي من عالم القدس ، أو أن يشرف على منزلته من حظائر الملأ الأعلا ؛ ولكن الخالق العليم إذ أراد أن يكون ذلك الرسول الكريم الواسطة العظمى بينه وبين عباده ، والناشر الأمين لكلمته العليا ونوره الفياض بين مخلوقاته ، أبدعه على صورة ينجذب اليها كل نوع من أنواع العواطف الشريفة ، ويتعرف اليها كل جنس من أجناس العقول الانسانية ، ليصح أن

يكون حجة لله على خليقته ، وسبباً لأفاضات الرحمة على عبده ، ولو كان على غير تلك الصفة لكان للناس عذر في عدم التصديق به لعلوه عن تناول عقولهم ، ولعدم وجود نسبة بينه وبين عواطفهم وأمياهم يتوصلون بها إلى ادراك وظيفته ، ولجواز أن يرسل الله اليهم رسلاً من الملائكة وهو مما تأباه الحكمة الإلهية ولم تجرب به سنته تعالى بين البشر الإنسان مهاسفل في حضيض النقص والخسة ، وانحط إلى دركات الغي والدناءة ، فلا يعدم خاصية التمييز بين القبيح والجميل ، ولا يفقد صفة الانجذاب إلى الكمال حيث يراه . والنفوس وإن كانت تتفاوت مراتبها في هذه الخاصية ، وتتفاضل احساساتها في تلك الصفة ؛ إلا أن الجمال والكمال في ذاتها قوتان جذابتان ؛ ولوتجلتا لنفس من النفوس قاومتا كل ما يعترضها من حجب الغفلة وإستار الحرمان ، وأثرتا على القواد الأنساني منها كانت صفته تأثيراً لا يمكن محوه منه بوجه من الوجوه . ألا ترى أن أصحاب الدعارة وإحلاس الخسة والدنايا من الناس لا يزالون يحترمون الفضلاء ويشعرون لهم في أنفسهم بأعزاز وإجلال مع ما بين الفريقين من التباين في المشارب ، والتخالف في النزعات والمذاهب ، ولو جردنا النفس الإنسانية من هذه الخاصية فماذا نبقى لها بعد ذلك .

السنة الحكيمة التي نشاهد ما في بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام أن الله جل وعز يصطف فيهم في أهمهم من أشرف معاصريهم نسباً ، وأعلامهم حسباً ، وأقواهم جسماً ، وأزكاهم عقلاً ، وأنداهم بالعرف كفاً ،
(م - ٣ - أول)

وأكرمهم خلقاً ، وأكثرهم علماً ، وأحكمهم سياسة ، وأرجحهم كياسة ؛
وأبسطهم بالمكارم يداً ؛ وأوسعهم بالحلم صدراً ، وأضوأهم بالبشر
وجهاً ، وأسمحهم بذلة العبودية نفساً وأتعبهم في مرضاة الله جسماً ،
رأفة بالناس ورحمة بضعفهم ، ليسهل الرضوخ لهم من الملك في سطوته ،
والشريف في علو عنصره وسمو محتده ، ومن الشجاع في قوته ورباطة
جاشه ، ومن الفيلسوف في نفوذ فكرته وسعة حكمته ، ومن السياسي
في دقة أساليبه في سلوكه بين رعيته ، ومن السخي في كثرة بذله وتكرمه ،
ومن الصالح في شدة تورعه ودقة تحرجه ، ومن العابد في كثرة تهجده
وحسن تعبده .

هذه سنة الله عز وجل في إرسال الرسل الى خلقه أخذاً للناس
الى طريقه بأشد ما يؤثر على عواطفهم ، وسوقاً لهم الى صراطه المستقيم
بأكبر ما يطاق من كبريائهم ، ويكسر من شرتهم ، ويدلنا الاستقراء
التاريخي ان الله عز وجل راعى في بعثة كل رسول أن يحليه من الصفات
بأرق ما اصطاح قومه عليه من مفاخرهم ، وأسباب سؤددهم ، حتى
توجد النسبة بينهم وبين نبيهم ؛ ثم يكون سموه في كل تلك المفاخر
والمحامد ، وزيادته عليها بما يكرمه به الله من اشراقات النبوة ، وسبحات
الوحي ، مدعاة الى الخشوع له ، والخضوع لما يجيء به من الأوامر
الالهية والحكم التشريعية . على هذه السنة الكريمة أرسل الله سيد
البشر محمداً صلى الله عليه وسلم في الحين الذي بلغ فيه الجوهر الانساني
نموه ، وتم فيه لعقله المكرم نضجه وكماله ، وتبينت فيه أشخاص الفضائل

والكجالات ؛ وتميزت فيه الحقائق من الخيالات ، وعلم النوع الانساني بوقع الحوادث المتوالية بأن له من الحياة غاية عالية ، ونتيجة شريفة سامية . قلنا أرسل الله في ذلك الحين رسوله المصطفى جامعاً لاشتات الفضائل والسجايا ، شاملاً لمتفرقات المواهب والمزايا ،

ان تخيلت الملوك في عروشها ، والقيصر في أبهتها ، رأيت أنه صلى الله عليه وسلم أعلاهم في السيادة كعباً ، وأعظفهم على رعيته قلباً ، وأشدهم على أعدائه صولة ، وأقواهم عليهم شوكة . وان تخيلت القواد وسط كتابها ، وغطاريف الحرب بين صفوفها ، رأيت أنه صلى الله عليه وسلم أشدهم لها مراساً ، وأقواهم في هيجائها بأساً ، واسرعهم في إدارة رحاها يداً ، وارحمهم في اصلاء لظاها اسلوباً . وان تخيلت الفرسان في ثبات جاشها ، والشجعان في جلد أفئدتها ، رأيت أنه صلى الله عليه وسلم أصبرهم في غمراتها ؛ وأجلدهم في هياجها ؛ وأطعنهم بالرمح في صفوفها واضربهم بالسيف في نحور فرسانها . وان تخيلت الفلاسفة في حكمتها ، والمتشرعين في دقة نظرها ؛ في ادواء الامم وعلاجها ؛ رأيت أنه صلى الله عليه وسلم احكم العالم قولاً وعملاً ؛ وأنفذ في علل الامم وطبها نظراً . وان تخيلت الشعراء في سعة خيالها ؛ وسبحها في بحار الابتكارات وغوصها ؛ رأيت أنه صلى الله عليه وسلم أبعد منهم في مجال وصف الحقائق مرمى ، وأكثر منهم لشوارد المعاني المتكررة اصابة . وان تخيلت الخطباء في منابرها ؛ وهي تخلب الاقئدة بسحرها ؛ وتأسر الالباب ببيانها ؛ رأيت أنه صلى الله عليه وسلم أحسنهم بضروب الكلام علماً ؛ وأكثرهم

لأفئدة سامعيه اسرا . وان تخيلت الزهاد في صوامعها ؛ والعباد في محاريبها ؛ رأيته صلى الله عليه وسلم في الزهد صاحب العلم الأرفع ؛ والمقام الأول ، وفي العبادة النموذج الاكمل ، والمثال الأجمل .

من أى جهة نظرت الى سيد العالمين صلى الله عليه وسلم رأيته فيها نسيج وحده ، ووحيد عالمه فاق كل فائق في صفته وبز كل سابق في خاصيته ، وفات كل ذى كمال في كماله مما يدللك بالحس انه النسخة الصحيحة الكاملة للابداع الالهى في هذا العالم والنموذج الكمال الذى وضعه الله للبشر نورا يعيشون اليه ، وعلماء يهتدون به اليه . سيكون موضوع هذا الجزء اذن درس حياة هذه الروح الكبرى درسا مناسبا لدرجتها وستكون العلوم العصرية الجديدة أقوى وسائلنا في تجلية هذه الحياة الكريمة في مظهرها الباهر ، ومجلاها الآسر . متعنا الله بنعمة اتباعه ، وحلاتنا من اشراقات روحه الكريمة بنعمة من تعطفاته . صل اللهم عليه صلاة أبدية سرمدية ، وعلى آله وصحبه واتباعه الى يوم الدين . آمين .

(محمد فريد وحدى)

الباب الاول

معرفة الانسان نفسه

الفصل الاول

تمهيد

يشهد الوجود بتفصيله وجملته ، وينطق التاريخ الطبيعى بلسان حملته ، بل ويقر الانسان على نفسه بنفسه ، بأن الانسان أبداع الكائنات الأرضية من كل ناحية .

أما من جهة تركيب جسمه ، فهو الصناعة المدهشة للفكر ، الباهرة للبدارك ، قد ركب جميع آلاته تركيباً متناسقاً ، ورتبت على بعضها ترتيباً متناسباً ، لا تجد فيها عوجاً ولا أمثاً ، ولا تصادف فيها خللاً ولا عيباً ، اللهم الا ما تلحقه به العوارض التى يجرها على نفسه أو تجرها عليه الطبيعة وفى ذلك حكمة ليس هنا موضعها .

تتحرك هذه الآلات كلها حركات منتظمة ، خاضعة لمحرك فرد . وناموس واحد ، فىؤدى كل عضو وظيفته الخاصة به ويبلغ منها غاية خاصة ، فتجتمع كل تلك الغايات المختلفة الى بعضها ، وتألف اثتلافاً متناسباً مضبوطاً وتؤدى الجسم الى صراط العدل المستقيم ، وتفيض على جميع اجزائه روح الراحة والصحة الى حين

عجيب أمر هذا الهيكل الانساني : حركات دائمة ، ومجهودات من اجزائه متواصلة ، لا تهدأ مطرف عين ، ولا تقف لحظة من زمان : قلب يرتجف ، ومعدة تعمل وعصارات تفرز وسوائل تتحلل وتركب وترشح وتتصعد ، وغازات تتكون وتصعد . وغدد تحتزن السوائل لحين الحاجة ، ودم دائب الجريان في اجزاء الجسد ، وخلايا بسيطة تتلاشى وتتكون وتتكاثر الى غير نهاية وكل هذا لا يهدأ لحظة ، ولا يسكن آونة من ليل أو نهار !

اليك من الجسم الانساني مثالا عجيبا وقس عليه غيره : للانسان عين ترسم الأشياء على شبكيته ، كيف ترسمها بهذا الضبط ؟ وكيف تصغرها بكل اجزائها الدقيقة ؟

يعلم كل من رأى التصوير الفوتوجرافي أن المصور يظل يقرب عدسة آله مرارا ويبعدها ، بعد ما يكون قد أعد لنفسه غرفة ذات أستار محكمة ونور كاف ، حتى يضبط البعد المناسب ثم يأمر من يريد أخذ صورته أمرا صارما بأن يلزم مكانه ويقف أمامه وقفة التمثال لأن أى حركة منه تؤثر على الصورة فتفسدها حتى انه ليغشى على بعض العصيين من تلك الوقفة المضجرة ؛ وبعد هذه العملية الثقيلة كلها قد يقف المصور أمام الشخص حانيا ظهره قائلا : عفوا ياسيدى ، أرجوك أن تقف مرة ثانية فقد أطاررت الريح الستارة التى كنت أقمتها لحجز الأشعة فدخل منها اكثر مما يلزم فجاءت الصورة على غير مايجب .

أما العين وما ادراك ما العين ؟ فانها قد ترسم لك فى الدقيقة الواحدة

ستين مرثيا منتظما مختلفة في القرب والبعد والطول والقصر ، والكبر والصغر ، بدون أن تتكلف لها مشقة ولا تعباً .

المصور ان لم يتعهد آله ولا سيما عدستها الزجاجية بالتنظيف والجلاء كل يوم فلا تؤدي وظيفتها الا على اسوأ حالة ؛ أما العين فقد يعمر الانسان مائة سنة حافظا لقوة الابصار وبلورية عينه لم تطالبه بشيء من ذلك . ولو أراد صاحبها تنظيفها لما استطاع الى ذلك سبيلا بل قد يعيش الانسان مائة وخمسين سنة ولا يدري من تركيب عينه شيئا ولا خطر بباله أن يسأل عنه غيره . هذا من حيث العين وهي من أصغر الاشياء في الجسم . أما اللمس والذوق والمعدة والاعصاب والأوتار والأوردة والشرايين والقلب والرئتان وغيرها من اجزاء هذا الشكل الانساني فما يحير الفكر ، ويهر العقل ، ويقضي على الانسان بالدهشة والحيرة حقيقة . كيف لا وقد حيرت العلماء الذين قصرُوا أعمالهم وأعمارهم على تقصى عجائبها ووقفوا حياتهم لدرسها ، فسبحان « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » القائل « انا خلقنا الانسان في أحسن تقويم » (١)

هذا حال الانسان من حيث جسمه وأنت تعلم أنه موضوع البحث والفحص من منذ ألوف من السنين ، ولم يزل أعجوبة العلم ، ومعجزة الخليفة ، وطلسم الكائنات الأرضية

(١) من أراد التوسع في عجائب جسم الانسان فليطالع في كتابا (الفلسفة الحقة في بذائع الاكوان)

أما حالته من حيث روحه ومعناه فبحر لا يدرك له ساحل ، ولا نهاية يتوه في أرجائها الفكر ، وينقطع عنها العقل ، وتنحل دونها عزمات الروية ، وتقف أمامها البصيرة حيرى ، والعقل كليلا .

إذا كانت منزلة الهيكل الانسانى من العالم المادى نهاية الابداع ، وغاية الاختراع ، وزهرة الخلق والدليل الظاهر على وجود الحق ، فمكانة روحه من عالم الملكوت السر الالهى ، والنور الربانى ، وصورة الجمال الاقدس ، والكمال الاقدم ، سكنت وهى هى فى جمالها وكمالها أبدع أشكال المادة تركيبا وهو هذا الجسد الانسانى ، فناسب الخالق الحكيم بينهما مناسبة أوجدت هذه الوحدة المحيرة للعقل التى نراها بين الانسان وروحه ليؤديا باتحادهما وظيفة شريفة فى عالم المادة تسمى لقانون الهى أبدى . وتكميلا لأبداع قدسى أزلى ، ان غاب عنا ادراك غاية كنهه ، ففى درس بعضه تسلية فى دار الغربة ، ومعرز فى قرار المحنة .

- طبع الانسان على حب ادراك المجاهيل ، واكتشاف المساتير ، وهتك حجب المضمرات من الأشياء ، وتاريخه من أول وجوده لليوم أكبر شاهد على ما نقول .

يشاهد هذا الخلق منه طفلا ويافعا وشابا وهرما وفانيا كأن فى صميم معناه زاجرا لا يهدأ يحدوه للبحث والتنقيب ، ووازعا قويا يزعه عن الوقوف فى معلوماته عند حد ، فهو من هذه الجهة كأنه خلق ليعلم ، ولو كان غير ذلك لقنع من العلم بقسط معلوم ، ولرضى بأمد منه محدود ، ثم انه من جهة أخرى منهوم بالادراك ، مشغوف بالفهم ، يزيده ادراكه للشئ

قوة على قوة فتضاعف خاصية ادراكه على نسبة ما أدرك من معلوماته فيزيد نهمه ويشتد طلبه وينمو الى المدركات ولوعه وشغفه كأن خاصية ادراكه غير محصورة ، ومداهها غير محدود ولو كان غير ذلك لكان كلما ازداد ادراكه للأشياء قرب من الشبع بما حصل ، والرضا بما اليه توصل .

اذا جاع الانسان طلبت معدته الغذاء لحاجة الجسم وكان ألم الطلب على قدر عظم الحاجة ، ومتى بدأ الانسان بالأكل أخذ باعث الطلب يقل شيئاً فشيئاً على نسبة حصول الأكل حتى تكفى المعدة فيفنى عامل الطلب أما طلب الروح للعلم وحصولها عليه فليست على هذه السنة نراها طالبة للعلم دائماً وكلما نالت منه شيئاً فلا يكون نوالها له مقللاً من شدة الطلب بل منمياً لعامله . ويرى الانسان روحه تدرك ولكن لا يقرب بها ذلك الادراك من الرضاء بل يزيد لها طلباً للأدراك ، وباعثاً عليه ، على عكس ما يحصل في الأمور المحسوسة . كأن غاية الروح أن تدرك علماً لا غاية له ، وكما لها نوال كمال لها نهاية بعده .



ما من انسان في الوجود الا وهاله أمر الحياة ، وشق عليه شأنها واحتوشته من أول يوم من ميلاده لآخر لحظة من حياته ، أحوال يرى نفسه بينها كالذرة الصغيرة سابحة بين أمواج بحر عجاج تدفعه موجة الى الامام ، وترده أخرى الى الوراء ، وتلقاه واحدة ذات اليمين ، وتجذبه الثانية ذات الشمال ، ثم تضغطه كلها بمجموع قواها

فتنازعه في موقف لا أجد له من لغة الانسان وصفا ، ولا يزال هكذا حتى تشتد عليه الأحوال فتضعف آلات جسمه ، وتهرم أجهزته أعضاءه فيودع الحياة ويذهب الى حيث أتى . الى أين ؟
هذا موقف الحيرة ، وموضع الدهشة ، ومضطرب الذهن ، ومزدلق الفكرة .

يولد الانسان فيقوم بتربيته أبوان أو أب واحد أو مرب فيشب بين تكاليف ومشاعب يختلس منها اللهو اختلاسا ، وفي لهوه البلاء المحقق ، وهو يعلم ذلك من نفسه فيشب في وسط يشكو أهله عين شكواه ويلاقى من حياته مثل ما يلاقون ، فيكبر وفي نفسه ميل الى النجاة مبهم ، وفي قلبه سوق الى الخلاص مضمّر ، فيفكر في وجه الحيلة ، ويعمل قواه الكامنة في ابتكار الوسيلة فلا يجد أمامه الا ما يعطيه له ذلك الوسط الذي درج فيه فينساق بطبعه الى التقليد فيقع في مثل ما وقعوا ، ثم يقف حيث وقفوا ، ولا يسعه الا أن يضم صوته الى اصواتهم في الأنين فيكون تسليته الوحيدة في دنياه انه تعيس بين تعساء ، وصريع بين مصروعين .

هذا الموقف المدهش بعث الى قلب الانسان في الأجيال المتأخرة اليأس من الطمأنينة فجعله شعاره الحقيقي اللاصق بضميره ، أما الرجاء فجعله ثوبا عاريا يتظاهر به بين اخوانه كما يتظاهرون به أمامه . فتجده ان ضحكك فلا يضحك الا رياء يتصنع الفرح وفي قواده نيران متقدة تحمشها أمور جلي ، وخطوب عظم ، يخفيا مضطرا لفقد الآس وعدم

الطيب . وهو ان أكل وشرب أو تزين فلا يفعل ذلك الا وهو سادل على صوت ضميره الف غشاء حتى لا يسمع احتجاجه عليه ولا يعي ما يلقيه من القوارع والقوارص اليه ، فيغش على هذه الصورة نفسه غشا له في محكة قلبه عقاب صارم يعرفه ولكنه يتحملة رغم أنه لعدم امكانه العيش على غير هذه الصفة ، لأنه لو أصغى الى الصوت الجمهورى المنبعث من معناه الانسانى وعرف ماهية تكاليف الحياة لامتنع عن الأكل والشرب ولجد مكانه من شدة الاسى على عظم المسؤولية ، وعدم الحيلة المنجية .

ماالتاجر فى حانوته يقاول ويبيع ، وماالزارع وسط مزرعته يحرق ويزرع ، وماالصانع فى معمله يتفنن ويجهد ، وماالغنى بين أملاكه يحسب ويختزن ، وماالعاطل وسط الطريق يتمنى فى نفسه الامانى ، الا وهو حامل بين جنبيه خطوبا تضطرم اضطراما وأمورا تصطك ببعضها اصطكاكا لا علاقة لها بأمور جثائه أصلا ولكنه لا يعرف لها تحديدا ولا يستطيع لها وصفا ، ولا يفهم لها مضمرا ، ولكنها من الهول بحيث تريه أن ماهو فيه من مال ومتاع ، وخدم ، وأتباع ، وقول مسموع وأمر مطاع ليس بشيء يذكر ، وماهو الا عرض حائل ، وظل زائل ويرى نفسه مفطورة على أن لا ترضى بشيء مهما عظم شأنه وكبر أمره ، مادام بين جنبيه تلك العلل المعنوية ، والأدواء القلبية .

ماهو هذا الداء الدفين الذى يحرم الانسان من التمتع بملذات حياته ولطائف معيشته ماهى هذه العلة السرية التى تنغص فؤاده ، وتبلبل

باله ، وتزعجه في اهداء أحواله ؟ هل يصح أن يكون هذا حال الانسان في الوجود مع أنه أرقى الكائنات جسماً ، وأعلى الحيوانات روحاً ، وأقدر من كل ماعداه من الأنواع الحية على استخدام أشياء الكون لمصلحه ؟ كيف يعقل أن يكون حال الانسان على ما وصفناه من الألم والحيرة وهو زهرة الابداع الالهى في عالم الشهادة ، وغاية الاختراع التكويني في الوجود المادى بأسره ؟

كيف يتصور أن يكون الانسان وهو جمال الدنيا وكمال الموجودات ، أحوج الى نادية تندب حظه ، ومعددة تعدد له مصائبه ، ونائحة تنوح على بخته ، من مهنء يهتئ على أنه انسان لحيوان ، وذو روح تستخدم الملك والجان ، ووجدان يصور له الحكمة والعرفان ؟ كيف يصل الانسان من فقد التسلية واسوداد القلب لحد أن يعتمد لترويح نفسه الى ازهاق عقله بشرب الاشربة المحرقة لكبدته ، المفقرة لأهله وولده ، المهلكة لأمته وبلده ، مع انه النسخة الكاملة للوجود كله ، والنقطة الجامعة لمتفرق جماله وكماله ؟

كيف تعلل تسفل الانسان في مطالبه ، واسفافه في ملذات جسده ، وسلوكه اخس الطرق لنوال مآربه : فيخدع ويكذب ويسرق ويرأى ويقتل مع أنه مستأهل من العلاء العقلى والجسدانى لمنصة يقف أمامها الفكر كيلاً ، والبصر خاسئاً حسيراً ؟

لقد استعصى أمر الانسان على نفسه ، وعلى القائمين عليه من عقلاء بني جنسه ، حتى صار عقدة الاشكالات ، ومعضلة الرويات ، وهو وضع

الحيرة والريب ، واصبح هو نفسه بعد ان كان لا يخشى الا
مبيدات الوجود ومهلكات الطبيعة ، لا يرى لنفسه عدوا غير نفسه ،
ولا لذاته خصما غير من يحيط به من أهله وعشيرته ؟

كيف يصبح عدو نفسه وهي أحب الاشياء اليه . ووجودها أعز
الوجودات عليه ؟ وكيف يضحي لا يأمن بنى نوعه وهم الذين يجب أن
يكونوا كما كانوا قبل المكملين لوجوده ، والمتتمين بأرواحهم لآلته
غاية ما يتمناه من لذة الحياة وطيب العيش

نعم أصبح الانسان عدو نفسه على علم منه بما أوصل اليه حياته
الشخصية والاجتماعية من الارتباك والتناقض فظل لاهم له الا العمل
على ما يبيده ويبدده .

يشهد الانسان بأن الحق قوام كل أمر ، وروح كل موجود ،
والناموس الأعم السائد على كل حركة وسكون من أكبر الاشياء إلى
أصغرها ولكنه يرى نفسه مسوقا لمعاكسة هذه العقيدة ، فتراه مرغما
ليركب متن الباطل في كل محاولاته : يكذب في قوله ، ويختل في عمله ،
ويتظاهر بالحق فيما يجمله ، وبالقوة أمام مالا يطيقه .

وجعل التصنع ديدنه فاستعمله ، في مشيته وقعدته ونظره وتسليمه
وتكلمه وكتابته وغلا في هذا السيل حتى كادت تكون حياته كلها
مبنية على رذائل اخلاق اصطلح عليها ، ودنايا صفات ألفها ومال اليها ،
وانس بذلك لحد أن أصبح يعتقد أن الحياة المدنية تسلزمها وتستوجبها
تراه يعلم علم اليقين أن للطبيعة قوانين يجب عليها ملاءمتها ، وتوفيق

مجهوداته على مقتضياتها ، ولكنه يجد نفسه مسوقاً للسير على عكسها :
 فيأكل أكثر مما ينبغي ؛ ويتفنن في أشكال الاطعمة تفتناً يسمه بدل أن
 يغذيه ؛ ولا يقنع بذلك كله بل يدخل الى جوفه من السوائل المحرقة ،
 والمخدرات المؤبقة ؛ ما يمتص قوى حياته امتصاصاً ؛ ويبدد روابط
 جسمانه تبديداً ؛ ولا يقنعه الرضاء بذلك على نفسه ؛ بل يعده بالتعود
 عليه احسن ما يكرم به صديقاً يزوره ؛ أو انساناً يود أن يتحجب اليه .

وأصبح الانسان عدو لبني نوعه لان الشكل الذى ورط فيه نفسه
 من اشكال الحياة صار يريه ويوحى اليه أن جميع أفراد جمعيته وبني
 جنسه مزاحمون له فى الحياة لا مساعدون له على تذليل صعابها ؛
 وتيسير مطالبها ؛ فاضحى يكذ ذهنه ؛ ويجهد قواه العقلية فى وضع
 العقبات الممكنة أمام من يعمل مثل عمله حتى أن الشركة اذا نجحت فى
 ملاشاة جارتها من الوجود وبلغت الغاية من تبديد شكلها ؛ عدت ذلك
 فوزاً عظيماً تنأ عليه وتحبذ من أجله . وصارت الحكومة من
 الحكومات اذا توصلت لتوريط جارتها فى مشكلة من المشاكل
 الكبرى وهى اختها فى العقيدة والمذهب تحسب ذلك فوزاً عظيماً
 ونصراً مؤزراً تحلى من أجله صدور رجالها بالوسامات المرصعة ؛
 وأجسامهم بالحلل المذهبة . وغلت فى ذلك حتى استباححت فى هذا
 السبيل الكذب ، والرياء ، والمراوغة ، والخيانة !

هذا ما آل اليه أمر الامم المتمدنه اليوم كما سندرسه درساً مدققاً
 ان شاء الله فى موضعه مؤيداً بأقوال عقلاء تلك الامم وفلاسفتها

ونخشى أن ينالنا ذلك الداء الدوى من طريق العدوى ان لم يقف عقلاؤنا أمامه وقفة حزم واخلاص .

انا لنعلم أن منا من يرى في كلامنا هذا شيئا من الغلواء لأنهم لم يروا بأعينهم ولم يبحثوا بعقولهم هذا الشكل الذى نحكى عنه . ولكنهم لو كلفوا أنفسهم مشقة البحث في حالة القوم من جهات متعددة ولم توقفهم سواحر الصناعة وانوار الكهرباء لعلوا أن الامر اهل مما نصف بكثير ولأدركوا ان مسائل الفوضويين وغيرهم من الأحزاب المتطرفة أصبحت جراحا دامية في جسم تلك المدنية يتوقع منها خطر لا يرأب له صدع ولا يرتق له فتق البتة ان لم يتداركهم الله تعالى بشيء من رحمته . نظام حالة القوم الاقتصادية هي التى تضلل عقولنا فى أكثر احكامنا بالنسبة لحال هذه المدنية فان المتحمسين منا بشكل هذه المدنية المادية يرون نظام حالة القوم الاقتصادية فيحكمون بنظامها على سائر أحوالهم الحيوية مع أن هذا النظام الاقتصادى نفسه أشد ما تشكو منه أمم الغرب ؛ لانه نظام يجعل الملايين اسراء أذلاء لرجل واحد يده اسعادهم واشقاؤهم ولو رأى الشرقيون بأعينهم أن السواد الاعظم من تلك الامم حيارى لا يملكون لحياتهم تصريفا ، ولا لأنفسهم من الحقوق الطبيعة شيئا .

ولورأوا أن هذه المخلوقات رجالا ونساء وأطفالا اسراء مسخرين لرجال يعدون على الأصابع ولا ينالون قوت يومهم الا بشق الأنفس وبذل مهجة الفؤاد امام التناير المحرقة ، وفى باطن المناجم المظلمة

لاعتقدوا كما يعتقد فلاسفة القوم (وسترى أقوالهم إن شاء الله) إن وصول الانسانية لهذا الحد من الأثرة وعدم رحمة الضعفاء ، ومن احتقار النساء والأطفال لا بدله قارعة عظمى ؛ وصاخة كبرى ولو بعد حين !
فهل حظ النوع الانسانى من الحياة أن توصله المدنية الى إحلال الرذائل محل الفضائل ؛ واستبدال الحق بالباطل ؟

هل يؤول أمر الانسان شيئاً فشيئاً لأن يكون قوام حياته المكر والخديعة والمداجاة والكذب والبهتان والمزاحمات .

هذا ماتنا فيه البداة وتدهضه المحسوسات ، إذن كيف وصل العالم المتمدن الى هذا الحد وماهى الأدوار التى دخل فيها فجرته عليه ؟ وكيف ينجو المسلمون من الوقوع فيه ؟

وما يزيدنا قلقاً على حالة سجايانا الشريفة اتنا أصبحنا نرى بأعيننا تسرب بعض تلك المكاريب الينا تسرباً غير محسوس ! ألا نشاهد تهالك كثير من شباننا على تعاطى المسكرات وتعمير أفنية الملاهى والمتديات العامة وشغل ساعات فراغهم بالدنايا والسفاسف مما يدل على حرج فى الصدر وضيق فى النفس وهروب من وجه الحق !

فهل قضى علينا أن ندور فى تلك الدائرة مع الدائرين ، ونطوف أطوارها مع الطائفين حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ، أم لم يزل بين ثنيات تلوبنا محل لقبول النور المحمدى الملكوتى تتشربها فتير علينا مسالك الحياة ، وتحى فى أرواحنا روح الأمل ، وتكشف لنا من مستور ضمائرنا سر البقاء وطمس الوجود ؟

معرفة الانسان نفسه

الفصل الثاني

للانسان في باحات حياته مواقف مختلفة تقيمه فيها أسباب شتى وعوامل لا تحصى ، ولكل موقف منها لوازم كثيرة تستولى على قواده وتتسلط على عواطفه فتجبره على سلوك السبيل الملائم لها الموافق لمراميها رغم انفه وضد ارادته ، وربما كان وهو في موقف من تلك المواقف يرى نفسه على هاوئة حتفه فيريد أن يأخذ بيد نفسه ليحيدها الى ما يعتقد أن فيه سلامته ومنجاته فتخور ارادته وتخونه عزيمته ، ويجده مرغما على الوقوف أو السير ، كأنه مسحوب من أنفه أو مقود من يده أو مدفوع من جميع جهاته .

الانسان كائن مفكر تقع عليه الحوادث فلا يدعها تمر بدون أن يتعقّلها على وجه ما وقد يقع في تعقّله وادراكه الغلط والقصور ، وقد يخطئ في تحديد نسب النفع والضرر وعلاقتها بوجوده ، وهو يعرف ذلك من نفسه ، الا أنه مطبوع على أن يفكر في حوادثه ليدرك وجه العلاقة بينها وبينه .

العوامل التي تدفع الانسان بقواها ومؤثراتها فتقف به في ساحات وجوده المواقف المختلفة كثيرة متنوعة متداخلة في بعضها . منها ما هو طبيعي ومنها ما هو كسبي ومنها ما وجوده معلق على ازدواجها ولكل هذه الفواعل سير خاص ، واتجاه خاص ، وتعرجات خاصة ، وتأثير

(م — ٤ — أول)

لا يشتبه بغيره ، ثم لا تلبث أن تتلاقى هذه العوامل في نقط من سيرها فتتحد علم وجوه وتتشرك في أفاعيل وتصير شبكة لا يعرف أولها من آخرها والانسان يعرف ذلك في نفسه لأنه يحس بآثارها على جسمه وعقله ؛ ولكنه مع اعترافه بعجز وسائله عن الالماس بها يجد نفسه محفوزاً الى تعليل ماهوفيه من صلاح أو فساد بعلم يدركها ويفهمها ، فلا يرى بدا من عزو ماهو فيه لسبب أو أسباب ، وتعليقه بفاعل واحد أو بفواعل عدة ، فيظل يقنع نفسه بصدق تعليله وكال إحاطته بأسباب بلائه ولا يتجلى له قصوره الالماتهم به الرغبة ، وتتفعل مشاعره للتخلص مما هو فيه ، مسوقاً بما ركب فيه من عاطفة الهرب من المييدات ، والتفصى من أنياب العوادي ، حيث يرى نفسه مجذوباً الى مركزه بجواذب كثيرة ، هنالك يتحقق أن فلسفته في أسباب دائه غير كاملة لاحساسه بأن ثمت فواعل لم تدر في خلده قد سيطرت على إرادته ، وتسلطت على اختياره ، فالزمته مركزه وقهرته على عدم التحول منه . وربما لم يصادف في مبدإ همه ما يجذبه الى مكانه فيجرب تحت تصريح إرادته في المجال الذي تخيله أبقى لحياته ، وأحفظ لذاته ، ولكنه لا يكاد يفرح بانطلاقه حتى تصدمه في صدره دوافع ، وتقوم في وجهه حواجز ، لو قاواها قليلاً سحقته مكانه ، وذرت أجزاءه في ذبول العواصف ، فيرى نفسه مرغماً على الهزيمة مكرها على النكوص على عقبه . إلا أنه مع هذا كله لا يرتاح الا اذا أدرك سبباً لما يؤلمه وينغصه ، فيعمل فكره ثانية وثالثة فان كان مسلماً حقاً لا يتطرق اليأس الى قلبه

بل يظل يلتمس العلة على مقتضى ما فطر عليه من طلب الخلاص وعدم الاستسلام للهالكات حتى يجد العلة أو يموت باحثاً عنها ليودع الحياة ويداع رجل أدى الواجب ليجد بعد أن يخلع هذا الرداء الجسدانى قوة فى معناه يتابع بها خطته فى الخروج الى عالم الكمال والجمال ، فى حياته الثانية وداره الباقية . وأما إن كان غير مسلم حقاً يئس من وجود المخلص ، وقط من رحمة ربه ، ورننا للوجود بعين اليأس القانط ، ونشر على حياته غواشى سوداء من أوهامه ، وكسفا مدلهمة من سودائه ، ويلتجئ لأن يداوى هو اجسه ووساوسه بغير دوائها الطبيعى ، فيعمد لازهاق عقله وفكره بالسوائل المخدرة ، ويركن فى الهاء نفسه الى الملهيّات المادية من مأكل ومشرب ومسكن وملبس ، فيحتاج للبال الكثير ليستطيع أن يعطى الله وحقه من العناية فيتكالب على إيجاده بكل ما تصل إليه قوته من الوسائل : بالغش ، بالتدليس ، بالتزوير ، بالسرقة ، بقتل النفس ، واذا يئس من ذلك كله قتل نفسه وأرسلها للعدم ، أو عاش على أسوأ حالة يمكن أن يتصورها خيال الشاعر !

اعتاد أكثر الخطباء أن يشكوا من أنهم لا يجدون لنصائحهم أثراً فى قلوب سامعيهم ، ولا نتيجة لها فى تحويل مجارى أعمالهم ، ويبالغون جداً فى الأسى والأسف على صلابة القلوب وخمود العواطف ، ويتعجبون جداً من رؤيتهم هذا الأثر السيئ ، ويزيدهم تعجباً ما يعرفون من أن أمثال هذه المواضع كانت تأخذ بقلوب سلفهم الصالح فثيروا من قواهم ، وتبعثهم لأقوم السبل الواصلة بهم الى خيرى معاشهم ومعادهم . ولو سئلنا نحن عن

رأينا في هذه الظاهرة النفسية لقلنا إن هذا مما لا يستدعي العجب، بل يستلزم البحث لمعرفة السبب. لأن الانسان مفطور على الشغف بنفسه وبكأله. ومطبوع على حفظها من المييدات وصونها، فان شوهده منه خلاف هذه الغرائز بالنسبة لحال من أحواله، فلا يصح أن يقال انه قد تغيرت فطرته فأصبح مدفوعا لاهلاك نفسه وولده وبنى نوعه، ولكن يجب أن يقال لابد من أن يكون هنالك عوامل تؤثر عليه فتقهره على لزوم مركزه، وتجبره على عدم التحول من مكانه. وما مثل خطيب يكثّر العجب من هذه الظواهر ولا يكلف نفسه البحث في مظاهرها ليعثر على أسبابها الا كمثل رجل يقوم بأزاء رجل مكتوف من يديه ورجليه وبجانبه نار تمتد اليه بلهبها فيصيح به أن أبعد أيها الرجل عن النار فانها قد وصلت اليك أو كادت، ولما لا يراه يستطيع الحراك يأخذ في تقريعه وتأنيبه وشتمه ويتهمه بالكسل... أو بالجبن... أو بعدم الشعور... ولا يكلف نفسه الذهاب اليه، وفحصه يديه ليرى ان كان الحق في عدم حراكه له أو عليه، ماهو الكسل والجبن وعدم الشعور الخ الخ من الألفاظ التي يعلل الناس بها ما يرونه من أمراض الأفراد والأمم؟ الكسل ضد النشاط وهو داء كما اصطلح عليه الناس يمنع الانسان من الاتيان بالحركات اللازمة للأمر المطلوب الحصول عليه. والجبن ضد الشجاعة وهو داء يقعد بالانسان عن مدافعة ما يراه عاديا على ذاته أو ما يرتبط بها، وعدم الشعور داء يحل بالنفس فيمنع عنها نعمة الاحساس بما يلزم التأثير منه

هذه هي كبرى الأدواء التي اعتاد الناس على تعليل جمود العواطف الاجتماعية والذاتية بها ، ولكننا هل نرى الذين نصممهم بالكسل في الأمور النافعة العائدة عليهم بالفوائد الصورية والمعنوية كسالى عن التردد على الملاهي والمراقص . كسالى عن إعداد معدات الترف والسرف . كسالى عن موجبات الزينة والزخرف ؟ أترى الذين نصممهم بالجبن جبناء امام الحمر الذي يعرفون أنه مميتهم وملاشيهم ، عن القمار الذي يتحققون أنه مفلسهم ومفقرهم ، عن الإفراطات التي يتأكدون أنها مسرعة بهم الى خمود حياتهم ؟ أترى فاقد الشعور بما يمس مصالحه الحقيقية فاقد الشعور كذلك بلذات خلّاعته وقصفه ، بنعيم ما كله ومشربه بلطائف ملبسه ومسكنه ؟ اذا كان الذي يقعد بالانسان عن الالتفات لمصالح ذاته وبنى نوعه هي هذه العلل الاصطلاحية لوجب أن يكون الكسلان كسلان في كل اعماله ومحاولاته ، وعن جميع ما يرتبط بأمور حياته ، لا أنه يكون كذلك أمام ما يرجع عليه بالمنافع المادية والمعنوية ، ويكون مثال النشاط والحركة أمام ما يهلكه ويتلفه . ويلزم أن يكون الجبان جبان حيال كل ما فيه مظنة الضرر عليه ، لا انه يكون كذلك بازاء الاخطار التي فيها حياته وحياة ذويه واشجع الشجعان أمام ما فيه ثوره وعطيه مما يرتبط بملاذ بدنه . ولكن المعقول ان يكون الفاقد للشعور فاقد به بكل شيء ، لا انه يكون كذلك بالنسبة لما فيه تلف ذاته وذوات أهله وبنى جلده ، وأشعر الشاعرين بماله علاقة بلذات بدنه وسرف نفسه ان قيل ان تأثير الشهوات ، وفعل النزغات هي التي تذهب بالنفوس

مذاهب الخور والضعف أمام معالى الامور وشريف الاعمال ، وتميل
 بها نحو السفاسف والدنايا ، قلنا : ما الشهوات ؟ ما النزغات ؟ ما الالهواء ؟
 هل هذه كلها الفاظ مجمة قنعنا بها فى تعليل أعمالنا التى نرى أنفسنا
 مدفوعين لها رغم انفسنا وضد ارادتنا ، وأنسنا بها حتى أخذت من
 خيالنا شكلا لا يجب أن يكون لها دفعنا هذا الشكل الذى تخيلناه عليها
 الى الخطأ فى تكييفها وتصويرها ، والشطط عن حدود سلطانها ،
 والبعد عن مداواتها وعلاجها ، حتى جردنا ذلك الى محاربتها بالفاظ
 مثلها فاستحالت ادواؤنا وعلاجاتها الى الفاظ تتفنن فيها تفننا وتلاعب
 بها تلاعبا ، وهيهات أن تنجلي هذه المعارك اللفظية عن حقيقة ، أو
 تقف بنا عند حد .

إذا كانت أمراضنا هى مدلولات هذه الالفاظ ، وعلاجاتها مانطالعه
 فى الكتب وما نسمعه من قراء الخطب على المنابر وفى المحافل ، فلماذا
 لم يظهر لها أثر فى تقويم الملكات ، وتعديل الطباع ، والأخذ بأيدينا
 عن السفاسف ، والصعود بأرواحنا الى مكانات الفضائل ، ومقامات
 المكارم ، مع علمك بأن هذا التشخيص وذاك العلاج مستعملان
 فىنا من منذ قرون عديدة ؟ هل عهد فى طبيعة الانسان ان يأنس بمرضه
 ويعتاد آلامه ، فلا يلتفت الى علاجه وهو بين يديه ، ونصب عينيه ،
 لم يبق فىنا رجل الا وأحس بشر منقلبه ، وضلال مذهبه ومرارة
 مشربه ، وتحقق انه مأخوذ به الى حتفه ، ومقود بأنفه الى تلفه ، وليس
 فىنا رجل الا وهو يتنسم روح الخلاص بمجموع قوته ، ومذخور

وسائله وحيله ، فلماذا لم يصادف من تلك العلاجات المستعملة علاجا مرضيا ، ولا من القائمين بها طبيبا حفيا ؟ اذا كنت تستهجن فكر من يداوى السعال بمحض ذم السعال ، وتشهير ما يجر اليه من الأهوال ، ومجرد النصيحة بالاقلاع عنه بدون امهال ، فليس من يداوى شهوات النفوس وعلل القلوب بسبها وسرد مخازيها ومشائنها ، والنصيحة المفضية بالاقلاع عنها باقل استحقاق من الأول لاهمال قوله ، والاغضاء عن مضجرات نصائحه . أليس المصاب اكثر شعورا بالآلام دائه ، واحس به من أفصح خطبائه ؟ فان كانت تلك الآلام لم تهده الى وسائل النجاة منها ، فكيف تهديه اوصافها ونعوتها ؟ واذا كانت جميع جوارحه السنة طالبة الخلاص منها ، وارادته شرهة الى الفكك عنها ، ومع ذلك فلم يستطع التفصى من حباثلها ، ولا النجاة من اشراكها ، فكيف يكفيه أمر من الواعظ بتركها وعدم اتيانها ؟ اليس ذلك يدل اجلى دلالة على أن هنالك عوامل مؤثرة على الانسان تجره على لزوم الصراط الذى ترسمه له ثم تدفعه اليه بمؤثراتها المختلفة دفعا يسيطر على ارادته واختياره ، ويحكم على عزمته واقتداره ؟ نعم هذا هو الذى يحس به كل انسان غنى يبحث نفسه ، وهو ما يمكن أن يفسر به سائر الاختلافات الانسانية فى العوائد والطبائع ، والفضائل والرذائل ، وهو ما يجب علينا أن نبحث عنه بحثا دقيقا وتحسس منه تحسسا ذريعا لانه طب الانسان والانسانية ، وطلسم السعادة الذاتية والعمومية فنقول : ماهى تلك العوامل المؤثرة على الانسان ؟ ما طبيعتها ؟ ما حدودها

ما وظيفتها ؟ ماهى وجوه اختلافها ؟ هل هى من ضمن نوااميس الوجود الثابتة التى لا تتبدل ولا تتحول ، أم هى تابعة لنوااميس أخرى متغيرة تظهر بظهورها وتعدم بعدمها ؟ هل هى داخلة تحت ارادة الانسان ويمكن له تغييرها وتحويلها لتفعل عليه فعلا مناسباً لمصالحه ، أم هى خارجة عن ارادته لا يستطيع لها تحويلاً ولا تبديلاً ، ولا يملك لها تحويلاً ولا تعديلاً ؟ ان كان الأول فكيف يسلط عليها ارادته ليغير مجاريها على مقتضى مصالحه ، ويحول قوتها على حسب منفعتها ؟ وان كان الثانى فهل هو متمتع بما يخرجها من دائرة سلطانها ليدخل تحت نفوذ فواعل اليق منها بحياته ؟ ان رمت رأينا فى هذه المسائل فاليك : إنانرى نوعين من العوامل سائدين على الانسان ، أحدهما عوامل ذاتية ، والآخر عوامل عمومية . أما الذاتية منها فليست الا ما يحس به الانسان فى تركيبه من المطالب المختلفة المتعلقة بحفظ ذاته وتكملها . هذه العوامل الذاتية الكثيرة كان يمكن تقسيمها الى عاملين عامين فقط : عامل مادى جسمانى سلطانه على الامور الجسدانية ، وعامل معنوى روحانى سيطرته على الامور الروحانية ؛ ولكن لسنا فى مقام التعميم ، بل نحن فى صدد التفصيل حتى لا يضيع علينا شىء من جزئيات البحث ولذلك نقول : الانسان يحس بأنه محتاج للأكل والشرب ، والمسكن والملبس ثم يحس مع هذا بعاطفة حب العلو على غيره فى كل ما يشترك فيه معه ، فيحب أن يكون أعلم وأفصح وأجمل وأغنى وأولاد وأهل من كل من يقع تحت بصره من بنى جنسه ، وهو مع هذا كله

يشعر في بعض أوقاته عندما يرى الموتى أو يتذكر أنه لا محالة ميت ، إن كل مطالبه الأولى عرض حائل ، وظل زائل ، وإن الأجل من ذلك كله والأكمل ، أن يكون بينه وبين السماء صلة وسبيل ، وعنده من أحوالها علما وخبراً ، وأن ينال فيها بعد موته من الأرض جزاء وعوضاً . هذه أكثر عوامل الانسان الذاتية التي لها الأثر الظاهر في وجوده ، والطابع البين على حياته . فيندفع أولاً وراء الصق الحاجيات به من مأكل ومشرب فاذا نالها ذهب وراء الملبس والمسكن ، فاذا حصلها وارتاح باله من جهة مطالبه الوقتية ، عملت فيه العوامل الأخرى عملها ، وساقته إلى أشباعها ، فيجرب أشواطاً بعيدة في موامها ؛ وبما أنه غير محدود القوى ولا مقيد المواهب فيجرب وراء كل منها في المجال الذي يهديه إليه علمه ، ويرى أن في غايته نوال أربه فان عجز وجد من حيلته ما يساعده على إخفاء عجزه : فيمكر ويداجي ، ويتصنع ويرائي ، ويكذب ويدلس ، ويسرق ويغدر وإن اشتد به ألمه يقتل وقد ينتحر .

هذه العوامل الذاتية فطرية طبيعة لا يمكن تبديلها ولا تغييرها أي أنه ليس للإرادة الشخصية سلطان عليها من جهة الملاشاة أو التعطيل ، ولكنها مثل كل شيء في الانسان قابلة للتهدب والترقي ، ورقها وتهذبها متعلق برقي الانسان في معارج العلم والمعرفة . فانها بصفاتها الأصلية أي قبل أن تهذب وتعدل بإرادة الانسان قد تنقلب شر الشرور عليه ، وتكون أسرع في إهلاكه من كل ما يهرب منه من المبيدات والعوادي الطبيعية . ذلك لأنها مغروزة في جبلته على حالة مطلقة غير مقيدة .

أودعها الخالق الحكيم على هذه الصفة ليكون أهلاً للنصبة العلية التي خصصها له في عالمي الملك والملكوت وليستحق خلافته على الأرض ، فان وجودها مطلقة يجبره على الاحتكاك بكل ما يقع تحت حسه من أشياء الوجود ، وهذا الاحتكاك يعرفه من أسرارها ويكشف له من ضمايرها ، ما لا يمكن الوصول إليه الا من هذا السبيل .

هذه الدوافع الذاتية دوافع إلهية ، وبواعث ربانية ، طبعت في جبلة هذا الانسان لترفعه إلى المكانات العلاء ، والمنصات السامية ، ولتنشر من سلطان روحه على الكائنات الأرضية ، وتمد من أيدي حوله وقوته عليها وعلى نواميسها ما لا يتخيله أكبر فكر الآن ، ولكن ما أجمل الانسان بنفسه ، وما أهون ذاته في نظره ، وما أشد تغاضيه عن درس قواه ومواهبه ؛ هذه الغرائز والعوامل الذاتية صارت بجمل الانسان واغضائه عن تعديلها وتهذيبها ؛ وباهماله في درسها ومعرفته طبائعها . عوامل شرعية وعلى أهله وبنى نوعه . أحس بضرورة المأكل والمشرب والسكن والملبس ولما حصلها وجد من نفسه ميلاً إلى شيء مبهم ، وشعر بما يدفعه عن الرضاء بحالته والوقوف عند حدها ، فلم يسكن حتى يعرف ماهية ذلك الميل إلى الشيء المبهم ، بل اعتراه داء العجلة فظن أن ذلك الشيء المبهم هو الافراط فيما حصله ، والغلو فيما ناله ، فوقف كل قواه على ذلك ، فتفنن في صنوف الطعام وأشكال اللباس ، وفي بناء المساكن ورياشها ، وفي أنواع المشارب حتى صار كل ذلك وبالاعليه بعد أن كان مقوما لشخصه ، لما أدى إليه من أنواع الافراط

والتفريط والأدواء النفسية القاتلة ، مع أن المسألة بسيطة في ذاتها لا تعوز منه كل تلك الحى الهائلة ، فان شعوره بعدم الرضاء بما حصل ليس سيئه قلة ما وصل اليه ، وإنما هو باعث وجدانى يلفته إلى أنه لم يخلق ليأكل ويشرب فقط فان ذلك مما يشاركه البهائم فيه وربما كان منها ما هو أقل جهاداً فى نوال مقومات ذاته منه ، وإنما خلق لأمر عظيم يؤديه للعالم ، ولو وظيفة كبرى لا تتم إلا به فى عالم الشهادة فلم تذهب به هذه المذاهب المضللة إلا إهماله فى درس مواهبه وملكاته .

كذلك غلط الانسان من جهة تكميل ذاته فتاه فى متاهة كلها خطر عليه وعلى بنى نوعه : فانه لما أحس بعاطفة التكمل والاعتلاء حسب أنه يؤدى مطالب تلك العاطفة بالتفضل على غيره فى المزايا التى يشترك فيها معه سواء فبذل غاية جهد فى هذا السبيل ، ومال لأن يكون أغنى وأعلم وأفصح وأولد وأهل والى الخ من مجاوريه ، فنشأ التحاقد والتحاسد والتباغض والتسافك ولو صبر قليلا أو لو أصغى إلى الرسل الكرام الذين لم يحرمه الله منهم أو من تعاليمهم من أول وجوده لليوم ، لعلم أن اشباع تلك العاطفة العالية لا يتأتى بالتعالى على غيره بل بنوال مرا كز روحانية هو مستعد لنوالها بالفطرة ، وأن أمثاله من بنى نوعه ليسوا بمزاحمين له فى الحياة بل هم أعوانه وأنصاره فيها ، فكان يحل بينهم الوثام بدل الخصام والسلام بدل الحرب ، والتحاب بدل التباغض ، والترافد بدل التناهب ، وكانت الحياة الانسانية أجمل أشكال الحياة لا أن تكون مجال صراع وقراع ؛ وميدان نضال وضراب ، ومضمار السفك الدماء وتيتم الأبناء

من يرد أن يعلم أن كل هذه العوامل بدل أن تكون كما هي الآن أسباب الافراطات والتفريطات المييدة للانسان ، كالتحاقد والتباغض بين الأفراد والشعوب ، يمكن أن تصير عوامل ملكوتية تبعث الانسان للرقى المادى والمعنوى ، والكمال الجسدانى والروحانى بمحض تعديلها وتهذيبها بالانصياع لأوامر خالقها وواضعها ، فلينظر إلى ذلك التبدل السريع الذى حصل فى الأمة العربية فى بضعة وعشرين سنة . ألا ترى كيف استحال ذلك التباغض والتنازع والافتراق إلى تحاب وتعاطف واجتماع ؟ كيف حصل هذا أتبدلت الفطر أم جاءها مالم يكن فيها من قبل ؟ لاشئ من ذلك .

ولإنما هى روح التهذيب الالهى الذى أنزله الله على رسوله الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم سرت إلى تلك الأرواح فأزالت ما كان يحجب عنها نور الحق فدارت فى مجاربها الأصلية فتأدت إلى تلك النتيجة الطبيعية ، وهى نتيجة أدهشت المؤمن والجاحد على حد سواء ، فكيف لا تهتز العواطف شوقاً إلى معرفة أسرار ذلك التهذب الذى يجعل قلوبنا وأرواحنا مستعدة إلى مثل هذا الكمال . المحبوب ؟ وكيف لا تلهب الحمية غيرة للوصول إلى مثل ذلك النعيم الملكوتى الجدير بحياة الانسان ؟ وكيف لا يهيم الانسان لمعرفة تلك الفواعل القاهرة التى تصدنا عن الانتفاع بتعاليم خالقنا الحكيم (الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) القائل (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) ؟ ذلك مالا يمكن الخوض فيه إلا بعد معرفة ماهية العوامل العمومية

العوامل العمومية

أو

روح الجيل العمومية

ماقلناه في الفصل الماضي عن العوامل الذاتية التي تتنازع الانسان فتوقفه من باحات وجوده المواقف المختلفة رغم أنه وضد إرادته لا يكتفي في تفسير ذلك التناقض الهائل الذي يشعر به الانسان في ذاته بين علمه وعمله وبين عقله وإحساسه ، وليس فيه ما ينقع غلة الباحث عن كمال نفسه ، المغرم بالاستقامة على صراط العدل المستقيم . وقد أشرنا نحن إلى ذلك في بحثنا عن عواملنا الذاتية وعلقنا بلوغ الغاية من هذا البحث على العوامل العمومية التي هي موضوع كلامنا اليوم .

أصدق العلوم أثرا في تحسين حال الانسان من جهة صورته ومعناه ، وأقواها عاملا في انالته ما يتمناه ، من سعادة دينه ودنياه ، ما كانت أصولها مستمدة من حقائق الكون ومشاهداته ، وفروعه منتزعة من حوادثه التي تشاهد آثارها في كائناته ، لا بما يتصيد الفكر تصيدا من أرجاء الخيال وخطرات الأفكار المجردة . لهذا لا مناص لنا ، مادما نرجى الوصول إلى نتيجة محسوسة ، من سرد كثير من الحوادث سردا استقرائيا ، وجمع ما تشابه منها إلى رابطة واحدة ، والسعي في رد ما تخالف منها إلى أصولها الرئيسية ، واستنتاج القوانين

السائدة على كل نوع منها استنتاجا تحليليا محسوسا ، والاجتهاد في رد تلك القوانين إلى مبادئها الأولية ، لا مكان تحديد روحها العمومية ، بطريقة يفهمها الخاص والعام فهما جليا ، وهو عمل شاق جدا يستدعى من الكاتب عدم الطيش أمام الحوادث ، وثبات الجأش حيال ما يصادفه من المتناقضات الكبيرة ، ويستلزم من القارئ كثيرا من الصبر والجلد حتى تشرق له الحقيقة اشراقا كاملا . . .

رأينا أن مجرد معرفة الانسان بطريق العلاج لا يكفي في اقامته على منهاجه ، ولا يجديه في تمشيته فيه ، وضربنا لذلك الامثال العديدة في فصلنا المتقدم ، وقلنا لا بد من أن يكون هنالك عوامل عمومية تسيطر على ارادة الفرد الواحد فتوجهه كيف شاءت ، بل على الامة برمتها فتسوقها الى الطريق الذي ترسمه لها وتدفعها اليه دفعا فتسلكه مضطرة لا مختارة ! فما هي تلك العوامل العمومية ؟

(مناقشة في التعليلات المصطلح عليها)

يقولون ان سبب ما يقع فيه الواحد والامة باجمعها من الخبط في الاحوال ، والخلل في الاقوال والاعمال ، واللوث في الشؤون الخاصة والعامة ، هو عدم الدين الهادي الى سوء السبيل ، أو ضعف الارادة ، أو الجبن ، أو عدم التربية ، أو الجهل الخ .

نقول كل هذا صحيح ولكن كل هذه العلل لو ازم لتلك العوامل لا هي بذاتها ، والمدار في مداواة المرض على معرفته بذاته لا مكان مكافحته مكافحة حقيقية ، أما مكافحة لوازمه واعراضه فلا يكون من ورائها

غير اضاعة الوقت فى مصاولة شىء لا يتلاشى حتى يتجدد ، ولا يسكن حتى يتهيج .

فما هو ذلك العامل القوى الكبير ، أو العوامل القوية الكبيرة التى انتزعت منا الدين انتزاعا ، وما هى تلك المؤثرات الخارجية الهائلة التى اخترقت اغشية افئدتنا وسرت فيها سريانا سحرىا حتى وصلت الى مكانه من صميمها فأجلته منها اجلاء غير محسوس ؟ وماهى تلك الفواعل الشديدة التى عدت على الفطر فمسختها ، وعلى الوجدانات فغيرتها ، وعلى العواطف فحولتها ، وعلى المشاعر فقلبتها ، وعلى الاميال فحورتها ، وعلى المدارك فضللتها ، حتى صرنا ونحن أبناء الدين ، واساطين العقائد ، واراكين الايمان ، واحفاد بناء الحقائق ، نلتمس الدين فلا نجده ، وننشده فلا نهتدى اليه ؟ ما هى هذه العوامل المدهشة ؟ ما طبيعتها ؟ ما حقيقتها ؟ ما حدودها ؟ ما سلطانها ؟ ما آثارها ؟ كيف تنشأ وكيف تؤثر ؟ هل هى متعلقة بطبيعة البيئة الاجتماعية ؟ هل مرتبطة بتطورات الافكار والمعارف ؟ هل هى نتيجة من نتائج العلم أو أثر من آثار الجهل أو هى لازم من لوازم الرقى المادى أو هى صفة من صفات طور مخصوص من أطوار الحياة ؟ هل هى فى ذاتنا وفينا مادتها ومنا روحها ، أو هى عارضة علينا من سوانا ؟ ان كانت منا فكيف نشأت ؟ وكيف تطورت وتدرجت ؟ وان كانت عارضة علينا من غيرنا فكيف جاءت ؟ وبأى وسيلة عملت فينا هذه الافاعيل ، وكيف واجهت معاهد عقائدنا فخلتها ، وصادمت صروح تقاليدنا فهدمتها ؟

لامشاحة في أن التنازع بين العقائد الراسخة والفواعل العارضة :
 شديد عنيد فمتى بدأ ذلك التنازع ، ومتى شعرت به الامة ، كيف كانت
 الحرب بينهما في أنفسنا وبأى وسيلة حصلت الغلبة للثانية دون الاولى ؟
 اعتدنا أن نقول أن سبب هبوطنا عدم الدين ، ولكننا لم نكلف
 أنفسنا بالبحث عن ماهية الدين ولا عن مكانه من أقدتنا ولا عز
 مادة بقاءه ونهائه ، ولا عن جرثومة فناءه وتلاشيهِ ، هل هو روح تحل
 بالنفوس من الخارج فتقيمها على طريق مخصوص ؟ أو عاطفة ذاتية
 من عواطف الفؤاد تتيقظ فيه بسبب من الأسباب ، وتنام وتتخدر
 بسبب آخر ؟ ان كان هو روحا تحل بالنفس من الخارج فكيف يكون
 التهيؤ لقبولها ، وكيف يعد الانسان نفسه لتحل فيه ؟ وان كان عاطفة
 من العواطف المغروزة في جبلتنا فأين مكانها منا ؟ وما هي أسباب
 تيقظها وما هي علل نومها ؟

دعنا من كونه روحا خارجية ، أو عاطفة نفسية ، فهل
 هو ضرورى في ذاته ؟ هلا يمكن أن يقوم مقامه عامل غيره ؟ كيف
 قامت اهم اوروبا بدونه ، وادعت أنها استغنت عنه ؟

هذه كلها مسائل يجب حلها حلا فلسفيا تحليليا محسوسا ليخرج
 الانسان من تلك المجاهيل المظلمة التي كوتها حوله تلك الألفاظ
 الضخمة ، والتعبيرات المفخمة ، التي لا طائل تحتها ولتنجلي أمامه هذه
 المتناقضات الكثيرة بين ما يسمعه من مرشديه وما يراه بعينه من
 الحوادث الكونية ، ولتنجلي له جلاله وظيفه الأنبياء والرسل عليهم

الصلاة والسلام تجليا باهرا في مجلاها المعجز. فلقد ساء فهم الناس في أولئك الرجال الفخام الذين اصطفاهم الله من بين سائر الأنام فظن كثير منهم أنهم لم يعملوا الا أن دعوا الناس الى شيء فاتبعوهم وقادوهم في طريق فانقادوا فيه ، ووجهوهم لغايات من الحياة فتوجهوا اليها ، فكان من شأنهم ما يرويه لنا التاريخ من جلائل الأعمال ، ومدهشات السير ، ويغيب عن أفكارهم أن معالجة أدواء النفوس وتمريض الأفتدة الغرقى في دياجير الفتن، ومراس الطباع المتسمة بسموم المفاسد ، امور لا يقدرها قدرها الا الذين سبروا على النفس والاجتماع البشرى ، خصوصا ما كان منها محتص بالعالم القديم أى فى الزمن الذى أرسل الله تعالى فيه أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقد تخيل بعض الناس أن معالجة تهذيب المتوحشين بأسهل وأيسر من معالجة المتنورين ، وهو ظن فاسد ، فقد أثبت علماء الانسان ، أن المتوحشين أشد الناس اباة لدعوة الدعاة ، وأكثرهم استعصاء على هدايتهم ، وقد لبث المبشرون المسيحيون فيهم آمادا طويلة ولم يبلغوا منهم ما يكافى محاولاتهم ، رغما عما يبدونه لهم من اللطف واللين ، وما يبدلونه لهم من الرشا والهبات وحسن الملبس والمسكن ، وقد أثبت الاستاذ (أرثور دوليما) فى كتابه (الانسان على حسب مذهب داروين) إن من المتوحشين الذين يخضعون للبشرى من يتظاهر بالدخول فى المسيحية ظاهرا لينال قسطه من الخبز والتبغ والشاى ولكنه فى الباطن على مذهبه الأول لم يتحول عنه قيد شبر

من هنا يرى ان حل المسائل التي أشرنا اليها كما يكون من ورائه نفع للشخص من حيثية تكمله وتهذيبه ، كذلك يكون من ورائه ادراكه لجلالة وظيفه الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتحقيقه بأن كل من لم يتبع نهجهم خطوة بخطوة في سبيل ترقية الأمم لا يفلح في دعوته ، ولا ينال سوى الخيبة الفاضحة من وراء جهاده .

واذا علق هذا الهبوط الذي نحن فيه على ضعف إرادتنا ، وقلة مادة همتنا ، نقول لماذا ضعفت إرادتنا وقويت إرادة غيرنا ؟ وما هي الارادة في ذاتها بالنسبة للفرد في نفسه وبالنسبة للأمة في مجموعها ؟ كيف تنشأ وكيف تنمو ؟ كيف تقوى وكيف تضعف ؟ هل هي تابعة للزاج ؟ هل هي مرتبطة بصحة الانسان ومرضه وبقوته وضعفه ؟ هل يمكن أن تقوى الارادة بعد أن تضعف ؟ وما هي الأسباب التي تقويها وتؤديها ؟ الا يكفي في تقوية الارادة أن نرى أنفسنا مسوقين للتلاشي ؟ واذا كان هذا لا يكفي في تقويتها فأى شيء أشد من ذلك تأثيراً عليها ؟ هل الأمم القوية الارادة قوت إرادتها بنفسها ، أم نشأت قوية الارادة ولم تفكر في ذلك يوماً من أيام حياتها ؟ هل تقوية إرادة الأمة متعلق بالفرد على حدته أم بالمجموع ؟ وهل أسباب ضعف إرادة الأمم آتية اليها من ذاتها أم تأثيراً من الأمم المرتبطة بها ارتباطاً ما ؟

وهكذا يقال في الأسباب الأخرى التي تتخيلها لتعليل ما نحن فيه من الضعف كعدم التربية والجهل والجبن وغير ذلك . ومهما ترقينا في اتحال العلل والأسباب فلا نزال نرى في أنفسنا داعياً الى اختراق

صفوف تلك العلل الى العلة الرئيسية التي تهدأ اليها النفس ، ويسكن بها اضطراب الفكر ، ويركد منها جيشان الروية .

قلنا مرارا ولم نزل نقول اننا اكتفاءنا في تعليل مضانكنا بالالفاظ الضخمة ، والعبارات المفوقة ، هو الذي ضلنا في مدركاتنا ، وصغر في أعيننا وظيفة تربية الأمم ، وشجع كثيرين منا على التكلم في علم الاجتماع البشرى ولم يقرأوا فيه كتابا بسيطا ، لاجرم يكون نتيجة هذا أن يصبح الناس هنا كلهم فلاسفة اجتماعيين ، يشخصون أدواء الأمم ويصفون علاجاتها وصف الطبيب النطاسى بغاية الجسارة والحرية . ولم يكونون كذلك وقد اختصروا العلل الاجتماعية في كلمتين : (عدم الدين وعدم التربية) وجمعوا سائر علاجات الأمم في نقطتين أخريين : (الدين والتربية) فصرت ترى أفكار الناس تتراوح بين وصف عدم الدين وعدم التربية ، وبين وصف مزايا الدين ومزايا التربية ، حتى اقتصرت أكثر الكتابات على ذلك وصار الكلام كله ترديدا في ترديد لا يختلف عن سابقه شكلا ومعنى الاعلى قدر نسبة اقتدار الكتاب في التصوير ، ومهارتهم في ابتكار أساليب التعبير والتحجير ؛ واذا كان هذا كافيا في معالجة أدواء الأمم وبعث الحياة اليها ، فالأمم الشرقية اليوم اعلم أمم الأرض بدائها ودوائها ، وأقدرهم على النهوض بنفسها من وهبتها . واذا كان الأمر كذلك فما الذي يأخذ على متنفسها فيكبجها عن العمل ، وما الذي يمسكها في مركزها ويمنعها من التقدم خطوة الى الامام .

قول القائل ان تأخرنا سببه عدم الدين يشبه قوله ان سببه عدم

الفضائل الاجتماعية والذاتية . وهو صادق في كلا الزعمين ؛ ولكن ماهو الدين وما هي الفضائل ؟ اذا سهل عليه أن يسرد بعض قواعد الدين وبعض أمهات الفضائل ، ويقول هاهو الدين وهاهي الفضائل فلا يدل ذلك على أنه فعل شيئا غير ترديد عبارات قرأها في بعض الكتب أو سمعها على ألسنة بعض الخطباء وهذه التعبيرات الضخمة كما ليس لها أدنى تأثير في تحسين حالة القائل الشخصية ، تعديلا لطبعه ، وتهذيبا لنفسه ، كما يقر هو بذلك ويعترف به ، كذلك ليس لها أقل أثر في المجموع كما يرى ذلك بعينه . وقد اعتلى الجيل الأول من المسلمين الى ذروة من الفضائل الذاتية والاجتماعية يكاد الانسان يعد أخبارها من الشعر ، ولم يقرأ الفاضل منهم ولا كتابا واحدا في علم الأخلاق ، بل ولم يكن يستطيع أن يعد من أمهات الفضائل وحدودها وآثارها ما يستطيع اليوم أن يعد من أحلاس الرذائل يكون قد قرأ في علم الأخلاق كتابا ؛ فماذا أغنتنا تلك الألفاظ الفارغة ، وماذا ضر آباءنا الأولين من عدم معرفتها .

يقولون : ان سبب تأخرنا عدم الدين ولا بد لنا من الرجوع اليه ، والتعويل عليه ، ونحن وكل صغير وكبير ، وعالم وجاهل من المسلمين يقول ذلك ، ولكن ليست هذه هي النقطة الصعبة من المسألة ، بل النقطة الصعبة التي يجب حلها هي ابتكار الوسيلة التي به يرجع المسلمون الى الدين بقوة طبيعية دافعة مثل سائر القوى التي تدفع الافراد والامم الى أى موقف من مواقف الحياة .

أقم نفسك متأملا قليلا فيما يدور حولك ، وتخيل أولئك القوم الذين يعمرن محلات الملاهي والمراقص والمواخير والحانات

من بعد غروب الشمس إلى مطلع الفجر ، وتدبر جيداً تلك الحركة
 النشيطة والروح التي تديرها وتدبرها ، وتبصر في القوى ذات الأشكال
 الكثيرة التي تستهلك في تلك المجالات الابليسية الموبقة ، وصور
 لنفسك الناس وهم داخلون الى تلك المحلات أفواجاً أفواجاً يتدافعون
 بالمناكب ويتزاحمون إلى الصفوف الاولى تزاحم العطاش على الماء ،
 أو الجياع إلى الغذاء ، ووجوههم تتألق بشراً وسروراً ؛ وجيوبهم
 تسيل لجيناً وتبراً . ثم تأملهم في خشوعهم وانصاتهم ، وسكون
 حركاتهم حينما يغنيهم المغنى أو تتمايل أمامهم الراقصة يمينا ويساراً .
 دع هؤلاء جانباً . ثم صور لذهنك أولئك القوم الذين يعمرن
 المساجد ! أنظرهم في قلة عددهم ، وفتور حركاتهم ، وانكماش كل
 منهم في نفسه ، حتى ليود الرجل منهم أن يصلى في صف وحده من شدة
 ما يحس في نفسه من الاستقلال وعدم الارتباط ، تأملهم في يوم الجمعة
 أثناء خطبة الخطيب ترى السامة والكلال قد ألقيا أستارهما على وجوه
 الكثيرين منهم وترى من القرائن ما يدلك على أن فكر كل منهم قد
 شطح في مجال من مجالات مصالحه الخارجية ، وان زدت في انتقاد
 الوجوه بدقة وجدت منهم من تتراوح رأسه نعاساً فلا يهب حتى يقوم
 الناس للصلاة ، فاذا تمت هرعوا إلى الباب كأنهم خارجون من سجن
 مظلم ، لا يلوى أحد على صاحبه ، قد أخذ التقاطع منهم مأخذه ، وفعل
 المهاجر فيهم فعله . تخيل حال هذين القسمين ثم فسر لنا سر هذا المعنى
 المدهش ، وأوضح لنا طلسم هذا التناقض المستغرب ؟

الاولون من أصحاب الخلاعة يعلمون أن ما هم فيه سبب فسادهم وفساد بلادهم ويسمعون عن ذلك كل يوم في الجرائد والمجلات من أنواع الزجر والوعظ ، والنصح والارشاد ما يذيب الصخر لو يفهم ، ويسحق الحديد لو يدرك ، ومع ذلك لا يزدادون الاجريا وراء ما هم فيه من بذل ماء الوجه وماء الحياة ، وانضاب معين الثروة والخط من كرامات الأسر ، والقضاء المبرم على الشرف وحسن السيرة ، ويعرف الآخرون من أصحاب التدين أن ما هم فيه هو عين الفلاح والنجاح وبين أيديهم مئات من الكتب والجرائد تنشطهم في حركتهم ، وتصيح بالناس للانضمام اليهم ولكنهم رغماً عن ذلك يحسون انهم الاقلون عدداً ، والاضعفون جنداً ، ويأنسون من ذواتهم الضعف ومن أشخاصهم الضؤولة ، حتى يكاد بعضهم يتوارى عن الناس كيلا يروونه في تلك الزمرة .

اذا حضر أحدهم في مجلس اعضاؤه من القسم الأول وخشى فوت الصلاة فلا يجد من نفسه القوة الكافية لأن يقوم لتأدية مطلوب روحه ، وان وجدها فلا يقوم من بينهم الاتسلا ؛ وان دعوه الى الشراب فلا يجد من نفسه جسارة يصرح لهم بها أنها حرام في دينه ، بل يظل يتكرر لتركها لها الأسباب والعلل الصحية والمالية ويفيض فيما قاله عن ضررها علماء الأجانب واذا صادف أحدهم في الطريق أوفى بيت صديق تراه مع تشبع فكره بانه جرثومة من جراثيم الخراب والمحن ، وأرومة من أرومات الفتن ، هش إليه وبش ، ودلس على

ضميره وغش ، ومدله طنافس الحفاوة ، وبوأه مكانات الكرامة ورفعته
على صديق بجانبه يشاطره حلو الحياة ومرها ، ويزامله في قطع مراحلها
- وإذا نشأ له ولد سرت إليه مكاريب العدوى من أصحاب القسم
الاول فكلف باللهو والقصف ، وغرى بالشرب والرشف أمدته بالمال ،
واسدل عليه استار الامهال ، وربما داخله الاعجاب به فوصف تفرنجه
في المجالس بلسان الشكوى وهو ينوى التفاخر لما يتخلل عباراته من
الابتسامات والفكاهات .

ما سبب هذا التناقض المدهش ؟ ما الذى ينفخ فى أنوف أصحاب
الخلاعة والاباحه هذه الروح فيجعلهم الاعلين الاغليين مع علمهم
وعلم الناس بانهم احلاس الرذائل ، وزوامل الباطل ، وجراثيم دائنا
القاتل ، وما الذى يرغم من معاطس أصحاب الدين فيجعلهم الاحطين
الادين مع ظنهم أنهم على الهدى وبمعزل عن الردى ؟

ان قيل لأن الاكثرين من الاولين متعلون مشرون وجلهم من
أصحاب الكلمة النافذة والقول المسموع ، بخلاف الآخرين فسوادهم
الاعظم جهلاء معدمون ، ومتى اجتمع العلم والغنى والمنصب مع شخص
رجح فى ميزان الحياة الانسانية ولو كان من النقص بحيث يأنف من
نفسه ، وفاز على خصمه الصالح المجرد من تلك المواهب الثلاث ولو كان
من الفضائل بحيث يكسف نوره ضوء الشمس ، نقول هذا تمحل شعري
لا تعليل فلسفى ، ولو صدق هذا التعليل لما اتصرا أبداً الحق على الباطل
ولما قشعت أنوار الفضائل غياهب الرذائل ، مع أن تاريخ العالم

مشحون بما فعله الانبياء والشهداء والصالحون من كسر شوكة المبطلين والغض من أعين الضالين ، والتكيس لاعلام الطغاة المتمردين مع فقرهم وضعف وسائلهم بمحض قوة الفضيلة الذاتية ، ووصولتها الروحانية . بل هذه صفة الفضلاء والصالحين في كل زمان ومكان . وبها عرف فضلهم في تاريخ الانسان .

الفضيلة قوة تحل بالنفس فتخلع عنها غاشيات الباطل فترى صاحبها الحق في اجلا مجاليه ، وأتور جهاته فلا يتأتى بل لم يسع في تاريخ العالم أن يستخذي الفاضل لعاطل ، ولا يتصور أبدا أن يذل الصالح لطالح . وان أردت أن تقيم الدليل على أنه قد يتأتى أن يخشع الكامل لناقص فأقم الدليل أولا على أنه قد يتغلب الضعف على القوة .

الفاضل لا يتصنع القوة ولا يتظاهر بها ، ولكنه يجد نفسه رغماً عنه متلألئة نابغة ، فتزاحم عليه العيون والظنون ، وهو لا يريد ذلك فيسعى في تبديل أشعة الأنظار والافكار المتوجهة اليه ، ولكنه لا يزداد الا إشراقا ولا لاء .

الفاضل يحس في نفسه نهاية العجز والضعف أمام الله وحده لا أمام أمثاله فتفجر له من ذلك العجز والضعف قوة لا يعرف مستقرها من نفسه ، ولا يتخيل محلها من صميم سره . يراه الناس مهيباً قوياً ، وهو لا يرى نفسه الا عاجزا ضعيفا . يهابه الناس ويتوقونه ، ويرون في وجهه سمات تدل على علو روحه ، وسمو صفاته ، وهو لا يرى ذلك في نفسه ، ولا يبحث عنه ، وإنما يحس أنه هادىء السر من كونه عبيد

ملك قوى تذل لعزته الجباه والنواصي ، وتعنوا لجبروته الوجوه .
ومن يتصفح تاريخ الرسل وأتباعهم لاسيما تاريخ خاتم النبيين
صلى الله عليه وسلم وتاريخ أصحابه ير العجب العجائب من تأثير قوة
الفضيلة ، وتغلبها على الرذيلة تغلبا طبيعيا ، كما تتغلب القوى الطبيعية
على بعضها في عالم المادة « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس
فيمكث في الارض »

اذا تقرر ما قدمناه رجعنا نسأل عما سألنا عنه آنفا قائلين : ما سبب
ظهور المبطلين على المحققين ، وما سر غلبة روح الشريرين على الخيرين
مع علمك بأن الناموس الطبيعي ينادى بلسان فصيح « ألا إن حزب
الله هم الغالبون »

هذه مسألة من أكبر المسائل الفلسفية ولا نريد أن نحلها بألفاظ
بجملة لا طائل تحتها كقولهم مثلا : سبب ذلك ان الناس أصبحوا كلهم
مبطلين ، أو قولهم سبب هذا قرب الساعة وهذا الحال من أشراتها .
لأن الزعم الأول لا يعد حلا للمسألة بل يعد تعقيدا لها اذ ينبنى عليه
مسائل أعوص من الأولى وهى : لم أصبح الناس كلهم مبطلين ، ولم
يصبحوا كلهم محققين ؟ وهل الانسان مفطور على الشر دون الخير ؟
وإذا عدم الخير الآن فكيف قامت الانسانية بدونه ؟ وهل هذا يعد
دليلا للذين يحددون الفضيلة ويدعون امكان قيام الحياة بدونها ؟

هذا بعض ما ينبنى على الزعم الأول . أما قولهم إن هذا من أشرائط
للساعة فليس يعد حلا للمسألة أيضا ولا يفسر جبن انصار الحق أمام

انصار الباطل ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بعثت انا والساعة كهاتين) ومع ذلك سعى في تحسين حال الانسانية سعياً لم يتفق قبله لنبي ولا بعده لمصلح ولاولى ، وأوصلها من السعادة الحققة الى ذروة لم تصل اليها أبداً . وهؤلاء الخلفاء الراشدون ، والأولياء الصالحون ، الذين عرفوا ذلك الحديث ونقلوه الينا لم يقصروا لحظة عن محاربة الباطل ودحضه حتى خلع السلطان للفضيلة ، وتقوضت أركان الرذيلة .

يتضح من هنا أن هذين القولين ليسا من الحلول فى شىء وإنما هما من آثار الجبن الذى وقع فيه اليوم انصار الحق وغفلوا عن سببه . يصيح بعض الناس من حين لحن آخر قائلين : العلماء مقصرون عن الارشاد ، والرؤساء عاثون فى الأرض الفساد وعاسفون العباد والبلاد ، وأصحاب المهن غافلون عن علوم الاقتصاد ، وواقفون من منهم حيث وقف الآباء والأجداد ، ثم يسلقونهم بالسنة حداد ، ويقرعونهم بما يذيب الصم الشداد . ولكننا نغضى عن ذلك كله ونسأل بهدو وسكينة عن سبب هذا الخدر الذى نزل بالأعضاء فأضعفها ، وبالعقول فأتلها ، وبالأفكار فأوقفها ، وبالأبصار فغشاها ، وبالنفوس ففساها ، وبالفنائل فأجلاها .

نسأل عن هذا السحر الذى حل بالأعيان فقلها ، وبالأوهام ففسدها ، وبالوساوس فجسمها ، وبالأثار فغيرها ، وبالطبائع فبدلها . ولا نزال نكرر السؤال عن منشأ هذا الخدر ، وعن مصدر هذا السحر

حتى نعرفه فنداويه ، أويغم علينا فنترصده .
 نبحت عنه أولا في ذاتنا فأن لم نجده ففي أهل بلدنا فأن لم نجده ففي
 عموم أقاليمنا فأن لم نجده ففي الأمم المجاورة لنا فأن لم نجده ففي العلم أجمع
 (داؤنا روح الجيل)

قد بحثنا جهدنا عن سبب هذا الخدر فوجدناه في العالم كله ، ولا عجب
 فكل جيل روح خاصة تعم عموم الناس بأثر واحد ولكن لا يظهر
 تأثيرها في الأمم الاعلى حسب استعدادها وقابليتها وقد تتخالف تلك
 الآثار في الأمم المختلفة تخالفا لا يجعلك تتوهم وحدة الفاعل فيها
 ولكنك لودقت النظر ، واخترقت الحجب الظاهرية ، لرأيت ان
 السبب واحد في ذاته وإنما هي آثاره التي تباينت على حسب تباين
 الأمم في قوتها وضعفها ، أو علمها وجهلها الخ الخ كما ينتشر شيء من
 الرطوبة في الجو فيصيب الأجسام البشرية اصابات مختلفة : يصيب
 هذا بصداع ، وهذا بغثيان ، وهذا بانقباض ، وهذا بنزلة شعبية الخ
 مع أن المؤثر واحد في ذاته .

هذه الروح العمومية التي تنتشر في كل جيل في آفاق العالم فتعم
 الأمم كلها بأثر واحد قد تكون روحا طيبة سامية أوردية سافلة
 أو مركبة من خير وشر وتكون آثارها في الأمم على هذه النسبة بغاية
 الاحكام والضبط . هذه الروح لا تنتشر في الوجود من غير سبب
 ظاهر وإنما هي روح أقوى أمة في الجيل أو أقوى الأمم فيه . ففي
 القرون التي كانت فيها الأمة المصرية القديمة أقوى أمم الأرض كانت

الروح العمومية مصرية لاتدع أمة من الأمم الداخلة في دائرة الاتصال بها الاطبعها بطابع مصرى في صنائعها وأفكارها ومداركها . فكانت الفكرة الفلسفية التى ترن فى هيكل (امون) يسمع لها صدى خاص فى معبد (جوبيتير) بأتينا وغيرها من العواصم وفى القرون التى كانت فيها العظمة للأشوريين والفارسيين واليونانيين والرومانيين والعرب والعثمانيين والفرنساويين كانت الروح العمومية آشورية أو فارسية أو يونانية الخ الخ .

هذه الروح العمومية التى تسيطر على أحوال الأمم فى كل جيل هى التى يجب معرفتها جيدا ليتمكن مشايعتها ان كانت روحا طيبة سامية أو منابذتها ومحاربتها ان كانت رديئة سافلة وما دمنا لا نعرفها فلا نصل من بحثنا فى أنفسنا وأمتنا الى شىء من الحقيقة ، ولا نزال تتخبط فى علل ثانوية ، ونرتطم فى اعراض تتخيلها امراضا حتى يكمل المريض ويسأم الطبيب وينتهى الأمر الى مثل ما انتهى بنا اليوم من عدم الاهتمام بالارشاد والوعظ لقله فعلها على النفوس وعدم تأثيرها فى تعديل القلوب ،

هذه الروح العمومية المنبعثة من أقوى أمة تشبه السيل المغناطيسى المنبعث من الذى ينوم رجلا أمامه نوما مغناطيسيا . يحس هذا فى مبدأ الأمر أن قوى أحاطت به من جميع جهاته وأن روحا من الخدر تتمشى فى سائر أعضائه ولكنه لا يزال حافظا ذا كرتة و ارادته وانما يجده ميالا للرضوخ لتلك القوى المحيطة به ومسوقا للاستئانة اليها .

ولا يزال به هذا الحال حتى تضحل ارادته الذاتية وتفى في ارادة منومه فيكون تحت تأثيره مباشرة بوجهه كيف شاء حتى لو أمره بقتل ابنه بعد أن يوقظه لقتله .

كذلك روح الامة أو الامم القوية التي تنتشر في أفق العالم قعم سائر الامم . تجده هذه الامم انها محاطة بقوى حولها غريبة عن ذاتها فتكرها وتشمئز منها فان كانت قوية قاومتها ونايذتها وبذلت وسعها في عدم الاستنامة اليها ، وأما ان كانت ضعيفة عديمة الوسائل الدفاعية هان أمرها على تلك القوة المحيطة بها فلا تزال تساورها حتى تخدرها وتتسلط على ارادتها فلا تنتفع بوجودها ، ولا تغتبط بحياتها ، وتكون كل حركاتها وسكناتها في صالح تلك الامة أو الامم التي اكتفتها بروحها من جميع جهاتها .

تقع امثال هذه الامم المستضعفة من جراء هذا التأثير الخارجى في اللوث في شؤونها ، والخلل ، في أحوالها ، وهى ترى ذلك بعينها ، وتعرف طرق الخلاص مماهى فيه ، ولكنها لا تستفيد من ارادتها بشيء كمن غشيه الكابوس يريد أن يهم فلا يستطيع النهوض ، ويتخيل انه ملأ الافق صياحا وهو فى الحقيقة لم يسمع من حوله الا ايننا خافتا وهنينا مشوشا .

يدعو الناس بعضهم بعضا فى امثال هذه الامم الى الاتحاد والوئام ، ويكثرون فى ذكر أمراضهم الكلام حتى يكادون يلبسون داءهم بأصابعهم ، ثم يتواصفون الدواء فيرونه أمام أعينهم وبين أيديهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يمدوا أيديهم لتناوله كان أيديهم مغلوطة وماهى مغلوطة ،

فيرجعون الى بعضهم يتساءلون عن السبب ، ويقضون منه بالعجب .
وربما زاد بهم الخلل فاتهم بعضهم بعضا بتبعة هذا الاحجام ، وتبادلوا
من أجل ذلك التقرير والملام ، بل ربما زاد بهم الحال وندرج من
التلاوم الى التخاصم ، ومن التحاور الى التشاتم ، حتى يعلو بينهم صوت
التلاحى ، ويشتد اوار التمارى ، فيكونون بفعلهم هذا اظهر مثال
لما يعترى الامم الساقطة من التناقض فى أحوالها : يتهاجرون وهم
يتداعون للاتحاد ، يتخاصمون وهم يتنادون للتحاب ، يتشائمون وهم
يتناجون فى التسامح ؛ يتناهبون وهم يتصايحون بالتواهب ، وقد يشتد
بهم الامر فيكون حالهم اعجب من هذا فى شدة التناقض : يأمر
الامر منهم بالمعروف وهو أول المنتهكين لحماه ، وينهى الناهى منهم
عن المنكر وهو أول من يغشاه ، يذم الخمر وهو فى دنها غريق ،
ويزرى بالميسر وهو له زعيم . يدعو الى الصلاة وهو هاجرها ،
والى الزكاة وهو تاركها ، والى الصوم وهو متجاهر بالافطار . يعلم علم
الاقتصاد وهو أول المسرفين ، وامام المبذرين ، يعرف الناس قوانين
الحكمة وهو لمبادئها قائد المقوضين ونقيب الهادمين .

فى هذه الدرجة تكون ارادة الامة تد تلاشت وفنيت فى ارادة
الامة أو الامم القوية المحيطة بها ويكون شأنها من بعض الجهات
كشأن النائم نوما مغناطيسيا لا استقلال له فى ذاته ، وحياته تبع
لحياة منومه .

وكما لا تنتفع الامة بوجودها تحت تأثير هذه الروح الاجنبية

العمومية كذلك لا ينتفع بوجوده الفرد الواحد منها . فيرى في نفسه أنه حي ولكن لا كالأحياء ، وله ارادة ولكن لا كارادة المستقلين ، يحس أن هنالك شيئاً غير محسوس قد ران على فؤاده وأيقظ فيه عاملاً من الأرق والضجر لا يكاد يفارقه طريقة عين . يرى أن له عقلاً ولكنه غير سائد عليه ولا مهيم على أفعاله ، لشدة ما يرى نفسه منسوقاً الى مناقضة أحكامه ، ومنازمة تعاليمه ، ويرى أن له فكراً ولكنه لا رابط له ولا نظام ، يحول في يده الخيالات حتى اذا أعياه الجولان خمد خموداً ، فاذا هب هب طائشاً أخرج لا يدبره علم ولا ينظمه قانون . ويشعر أنه مسؤول عن أفعاله وإن فيه قوة تحوله عن القبيح وتميل به إلى الجميل ، ولكنه يرى نفسه منسوقاً رغم أنفه لعمل من يعتقد أنه غير مسؤول وأنه مجرد عن كل اختيار في أموره . يحد نفسه حراً رشيداً ذا عقل وعلم وبصيرة ، ولكنه يحس أنه مرغم لأن يعمل عمل الأسير القاصر المجرد من العقل والعلم والبصيرة . يرى التناقض الفاضح بين عمله وعمله ، وبين سيره وعقيدته فينسبه تارة لتقصير نفسه وطوراً لتقصير غيره ، ولا يزال يكثر من العلل والأسباب حتى يخيل له أن الوجود كله يحاربه ، فتعثره رعدة من خوف يتمنى معها أن لو خلق بلا فكر ولا روية ، فيجتهد في أن ينسى نفسه ولو بازهاق عقله ، ثم يقنع من العيش بمجرد البقاء ولو كان اليأس قرين شخصه .

أمثال هذه الامم لا تعيش لنفسها ، ولكن للامم ذات الروح العمومية فتكون كل قواها وقفاً على مصالح مغطسها وهي تعلم ذلك

وتتمل من على السنة كتابها وخطبائها قترانهم يذمون مظاهره كالتقليد على أشكاله والسرف في ترويح زخارف صنائعها وعموهات زيناتها وما يتبع ذلك من التزاحم على ما يقيمه آحادها من الملاحى والمراقص، والتغاير على اجابة دعوة كل قزم منهم، يذمون ذلك كله ولكنهم يرون أنفسهم مسوقين اليه بقوة غير قوتهم الذاتية وكثيرا ما يكتب الكاتب منهم تلك النصائح وهو فى وسط ناد من تلك المنتديات المجتاحة .

يبكى الناس على ما آل اليه أمرهم من التناقض وضعف الارادة وانحلال الروابط وسوء المنقلب ويعرفون أسبابه القرية جيدا ، ويكثر الكلام فيها سرا وجهرا ، تلميحا وتصريحا بل وتراهم إذا جمعهم ناد أو ضمهم مجلس سمر ، لا يكادون يجدون حديثا يقضون به الوقت غير ذكر ما هم فيه والافاضة فى أسبابه وعمله وطرق شفائهم منه ، ثم لما يرفض مجلسهم ترى كلا منهم محفوزا بكليته لا الى الأخذ بأسباب الشفاء ، بل الى تقوية الداء وامتداد جراثيمه بما يجعلها أشد فعلا وأنكى أثرا كأنهم لم يكونوا بالامس يتناجون فى شيء . يحدث منهم كل هذا التناقض ولا يجدون فى أنفسهم ما يحيط من كرامتهم فى نظرهم . بل ربما أتوا بما يعتبرونه أقتل أمراضهم وهم فى ذات المجلس ، عقب محاوراتهم فى شؤونهم مباشرة ، ولا يؤاخذ بعضهم بعضا على هذا التناقض الفاضح كأنهم رضوا بأن يكون لحياتهم حالتان متميزتان : حالة كلامية وهمية وحالة عملية حقيقية ، ولا علاقة لهما ببعضها ، فى

الأولى متمتعون بإدراك وإرادة ، وفي الثانية مجردون منهما تماما .
وقد انفصل في نظرهم عالم القول عن عالم العمل انفصالا لم يعد من
العيب عندهم أن يقول الرجل ما لا يفعل أو يفعل ما لا يريد . حتى
أنهم ليندهشون ممن يؤذى لأصراره على التوفيق بين قوله وعمله وبين
عمله وإرادته لشدة ما يحسونه في أنفسهم من صعوبة ذلك .

خلاصة ما تقدم ان لكل جيل روحا عمومية تنتشر في أفق العالم
وهي روح أقوى أمة أو أقوى الأمم في ذلك الجيل فتحيط بالأمم
الداخلة في دائرة المواصلات العامة إحاطة السوار بالمعصم وتزاحم
قواها كما يتزاحم الناس بالمناكب ، فان كانت قوية قاومتها وحفظت
استقلالها على نوع ما ، واما ان كانت ضعيفة خدرتها كما تخدر بعض
الحيوانات فريستها قبل صيدها ، وحينئذ تشعر تلك الأمم الضعيفة
بأعراض وعلل يتوه فكر عقلائها في تحديدها وتصويرها ، ولا تزال
بها تلك القوة حتى تفقدها إرادتها وشخصيتها وهو ما يعبر عنه بفناء أمة
في أمة أخرى .

الروح العمومية السائدة اليوم على البشر روح أوربية مركبة من
أرواح أمم قوية كثيرة لها على الأمم الضعيفة أفعال وآثار مختلفة
يطول شرحها في هذا الفصل وربما فصلناها في فرصة أخرى ان شاء الله .

وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين يرسلهم الله لتغيير
أحوال الأمم هي انشاء روح جديدة في أمة من الأمم يختارها الخالق
تعالى لذلك لتقاوم الروح العمومية الموجودة وتكسر من شرتها وتحل

مكانها كما قال تعالى « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده »
 فترى الواحد منهم لا يدعو قومه الى التقليد لأنه لا معنى له الا الرضوخ
 لتلك الروح السائدة المراد ملاشاتها ، بل يواجهون الأمة من جهة
 حياتها الكامنة فينفخون فيها روحاً طيبة صالحة قهّب في الأمة عواطفها
 الذاتية بسرعة مذهشة وتسرى الحياة الى مجموعها سريانا غريباً ،
 فيصبح الرجل وكأنه خلق خلقاً جديداً أو سرت فيه روح لم تكن
 فيه ولا في آبائه ، فتتقظ في نفسه عوامل النشاط والحركة ويجد
 نفسه مدفوعاً لجلال الأعمال وعظام الأمور دفعاً طبيعياً لا نزقاً
 تحمسياً . ومن يطالع سيرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم يجد
 أصرح مثال لما نقول « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا
 ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي
 به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم » الآية

لما كنا في كتابنا على الانسان نريد أن نعرف أمثل الطرق
 للاستقامة على صراط الحق المستقيم فلا نجد بدا من افاضة الكلام
 في الروح العمومية السائدة في جيلنا هذا لان الفرد منا مرتبط
 بمجموعه ومن العبث البحث في سعادة الفرد قبل سعادة المجموع .
 فليس من العقل أن يسعى الرجل الضعيف في تقوية ساعده قبل
 أن يعرف سبب ضعفه العام فيداويه بعلاج عام مثله لتعم القوة
 ساعده وجميع أجزاء بدنه والاف يكون سعيه في تقوية عضو واحد
 منه من المستحيلات الواضحة .

انا نرى من خلال الحوادث ان الحرب التي أضرمتها الروح الأوربية على روح الأمة الإسلامية شديدة مزعجة لم يسبق مثلها في تاريخ الأرواح العمومية ، ولكنها ستجلى ولا شك عن هزيمة الروح الأوربية وفنائها في الروح الإسلامية فناء أبدياً . وأنما الأمة الإسلامية فيه اليوم من الفتن والمحن مهما عظمت وتفاقت ، فلا تعد شيئاً بجانب ما لقيته وتلقاه الأمم الضعيفة من تأثير أرواح الأمم القوية . فبينما تتخيل الروح الأوربية أن السلطان قد خلص لها ترى الروح الإسلامية من وراء حجاب تكتسب عواطف الأفراد والأمم وينمو سلطانها على العقول يوماً بعد يوم وقد شعر بذلك كبار مديري الروح الأوربية فأخذوا يتسائلون عن السبب وبعضهم يجد نفسه مدفوعاً لا يقاظ الروح الإسلامية يده بواسطة كتاباته واثباته على الإسلام والمسلمين مصداقاً للحديث الشريف (ان الله ليؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أهله) .

قلنا ان البحث في هذا الكتاب خاص بالانسان ولكن طبيعة نظريتنا هذه تلجئنا الى الكلام على الروحين الاوربية والاسلامية لارتباط حال الفرد الواحد بشكل الحرب القائمة بينهما ونتيجتها . لذلك سنجتهد ان شاء الله في تصوير تلك الروح الاوربية تصويراً حقيقياً ، وتحديد تيارات آثارها في الامم عموماً وفي المسلمين خصوصاً تحديداً استقرائياً ، وتوضيح أحوالها في تطورها من القرن الخامس عشر الى هذا اليوم ، وتبيين ادوار تدرجها من روح الحاد وعناد الى روح خضوع

واعتقاد ، ثم سنختم ذلك كله ببيان كيف ان هذه الروح الاوربية سينتهى بها الامر الى مقابلة الروح الاسلامية في أفقها العالى ، وكيف انها ستفنى فيها وتدع لها السلطان المطلق على الارواح والاجساد معاً « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » « افغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون » .

﴿ اصل الروح العمومية السائرة فى هذا الجيل ﴾

قلنا فى الفصل الماضى ان لكل جيل روحاً عمومية هى روح أقوى أمة أو أقوى الامم فيه واننا تحت تأثير روح عمومية مركبة من ارواح أمم قوية كثيرة ، وقلنا ان هذه الروح الاوربية سائرة بالناس سيراً طبيعياً الى مقابلة الروح الاسلامية والفناء فيها وترك السلطان لها . وسنزيد على ذلك ان شاء الله بان هذه الروح الاوربية هى حركة من الروح الاسلامية العامة كما يقر بذلك قادتهم ولو لم يعرف ذلك دهماء المسلمين اليوم .

هذا البحث الذى تصدينا له لا يتأتى حصوله ولا نال به من قرائنا مانريد الا بالبسط الشافى ليكون القارىء من سلسلة هذه الحوادث الكبرى بمكان المشاهد لحركات الجنود من مرقب عال يلم بمجموعها لاول نظرة ولا يغيب عنه من دقائقها الامالا يخل بحكمه عليها . وهذا يستدعى منا قبل كل شىء امساك تلك السلسلة من طرفها الاقصى ولو كان ذلك يطوح بنا الى السريان فى صميم التاريخ سرياناً دقيقاً ، والسبح

في مناحيه سباحاً طويلاً ، فلا يحسبن القارىء اننا شردنا عن الموضوع
إذا انس منا الذهاب به يمينا ويساراً ، فان ذلك لحرصنا على أن لا يخرج
من هذه الجولة الطويلة قانعا من الغنيمة بالاياب ، وراضياً من البحث
بعظم حجم الكتاب ، والله المستول في هدايتنا الى الصواب

﴿ الدين قبل ظهور العلم ﴾

لا نريد من العلم مطلق ما يدل عليه اللفظ لانه لا يتصور أن يكون
الانسان قد عاش يوماً واحداً بلا علم ولو على أبسط أحواله ، وانما
نريد منه أن يخصص معانيه ، وهو النظر في حوادث الوجود نظراً مجرداً
عن الصبغة الدينية والبحث عن علاقاتها ببعضها وترتيب تلك العلاقات
على كيفية استخدامها اليد في تحسين الحالة المعيشية ، ويعتضد بها
الفكر في سبحه في موامى المسائل العقاية . تخصيص العلم بهذا التحديد
يسمح لنا أن نقول انه مر على الانسان حين من الدهر لم يكن يذكر
العلم باسمائه ، ولا يخطر بهجته ، فلم يكن له غير الدين قائداً ، ولم يكن
يعرف مصدراً لحياته سواه ، ولا قائماً على أحواله غير كهانه وحملته
أسراره . فكانت الهياكل كما تعلمه كيفية الاخبات لعبوده . ، تعرفه
ايضاً سبل المعيشة في جوده بل وتهيء له آلات تلك المعيشة .

في هذا الدور القديم كانت الامم منعزلة عن بعضها تقريباً وواقعة
في أشد حالات تنازع البقاء ، حاجاتهم الجسدية مستوعبة مواهب
عقولهم ، ومستولية بهولها على مشاعرهم ، ليس لافكارهم من الفراغ

ما يسمح لها بأن تجول في فيا في النظر ، أو تحلق بهم في جو العبر . وكان القائمون عليهم عاملين على تكثيف الحجب عليهم كيلا ينفذ اليهم بصيص من نور الوجود فيخلعوا نير سلطتهم ، ويتخلصوا من قيد سيطرتهم وكان هؤلاء التابعون من الجهل بالكون والحماية عن أسرارهم بحيث لم يشكهم الشك في شيء من عقائدهم ، ولم ينلهم الريب في أمر من أمور دينهم ، ودام الناس في هذه الظلمات يخرجون من غيب ويدخلون الى غيب ، اللهم إلا في أزمنة النبوات ، حتى جاء القرن الرابع قبل ميلاد عيسى عليه السلام فجال الفكر على نفسه جولة كسر بها كثيرا من اصفاده ، وتفصي من حائل كانت آخذة بقياده ، فكان له بعد ذلك شأن لا تكفي في بيانه الاشارة فاليك التفصيل .

* نقطة العقل *

كانت الامة اليونانية من حيث الدين مثلها كمثل سائر الامم الاخرى لا ميزة لها عليهم في شيء أخذت المدنية ومبادئ الصناعات والفنون عن المصريين الاقدمين فخرت على سمتها بما يناسب حالتها العقلية والاجتماعية وموقع بلادها ، وكان لها من صفاء جوها ، ورواق الطبيعة المحيطة بها أكبر منشط لافكار بنيتها على متابعة السير في باحات الرقي العقلي والروحاني مما صار له في تاريخ العالم الاثر الجميل الذي سيمر بك طرف منه ان شاء الله . فلنا انها كانت من جهة الدين على نفس الطريق الذي كان عليه غيرها من الاقدمين : تجسيم للقوى المدبرة

للكون وتعداد للآلهة المهيمنة عليه ، وأساطير خيالية ، تناسب حال تلك الآلهة الجسدانية . وكان ادراكهم للوجود لا يتعدى ماتنتهى اليه مشاعرهم ، فكانوا يتخيلون أن السماء مقر الآلهة وهى موضوعة على جبال (أولامبيا) وهى سلسلة جبال فى ترقية أوروبا بعضها فى مقدونيا وبعضها فى تساليا . وكانوا يتوهمون أن الغيوم التى تحيط بأعلا نقطة منها البالغ ارتفاعها (٢٩٧٣ مترا) تستر مدخل السماء عن أعين البشر . وكانت آلهتهم مقسمة الى أربع رتب : الرتبة الأولى (الآلهة العلويون) وهم المكونون لمجلس شورى السماء وعددهم اثني عشر يجتمعون فيتداولون فى الشؤون العامة والخاصة ويصدرون بذلك الاوامر المناسبة . وكان من أعضاء هذا المجلس (جوييتير) رئيس الآلهة و (نبتون) اله البحر و (ابولون) اله المعجزات والطب والادبيات والصنائع الخ و (منيرف) ابنة جوييتير الهة الحرب والعقل . الخ الخ الرتبة الثانية (الآلهة التابعون) وهم من الكثرة بحيث لا يحصى لهم عدد فقد كان لامة الرومان وحدها منهم أكثر من ثلاثين الفا الرتبة الثالثة (الآلهة الطبيعية) وهم السماء والارض والقمر والنجوم الخ

(الرتبة الرابعة) الآلهة الحيوية وهم الرجال الذين ينبغون منهم فى الشؤون الكبرى فتمنحهم الآلهة رتبة الالهوية بعد موتهم ومنهم (هيركرل) البطل الشهير . وقد كان هذا دأب الاولين فى تأليه كل من يسمو على غيره منهم حتى لا تكاد تعثر على أساطير ديانة قديمة

خالية من هذا الضرب من الجهل فقد كان الرومان يزعمون أن مؤسس مملكتهم (رومولوس) ابن الاله (مارس) وكان تلامذة أفلاطون المصريون يعتقدون أنه ابن الاله (أبولون) ولما فتح الاسكندر مصر وخلصها من جور الاعجام زعم سدة هيكل الاله (آمون) أن هذا الاله أخبرهم بأنه ابنه فكان المصريون والسوريون يقولون بذلك ويعتقدونه لدرجة لا يتصورها العقل (١)

كان إدراك اليونانيين لصفات الكمال اللاتقة بهؤلاء الالهة لا تتعدى درجتهم في العلم فكان آلهتهم رجالا ونساء مثلهم لهم أعين واسماع وغير معصومين من الشهوات والجرائم فقد زعموا أن الاله (أورانوس) كره أولاده وحبسهم في جهنم فجاء ابنه (ساتورن) فخلفه وحكم الكون بدله . أما سارتون هذا فحدث منه أنه كل أولاده ساعة ولادتهم وفاء لوعد كان وعده (للتيان) وهم من القوى السفلية أولاد السماء والارض فاحتالت (سيبل) امرأته فوضعت حجراً مكان أحد أولئك الاولاد وهو (جوييتير) فابتلع (ساتورن) ذلك الحجر ظناً أنه ابنه فنجى الولد ثم ثار ضد أبيه وعزله وطرده من السماء وحكم الكون بدله . أما (ساتورن) هذا فهبط في (اللاتيوم) وهو قطر قديم من ايطاليا الوسطى وصرف زمنه في تعصيد السلم وهبة البركات وتعليم الناس فنون الزرع وأساليب الحراثة

هذا موجز يسير من أساطير اليونان الأقدمين جئنا به كنموذج

(١) كتاب (المنازعة بين العلم والدين) تأليف الاستاذ الامركى الشهير (دواير)

لما كانوا عليه من جهة العقائد ، أما تفصيله فيحتاج لأسفار كثيرة لان هذه الآلهة لما كانت لا تعلو في نظر اليونانيين عن الأدميين الا في كونهم خالدين وان لهم التصرف في الكون فلا جرم كان يصدر منهم كما يصدر من الناس أنواع من التحاسد والتحاقد والتنازع ولا عجب بعد ذلك إن كان لكل منهم سيرة طويلة وتاريخ مسهب صقله خيال اليونانيين بصقال التصورات ، وذهبوا من الابداع الشعري به كل مذهب فكان للشعب فكاهة وديننا في آن واحد .

* (مبرأ النظر في الكونه) *

هذا كان حال اليونانيين من أول تكونهم الى القرن الرابع قبل الميلاد فماذا حدث بعد ذلك ؟ حدث ان طبيعة بلادهم القاحلة دفعتهم بوخزات الضرورة المعاشيه لامتناء صهوة البحر والاتجار في السواحل القريبة للاستعاضة عن الزائد من محاصيل بلادهم بما استدعيه حالة الحياة من مصنوعات الأمم الأخرى ومحصولاتها فارتقت لديهم مهنة الملاحة ونشأ لهم فيها غرام استحبال الى ملكة راسخة في نفوسهم فصاروا يتوغلون في البحر المتوسط شيئا فشيئا ويجوسون خلال الجزائر والثغور فوقفوا على ما كانوا لا يحلمون بوجوده قبل ذلك ولا يتخيلونه تخيلا

كان نتيجة هذه المشاهدات وغيرها ان اتسع نطاق فكرهم عما كان عليه وصار إدراكهم للكون أوسع مما ورثوه من أساطير

آبائهم الأولين ، فنشأ تناقض بين ما وصلوا اليه من سجة الفكر وما عليه دينهم من حرج المدركات فسرى الشك إلى نفوسهم ولم يبق للدين في نظرهم مقامه السابق . وما زالت الريب تنتقل من قواد إلى قواد حتى توجس حمله تلك الأساطير خيفة على مستقبل العقائد ، فقرروا العقوبات المختلفة لأصحاب النزغات الالحادية بمصادرتهم في الأموال ونفيمهم من البلاد أو بقتلهم بالسّم أو النار أو الرجم ، فلم تنجع تلك الوسائل بل استمر العقل آخذاً مجراه في التخلص من نير الضغط والحجر وكان موقف العقائد القديمة بازاء هذه الحركة من أخرج المواقف حتى انتهى الأمر بتلاشيها بالمرّة ولكن بعد أن جازت ثلاثة أدوار متوالية يلزمنا أن نهيباً شيئاً من التفصيل لأنها من القوانين الثابتة التي تنتاب العقائد الباطلة .

* (الدور التي تنساب العقائد الباطلة) *

لما سرى بين اليونانيين الشك في عقائدهم من جراء اتساع نطاق فكرهم وقف السواد الأعظم بازائها ثلاث مواقف متوالية يعد كل منها دور من أدوار ثلاثة . (١) زعموا أولاً أن الأقدمين لا يجوز عليهم تصديق الأباطيل ولا يتصور أنهم ينخدعون لخراف الخرافات مع رجاحة عقولهم وسمو مداركهم . قالوا : فلو لم تكن هذه العقائد حقة لا غبار عليها لما تمسكوا بأهدابها هذا التمسك الذي له في الكتب الأمثلة المدهشة . وضعوا هذه الثقة بأسلافهم نصب أعينهم وقاموا

يحاربون الشاكين بكل ما يصل اليه امكانهم . ولبثوا على هذا الحال أمداً حتى ازداد تيار الشك في الأذهان وكادت تكون له الأغلبية واعتادته الاسماع فاستحال التشدد السابق بحكم الضرورة إلى شيء من التساهل في الدور الثاني (٢) وذلك أنهم أخذوا يقررون بأن هذه العقائد لا يجوز أن تؤخذ على علاقتها بصورتها المادية فما هي إلا رموز لمدرجات عالية ليس المقصود منها مدلولاتها القريبة . فما الآلهة في تناسلهم وتنازعهم وتصرفاتهم ، وما السماء في عجائبها إلا إشارات لاسرار عظمى ، ورموز لمفاهيم جلى قرروا هذا الأصل ثم طفقوا يطبقونها على ما وصلت اليه أفكارهم من الرقى العلى والفلسفى وقنعوا بذلك أمداً مناسباً حتى نمت عليهم بالكون إلى درجة أصبح من العبث الجود على الماضى وادعاء قدسيته فدخلوا فى الدور الثالث (٣) وهو اعتقاد بطلانها بالمرّة .

هذه سنة الأمم كافة من جهة التصديق بالعقائد الباطلة : يحل الشك أولاً محل الاحترام المطلق لها ، ثم يتطور الشك ويتدرج فى أدمغة التحمسين إلى شرحها وتأويلها والسعى فى تطبيقها على المدرجات الجديدة ، ثم يقع أصحاب البصر فى الخلاف والتلاحي من جرائها حتى ينتهى الأمر بتركها بالمرّة . وهذا بعينه ما حصل للأوروبيين بالنسبة لعقائدهم فان الحروب الصليبية التى شرعوا فيها فى القرن الحادى عشر لكسر شوكة المسلمين وانتزاع بيت المقدس من يدهم سمحت لهم بالاشراف على تلك المدينة الباهرة التى أقامها المسلمون فى سوريا أحد إيلات

الملك الاسلامى الفخيم ، فأثرت فى أفكارهم تأثيرا كبيرا وحولت من مجراها بعض الشيء فحدث الشك فى العقائد وصار اللغظ به كبيرا فالتجأت رئاستهم الدينية لتأليف محكمة التفتيش لمعاينة المبتدعة بالقتل والحرق والتمثيل حتى عدت على حياة أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة من كبار الرجال وغيرهم ومع هذه الشدة والصرامة لم تستطع أن توقف تيار الشك بوجه من الوجوه قال الأستاذ (درابر) فى كتابه (المناظرة بين العلم والدين) « ان محكمة التفتيش لم تنجح فى عملها رغماعن سلطتها الكبرى . ولما لم يستطع المبتدع النجاة من غوائلها كان يلجأ إلى كتمان شكوكه وعدم إظهارها فكانت نتيجة هذا أن انتشر الشك فى جميع أرجاء أوربا » انتهى

ثم أعقب هذا الشك الذى عم الناس أن تحمس بعض المتدينين من ذوى البصر وتعصبوا للدين وقاموا فى طريق وسط بين الحزبين وسعوا فى إيجاد التوفيق بين العلم والعقائد ولكن انتهى الأمر باتساع مسافة الخلاف بين العلم ومقررات الدين ففشلوا فشلا لم يقوموا بعده قال الأستاذ (درابر) فى المتقدم : « لقد قام عدد عديد من رجال الخير ذوى النوايا الصالحة وسعوا فى التوفيق بين مقررات خلق الكون من الكتاب المقدس وبين مكتشفات العلم ، ولكن كان الخلاف بينهما قد وصل الى حد أن أصبح فى حكم المقرر انهجاء أحدهما بالمرءة » . انتهى

ثم انتهى هذا الدور فى القرن السابع عشر وحل محله اعتقاد المنافاة

التامة بين العلم والدين ، وتقرر لديهم بأنها عدوان لدودان ، وضدان لا يجتمعان ، وسرت تلك العقيدة من العلماء إلى الأمراء ومنهم إلى الخاصة فالعامة ، فلم يسع الناس إلا الانحياز لجهة العلم مدفوعين بالضرورة ، ومحفوزين بحكم الحاجة لما يرون من خيرات العلم وبركاته وما يتنعمون فيه من اكتشافاته وابتكاراته وسيتهى الأمر كما يكتبون في كتابهم بزوال الدين بالمرّة ، ولا يريدون بالدين الدين المطلق بل الدين بالمعنى الذى قام بحفظه سدنة اليهاكل ، وخدمة المعابد ؛ أما الدين المطلق فهم بازائه على أقسام شتى على حسب مذاهبهم مما سيبحثه كلامنا عليه إن شاء الله تعالى .

* نظرة على ماسبى *

إذا تقرر هذا فهل نحن أيضاً على ذات الطريق الذى سارت الأمم عليه قبلنا وهل لامناص لنا من التطواف على هذه الادوار الثلاثة حتى ينتهى بنا الأمر إلى المروق التام من الدين ؟ يقول قائل « نعم وقد اجتزتم منه عقبة وأنتم اليوم فى العقبة الثانية وليس بينكم وبين الدور الذى فيه أوروبا الاقارعة نصب عليكم قترىكم أن سبب انحطاطكم هو عدم العلم لعدم الدين ، وأن أوروبا لم تأخذ بمتنفسكم ولم تمسك بأكظاءكم فى كل شأن من شؤون حياتكم إلا بوسائل العلوم الطبيعية ، والاكتشافات الفنية ، لا بالوسائل الاعتقادية ، والمقالات الجدلية »

ولئن سألت هذا القائل عن تفسير ما قاله من اننا اجتزنا الدور الاول من الادوار الثلاثة ونحن في الدور الثاني وعلى مقربة من الثالث لقال : « لا اذهب بكم بعيداً ، هاهو قطركم المصرى لبث تلك الاجيال الطويلة من عهد فتح مصر بالجيوش الاسلامية الى آخر عهد المماليك وهو جاعل من العقيدة حصنه الحصين ، وركنه الركين ، وقد توالى عليه الغارات والفتوحات ، وتداولته الامم المختلفة وهو لم يتحول عن تلك الحالة حتى هل القرن الثانى عشر الهجرى ودهمته الجيوش الفرنسية وأعقب ذلك تكون حكومة منتظمة فى البلاد غيرة على صالح الأمة وترقيتها على مقتضى روح المدنية الأوروبية ، فشيدت دور العلوم والصنائع وأقامت معالم المعارف والفنون ، وأرادت اعطاء هذه الحركة الممددة حقها فأرسلت عدداً كبيراً من أبناء البلاد إلى أوروبا للاشراف على أسرار المدنية من قرب ، فلم يكده هؤلاء الشبان يشرفون على تلك المعاهد الفخيمة وينفون على هاتيك المعالم الباهرة ويرتضعون ثدى العلم الجديد حتى أحسوا بالبون الشاسع بين ما ورثوه عن آبائهم من العقائد وبين ما عليه الوجود من الفخامة والجلال فسرى الشك اليهم سريان النار فى الهشيم فجاءوا إلى بلادهم وفى نفوسهم من الهواجس والشبه ما فيها فظاهروا بالتفرنج والتقليد ، وتركوا من العادات ما لا يتفق مع الفكر الجديد ، .

فماذا حدث من هذا الانقلاب السريع ؟ حدث أن حمى وطيس التحمس للدين فى بعض الأدمغة الحريصة على ذكرى الماضى فأخذت

تصيح بانطباق الدين على المدنية ، وعدم منافاة العقائد للعلوم الطبيعية .
وقد كتبتم فى ذلك المجلات والكتب ، وواليتم فيه الابحاث
والخطب ولم يزل كتابكم يزاولون هذه المجاهدات الشاقة إلى اليوم .
فهل ينتظر بكم بعد هذا إلا الوقوع فى الدور الثالث وهو تحقيقكم
أن العلم ينافى الدين ؛ وأن العلم منبع الحياة الحقيقية ؛ وملاك السعادة
الانسانية : وأن للأديان أزمنة خاصة فى تاريخ الانسان تؤدى وظيفتها
ثم تنتهى بانتهاء دورها ؟ وهل مثلكم بالنسبة للأدوار التى قدرت
للإنسان إلا كمثل غيركم ، فإذا كان غيركم مر على هذه الادوار وانتهى
إلى ماترون فلماذا تزعمون أنكم لا تنتهون إلى حيث انتهى وتقفون من
الحياة حيث وقف . »

هذا ما يستطيع أن يقوله قائل تشبع فكره بأبحاث الماديين
من هدمه العقائد الباطلة فى أوروبا أو تقليدا لمن تشبع فكره بها وأنا
لنعلم ان القائلين بهذا القول فى البلاد الشرقية قليل ولكنه فى زعمنا
من الشبه التى وقع الناس فيها بالعمل قبل ان يدركها فكرهم بالتصور
وهى لفحة من لفحات المدنية المادية التى حكم علينا بالاحتكاك بها
والافتتان بمظاهرها .

هذا القائل لو درى ما هى الغاية التى خلق النوع الانسانى مسوقا
إليها ، وما هى الدوافع التى تدفعه فى خلال القرون والحوادث للتوجه
إليها ، وما هو سر الحياة الانسانية والعواطف القلبية ، ثم علم ما هو
الاسلام فى ذاته ، وما علاقته بالنفس البشرية وباحساساتها الداخلية ،

وما الغرض منه لتحقيق ان شبهته هذه التي هدمت العقائد الباطلة وجعلتها خيرا لكان هي بالنسبة للاسلام أو هي من بيت العناكب، وأضعف من أن تسمى شبهة بل لعلم علما يقينيا ان شبهته هذه هي ادل الادلة على أن الاسلام دين الله ، وان العالم مسير اليه بدوافع الطبيعة ، ونواميس الحياة ، لأنه دين الفطرة الأصلية المجردة من الآوهام والباطيل ومطلب الروح الاقصى المنزه عن الوسوس والأضاليل ، ولكن ماذا يغني هذا القول مجردا عن الدليل ، وعاريا عن الشرح والتفصيل ، بل ماذا يفعل في خصمنا ان لم نقف في حيزه الذي هو فيه ليعلم انا وإياه في مستو واحد ثم نساوره من قرب بنفس علومه مقررات معارفه مما يتوهم انها أكبر هو ادم العقائد ، وأقوى معاول الخيالات ، ليعرف أننا لا ندافع عن حقائقنا من وراء حجب تحاميا من صولة العلم ، وتحاشيا من مواجهة اصوله وقوانينه .

هذا وظيفة كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فاقراً حل هذه الشبهة هناك ولنرجع نحن الى متابعة الكلام على تاريخ نشأة الروح العلمية فنقول :

﴿ نشأة الروح العلمية التي يسيطر بها ﴾

(الغرب على الشرق)

قلنا ان الأمة اليونانية القديمة مصدر نشأة الروح العلمية التي أيقظت العقل من سباته وفكته من قيوده حينما ألقت بنفسها على أسنمة الامواج تجوب البلاد. وتخترق الآفاق ورأت ما رأت من عظم الكون وجلالته مما شككها في دينها وأنزل من قوادها مقام أساطيرها ، ولكننا وقفنا بالقارىء وقفة كان لابد لنا منها صيدا لشاردة العبر ، وتأملنا في سنة البشر ، ونريد اليوم تميم الكلام فنقول :

ما زال اليونانيون يجوسون خلال الثغور والامم البحرية للتجار حتى مروا على السياحات وصارت لهم الملاحة ملكة راسخة وتبع هذا اتساع في نطاق مداركهم ، وتهذب في عواطفهم ، ورقية في طبائعهم من كثرة اشرافهم على أجناس الشعوب في رحلهم واناقتهم على مختلفات القوانين ، ومتباينات النظمات ، واحتكاكهم بصنوف الامم المتخالفة في عوائدها وعقائدها وألوانها ولغاتها كل هذا وما وهبه اليونانيون من مضاء الفكر وحب النظر وحسن التأثر بالمشاهدات قذفت بهم الى باحات من الرقى العقلي فاقوا به سائر الامم المعاصرة لهم .

كان اليونانيون في ذلك الوقت أى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد منقسمين الى قسمين : قسم فى أوروبا وآخر فى آسيا . الثانى كان راضحا لنيرالفارسيين لا يحدث نفسه بالاستقلال ولا يمينها بتغيير

الحال أما الأول فكان نشوان من خمرة الحرية ، عدوا للاستبداد والعبودية وكان منقسما الى ممالك عديدة لكل منها ملك خاص ونظام خاص وكان يقع بينهم النزاع كما يقع بين الامم المتخالفة الاجناس ولكن ذلك لم يكن ليمنعهم من الاتحاد على بلوغ غرض عام احيانا كما اتحدوا على مقارعة الفارسيين في القرن الخامس قبل الميلاد حينما أرادوا أن ينشروا عليهم سلطانهم . وكان هذا الانقسام داعيا لبعض ذوى الاطماع الواسعة من أولئك الملوك لمحاولة اخضاع اخوانه لسيطرته فكانت تقع بينهم الحروب من جراء هذا الامر وتضطلم كثيرا من زهرة نشأتهم وتصدم بعض الشيء عن بلوغ نهاية ما قدر لهم .

كان من أولئك الذين تاقوا الى توحيد اليونانيين فيليب المقدوني لما بينهم وبينه من صلة الرحم فبدأ في تميم مشروعه بشن الغارة على المدائن المتاخمة لبلاده فلم يؤبه به اليونانيون رغماً عن نداء خطيبهم الشهير (ديموستين) ولم يدركوا الخطر المحقق بهم الا في سنة (٣٣٨ ق . م) فقاوموه بالقوة فهزمهم وأخضعهم لصولجانه وعين نفسه قائداً عاما للجيش اليونانية وعزم على الاغارة على بلاد الفرس فكن له يوناني قاتله فخلفه ابنه (الاسكندر) الاكبر سنة (٣٣٦ ق . م) وعين نفسه في كورنت قائدا عاما لليونانيين وعزم على فتح بلاد الفرس وتتميم رغائب أبيه .

﴿ سبب توق اليونانيين إلى فتح فارس ﴾

كان ملك العجم في القرن الخامس ضريب ملك الرومان فكانت مساحته تبلغ نصف مساحة اوربا يمتد من سواحل البحر الأبيض الى سواحل البحر الأسود فيبحر أيجيه فيبحر قزوين فيبحر الهند فالبحر الأحمر وكانت به ستة من أكبر أنهار العالم وهي الدجلة والفرات والأندوس والأكسوس وجاكسارت والنيل تفيض كل عام بالخيرات والبركات على البلاد التي تمر بها فتغمر أهلها من نعيم العيش وخفض الحياة بما يسمح لهم باستثمار قوة العقل واستثارة كنوز الفكر واستنباط غرائب الصنائع وعجائب الفنون ، فلا جرم كانت بلاد الفرس حديقة العالم الأرضي ونموذجا لغاية مايمكن الوصول اليه في تلك الاجيال من المدنية الصناعية والحضارة .

أمة هذا شأنها من العظمة وسعة السلطان وكثرة الجند والمال لم تكن تحسب لليونانيين حسابا في قلة عددهم ووهن وسائلهم فكانت من أمن جانبهم بحيث لا تتحامي أن تستخدمهم في جيوشها لمقارعة أعداء دولتها ومن هنا ادرك اليونانيون جهة الضعف في جنديتها فصارت نفوسهم تحذوهم بامكان قلب سلطانها واكتساح كنوزها ، وكان فيليب ملك مقدونيا أكبر من حدث نفسه بذلك الأمر الجلل ولم يثنه عن عزمه الا طعنة ذلك اليوناني كما ذكره .

خلفه ابنه (الاسكندر) فلبث ريثما استتب له أمر الحكومة ثم

جال بخاطره ما كان يحول بخاطر والده من فتح بلاد الفرس فسار اليها بأربعة وثلاثين ألف راجل وأربعة آلاف فارس في سنة (٣٣٦ ق . م) ودخل آسيا الصغرى والتقى بجيش الفرس فكان النصر في جانبه في آسيا الصغرى ولبت بها ريثما نظم حكومتها ثم اتجه لفتح سوريا فصادف جيش (دارا) ملك الفرس يموج في ستمائة ألف مقاتل فلم يغنه كثرة عدده شيئاً فولى الادبار فاتجه الاسكندر للجنوب خوفاً من ان يقطع الفرس عليه خط الرجعة ثم جمع أركان حربه وشاورهم في الأمر فاجمعوا على لزوم فتح صور تحاميا من أن يشن الفرس الغارة على بلاد اليونان فيحملون على النكوص على أعقابهم وترك مغائرتهم فحاصرها فقاومتها ستة أشهر ثم دخلها وسلت له اورشليم فاتجه الى غزة ففتحها عنوة ثم اتجه للقطر المصري فطوعه ونظم حكومته ثم رجع الى سوريا بأربعين ألف محارب واجتاز نهر الفرات فصادف في الشاطئ الايسر جيشاً فارسياً مؤلفاً من مليون ومائة ألف مقاتل فالتقت الفئتان وانتهت الواقعة بهزيمة الفرس وحدث أن قتل (دارا) بعدها بقليل فصفا الأمر للاسكندر فجاست خيله خلال ذلك الملك البازخ بلا مزاحم ولا مقاوم وأخذت من خزائن الفارسيين وكنوزهم مالا يقبل الاحصاء ولا يدخل في حسابان .

﴿ نتيجة هذا الفتح على اليونانيين ﴾

﴿ وتأثير المدنية على العقائد الباطلة ﴾

نشأ لليونانيين من جراء هذا الفتح نمو سريع في ملكاتهم وفكرة

كبرى على عظمة الكون وجلالة الوجود ، وناهيك بقوم فيهم قابلية للحركة الفكرية والرقى العقلى مطبوعين على التأثر بالمناظر والمشاهد يمرون فى ردى قليل من الزمن على معاهد المدنات القديمة ويجمعون فى وقت واحد بين الينوعين العظيمين للندنفة الانسانية أى النيل فى مصر والجانج فى الهند ويمرون بينها على تلك المدنات الصغرة التى استمدت حياتها من ذنك الينوعين كأمم الاشوريين والميدين والليدين والبابليين وغيرها .

رأوا الاهرام القائمة تناغى السحاب وتسامر الكواكب ، وتلك النصب المنصوبة من منذ آلاف من السنين تخلد ذكر ملوك قادوا الكتائب ، وزانوا العروش والمواكب ، ثم شارفوا بعد ذلك منصات سلاطين الاشوريين المحفوفة بالاصنام ذوات الاجنحة ، وشاهدوا بقايا هيكل بعل وهو من العلو بحيث تكنفه السحب من كل جانب . ورأوا فوقه مرصد الافلاك ، اذا تنزلت منه على تلك الامة أساطير دينها الذى باعت له أرواح بنيا وصحت من أجله أفلاذا أكبادهم ، ثم أبصروا ذنك القصرين الشهيرين بحداثتها المعلقة فى الهواء على أعمدة متينة وفيها من ضخام الاشجار وعظام الدوح ما لا يقل عما على البسيطة منها . وبصروا ببقايا تلك الآلات الضخمة العجبة التى كانت ترفع المياه الى تلك الحداثق الهوائية .

ثم استعرضوا بلاد العجم ورأوا من عجائب المندنفة ما هو أحدث عهدا من كل ما سبق : لحظوا أووين (يرسوپوايس) المعلقة على أعمدة

محلاة بالنقوش الغريبة وشهدوا تلك التماثيل الضخمة والأنصاب
الباذخة ومروا من هناك اكباتان مصيف الاكاسرة الفخام وهي
محاطة بسبعة أسوار مبنية بالأحجار المفصلة المصقولة ذات الألوان
المختلفة وهي ترتفع لجهة المركز لتعطى بذلك صورة مدارات
الكواكب السبعة . وأموا ذلك القصر الذى غشيت ثقوفه بالفضة
الناصعة وكسيت خشبه بطبقات من الذهب الوهاج وعانوا تلك
الآهله المصنوعة من النفط التى كانت تضيء ذلك القصر بما يشبه
ضوء النهار .

نعم رأى اليونانيون كل هذا الملك الباذخ وتأملوه جيداً فكانوا
يشرفون فى كل خطوة يخطونها على مشاهد لم يحلموا بوجودها ولم تتولد
فى خيالهم صورتها ولما كانوا هم بطبعهم أميل الامم للنظر والتأثر
بعجائب المخلوقات فقد صادفوا فى هذا الملك الواسع ما يبيل غليلهم
ويشفي صدورهم فينبأهم وسط صحراء رمالية لا يتصور الوهم
لها حدا اذا هم بسفح جبل ينقطع شعاع البصر دون بلوغ ذروته علوا
وشموخا ، هذا عدا عما كانوا يمرون به من التلال والظلال والوهاد
والنجد والحيوانات المختلفة الاشكال والألوان والأحجام والنباتات
المتباينة الاجناس والفصائل مما لم يكونوا يتوهمون له وجودا .

فماذا كان من نتيجة ذلك على عقائدهم ؟ كان ولاشك الحكم البات
على بطلان أساطيرهم والجزم بأنها من مخترعات كهانهم ، وبذلك أصبح
الشك الذى كان اعتراهم من جرى رحلاتهم السابقة حكما جازما

وعقيدة راسخة . وقد أثرت عليهم هذه المشاهد تأثيرا أنام عاطفة الدين من نفوسهم مرة واحدة وقذف بهم الى متاهات الالحاد المطلق فلم يعودوا بعدها يصدقون بشيء واعتبروا سائر العقائد صورا ولدها الخيال وجسمها الوهم وغلوا في الشك والتشكيك حتى شكوا في وجود المحسوسات ووجود أنفسهم .

* نظرة على ماضي *

((لماذا تؤثر المدنية على العقائد))

نحن بعد أن جلنا بالقارىء هذه الجولة التاريخية يحسن بنا أن نسأل أنفسنا قائلين : ما هذا التلازم بين الرقى المادى والشكوك فى الدين ؟ وما هذه العلاقة الاكيدة بين العلم بالكون والالحاد ؟ لو كان هذا شأن أمة من الأمم لقلنا ان له سببا عرضيا استدعته حالة من أحوالها الخاصة ولكنه يشاهد فى جميع الأمم على حد سواء (الا الأمة الاسلامية) وأظهر مثال لنا ما نشاهده بأعيننا من الأوربيين فانهم أصبحوا من ترك العقائد بحيث لا يستطيع أن تتخيل امكان رجوعهم اليها وقد علقوا رقيهم كله على تركها وكل حين تردنا كتبهم ومجلاتهم مفعمة بالمطاعن الشديدة على البقية الباقية منهم على عقائدها ، فهل فى هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة ان الدين باعته الجهل ومادته العماية عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الأديان الموجودة هى حوادث تاريخية استلزمتهأ أدوار خاصة وقد أدت وظيفتها وأخذت فى الانحلال ولن يقوم لها فى عصر العلم قائمة ؟

إن كان لا هذا ولا ذاك كما برهنا عليه في الفصل السابق وكما سنعود اليه ان شاء الله بصور مختلفة ، فهل في الرقى المادى شيء من السحر يعترى النفوس فيلفتها عن مطالب أرواحها ويعميها عن رؤية كمالاتها ؟

إن كان كذلك فما هو ذلك السحر في نفسه وما منشأه وكيف يؤثر على العقول هذا التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن أن يوجد على سطح الأرض مدنية مادية متحدة بكالات روحانية ويكون الانسان بينهما مغمورا في نعيم روحه وجسده متمتعا بلذائذ مادته ومعناه ؟ ان كان لا يمكن ذلك فهل شرع الدين ليكون مقصوراً على الفقراء والمساكين وموقوفا على المحرومين والمستضعفين ؟

وإن كان من الممكن جمع مدنية مادية أو كالات روحية فما بال بعض المسلمين الذين قضى عليهم بالاحتكاك في قشور هذه المدنية الأوروبية قد خلعوا أعنة الدين ، وأملسوا من وشيجة العقيدة ؟

ليس من العدل أن نصهم كلهم بالعماية والطيش فان منهم المتعلم الذى يفخر به معلموه ، والسمح الذى هام به محبوه ، والأريحي الذى يحمده قاصدوه ، فما الذى أمال أعناق هؤلاء الى الهوى ودفعهم الى الردى ؟ واذا كان لامناص من أن يكون الرقى المادى يقابله عدم الدين وقد رأينا بوادره فى اخواتنا الأقربين فانتظر اذن حيناً من الدهر لا تصادف فيه راكعاً فى محراب ، ولاداعياً الى غير شراب ، لان المدنية الصناعية آخذة فى الانتشار ومتسربة الى سائر الأمصار ،

وانك ترى أنها تعدت من كبار الافراد الى من يليهم ومن يليهم الى من دونهم حتى دخلت الى قرى الفلاحين ، وكادت تطرق الباب على صغار الحراثين ، فان كان كما قلنا في المدنية شيء مما نسميه سحرا فقد قرب الوقت الذي ندعو فيه الى الدين فلا يجيبنا غير الصدى ، ويذهب كل ما كتبناه في الحث على التخلق به سدى ؟

أليست هذه مسألة يجب التعمق فيها لادراك سرها ، والوقوف على حقيقة أمرها ، لنعرف مكان الداء وحقيقة الدواء تفاديا من التعب في غير متعب ، وهربا من الذهاب في غير مذهب ؟

ماهى المدنية وما تأثيرها على الروح الانسانية ؟ ماهى الشهوات الجثمانية وماهى الكمالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الانسان الشهوات الفانية على الكمالات الباقية ؟ هل السبب في ذلك عدم الايمان ؟ فما هو الايمان ؟ كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل فى العلوم المادية ما يقوم مقام الدين فى إيتاء الروح حاجتها وتهدة النفس فى جيشانها ؟ هل فيها ما يغذى عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الارضية وتكتفى بملاذها الجسدية ؟ هل نمو القوة العقلية ينتهى بالانسان الى اعتقاد بطلان الأديان ، وادراك فساد ما بنيت عليه من الأركان ، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل حتى يتم الأمر بزوال الدين وانتهاء سلطته ، وقيام العقل مقامه فى أداء وظيفته ؟ يمكن أن يقال نعم ، وان يقال لا .

ان قيل نعم فما هو العقل وما هو الدين وما حدود ساطانهما على النفوس ؟ هل هما يتنازعا ان الانسان من جهة مشتركة فيكون هو للغالب

منهما دون الآخر ، أم لكل منها دائرة نفوذ خاصة يؤثر على الانسان من قبلها ؟ ان كانا يتنازعان الانسان من جهة واحدة فما هي تلك الجهة منه ، وان كان لكل منها جهة خاصة فما هي جهة ساطة العقل وما هي جهة سلطة الدين ؟

وان قيل لا . نقول : اذن ما هذا الاثر الذي نشاهده ؟ لماذا نرى كل من ازداد علما بالكون وبالأمم من أصحاب الاديان سواء الاقدمين أو المحدثين يشكون في العقائد ويتهاونون في أمرها ، ولا يزالون كذلك حتى يتركوها بالمرّة ؟

ان قيل : ذلك لما تسهله المدنية لهم من أسباب اللهو والترف ، وما يجلبه لهم من المغريات على الخلاعة والسرف . نقول : وكيف يقوم لامثال هذه الامم قائمة وكل ما ذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ، عاد على كيان حوافظها الاصلية ؟ هل ذلك لانا واهمون في تحديد ماهية الفضيلة وماهية الرذيلة ؟ ماذا يكون جوابنا لو استشكل علينا خصم فقال :

« إنكم سميتم عاداتكم فضائل ودعوتم أضدادها رذائل وجعلتم ذلك قانونا تحكمون به على الامم والأفراد فيذهب كل يوم حكمكم أدراج الرياح . تطبقون عاداتكم على أمم الغرب فلا تنطبق عليها فتحكمون عليها بأنها بعيدة عن الفضيلة وترون فيها أضداد عاداتكم فتحسبونها رذائل فتسرعون بالقضاء عليها بقرب الزوال والتلاشي . والحقيقة غير ما تحكمون وما تظنون . »

« انكم تنظرون الى الربا فتظنونه رذيلة مجتاحة (هذا قول المعارض) مع أن عليه تدور دائرة التعامل في العالم المتمدن كله وبه تتوطد الدعائم الاقتصادية فيه . وتلتفتون إلى الخمر فتعدونها رذيلة حتى الاعتدال فيها مع أنها المورد الأكبر لمالية الأمم المتقدمة ، وترنون الى مسألة تكشف النساء وحضورهن في مجالس الرجال فتخالونه رذيلة مع أنه أهم الأسباب التي رقت الأوربيين وأخذت بأيديهم الى مكانات العلاء والرفعة . وهكذا سميت كل ماخالفكم فيه غيركم رذيلة وهي في الحقيقة فضيلة وصرتم تثرثرون بها كل يوم حتى اعتادتها الاسماع ولم يعد لها تأثير .

« انكم تتعجبون من كونكم مسحويين من أنوفكم الى تقليد الأوربيين والأخذ بعاداتهم وتذهبون في تحليل هذا الأمر مذاهب الخيال والشعر فتسمونه سحراً أو تسمونه روحاً . وقد جعلتم التفهيق بأمثال هذه الكلمات مادة لكم في أبحاثكم وكتاباتكم . أتدرون ما تجدونه في أنفسكم من الاندفاع للتقليد أثر أى قوة هو ؟ هو أثر قوة الفضيلة في الأمم التي تحتكون بها لأن الفضيلة جذابة خلاصة تؤثر تأثير السحر على العواطف والأموال فهي تجذبكم كل يوم اليها بقوتها الذاتية فترضخون لأحكامها بالفعل بينما تكون السنتكم وأقلامكم لائكة تلك العبارات الاستفهامية والجمال التعجبية اندهاشاً من كونكم مسحورين بالردائل ومجبرين على ترك الفضائل . فعايكم أن تبصروا وتجيدوا استعمال الروية ، قبل أن تقع على عاتق المهوورين من

كتابكم المسئولية ، مسئولية صدالشرق عن الاستفادة من خير المدنية «
 هذا ما يستطيع أن يقوله مجادل عنيد في مناسبة ماسقناه من
 النبذة التاريخية وماتساءلنا عنه من ذلك المؤثر الذى يؤثر على العقيدة
 الدينية فى عصور المدنية . وهو من الشبه الرائجة فى أيامنا هذه على
 ألسنة بعض الناس ممن يستطيعون التعبير . وفى ضمائر البعض الآخر
 ممن لا يحسنون القول والقليل . فلا مناص لنا من حلها حلا جلياً تفصيلاً
 إن شاء الله تعالى ، لأنهما من أحاييل شياطين الشرق اليوم التى وقع فيها
 كثير من أفراد النشأة الجديدة مسوقين إليها بتيارين : تيار سحر الزخرف
 الصناعى المنصب إلينا من أوروبا وتيار القوة والنفوذ اللذين هما
 فى جانب الغرب اليوم .

هذان التياران وإن كانا فى العادة دافعين هائلين للأمم المستضعفة
 الى الانحلال ، إلا أنها لا يبلغان غاية قوتها إلا أمام الأمم الجاهلة
 الغافلة عن سر الحياة ، التى لا تسمح لها عمايتها بالتفكر فيما بعد يومها
 الذى هى فيه ، وتوهمها وساوسها بأن الحال لن يتغير عما هو عليه .
 وإن العالم قد طبع بطابع نهائى أى إن القوى يبقى قويا الى الأبد
 والضعيف لا يبرح ضعيفا الى الأبد ، ولا معنى لهذا إلا اليأس بعينه
 وهو أشد درجات الكفر فى مذهبنا ،

فالعلم والحالة هذه يفتح للأرواح باب الأمل الواسع ويحلهم
 بساحة الرجاء المنعش فيطلبون الحياة بمالديهم من الوسائل فان
 أكدت الوسائل إليها ولو بالتمنى ، واحتموا بذلك من اليأس الذى هو

طاعون الهمم ، و سرطان الشعوب والامم ، ولولم يكن في حلولنا لهذه الشبه الا الالمام بشيء من أسرار الحياة لكفى به نتيجة عظيم ولا محل لتلك الحلول غير كتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم عسى أن يصادفنا من نوره الاقدس شعاع نستقيم بلآلئه على المنهاج السوى ، والصراط الآلى ، والله مولانا فنعم المولى ونعم النصير .

* تأثير فتح بلاد الفرس على اليونانيين *

(من جهة العلم والفلسفة)

درسنا فى الفصل المتقدم الأثر الذى أحدثته على عقائد اليونانيين معالم المدنية المادية فى بلاد الفرس ومستعمراتها الواسعة ، ثم وقفنا بالقارىء وقفة اعتبار وتأمل وقلنا فى ذلك ماشاء الله أن نقول على مقتضى أسلوبنا فى هذه المباحث ، ونريد اليوم العود إلى موضوعنا الأسمى لاستيفاء درس ذلك التأثير من جميع وجوهه العلمية والفلسفية فنقول :

وجد اليونانيون بازاء تلك الكنوز الثمينة من اللجين والعقيان ، والجواهر والذهبان ، والأبنية التى كانت تناغى الكواكب ، وتسامى الدرارى الثواقب ، كنوزا أدبية أثنى قيمة ، وأغلا ثمنا ، وأصلح لإقامة الحياة الانسانية ، وألقى بعواطف الفطرة البشرية ، وهى نتائج أفكار تلك الأمم القديمة التى كان يتكون منها ذلك الملك الفارسى الضخم من الكلدانيين والبابليين وغيرهم من الشعوب العريقة فى القدم من

كانت مدنياتهم بين جدولي الدجلة والفرات تهر الانظار، وتحير المدارك،
وتدلنا نحن، ونحن أبناء القرن العشرين، على مقدار ما كان يبذله قادة
أفكار تلك الامم من المجهودات الفكرية، والمحاولات النظرية، مما
يليق أن نعجب به وتتعجب منه.

وجد اليونانيون في بلاد البابليين من ذخائر العلوم الفلكية جواهر
لا توازيها الجواهر، وكنوزا دونها الذهب الباهر، كأسباب الخسوف
والكسوف وطرق معرفة أوقات حصولها بالضبط، وعثروا على جداول
تبين مواقع النجوم من السماء، ومواضعها من الاجواء، مع بيان ثبات
ثابتها، وحركة متحركها، ومنازلها بالنسبة إلى أخواتها، مع معرفة
مقادير الابعاد الشاسعة التي تفصل بعضها عن بعض، ووقفوا على غير
هذا من الآلات الفلكية، والمعدات الرصدية، والعدسات المكبرة،
والمعادلات الرياضية النافعة مما لا يكفي في العثور عليه القرون المتطاولة،
والاحقاب المترامية.

رأى اليونانيون كل هذا ولا تسلم عما أحدثه على عقولهم ونفوسهم
وهم قوم لم يكونوا لذلك الحين اعتادوا من أعمال المواهب الادبية غير
التأملات المطبوعة بطابع الاساطير الوهمية، المقيسة على خرافاتهم
الاعتقادية.

كان هذا تأثير هذا الفتح العظيم على اليونانيين من جهة العلوم النظرية
والتجريبية أما أثره عليهم من جهة الفلسفة والحكمة فما لا يستهان به.
عاش اليونانيون تلك القرون كلها وهم بين يدي كهان الهياكل وسدنة

المعابد ، افكارهم أسرى تعاليمهم ، وعقولهم وقف على تصديقهم ، كأن رؤسائهم أرواحهم التي بها يتحركون ، ومشاعرهم التي بها يشعرون ويتأثرون ، كما هو شأن كل الامم الطفلة بين يدي قادتها المتغلبين ، وسادتها الروحانيين ، ولم يكونوا لذلك العهد قد وقفوا من أسرار الحكمة التي نزل بها الوحي على بعض الامم ، أو من الاساطير المؤنقة التي ولدتها وصقلتها قرائح الشعوب الراقية ، على شيء يصلح لان يحدث حركة في افكارهم ، أو يستجيش من غيابة ضائرهم مكنون ملكاتهم ، إلا أنهم لما شارفوا هذه الامم التي ذقت حلاوة الوحي الحق ، واستضاءت بنور الرسل والنبیین ، واجتازت دور الطفولية الاولى ، وان كانت عدت على حقائقها بالتحوير والتبديل ، رأوا أنهم حيال بحر من الحكمة زاخر ، وفي وسط باحة من ثمرات الفكر ليس لها أول ولا آخر .

رأوا تعاليم ديانة (ذورو واستر) الفارسي الذي ولد كما يدعى اليونانيون قبل زمن جاهليتهم بخمسة آلاف عام ، ولم يهتد العلم التاريخي الى تحديد زمن وجوده للآن ، أول تعاليم تلك الديانة فرض وجود الهين مستقلين يحكمان الوجود ، إله للخير ، وله سبعة أعوان عظام يتلقون أوامره ويساعدونه في ادارة العالم ويصرفون القوى الخاضعة لهم الى الوجهة التي يريدونها ، وإله للشر ، وهو متسلط على عالم الظلمة وله أعضاء سبعة كالاول يوازرونه في تصريف شؤون عالمه الظلماني . هذان الالهان في نزاع مستمر ، وتناظر دائم ، يتجاذبان بينهما هذا الانسان الضعيف ويود كل منهم ان يخضعه لسلطانه ، فهو اذن لمن

غلب منها . ولكن هذا النزاع ليس بأبدى لا آخر له ، بل له يوم ينقطع فيه بغلبة إله الخير على خصمه إله الشر ، هناك تنقطع مادة الشرور ويصل الانسان من نعيم الحياة ولذات الفضائل الى حالة ليس بعدها غاية لطموح . ثم رأى اليونانيون بجانب هذه الديانة العقيدة المجوسية التي ترى في النار أعظم مظهر للقوة الخالقة المحيية للكون ، وناهيك بما في هذه الاساطير من صور خيالية ، واشكال تصويرية ، وأحلام شعرية ، ومدارك فلسفية ، انتزعت من باحات المعنى الانسانية ، واصطيدت من شوارد العواطف القلبية ، فكان مثلها مثل الشعر في تلطيف العواطف ، وتلين الشكائم ، والتلق لاحساسات النفس وأميالها ، والتزلف لمراميتها وآمالها .

سبح فكر اليونانيين من كل هذه الثمرات الفلسفية في بحار تتراوح أمواجها ، وتتقاذف تياراتها ، فذهبت بأفكارهم مذاهب شتى ، وابتدت بمدركاتهم مناحى بعيدة ، وصارت لعقولهم صقلا جلت عنها غاشيات الجمود ، وحجب العماية ، فخرت بهم في ساحات التصورات اشواطاً شاسعة نقلتهم من حالة الى حالات أخرى ، وقذفت بهم في اطوار عدة اعدتهم لأن يكونوا المكان المناسب لتكون جرثومة العلم التي انتقلت منهم الى العرب فأفرعت فيهم وبهم هذه الأفرع المثمرة التي من ثمراتها مدنية اليوم . هذه الأفرع الوارقة الظلال ، السابغة الأفياء ، وإن زاحم فيها الشوك ثمراتها اليانعة حتى أصبح الجاني لا يصيب ثمرة حتى تصيبه شوكة ، فليس ذلك الامن غلطات القائمين بحفظ غياضها ،

وهو ما سنجعله إن شاء الله من بعض مباحثنا لتتجلى دوحه العلم طاهرة
مما يشينها ويعيبها *

(وفاة الاسكندر وتجزؤ ملكه)

توفي الاسكندر بعد اداء هذه الفتوحات الباهرة في سنة (٣٢٣)
قبل الميلاد ولم يجاوز سنه اذذاك الثلاث والثلاثين سنة ، فأعقبت موته
فتن قامت لها دولته وقعدت أكثر من عشرين سنة ثم انتهت بتجزؤ
ملكه الى ثلاثة أقسام : (١) مقدونيا (٢) آسيا الصغرى (٣) مصر *
أما المملكتان الأوليان فليس لنا عليهما كلام لعدم تعلقها بموضوعنا
وأما الثالثة وهى مصر فهى مرمى غرضنا فى هذه العجالة لمساسها بما
يحن فيه من كل وجهة .

وقعت مصر فى هذه القسمة نصيباً لبطليموس أخى الاسكندر من
أبيه ، وهو وإن لم يكن فى مقام الاسكندر من حيث قيادة الجيوش ،
وفض المعامل والحصون ، إلا أنه مؤسس دولة العلم وغارس علمه ،
وهو أمر جعل اسمه مقروناً بالاعجاب والاكبار ، فى تاريخ
الحكمة والعرفان .

اتخذ هذا الملك الكبير مقر ملكه مدينة الاسكندرية التى بناها
أخوه الاسكندر . وكان قد علم من حسن موقعها أنها ستكون نقطة
الاتصال بين الغرب والشرق وحشر اليها أمة كبيرة من اليهود رجاء
تعميرها ، فلما اتخذها بطليموس هذا الملقب (سوتير) مقر ملكه ،
وعش دولته بعث اليها مائة ألف من الاسرائيليين وأظلمهم هم وأهلها
(م — ٨ — أول)

الأصليين بأجنحة النظمات والقوانين العادلة ، والمساواة النادرة المثال ، وسهل لهم سبل المعاش والرغد . فلم يمضى عليهم طائفة من الزمن تهاطل اليونانيون اليها من كل حذب ، طمعاً في الحياة تحت ظل هذه الحكومة العادلة في خفض من العيش وأمان من الظلم وبهذا أصبحت الاسكندرية وأهلها من ثلاث طوائف مختلفة : المصريون الأصليون ، واليهود المستعمرون ، واليونانيون المهاجرون ، والكل عاثشون في سلام ووثام ، لا يفكرون في غير حفظ النظام ، فلم تمر على تلك المدينة غير سنوات قليلة حتى حلاها صناع اليونانيين ومهندسيهم بما لا يقبل الوصف من المعاهد والبنيان ، والبساتين والجنان ، والآثار الحسان ، مما جعلها زهرة البلدان ، ودرة ثغور اليونان . ولكن كل هذا ليس بشيء يذكر في تاريخ بطليموس أخى الاسكندر اذا قسته بأثره الخالد الذ ذكر ألا وهو شروعه في تأسيس (دار الآثار) التى منها انبعثت أشعة العلوم والعرفان ، وتدفت جداول الحكمة والبيان ، وفيها حفظت ذخائر الأولين من الدثور والزوال ، فكانت منبتاً لشجرة العلم الوارقة الظلال ، التى من ثمراتها مانحن فيه اليوم من وسائل الصناعة ، وأساليب سهولة المعاش .

(دار آثار الاسكندرية وكليتها العلمية)

وضع مشروع هذه الدار الخالدة الذكرى وأقام جدرانها (بطليموس سوتير) فى أجود بقاع الاسكندرية هواء ، وأحسنها منظرأ ورواء . واتم بناءها ابنه (بطليموس فيلادلف) السالك على

قدم آييه ، ولا عجب بعد هذا فى دار يتولى أمرها ملكان ، ويذلا
 دونها خزائن العقيان ، ويقفا عليها قرائح المهندسين العظام ، والصناع
 الكبار ، أن تجىء من الرواء على أحسن الأشكال ، ومن الفخامة على
 أكمل حال ، فلا تسل عما أودعته فيها يد الصناعة من الانصاب
 والتماثيل ، وما وشته بها أنامل الفنون الجميلة من النقوش والتلوين ، وما
 أودعته بها أدوات الابداع من التنسيق والتنظيم ، وما نشرته عليها
 راحات الغنى من رواء الفخامة المهيبة ، وروث الظرف العجيب
 الغريب ، دع كل هذا جانباً فان ما حشر إليها من نفائس الكتب ،
 وذخائر مجهودات العقول ، وجواهر القرائح والأفكار لما يدهش
 الواقف عليه ، والمطالع لأخباره ، وناهيك بما يستدعيه جمع سبعةائة
 ألف مجلد منسوخ من نوادر المؤلفات ، وشوارد المباحث فى وقت
 لم تكن للطباعة فيه أثرو ولا خبر ، ولا من المصاريف الباهظة ، والكلف
 البالغة حد الكثرة . الا أنه لو عرف الغرض من هذا التبذير
 والاسراف لقلل التبذير فى أشرف الأغراض قصد واعتدال .

كان الغرض من اقامة معالم هذه الدار ثلاث أمور مهمة : (أولاها)
 صيانة ثمرات العقول والأفكار الانسانية من أن تغتالها يد الضياع ،
 أو تلعب بها أنامل التبديل والمسح . (ثانياً) انماء تلك الثمرات واستثمار
 جراثيمها على مقتضى ناموس الترقى . (ثالثاً) نشرها بين العالم ،
 وإشرابها للعقول لتحسين حال الحياة الانسانية .

أما ما يختص بالأمر الأول فقد وكل إلى من كان يديرها من قادة

الأفكار ، ، ملوك العقول شراء كل ما يقع تحت أيديهم من الكتب
مهما بلغ ثمنها ، وايداعها في محامها من المكتبة ، ولا تسئل عما كان يتبع
ذلك من عدد النساخين والمصححين والمرتبين الخ مما لا قبل للقلم
بوصفه كالمجهودات التي كانت تبذل للحصول على المؤلفات النادرة من
العواصم المتناثرة ، والبلدان البعيدة .

أما ما يختص بالأمر الثاني أي بانماء تلك العلوم واستثمارها فقد
وكلت الى رجالها من أئمة الأفكار ، وسلاطين المدارك الذين اسكنهم
الملك تلك الدار ، وأحلهم بها في أمنع جوار ، وأعد لهم فيها ما يلزمهم
من حجرات ومطاعم وأجرى عليهم الأجور والمرتبات ، وكان
كثيراً ما يحىء الملك اليهم ويشاركهم في غذائهم ا كبارا لشأنهم ،
وتفخيماً لأمرهم .

أما العلوم كلها في هذه الجامعة فكانت تنقسم الى أربعة أقسام :
(١) العلوم الأدبية (٢) العلوم الرياضية (٣) العلوم الفلكية
(٤) العلوم الطبية وكانت الفروع العلمية الباقية تابعة لهذه الأصول الأربعة
كان لهذه الدار حديقة كبرى غرس بها كل ما أمكن الاهتمام
إليه من النباتات التي يقبها الجو المصرى لتسهيل دراسة علم النباتات
كما أنه كان بها محل خاص بالحيوانات حشر إليه كل ما وصلت إليه
يد الثروة من أنواعها لتكميل درس التاريخ الطبيعى ، وزيادة عما مضى ،
فقد أودع هذا الصرح العلى الفخيم كل ما كان معروفاً من آلات
الأرصاد وعدد الكيمياء ومعدات سائر الفنون المعروفة مما يستحيل

وجوده مجتمعاً في مكان واحد . أعانفيا يتعلق بالأمر الثالث : أى نشر أنوار المعلومات الانسانية في سائر طبقات العالم فقد ساروا فيه بأعداد محلات للبطالة وسباع الخطب يحضره من شاء من كل صنف و جنس ، وزيادة عن ذلك فقد كان فيها من طلبة العلم ما يزيد عن الأربعة عشر ألفاً من أقاصى الارض وأدانيها .

دستور العلوم الطبيعية

(في هذه المدرسة الكلية)

بالنسبة لما كان بين الاسكندر وأخيه بطليموس وبين الفيلسوف الشهير أرسطو من المحبة الاكيدة ، ونظراً لما كان يحفظه هذا الملكان في قلوبهما لهذا الرجل الكبير من الشعور بحقوق التربية والتعليم سادت تعاليمه وأفكاره في زمانيهما وكان لها السهم العالى من الاجلال والاعزاز ، حتى أنه لما سم بناء مدرسة الاسكندرية جعل دستور التعليم فيها مطابقاً لدستور أرسطو ، وأسلوب البحث تابع لأسلوبه .

أما دستور أرسطو هذا في مباحثه لاستكناه المجهولات ، واستطلاع خفايا المساتير الكونية ، فقد كان النظر في الحوادث الجزئية ، ثم التدرج منها الى الأمور الكلية على معراج الاستدلال والاستقراء ، ومن كان هذا أسلوبه في مباحثه احتاج الى مشاهدات كثيرة ، وأعوزه الدأب والسروراء اصطيا دنوادها ، وتقيد شواردها

— 52 —

(في كلية الاسكندرية)

بينما كانت العلوم المادية تابعة أسلوب فيلسوف (أثينا) في كلية الاسكندرية ، كانت العلوم الأدبية سائرة على مقتضى فلسفة (ذنون) التي كان لها المقام الأول مدى قرون كثيرة في تعزية الانسان على مصائبه ، وتشجيعه على خوض غمرات الحياة واقتحام حزنونها مطمئن الجأش ثابت العزيمة .

أول غرض وجه (ذينون) اليه سائر قواه ، ووضع نصب عينه هو ايجاد قاعدة قديمة حكيمة اذا سار عليها الانسان وأدمن عليها أدته الى كمال الفضيلة وأجلسته على كرسى السعادة والطمأنينة . الأساس الذى بنى عليه هذا الفيلسوف فلسفته فى تكميل الانسان هو التربية فقد سمع يقول : « اذا كنا نعرف الخير لمنا اليه ميلاً فطرياً وعملاً به لا محالة . فيلزمنا أن نركن الى مشاعرنا فى تهيئة العلوم الأولية لنا وهدايتنا الى مبادئ المعارف الضرورية ، وأن نعتد بعد ذلك على عقلنا ليكون لنا من مجموعها ما يحسن بنا السير عليه فى اقامة أمر الحياة وتحسينها . فان الحسد والميل للشهوات والشره أدواء لم تنشأ فينا الا من نقص معارفنا . أما أجسامنا فانها وان كانت خلقت على نظام ومزاج لا دخل لنا فى كسبه ، الا أننا يجب علينا مع ذلك أن نتعلم كيف نحكم على شهواتنا ، وكيف نعيش أحراراً عقلاء فضلاء خاضعين لأحكام العقل فى كل حركاتنا وسكناتنا . أما حياتنا فيجب أن يسود فيها سلطان الفكر على سلطان الجسم . وبناء عليه فيلزمنا أن لا نحفل بالذات ولا بالأوجاع البدنية ، ويجدر بنا أن نروض أنفسنا على استصغارها وعدم الخشية منها مهما تفاقمت وعظمت وان كان فى أعقابها الموت نفسه ؟ ويجب علينا أن لا تغفل عن هذه الحقيقة وهى أن الطبيعة مسوقة الى الكمال العام وأنها تضحى الجزئيات فى سبيل الكلّيات فليس أمامنا والحالة هذه الا الرضوخ لهذا القضاء والرضاء به ، فلنجعل كل همنا موجهاً الى زيادة معارفنا وتقوية عاطفة الاعتدال والحكمة

فى نفوسنا ، فان المعارف هى العناصر الاولى للفضيلة اللازمة لنا التى
هى رأس مالنا فى هذا العالم .

« انا لنرى ان كل ما حولنا من العالم ينتابه التغير والتحول وإن
الموت يعقب الحياة ، وإن الحياة تعقب الموت فمن الجهل اذن أن لا نريد
الموت فى عالم كل ما فيه صائر الى الزوال والتلاشى . وكما أن التيار
الجارى يحفظ شكله وقوامه دائماً مهما تبدلت مياهه وتحدت فكذلك
الطبيعة يمكن تشبيهها بتيار دائم الجريان تتبدل كائناته وتتغير وهو
حافظ صورته الى الابد . (كذا) . وانك اذا نظرت للوجود فى مجموعه
وجدته ثابتاً لا يتغير ولكن الخالد منه فى الحقيقة هو الفضاء
والجوهر الفرد والقوة ، أما صور الكائنات فهى أشكال وقتية معرضة
للزوال والتلاشى .

« يلزمنا أن نعلم أن أكثر الناس على فساد عظيم من حيث
التربية ، وبناء عليه فيجب علينا أن لا ننحى عليهم ما هم فيه من العقائد
والتعاليم الراهنة . أما نحن فيكفينا من العقيدة أن نعرف بأنه وان
كان يوجد فى الكون قوة أسمى من أن يحددها التصور الا أنه لا يوجد
فيه ذات مشخصة ، أى أنه يوجد فى العالم أصل محبوب عن
نواظرنا ولكن ليس هو الهاً مكيفاً إذا شخصية يوصف بصورة واحساسات
وأهواء ، كما للانسان من ذلك . ذلك مستحيل بل كفر صراح . من هنا
فلا وجه لتصديق ما يسميه الناس وحيأ (كذا) . أما ما يدعو الناس
(صدقة) فليس الا نتيجة لسبب مجهول فان للصدقة نفسها قانوناً ، ثم

ذكر كلاما دل على جوده بالعناية الالهية وعلى أن الكون سائر على مقتضى نواميس طبيعية . ثم عزي اليه بعد ذلك قوله : « ان التغيرات التى تنتاب الكائنات تحصل بطريقة لازمة ضرورية ، حتى انه يمكن أن يقال ان العالم فى ترقيه وتدرجه مثله كمثل الجرثومة التى لا تستطيع أن تنمو الا على صفة محدودة .

« أما الروح فهى شعاع من الشمس الحيوية التى هى الأصل العام لجميع الكائنات ، وهى تنتقل كالحرارة من فرد الى فرد وتنتهى بأن ترجع ثانيا الى محددها العام التى جاءت منه . وبناء عليه فليس حظنا بعد الحياة العدم والزوال بل الاجتماع والانضمام . وكما أن الرجل اذا أعياه الكد بالنهار يلجأ الى النوم والسبات ، فكذلك الفيلسوف متى تعب من مجهودات الحياة وتكاليفها يتمنى الموت والراحة . على أنه ليس لدينا الا معلومات تافهة على هذه الأمور المجهولة لأن العقل لا يستطيع أن يدرك نفسه بنفسه . ومن الأمور المضادة للفلسفة الحق أن يدأب الانسان للبحث عن أصول الأسباب ، فالواجب القنوع بدرس الحوادث فى ذاتها . وما يجب علينا وضعه نصب أعيننا هو أن الانسان لا يستطيع أن يصل الى الحقيقة المطلقة مهما حاولها وتطلع اليها . وان الثمرة النهائية لمجهودات الانسان وراء اكتناه اسرار المادة هى تأكده بأنه لا يصلح للامام بكل شئ . وانتاعلى فرض وصولنا الى حقيقة من الحقائق فلا نزال نشعر بالحاجة الى دليل على أنها حقيقة . اذن فماذا بقى علينا بعد هذا من الواجبات ؟ بقى علينا العلم

بالكون على الطريقة التي يهيئها لنا البحث العميق والفضيلة والصداقة وحب الحقيقة وصدق النية وقبول تكاليف حياتنا بالصبر والثبات والمعيشة على صفة تلائم قوانين العقل ونواميس الحكمة . »

هذا ملخص فلسفة (ذينون) . على أن تلك الجامعة لم تكن قاصرة على فلسفة ارسطو ودينون بل كانت تتناول من سائر المذاهب حصصاً مناسبة بحيث انها كانت ملتقى لأشعة أفكار سائر الاعلياء من النوع الانساني .



نظرة على ماضي

نحن بايرادنا تاريخ العلم من أول نشأته وتنقيبنا عن أصول المذاهب الفلسفية والوصول الى جراثيمها الأصلية ، لا نقصد بسط مجرد تاريخها ؟ بل نقصد بذلك أن نواتي مقتضيات نظريتنا التي بسطناها في كتاب (خاتم النبيين) صلى الله عليه وسلم وهي ان الاتحاد حال من الاحوال الانسانية تقتضيها الفواعل الاجتماعية والأديية والدينية التي تحتوش لأمة ، حتى ان تلك العلوم التي يقصد بها الاتحاد والوجود (تأمل) هي نتيجة الحال لاسببها المولد لها .

قلنا ذلك ووعدنا ببذل الوسع في السلوك في هذا الموضوع المسالك التي تلائمها وتوافقها من اختراق غلف الظواهر والنفوذ الى

سرائر المسائل وضمائرها لنحصر ان شاء الله تلك الحال الاحادية التي لا توافق مطالب الروح الانسانية في دائرتها الضيقة ليمكن علاجها فيها واستئصال شأقتها . ذلك أولى من أن تتابع الخطة المعروفة في محاولة حل مسألة الاحاد بالحجج والبراهين التي لانصيب لها من التأثير على الأفعال الانسانية الا مانراه من التناقض بين العمل والعقيدة .

وقد رأينا انا لانستطيع أن نوفي حق أسلوبنا هذا الا بدرس الأحوال الانسانية المختلفة من لدن تكونها ، ومشاركة العلوم والمعارف من أول نشأتها . وقد وفينا بعض ذلك بدرس أحوال اليونانيين وهي الأمة التي نشأ فيها العلم ثم طفنا بها في فتوحاتها حتى وصلنا الى تأسيسها لجامعة الاسكندرية التي جمعت فيها جراثيم المعارف المنشورة في الآفاق ، ومن هنا نرجو أن نوفق لتتبع حركة نمو هذه الجراثيم العلمية في مدى القرون والأجيال مع درس الأحوال الانسانية التي اقتضته . مجلين في كل دور من هذه الادوار مكان العاطفة الدينية من القلوب ، وكنه ما تأثرت به من تلك الحال ، حتى نصل بهذا السير الى عصرنا الحال ان شاء الله فنقف بالقارىء موقفا يطلع منه على حال الانسانية في علومها وصنائعها وفلسفاتها ومكانة الدين لديها وعلى السيل التي تسيره بمجموعها وعلى آثار مدينتها في تعديل أو تعويج أمورها .

أما كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فسيكون من وظيفته في كل دور من هذه الأدوار تتبع كل بحث من هذه الابحاث بما يحله

ويجليه من كتاب الله تعالى ، ليتجلى للقارىء بأوضح بيان قوله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء » « ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شيء جدلا » وليسطع أمام عينيه البرهان المحسوس على أن لاهية للعالم ولا قوام له ، على الحال التي تليق بالانسان الراقى ، ولا عدالة تسود على جميع أفرادهم بالفيض الالهى على السواء الا بالاعتقاد برسالة المصلح الأعظم خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم واتخاذ القرآن دستورا للنظام والمدنية فى كل الزمان . ومن الله نستمد العون والقوة .

— ٢٥٤ —

تاريخ الفلسفة

وصلنا بالقارىء من تاريخ ارتقاء الفكر الانسانى وتدرجه فى معارج الكمال الى ذكر تأسيس مدرسة الاسكندرية الجامعة التى بدأها بطليموس سوتير وتم بناءها ابنه ووريثه فى الملك (بطليموس فيلادلف) ملك القطر المصرى . وقلنا عند ذاك : « ومن هنا نرجو أن نوفق لتتبع حركة نمو هذه الجراثيم العلمية فى مدى القرون والأجيال مع درس الأحوال الانسانية التى اقتضتها ، مجلين فى كل دور من هذه الأدوار مكان العاطفة الدينية من القلوب ، وكنه ما تأثرت به من تلك الحال ، حتى نصل بهذا السير الى عصرنا الحالى إن شاء الله

فنقف بالقارىء موقفاً يطالع منه على حال الانسانية فى علومها وصنائعها وفلسفاتها ومكانة الدين لديها وعلى السيل الذى تسيره بمجموعها وعلى آثار مدينتها فى تعديل أو تعويج أمورها . »

قلنا ذلك فى الفصل المتقدم ونود اليوم أن نسير على الطريق الذى رسمناه لأنفسنا سيراً يناسب موضوعنا من جميع وجوهه بحول الله تعالى وتوفيقه . ولذلك رأينا أن نأتى على مذاهب الفلاسفة اليونانيين الذين اتخذت أساليبهم فى البحث والنظر دساتير محترمة سار على مقتضاها من جاء بعدهم من كبار العتول وأئمة الفلسفة ، ولن نتقيد بمن سارت جامعة الاسكندرية على مذهبه رسمياً كأرسطو وأفلاطون وذيونون ولكن سيتناول كلامنا إن شاء الله غيرهم من فلاسفة اليونانيين السابقين والتالين ليتكون للقارىء من ذلك صورة محكمة التركيب من شكل الفكر الانسانى فى عهد خلافة الأمة اليونانية فى الأرض ، أيام كانت (أثينا) عاصمتها مثابة كبار الرجال ، ومحط رحال الأقيال من سائر آفاق الأرض يطلبون فيها العلم ويقابلون العلماء ويستشرفون منها شمس المعارف وأنوار المعلومات ليكون قارئنا على بينة من مبدأ تكون الجرثومة الأولية لدوحة العلم الوارفة الظلال ، وليستطيع أن يتبع معنا سلسلة هذا التاريخ العلمى الحافل من أقرب الطرق وأيسرها وبالله التوفيق .

هنا ننبه للقارىء اتنا لن نتقل من مذاهب الفلاسفة اليونانيين الاعدداً يعد على الأصابع ممن لهم أثر ظاهر فى حركة الفكر الانسانى ،

ولأساليبهم في البحث اعتبار إلى يومنا هذا . وقبل أن تتكلم على مذهب كل فيلسوف من هؤلاء يحسن بنا أن نقدم للقارئ طرفاً من ترجمته

~*~*~*~*~

مذهب فيثاغورس - بيتاجور -

ولد فيثاغورس في سنة ٥٦٩ قبل الميلاد ومات سنة ٤٧٠ أي عاش تسعاً وتسعين سنة . ولد بجزيرة (ساموس) من جزائر الأرخيل اليوناني وكان أبوه نقاشاً اسمه (أمينزارك) وقيل أن موطنه (توسكان) . تعلم فيثاغورس صناعة أيه وصنع بنفسه ثلاثة كؤوس من الفضة وأهداها لثلاثة من قسوس المصريين . معلمه الأول الفيلسوف (فيرسيد) وكان يحب أحدهما الآخر جداً حتى أن استأذه لما مرض المرض الذي مات فيه ونحل جسمه جداً خاف أن يكون مصاباً بمرض معد فيعدي تلميذه المخلص فيثاغورس . فلما جاء ليعوده على حسب عادته أغلق دونه الباب رغماً عن حبه الشديد له وأخرج إليه أصابعه من شقوق الباب قائلاً تأمل نحول أصابعي تعلم منه حالي . ولما مات أستاذ فيرسيد لزم فيثاغورس الفيلسوف (هرمودامنت) بجزيرة ساموس مدة من الزمن . ثم هزه الشوق للسياحة وتعرف أخلاق الأمم والأخذ عن فلاسفتها وعلمائها . فتوجه إلى مصر بوصية من الملك (بوليكرات) ملك ساموس إلى الملك (امزيس) ملك مصر بشأنه ، فمكث في مصر مدة يتردد فيها على كهان المعابد المصرية ويلقف منهم أسرار

العلوم والمعارف التي يسمحون له بها . ثم سافر من مصر الى بلاد الكلدانيين ليتعلم علومهم ويقف على مساتيرهم . ثم اتجه من هنالك الى كثير من البلاد الشرقية الشهيرة بالآثار والفنون ثم آب من هناك الى مملكة (اكريطه) ولاذ بالفيلسوف (ايمينيديس) وتودد اليه ، ثم رجع من هناك الى وطنه الاصلى جزيرة (ساموس) فرأى أن الملك (بوليكرات) قد أحل قومه محلة البوار وأوغل فيهم عسفاً وظلماً ، فهاهنا ذلك الأمر ولم يطق الصبر على تلك الحالة المريعة فهاجر الى ايطاليا وسكن (باكروطون) وأخذ يعلم الناس الفلسفة والأخلاق . فنشأ من ذلك أن مذهبه سمي (ايطاليا) . فانتشر من صيته وذاع واشتهر اسمه وكثرت تلامذته وطلابه حتى صار من يلازمه منهم أكثر من ثلاثمائة كون بهم جمهورية صغيرة مرتبة ترتيباً جميلاً . وذهب بعض المؤلفين الى أن (نوما) الذي تولى امبراطوراً على الرومان كان أحد أولئك التلامذة والحقيقة هي أن نوما كان سابقاً فيثاغورس بعده قرون ولم ينشأ هذا الغلط إلا من وجود تشابه كبير بين آراء نوما وفيثاغورس فظن بعض الناس أن ذلك جاء من كونه تلميذه وليس الامر لذلك .

كان فيثاغورث يقول ان أشياء المتحايين يجب أن تكون شيوعاً بينهم بحيث يكونون كلهم سواء في الانتفاع والمتاع بها . لذلك كان تلاميذه متبعين هذه القاعدة تمام الاتباع ولم يكن لأحدهم ملك خاص ولا مال ذاتي ، بل كان كل ما يملكونه عاماً بينهم على حد سواء . وكان

من القوانين التي وضعها للأخذ عنه أن الطالب الجديد يكلف بأن يصبر خمس سنوات متوالية في تلقى كل ما يلقى اليه بدون أن ينطق ببنت شفة طول تلك المدة ، حتى اذا وفى هذا الامتحان على ما يرام وينتظر أَدْخَلَ الى فيثاغورس نفسه ليزوره ويحاوره فى العلوم والمعارف .

أوصاف فيثاغورس الشخصية - كان معتدل القامة وسيم الطلعة تلوح عليها المهابة والوقار وكان من عادته أن يلبس ثوباً رقيقاً من الصوف الأبيض البالغ الحد فى النظافة . وكان عفيف النفس حاكماً عليها لا يميل لأهوائها وخطوطها . يحافظ على السر اذا استودعه ويبالغ فى كتمه . ويؤثر عنه ان لم ير ضاحكاً قط ولم يسمع أحد منه مزاحاً ولا هزلاً قط . وكان اذا غضب لا ينتقم ممن أغضبه حتى أنه كان متى أثم بعض عبيده ووقع منه ما يستحق التأديب يكبر عليه أن يضربه يده . لهذا كان تلامذته تعتقد ألوهيته . ولا عجب فقد غلا القدماء فى تأليه كل رجل يرون فيه فضل عقل وحكمة حتى أنه قد لا تخلو أمة من مثل هذه الكبوة المردية . وكان الناس يقصدونه من آفاق الأرض لسماع كلامه والحظوة بالتقرب إليه . حتى قيل انه كان يأتى الى (كروتون) فى كل عام نحو من ستمائة من الناس لهذا القصد ليس غير . ولقد شاع ذكر فيثاغورس فى البلاد بالعقل والحكمة حتى أن كثيراً من الأمم طلبت منه أن يسن لها قوانين تصلح به أمر حكومتها وتبنى به هيئة اجتماعها ؟ وما أثر عنه من صفاته أنه كان يحرم الحلف بالآلهة والاستشهاد بها فى جميع الأحوال تحريماً . وكان يقول يجب

على كل انسان أن يؤدب نفسه ويروضها على الكمالات حتى تتصف بها لكيلا يكون في حاجة إلى الحلف لأجل أن يصدق الناس .

حياته السياسية ومذهبه — قلنا ان فيثاغورس نزل من إيطاليا بمدينة (كروتون) واتخذ بيت (ميلون) مدرسة له وحشر اليها مع النفر الذين كانوا معه من اليونانيين شردمة من أهل تلك البلدة ممن التفوا حوله ولازموه رجاء الوصول الى باب الحكمة على يديه .

في عصر هذا الفيلسوف كان جنوب ايطاليا وهي القطعة التي اختارها دار هجرة له شاملة لجملة حكومات (أريستوكراسية) أى إن الحكومة فيها بيد الأعيان والأشراف . ولكن فيثاغورس كان

فكره متشعباً منذ صغره بأفكار الشعوب الشرقية المتبعة في الحكم المبدأ (التيوكراسى) وهو المبدأ الذى يستبد بالحكومة فيه نفر

قليلون استبداداً كلياً بدون حق للشعب فى الملاحظة عليهم . بهذا السبب نشر فيثاغورس هذا المبدأ بين تلك الشعوب فاتبع نصائحه كثير منها

وأكسب المبدأ الأريستوكراسى صبغة (تيوكراسية) جديدة تميزت به عن بقية تلك الحكومات . وكان قصده من كل ذلك حصر السلطة

والحكم فى يد طائفة منتخبة من صفوة الأمة وقصر أسرار العلوم والمعارف عليها دون العامة لتعبرهم الأمم ملوكاً معصومين من الخطأ

كما عليه الحال فى بعض الفرق الدينية بالنسبة لرؤساء دينها . هذا المبدأ بعينه كان انشودة سائر فلاسفة اليونان فلقد كانوا لا يودون اعطاء

السلطة لرجل واحد ولا لأمة بأجمعها ولكن للفلاسفة منها . هذه

كانت أمنيتهم وكثير ما سعوا في تحقيقها ولكن لم يتح لواحد منهم ما أتيح لفيثاغورس من النجاح في تقريرها .

نجاح فيثاغورس في مشروعه الاجتماعي هذا أكسبه شهرة فائقة فانتخب رئيساً للحزب (الأريستوكراسى) في مدينة كروتون . فاتفق في ذلك الحين أن الحزب (الديموكراسى) أى الجمهورى تغلب على الحزب (الأريستوكراسى) في مدينة (سياريس) فقر انصاره الى (كروتون) واستجاروا باخوانهم فى المذهب ، فارسل الفيلسوف وفداً الى أهل تلك المدينة يدعوهم إلى مذهبه ، فغضبوا وقتلوا الوفد فلم يسع الفيلسوف غير شن الحرب عليهم . ثم جهز اليهم جيشاً من ساعته وهو وإن كان أقل عدداً من جيش الأعداء إلا أنهم صبروا صبر الأبطال وهزموا عدوهم شر هزيمة واستولوا على المدينة فحربوها إلا قليلاً واستعبدوا أهلها وقسموا مافيها على المقاتلة فخص فيثاغورس حدائق زاهرة فابتنى فيها مدرسة جامعة على الشكل الذى رآه فى مصر وبلاد الكلدانيين واشتهرت هذه المدرسة باسم مجمع فيثاغورس العلى ووكل الى تلامذته أن يجعلوها منبعاً لنشر مذهبه وتخرج خلاصة الناس عليه ليتكون منهم طائفة صالحة لأن تحكم الأمم والشعوب وقد نقل عنه كثير من الرواة أشياء خرافية ولكن ثبت الآن أنها موضوعات عليه وإن كثيراً منها لم يعرف الا بعده بزمان طويل .

والذى أجمع الرواة عليه أنه كان يصدر منه كثير من الخوارق للطبيعة أمام تلامذته ومريديه . أمام مذهبه فقد حفظ عنه ودونه تلامذته بالدقة

فيما يقال وهو أنه كان يعتقد بالتناسخ وإن النفس الفاضلة متى خرجت من جسم صاحبها تلبست بجسم شخص فاضل وبخلاف ذلك لو كانت شقية فأنها تتقمص جسم حيوان قدر . وكان يقول انه يتذكر الحالات التي كان فيها هو نفسه في أجساد مختلفة .

هذه العقيدة قديمة جداً ومبدأها فيما يرجح الهند . ومما يحسن ترجيحه جداً ان فيثاغورس كان له عقائد عالية في الحكمة الالهية والعناية الربانية والوحدة الذاتية وإن كانت تعليماته العامة مخلوطة بأشياء خرافية كثيرة فيما يقال . والذي يميز مذهب فيثاغورس عن كثير من المذاهب الأخرى هي صبغته العلية ، فان تلامذته كلهم كانوا يتعمقون في درس الرياضيات تعمقاً كلياً . ولقد كان فيثاغورس رياضياً من الطبقة الأولى وينسب إليه جملة نظريات هندسية وهو أول من قال بحركة الأجرام السماوية حول الشمس وهو الأمر الذي ثبت بالحس في القرن الخامس عشر بواسطة الفلكي (كوبرنيك)

ولكن رغماً عن كون تعاليم فيثاغورس ومدرسته انتجت للمدنية أعظم الآثار وطبعت تاريخ الرقي الانساني بطابع لا يزول أثره ، لم تبق زمناً بعد تأسيسها . وذلك في العادة شأن كل جمعية تكون بقصد الاستيلاء والحكم . فان محض رؤية شكل الترتيب الذي كان مسنوناً لتلك المدرسة كان يدعو للارتباب في أمرها . الا ترى أنه مما يريب الأمم والشعوب أن يروا جمعية من الشبان ملتزمين غاية الالتئام فيما بينهم ومنفصلين تمام الانفصال عن الهيئة الاجتماعية ومشتغلين

المدان والنهار بالأشغال العقلية والعلوم الرياضية يعدون أنفسهم لمنصات الحكم وأرائك السياسة ؟ نعم كان ذاك سبباً لارتباب النفوس واضطرابها على مدرسة فيثاغورس حتى ثار ضدها الناس في ثورة عامة بمدينة (كروتون) وصاروا يقتلون من وصلت اليه أيديهم من تلامذة فيثاغورس وفي أي جهة صادفهم ونفوا كثيراً منهم أيضاً الى البلاد الأخرى ولم يعفوا الا عن فيثاغورس نفسه وقد كان وقتها بلغ الثمانين من عمره . فعرض على كثير من المدائن أن تقبله نزلاً فيها فلم تفعل وأخيراً قبلت منه ذلك مدينة (ترانت) فرحل اليها وأقام بها حتى توفي . وما بقي من تلامذته لم ينأوا عن نشر مذهبه في كل جهة حلوا بها هذه الترجمة نقلناها عن علماء أوروبا والعهد عليهم في روايتها فربما كانت سيرة هؤلاء الرجال أرقى مما قالوه عنهم ولكنهم حرفوها وتصرفوا فيها كما فعلوا في سير أكار الأنياء صلوات الله عليهم

أفلاطون

ولد هذا الفيلسوف الشهير (باثينا) ويقال في جزيرة (أجين) سنة ٤٣٠ قبل الميلاد وتوفي سنة ٣٤٧ فيكون قد عاش ثلاثاً وثمانين سنة . وكان اسمه (اريستوكليس) ثم لقب بعد ذلك أفلاطون واشتهر به وهو من عائلة عريقة في النسب مال أولاً الى الشعر ويقال وللتصوير أيضاً ثم لما تعرف الى الفيلسوف (كراتيل) تلميذ (هيروكليت)

والى (سقراط) مال بكايته الى الفاسفة ووقف حياته عليها . فاتخذة سقراط تلميذه الأول لما تفرسه فيه من النجاة والفطنة ، ولكنه لم يعيش حتى يرى ماهى غاية استعداد تلك القرحة العالية . لازم استاذة ثمان سنوات ثم حدث بعدها أن فرقة السوفسطائية اتهمت سقراط بالالحاد فى صفات الآلهة فقام بالذب عنه أفلاطون حتى صعد على منبر مجلس النواب رابتداً يخطب فى الدفاع عنه حتى اذا كاد يتغلب على الأميال ويخلب بسحره عقول الرجال أخذ أعداء سقراط يلغطون اكيلاً يسمع الناس بلاغة الخطيب فيقررروا عدم قتله . فلما لم ينجح فى دفاعه ونفذ الحكم على أستاذة هجر وطنه غماً وكدراً وذهب الى ميجار ، وحدثته همته بعدم ادخار شيء من حوله فى طلب العلم حتى لا يبقى منه شيء يند عنه . وكانت اذ ذاك المذاهب الفلسفية مشتتة فى أصقاع الأرض فقصد أولاً ايطاليا ولحق بلامدة فيثاغورس فاشركوه فى أسرار مذهبهم ، ثم رجع منها الى سيرين لدرس هندسة (تيودور) ثم يم مصر ومكث مدة فى مدينة (هيليو بوليس) ويقال ان كاهناً مصرياً لقنه علم الفلك . ثم رجع الى أثينا وأسس بها دارالعلوم فحازت شهرة فائقة وكان كثيراً ما يتركها ويسافر طلباً لتعرف أحوال الأمم والشعوب المختلفة . ذهب مرة الى جزيرة سيساليا فاستجاب سخط ملكها (دونيس) لحرية وجرأة فؤاده فأسره وباعه عبداً فراه بعض أصحابه فاشتراه وأعتقه فأب الى وطنه . ثم ذهب اليها ثانياً وسافر مرة أخرى الى (سيراكوز) . أما فلسفة أفلاطون فكانت هى بعينها فلسفة أستاذة سقراط الا أنه

بما اكتسب من العلوم الكونية والوجودية القاهها على الناس بصفة جديدة وشكل لم يكن معهودا قبله وأضاف اليها أفكاره الخاصة فجاءت أكمل فلسفة وجدت لذلك العهد . وقد ذاع صيته في البلاد وانتشرت شهرته في المدائن وعرف بسمو العقل وبعد النظر في الشرائع والقوانين ولذلك كانت تطلب اليه كثير من الحكومات أن يسن لها من القوانين ما يستصلح أمرها وتطرد به عماريتها . وقد لقب بالالهى وكانت فلسفته وأفكاره محترمة معتبرة لدرجه أن كل العقلاء كانوا على أفكاره وآرائه . وكان كأستاذ سقراط لا يميل للناسب : ولما توفى ترك مجمعه العلى لزعامه حفيده (سبوزيب)

كل كتابات هذا الفيلسوف وصلت إلينا ولكنه كان يلقي دروسه شفويا وكان يقول :

« كل كتابة على الورق يجب أن تكون مذكرة فقط للذى تعلم وانتهى ، لا أن تتخذ واسطة للتعليم : فانها لا تنطق ان سئلت ، ولا تدافع عن نفسها ان فندت . فكل موضوع مكتوب باليد هو بناء هذا عمل خفيف الوزن وتذكر غير كامل مخلوط بكثير من الغلواء . فليس للأفكار اذن من ثمرة جنية نافعة الاخطابة مرتجلة موضوعها العدل والجمال وتكون منقوشة في صميم القواد »

ولقد كانت تروقه الخطابة لدرجة ان مؤلفانه شبيهة بالخطب وكل كتاباته ما عدا رسائله عبارة عن محاورات فيها سقرط أحد من محاوريه . وكثيرا ما تكون الافكار فيها أفكاره الذاتية ولكنه كان يضعها

فى المحاوره فى فم استاذه ويجعله هو البادى بها .
لم يدون مذهب أفلاطون بصفة مضبوطة وخالصة من الخبط
واللوث لان المشهور عنه أنه كان له مذهبان : مذهب عام ظاهر فيما
بينه وبين الناس ، ومذهب خاص به لا يفتح به الا نفر من أهل خاصته
من يثق بعقلهم وثباتهم

الفلسفة عنده هى معرفة العموميات والالمام بالضروريات وكان
يقسمها الى جدليات وطبيعيات وأخلاقيات . وكان يقرر أن للعقل ثلاث
خصائص وهى الاحساسات والمدركات والافكار . فالاحساسات تقابل
الاشياء المتغيرة والمتشخصة ، والمدركات تقابل الاشياء المتغيرة أيضاً ،
ولكن مع تجريد أشخاصها من الحس بها . أما الافكار فتقابل الاشياء
الثابتة والحقائق العامة . وعنده أن الافكار فى ذاتها ليست مدركات
بسيطة للعقل ولكنها أصول الاشياء وحقائقها بمعنى أنها كل ما فى
الكائنات من حق وباق وعام . وكان يقول انها عالم قائم بذاته فوق
عالم الكون والفساد وهى واصله الينان من الله مباشرة ، وهى القوالب التى
شأ الله تعالى على قوالبها جميع الاشياء . ولما كانت الافكار على رأى
أفلاطون هى الأشكال الحقيقية سرمدية لكل ما هو موجود فقد سماها
(بالنموجات) قال وأنه يوجد خارجاً عن الله تعالى أصل متغير ناقص
قابل للقضاء موجود بذاته هو المادة العمياء الصماء التى لا شكل ولا صورة .
فبأثر الله تعالى الذى أوقعه عليها ازدوجت النموجات التى هى الافكار
المجردة بالمادة عديمة الصورة والشكل على درجات مناسبة فنشأ منها

جوهر متوسط مشترك بين خصائص كل من هاتين الطبيعتين . وهذا الجوهر روح العالم فروح العالم هذه بتشخصها وانقسامها الى ارواح مختلفة تكون الالهة التي يعبدونها العامة وتولد الناس وهم الكائنات المتمتعة بعقل وادراك . وفي رأيه أن الكون المادى مكون من عنصرين متضادين : التراب وهو أصل لجود العالم وجعله محسوساً ، والنار وهي سبب صيرورته مرتباً . هذان العنصران الترابى والنارى ملتزمان ببعضهما بواسطة عنصرين وسطين بينهما : هما الهواء والماء . وهما من جهة متشابهان فى صفة مشتركة هى السيالية ، ومن جهة أخرى كل منهما مشابه للطرفين الآخرين فالهواء يشبه النار والماء يشبه التراب أما روح الانسان فى نظر الفيلسوف فهى حياة غير قابلة للفناء محصورة فى سجن فان هو جسد الانسان . وهى متمتعة بثلاث قوى مختلفة : الادراك أى العقل . والقلب أى الشجاعة ، والرغبة أى الشهوة فأما الجزء السامى من النفس التى هى حية بالافكار والمطالب التى توافقها وتلائمها فتحله الرأس . أما الشجاعة فموطنها القلب . وماسفل من قوى النفس فموضعه الامعاء

وكان يقول ان الفضيلة هى مطابقة عمل الانسان لأصل الخير المحض . والدستور العام للأخلاق هو التخلق بأخلاق الله تعالى . وكما أن الله تعالى يحب الافكار التى استخدمها قوالب لتكوين الأشياء بحقائقها فيجب على الانسان أن يغلب حبه للأفكار أى للخير المطلق على حبه للسفليات واللذات الجسدية ، وأن لا يأتى بحركة الا فى

سبيل تحقيق الأفكار الالهية بقدر ماتسمح به قوته ، أما الجليل في نظر أفلاطون فهو روثق الحقيقة وبهاء الأفكار التي جعلها نماذجاً للأشياء . وقال عنها انها عالم قائم بذاته . والجمال المادى في نظره ليس هو الا صورة مرئية آتية من الجمال السرمدى .

هذا موجز من فلسفة أفلاطون ومذهبه ومنها يتبين المقارىء مراميه الفكرية على الانسان والنفس والأخلاق . أما اقتداره في التشريع والتقنين فما لا يستهان به أيضا . وكتبه في ذلك كانت في زمانه المورد الوحيد للعذب لطلاب الشرائع ورواد القوانين ، وبقيت بعده قرونا كثيرة مثابة لعقول المشتغلين بقيادة الامم وزعامة الشعوب والممالك . وأحسن ما يبل صدى الباحث في تشريع أفلاطون هي كتبه التي بقيت الى اليوم ككتابه المسمى « الجمهورية الفاضلة » وكتابه « السياسة » وكتابه « القوانين » فانه بسط فيها أفكاره بسطا جليا واضحا . فكتابه « الجمهورية » عبارة عن محاورة طويلة مقسمة الى اثني عشر بابا جعل أكبر مخاطبيه فيها سقراط . وسواء كانت هذه المرامى التشريعية هي له أو لأستاذه فانها تكون نظمات جمهورية فاضلة اتخذها قادة الإصلاح وطلاب العدالة في الحكومات مرجعا يرجعون اليه للاستقاء من حياضها في تأييد مطالبهم وتدعيم نظرياتهم . ومما لسننا في حاجة الى التنبيه عليه هو أن كل ما في تلك الكتب التشريعية ليس اختراعا لأفلاطون أو لأستاذه بحيث لم يسبقهما فيه أحد . فان المعلوم أن أفلاطون أخذ شيئا كثيرا عن نظمات ليكورج متشرع (اسبارطا) من

ممالك اليونان القديمة ، وأخذ أيضا عن قوانين السفسطائية القدماء حصصا مناسبة . وقد نقل تلميذه (أرسطو) نفسه أن (هيبوداموس) هو أول من كتب كتابا في « الجمهورية الفاضلة »

كان مذهب أفلاطون في الحكومة مثل مذهب سائر الفلاسفة الاقدمين وهو أن يكون مبدأها سيادة الاعيان والاشراف وهو المبدأ الارستوكراسى بعينه الذى تكلمنا عنه فى تاريخ (فيثاغورس) وهم لا يريدون من الاعيان كما قلنا هنالك أيضا الاغنياء وذوى الجاه والقوة، بل الفضلاء النبلاء أى الفلاسفة . فأين حوت بصرى فى كتب الشرائع الفلسفية القديمة وجدت هذا المبدأ واضحا جليا فيها بطريقة لا تسلم به الفلسفة الحققة فانهم يفرضون للطبقة الحاكمة وهى بالطبع منهم كل اكبار واجلال بما يشبه العبادة ، وبازاء ذلك لا ترى العامة والمحكومين الا الازدراء والاحتقار . هذه صفة عامة لجميع كتب الفلاسفة الاقدمين الذين تكلموا فى الشرائع والجمهورية الفاضلة لأفلاطون غير مستثناة من هذه القاعدة العامة أيضا فقد حكم فيها على طوائف بخذافيرها أو على أنواع برمتها بالطاعة الدائمة والجهالة الخالدة . على أن (الجمهورية الفاضلة) لأفلاطون على ما بها من خلط بين المدركات العالية والمدركات الضيقة . وبين النظريات الفلسفية الجليلة والخياليات المحتقرة ، وبين الحرية المعتدلة والاستبداد الجائر ، كانت رغما عن هذا كله فذلكه موجزة للحكمة القديمة وكانت المرجع الاصلى الذى ورده كل الفلاسفة الذين اشتغلوا بأمر الاجتماع الانسانى .

فى الجمهورية الفاضلة يفضل أفلاطون الحكم الملكى أى حكم الفرد بالواحد على مبدأ حكم الأعيان أى (الارستوكراطى) وعلى المبدأ الجمهورى أى (الديموكراطى). قال لأن الملك الصالح يحكم أمته أحسن من أن يحكمها أى قانون كان، لأنه صالح لأن يلم بكل التغيرات الطارئة والعلاقات المتجددة ويقابلها بما تتطلبه من رأى أو عمل. بخلاف القانون فإنه ثابت لا يتغير وجامد لا يلين. ثم قال: ومع ذلك فالقانون لازم ينطبق على الجماهير، والملك لا يستطيع أن يعرف كل انسان بشخصه، ولكنه مع ذلك يجب أن يكون القانون تابعا للملك مباشرة دون غيره ويلى هذه الحكومة فى نظر أفلاطون الحكومة المتمسكة بالقانون التى لا تحيد عنه فى شىء. قال لأن القوانين لم تتقرر ولم تستتب الا بعد تجارب طويلة واختبارات عديدة فى أحوال شتى. وبناء عليه فيجب أن تكون محترمة مرعية ولا يجوز عصيانها بوجه من الوجوه ومن رأى أفلاطون فى الصنائع أن يحجر عليها فى قواعد ثابتة لا تتغير وهذا معناه تقييدها ووضع العقوبات الكثيرة أمام رقيها.

قسم أفلاطون الناس فى جمهوريته الى ثلاثة أقسام: (١) المشرعون أى الفلاسفة (٢) المحاربون (٣) الصناع. أما الأولون فهم المخلوقون للحكم الصالحون له دون غيرهم، وأطلق عليهم الصنف الذهبى. وأما المحاربون فهم حراس المملكة وخفراؤها وأطلق عليهم الصنف الفضى. وأما الآخرون أى الصناع فهم المخلوقون للطاعة العمياء الصنفين المتقدمين وأطلق عليهم الصنف الحديدى. أما العبيد فقال عنهم انهم

ماشية الأمة مثلهم فيها كمثل البهائم العاسلة . وهذا رأى الأقدمين كلهم في الرقيق فان لهم عليه أحكاماً جائرة لا تنطبق على عقل ولا على عدل حتى جاء الاسلام بدستور المساواة والحرية فرفع عن عاتق العبيد آثاراً ثقيلة مما ستره مفصلاً في محله من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى الناظر لجمهوريّة أفلاطون هذه يرى أن حكومتها تشبه الحكومات الشرقية القديمة ذات المبدأ (التيوكراطى) أى التى يخول فيها حق الحكم لطائفة من رؤساء الدين ويفرض على العامة والخاصة اطاعتهم اطاعة عمياء بدون رقابة على أعمالهم ولا هيمنة على ارادتهم . وانما الفرق بين هذا المبدأ ومبدأ حكومة الجمهورية الافلاطونية أنه أبداً فيها الموبدان والبرهمنى بالفيلسوف والمشرع . ومن نظمات جمهوريّة هذا الفيلسوف أن المحاربين يجب ان يكونوا دائماً على أهبة تامة متخفين اما لقمع فتنة داخلية أو صد غارة خارجية . وهؤلاء المحاربون لا يجوز لهم أن يمتلكوا عقاراً ولا أن يكتنزوا ديناراً بل يجب عليهم أن يعيشوا أحراراً من كل التكاليف الشخصية والعائلية وعلى بيت المال أن يجرى عليهم ما يلزم من غذاء وملبس ومسكن وما تقضيه سائر الحاجات المعيشية . أما العلوم التى يجب عليهم تعلمها فهى كيفية تمرين أجسامهم على الألعاب الرياضية وفن حفظ الصحة والموسيقى والأخلاق ويلزمهم أن يتربوا ويتمرنوا على الخضوع والطاعة القواعد العسكرية الصارمة ليكونوا بذلك مثال النظام والأحكام أمام الناس أجمعين .

اما بالنسبة للنساء فقد فاه عنهم الفيلسوف بكلمات فاق بها في الشعور أهل زمانه بمراحل وان كان مقلدا في ذلك ما عليه من حالة النساء وحريةهن في جمهورية (اسبارطا) اليونانية وذلك أنه وهبهن حقوقاً لم تكن لهن من قبل واعترف لهن بمزايا كانت لذلك العهد ضائعة لا يسلم بها أحد فقد قال : « ان هذا الجنس (أى النساء) الذى نحجر عليه ولا نسمح له فى العادة إلا بالاشتغال بالاشياء التافهة والشؤون المنزلية أليس فيه استعداد لأمور أشرف ، ووظائف أرقى ؟ ألم يعطنا أمثلة كثيرة من الشجاعة والعقل والرقى فى كل ضرب من ضروب الفضيلة » ولكنه لم يغال فى السير فى تيار هذا الشعور الجميل الذى خالف فيه عموم أهل عصره بل رجع فاعترف بأنها أخط من الرجل منزلة وأقل منه درجة . ولم يقصر فى الاشارة والنصيحة باعطاء النساء ذات العلوم التى تدرس للرجال كما كان الشأن فى مدينة (لاسيديمونيا) اليونانية عاصمة جمهورية (اسبارطا) وقرر بأن يشارك الرجال فى الالاعيب الرياضية وفى التمرينات العسكرية أيضاً .

اما المتشرعون فيجب ان ينتخبوا من صنف المحاربين فيرتقون من الصنف الفضى الى الصنف الذهبى . والنسل الحاصل من هذا الصنف الفضى يجب أن يؤخذ ويربى تربية خاصة تؤهلهم للانخراط فى سلك الطبقة الحاكمة ولا يجوز أن يربى هذه الترية ويهياها هذا التهىء الا الاطفال الذين تتوفر فيهم شرطى حسن الخلق والخلق ويكونون حاصلين على مواهب طبيعية جليلة . وتلك الترية الخاصة هى تخريجهم

فى كل العلوم والفنون المعروفة وادخالهم فى قواعد شاقة وتحميلهم تكاليف صارمة ليشبوا متعودين على الخشونة والنظام وليصلحوا أن يكونوا بأفعالهم وأقوالهم أمثلة فى الفضيلة والزهادة حتى اذا صبروا على كل هذه المشاق فى التربية وخرجوا من كل دور منها لا بسين تيجان النجاح ألحقوا بذلك الصنف الذهبى الحاكم على غيره وسلخوا مقاليد الحكومة عفواً بغير تعب .

أما العامة وهو الصنف الحديدى فلم يشر عنهم الفيلسوف أقل إشارة لانهم فى نظره وفى نظر سائر الفلاسفة الاقدمين خلقوا للطاعة العمياء للأولين ووجدوا لأن يحيا بحياتهم ويتحركوا بحركتهم .



ارسطو

الفيلسوف ارسطو أشهر فلاسفة اليونان بل فلاسفة العالم كله . وهو أكبر قريحة ظهرت فى العالم القديم ولذلك يلقب بأمر الفلاسفة . ولد بمدينة (ستاجير) من مملكة مقدونيا فى سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٣٢٢ وله من العمر ثلاث وستون سنة . كان أبوه طبيباً شهيراً اسمه (نيكوماك) عنى بتربية ابنه ارسطو وهياًه لدراسة الطب ، ولكنه لم يعيش حتى يرى المواهب العظمى التى وهبها الله لابنه وتركه ولم يناهز السابعة عشر من عمره : فكفله صديق لآبيه وقام له مقام الوالد وهو ما جعل ارسطو يذكر طول حياته بر هذا الرجل بهويته

عليه بما هو أهله .

روى ثلاثة من المؤرخين الأقدمين أنه لما مات كفيل أرسطو جمع هذا كل « ما آل اليه من ميراث آبائه وأقربائه ، وأطلق لنفسه عنان الهوى في ميادين اللهو حتى أتى على آخر ما يمتلكه ولم يبق له ما يسد به حاجة الحياة ، فلما ضاقت به حلقات العيش الحق نفسه بخدمة الجندية ولبت بها مدة ولكنه لما لم يطق مشقاتها وصرامتها تركها وألقى بنفسه بين يدي الفلسفة .

يقول أنصار أرسطو ان هذه الرواية واهية السند لا استطاع اثباتها لا نقطاع اسنادها ، ومع ذلك فلو فرض أنها صحيحة فلا تؤثر كما يقولون على مقام الفيلسوف بشيء ولا تنزل من اعتباره ، فإياك وهي من الضعف حيث رأيت

الذى لا شك فيه من بدايات أرسطو أنه تعاطى في أول أمره صناعة الطب طلبا لإقامة أمور المعيشة ، ولقد حفظ لهذه الصناعة أثرا جميلا في نفسه حتى أنه لما اتصل بالاسكندر بصفة مرب له نقش في فؤاده حبها وإكبارها فشب الاسكندر على ذلك . وقد ألف أرسطو في الطب كتاباً نفيساً اسمه الصحة والأمراض

دعنا من هذا كله فكله قليل الخطر وأكثره واهى السند ، ضعيف الرواية ، أما الذى لا شك فيه ولا غبار عليه من ترجمة حياة أرسطو هو أنه حضر الى (أثينا) في العصر الذى كانت تتلأأ فيه علما وفلسفة ، وتتهادى مدنية وحضارة ، وكان عليها الخفاق في العلم في ذلك الحين

الفيلسوف (أفلاطون) فلم يكذب يضع أرسطو قدمه في أثينا ويرى ذلك ينبوع العلم الفياض حتى التحق به واكتب في مدرسة أفلاطون ولازم الفيلسوف مجداً في الدرس دائماً في البحث والنظر حتى لحظ ذلك منه أستاذه وتحقق من مكانته في توقد الذهن وبعد النظر وسعة مجال الفكر فقال عنه لبعض خواصه : انه ليس مثل (أكسينوكرات) محتاجاً الى مهاز يحثه ، بل الى الجام يوقفه . فلأزم أفلاطون عشرين سنة يتلقى عنه العلم والفلسفة ويسمع منه الحكمة والخطابة ثم تركه فجأة ، فكان ذلك مساعاً لاعدائه في الطعن عليه وتنقصه ووصمه بما هو براء منه من ذمائم الصفات ومشائن الخلال . قائلين ليس من الانسانية أن يلزم الرجل أستاذه عشرين سنة ثم يتركه غضبا عليه منكر افضله وجاحداً اتعابه . والذي حققه المحققون ان الامر بخلاف ذلك وان ارسطو لم يترك معلمه ومرييه على صفة غير جديرة بمثله من رجال الحكمة والعلم ، ولكن الذي أتاح لاعدائه أن يتظنوا هذا الظن السيئ الخلاف الذريع الذي بين فلسفة أرسطو وفلسفة استاذه وهو خلاف جوهرى لا يسمح للبطلان أن يحكم بأن أحدهما تليد الآخر . ذلك لأن فلسفة أرسطو مبناها المشاهدات والمحسوسات وأسسها التجارب والمقارنات ، فهو فيلسوف حسى من الطبقة العليا لا تفترق فلسفته عن فلسفة الفرق المعاصرة لنا في شيء . أما أستاذه أفلاطون ففلسفته على خلاف ذلك فان دعائمها التصورات وسنادها الأفكار والتأملات فهو فيلسوف عقلى من الطراز الأول .

هذا هو الذى حكم به العرفاء فى هذا الموضوع وزد عليه أن ارسطو لم يذكر قط أفلاطون فى كتبه الا بما يستحقه من الاعجاب والاجلال حتى أنه لما التجأ بحكم وظيفته أن يدحض مذهب أستاذه أمام تلامذته قال لهم : وانه وان كان قد قال هذا المذهب قوم نعزهم ونجاهم الا أن الحق أولى بالاتباع وأجدر بالاحترام والدفاع .

لبث أرسطو فى أثينا مدة حياة أستاذه أفلاطون ولما مات رحل عنها مدفوعا بما كان يلحق المقدونيين من الاذى والاضطهاد بسبب الحقد على مقدونيا وملكها فيليب أبى الاسكندر فلحق (بهرمياس) الظالم الغاشم ملك بلاد (اترنا) هرمياس هذا كان مملوكا سمت به همته الى أن ارتقى عرش الملك فى بلاد (اترنا) ولكنه كان مع همته هذه ظالما عتيا فلما لحق به أرسطو زوجه أخته وأكرمه غاية الاكرام ، فمدحه أرسطو مدائح خلدت له اسمه فى التاريخ . وهذا من أكبر ما يتذرع به أعداؤه للخط من كرامته . ولم يزل الملك هرمياس هذا يسوم الناس الخسف ويذيقهم الحيف والعسف حتى حاقت به سيئاته وارتكست عليه نياته فقتله الفرس شرق قتلة . عند ذاك رحل الفيلسوف المقدونى الى جزيرة (لفسون) وبينما هو بها اذ جاءه كتاب من الملك فيليب المقدونى يستدعيه لتربية الاسكندر واعداده لحكم مملكة مقدونيا . فشخص مليا طلب الملك الى مقدونيا وأقام بها اثنتى عشرة سنة ملازما للاسكندر يغذوه لبان الحكمة ويرشفه ثدى الآداب والفلسفة ثم رجع بعد ذلك الى أثينا وأسس بهامدرسته (م — ١٠ — أول)

الشهيرة بمدرسة المشائين لان من عادة أرسطو التدريس ماشيا .
حل أرسطو بأثينا بعد هذه الغيبة الطويلة عنها وقد فاض صدره
علما وتجارب فأراد أن يشرك العالم أجمع في ثمرات حياته فأكب على
التأليف والتصنيف واختراع علوما جديدة لم تكن موجودة وساعده
على هذا الجهد العالي تلميذه الملك اسكندر فانه أمر الالوف المؤلفة
من جنوده وضباطه أن يلتقطوا له أيما حلوا ونزلوا أنواع النباتات
وصنوف الحيوانات ويحملوها الى الفيلسوف المقدوني بأثينا لتساعده
وتعينه على دراسة التاريخ الطبيعي والتعمق في أسرارهِ ولبابهِ . هذا
فضلا عما أعده له من المال الجم لشراء الكتب وتأسيس المدرسة
وما يستدعيه ذلك الشأن من الأمور . ولكن لم يدم تعزيدا لاسكندر
له بل حدث ما يكدر صفو الحب بينهما . وذلك انه كان لارسطو ابن
عمة اسمه (كالثينوس) رباه واعتى بتريته حتى صار حكيما فلما انفصل
أرسطو عن الاسكندر ورجع إلى أثينا استودعه ابن عمته هذا على
أن يتبعه في غزواته وغاراته وأوصاه عليه كثيرا ، فلم يحفظ
(كالثينوس) هذه المنزلة على ما يروى عنه فانه كان لا يبالى بالملك
ولا يقدم له الاحترام الواجب فتغضب عليه الاسكندر وحدث بعد
ذلك أنه قتله لجرم ارتكبه يستحق عليه القتل في نظر الاسكندر
ولكن أرسطو لم يقتنع بصحة ذلك . فكانت النتيجة أن تكدر الفلاسوف
من هذا الأمر وقاطع الاسكندر .

حدث بعد ذلك أن هبت ثورة عامة في أثينا ونزع أهلها الى

استرداد استقلالهم من المكدونيين واستدعى الأمر بعد ذلك بحكم الضرورة أن يلحظوا المكدونيين الذين بين أظهرهم شذرا ويوسعهم اضطهادا وعسفا . وبما أن أرسطو مقدوني الأصل وقوى كبرى من قوى مقدونيا تذرعوا الى قتله تذرع السوفسطائية لقتل (سقراط) وذلك أنهم اتخذوا مدح أرسطو لذلك (هرمياس) الظالم واسطة لاثامه بالالحاد . فلما رأى أرسطو هذا التآلب عليه خاف من أن يصيبه ما أصاب (سقراط) فأوى الى جزيرة (أوييه) وصدر عليه الحكم بالقتل من محكمة أثينا ولم يكن بها . وعلل انسحابه من أثينا وتجنبه لحكم القتل بقوله : « فعلت ذلك لأحول بين الاثينيين وبين العود الى اهانة الفلسفة » يشير بذلك الى إهاتهم الأولى للفلسفة بقتل سقراط . ولم يعيش بعد هذه الهجرة طويلا بل مات فى تلك السنة . وقيل انه اتحر سأمًا من الحياة . وروى بعض قسوس النصرانية أنه لما يثس من تعليل ظاهرة المد والجزر ألقي بنفسه فى اليم ، وليس من مستند لهذه فى الرواية والله أعلم .

كان أرسطو ضعيف الجسم نحيف الساقين ذا صحة مضطربة يشكو من معدته كثيرا ولقد كان ضئيل الصحة لحد أن معاصريه كانوا يعجبون من احتمال مثل بدنه لاعباء الحياء وتكاليفها ثلاثا وستين سنة .

من حكم أرسطوا الشهيرة التى تستحق الذكر قوله : « جذور العلم مريرة ولكن ثمراته حلوة »

« الفرق بين العالم والجاهل ، كالفرق بين الحى والميت »

« لا شيء يهرم الانسان أسرع من الاحسان »

« الأمل حلم اليقظان »

« لنحفظ حب سقراط وافلاطون ، ولكن لنحب الحقيقة

أكثر منهم »

« رسائل الاخوان زينة في السراء وتعزية في الضراء »

« لا فضيلة الا في التوسط »

— — — — —

مذهب ارسطو

يمكن اختصار مبنى مذهب أرسطو في هذه القاعدة الاساسية وهي :

« لا يصل الى العقل إلا ما يمر أولاً بالحواس الخمس » وهي قاعدة

كلا لا يخفى تجعل الحواس أصلاً للأفكار ومنبعاً للمدركات . ومن

هنا ترى أن أرسطو ألح في تمييز الواجب عن الممكن ، والمطلق عن

المقيد ، وبما ان الممكن والمقيد تقابلها الحواس الخمس في الادراك

الانساني ، فتكون المدركات التي تقابل الواجب والمطلق تشبه ما كان

يسميه أفلاطون (افكاراً) . وكان ارسطو يريد من ذلك أن يؤسس

فلسفة وسطا بين المذهب الفكري والمذهب الحسي ، ولكن غاب عنا

الآن ماهية ذلك التوسط وكيفيته حتى إنها عميت على بعض أتباعه

فوقعوا في المذهب الحسي المطلق ، ونحن لاجل إيراد موجز من فلسفة

ارسطو يحسن بنا ان نورد هنا من أصدق مصادرها صارفين النظر عما

نالها من جدل المجادلين واره الممحصين ، فلسنا بصدد إيراد تاريخ الفلسفة على الطريقة التاريخية وإنما غرضنا الالمام بجوهرها وروحها على الطريقة الفلسفية المحضة .

يفرض مذهب ارسطو أن للعقل الانسانى جزأين متميزين عن بعضهما تمام التمايز ، وهما الاشكال العقلية والاصول التى تتأثر بها الحواس من الخارج . فالعقل بما وهب من تلك الاشكال الاصلية فيه يصدر أحكاماً عامة ضرورية يصبغ بها المتغير والشخصى بصبغة الضرورى العام ، كادراك استحالة المستحيلات وجواز الجائزات ولكن هذه الاشكال العقلية التى تصدر منها تحتاج لمادة تنطبق عليها هذه المادة يهيئها الاحساس والتجربة .

اذا تقرر هذا يعلم من أول وهلة أن مذهب ارسطو يوافق من بعض الجهات مذهب إفلاطون ويلائم مذهب (ابيقور) من جهات أخرى ، ولكن مع حفظه شخصيته وصونه استقلاله عن كليهما .

أما موافقته لمذهب (إفلاطون) فذهابه إلى وجود عنصر فى العقل الانسانى يتميز تمام التميز عن الاحساس ، وأما موافقته لمذهب (أبيقور) فلتسليمه بأنه لولا الاحساس لما أمكن الانسان أن يعلم عن الوجود شيئاً ولا أن يحصل عنه خبراً . أما كونه مع ذلك حافظاً لشخصيته صائناً لاستقلاله فلكونه يبتعد عن كلا هذين المذهبين بعدا شاسعاً فى بقية مستلزمات هذه المبادئ . فان إفلاطون يذهب الى أن (الافكار) التى هى منابع الأحكام المطلقة ، هى حقائق أبدية ، مستقلة

عن العقل وخاوجة عنه ومشرقة عليه فقط ، ويذهب (أبيقور) الى أن أحكام العقل ليست الا تعميها لاحساس الحواس ، أما في مذهب ارسطو فالامر بخلاف هذا فان الاشكال العقلية في فلسفته وان لم تستطع أن تنطبق الاعلى الحواس فقط ، إلا أنها تضيف اليها عنصرا خارجيا مستفادا من التجربة ليتم أمر الادراك والعلم .

من هنا يعلم سر تشدد اتباع افلاطون في الاستقلال عن فلسفتي (افلاطون) و (ابيقور) فانهم كانوا ينصبون أنفسهم منصب الموقفين بينهما ، الموجد بين الوسط بين طرفيهما .

وقد اختلف بعض الفلاسفة في تقرير مبادئ ارسطو هذا اختلافاً ذريعاً فمنهم من جعله فكراً محضاً ومنهم من صورته حسياً صرفاً وهو تناقض شديد تكبر عنه كما يقول بعض الفلاسفة فلسفة ارسطو وهي تلك الفلسفة التي كان لها المقام الأول في زمانها الى ما قبل أربعة قرون ، ولم ترل لليوم رائجة لدى بعض العقول التي تحب الأمور القديمة اذا تحقق ان ما أوردناه هنا عن ارسطو عن أئمة الفلسفة في

أوروبا هو حقيقة مذهبه فيكون مبناه اذن تحديد القوانين الداخلية السائدة على العقل الانساني ، أو بعبارة أخرى يكون معتمده الأول علم المنطق ، وهو أعظم عمل عمله ارسطو ، وبه يمكن معرفة سائر تأملاته ، ويستطاع التوفيق به بين جميع أجزاء مذهبه الكبير الواسع . ورغماً عما نال مدركات ارسطو فيما وراء الطبيعة من عدم الثبات بعد ظهور لآلاء العلم العصري ، فان المنطق لم يزل حياً معمولاً به في

بعض المذاهب الفلسفية ، ولقد كان في القرون الوسطى الآلة الوحيدة في الجدليات وتقرير الدليل .

العلم في نظر (ارسطو) هو حركة العقل ، وهذه الحركة لها شكلان رئيسيان : وهما النظر والعمل . ومن هنا قسم العلم الى قسمين : علم نظري تأملي وعلم عملي . فالعلم الأول تدخل تحته العلوم النظرية (علوم ما وراء الطبيعة والعلوم الرياضية) والعلوم التجريبية (التاريخ الطبيعى وعلم النفس) والعلوم المختلطة (علم الطبيعة العمومية التى ليست فى ذاتها الا تطبيق علوم ما وراء الطبيعة على الحوادث العامة للكون) أما القسم الثانى وهى العلوم العملية فعلم الاخلاق والسياسة والاقتصاد . هذا هو التقسيم الذى يمكن استنتاجه من فلسفة ارسطو وكتبه ، ومن يعنى باستقصاء مرامى اتباع هذا المذهب على الاخلاق والفضيلة والسياسة والاقتصاد والعمران يرى أن مبدأهم فى الاخلاق التوفيق بين أحكام العقل ومطالب الشهوة وتوخى الاعتدال فى تلك المطالب حتى تكون خاضعة لأحكام العقل تمام الخضوع .

أما الفضيلة فى نظرهم فقد خالفوا فيها (افلاطون) الذى جعلها فى أداء الواجب المطلق وخالفوا (أبيقور) أيضاً فى قوله انها اللذة المعتدلة ، وقالوا انها القيام على الخط الوسط بين الشهوات المتعاكسة فى النفس . والغرض من الاخلاق فى نظرهم هى الراحة التى تنتج من الاعتدال فى الشهوات الجسمية .

أما قاعدتهم فى السياسة فكانت اجتلاب المنفعة من وجوها

المعتدلة ويعلم ذلك من قاعدتهم الأخلاقية وهي التوسط في مطالب البدن لتحصيل السعادة الجسدية وهي الراحة والصحة ، ولما كان قاعدة سياستهم النفع فقد قرروا الاسترقاق في قانونهم وعدوه أصلاً من الأصول التي يقوم عليها بناء الهيئة الاجتماعية .

أما قاعدتهم الاقتصادية العائلية فكان قسط الحرية فيها ضعيفاً ، وذلك أنهم كانوا يعتبرون العائلة مملكة مستقلة فيها الحكم بين الزوج والزوجة على الأسلوب الأريستوكراسي أي الحكومة التي يكون فيها رجال قلائل مالكيين زمام الأحكام ومخولين سيادة مطلقة على سائر أفراد الشعب ، وبهذه الصفة كانت الزوجة تحت سلطة الزوج مباشرة ولا يخفى أن تلك السلطة قد تكون استبدادية عسفية على حسب أخلاق الرجال وعادات الجيل ، وهذا ليس من العدل في شيء . هذا بالنسبة للزوج والزوجة . أما بالنسبة للأب وأولاده فكانوا على سنة الحكومة المطلقة الاستبدادية ، أي أن الأب على أولاده سلطة غير محدودة وإرادة نافذة لا تقف عند حد . أما الأولاد فيما بينهم فكانوا على الدستور (الديموكراسي) أي المساواة المطلقة في جميع الحقوق . وفي مذهبهم أنه لو كان يهتم الأب تربية أبنائه ، أو تقوية أجسام أرقائه فما ذلك إلا لأنهم مكونين لركني مملكته

فلسفة أرسطو هذه دخلت إلى أوروبا بواسطة ابن رشد الفيلسوف الإسلامي فقبولت من بعض الفرق النصرانية هنالك بالحماسة والحفاوة . فتردد علماء اللاهوت في قبولها أو لا ثم قبلوها نهائياً وتحمسوا لها تحمسا

غريبا وتعصبا لذلك الفيلسوف تعصبا مدهشا حتى أنهم كانوا يعتبرون أقل كلماته وأصغر أحكامه غير قابل للنقض . فلم يستطع أحد أن يجاهر بفلسفة غير فلسفة ارسطو مهما كانت صفته . ولما جاء أوان يقظة أوروبا حوالى القرن السادس عشر أخذت تلك الفلسفة فى السقوط شيئا فشيئا . فقام فيلسوف اسمه (راموس) فرنساوى الاصل ونقض أصول تلك الفلسفة بالدلائل والبراهين فقتل فى مقتلة (سان بر تلمى) التى حصلت فى فرنسا بين الكاتوليك والبروتسانت وقتل فيها من هؤلاء عدد عديد (١) . ثم ظهر بعده (پاتريزى) فسار على خطه (راموس) ثم نبغ (تامبانيلا) وشن على تعليم ارسطو غارة شعواء فحكم عليها بالحرق ، ولكن ما الحيلة ولكل شيء أجل ، ولكل نابغة جيل أو أجيال معدودة ، فلا يستطيع اماته شيء له فى الحياة نصيب كما لا يستطيع احياء شيء قضى عليه الله بالموت . فرغما عن هذه السلطة الهائلة التى أيد بها علماء اللاهوت فى أوروبا بفلسفة أرسطو حتى قتلوا وأحرقوا اضدادها تلاشت تلك الفلسفة تحت أنظارهم بتوالى ظهور العقول المضادة لها تواليا عجيبا . فقد نبغ بعد الذين تقدم ذكرهم (باكون) الانجليزى و(ديكارت) الفرنساوى وغيرهما من رجال العلم والفكر فقضوا على تلك الفلسفة قضاء نهائيا . ولكن كان لم يزل لها انصار متحمسون للدرجة القصوى

(١) حصلت هذه المقتلة الهائلة فى فرنسا فى ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ تحت حكم شارل التاسع

وسدبها تحاقق الطوائف الدينية فيما بينها فاستمرت مدة أيام متوالية فى سائر البلاد الفرنساوية

وخصوصا فى باريس

من رجال الدين الاقوياء فقد تحصلوا على أمر من مجلس نواب باريس سنة ١٦٢٤ بقتل كل من تجاسر على تعليم فلسفة تناقض فلسفة ارسطو. ولكن هيات . لكل نبأ مستقر . فلم تفعل تلك العقوبات شيئاً فان العقوبة لا تنصر ما قضى عليه الحق بالزوال فنبغ (مولير) بأسلوبه المضحك المروءة (بوالو) بطريقته الاستهزائية القاسية وأدخلوا ذلك من ضمن أضحائك رواياتهم حتى جعلوا تلك الفلسفة التي كانت بتلك المنزلة من الاحترام مضغة في الأفواه وسخرية في السهرات والتياترات والنوادي . ذلك كله جزاء الغلو السابق في الانتصار لهذا المذهب فسبحان الملك الحق الذي لا يزول كلامه ولا يحول . ولا يعترى أحكامه الأفول .

(مذهب ابيقور)

ولد هذا الفيلسوف الشهير سنة ٣٤٢ وتوفي سنة ٢٧٠ قبل الميلاد وهو من عائلة عريقة في الشرف ، قديمة في النسب . وكان مولده في (جارجينوس) وهي قرية من قرى مقاطعة (اتيكا) اليونانية فلما بلغ الثمانية عشرة سنة شخص الى اتيكا ولم يطل مكثه بها ، فغادرها قاصداً (كلوفون) في آسيا الصغرى مع أبيه ، وهناك أسس مدرسة لتدريس اللغة والقواعد النحوية .

مال ابيقور منذ نعومة اظفاره لدراسة الفلسفة فاشتغل بها ولم يتجاوز عمره الأربعة عشر ربيعاً وظل مكباً عليها ست سنين ثم أخذ في

تدريسها ونشرها بين مواطنيه على قدم كبار الفلاسفة وعظماء المفكرين . يقال انه لم يترك علم البيان الذي كان يشتغل به في مبدأ أمره الا احتقارا له وازدراء به حيث لم يجد فيه ما يكشف له عن كنه هذا الفراغ الشاسع الشامل للكائنات كلها . وذلك أنه بينما كان يتلقى عن معلمه قول (هيزيود) : « أول ما حدث في الكون هو الفضاء » سأل معلمه ومن أين نشأ الفضاء ؟ فلما لم يجد جواباً علم أن العلوم النحوية لن توصله الى شيء من المعلومات الضرورية لحياة الانسان فمال عنها الى دراسة الفلسفة . هذه رواية من روايات كثيرة بشأن تحوله من العلوم النحوية الى العلوم الفلسفية . وقد نسب كثير من الكتاب الاقدمين تعلقه بالعلوم الفلسفية الى الصدقة ، وذلك أنه وقع بين يديه يوما من الايام بعض كتب ألفها الفيلسوف (ديموكريت) فأنعم النظر فيها . فارتاح اليها خاطره . وثلج عليها صدره ، ووجد من نفسه باعثاً شديدا اليها وحنيناً قوياً لها ، فانضم الى الفلاسفة ، وسواء صحت هذه الرواية الأخيرة أو لم تصح فان كتب (ديموكريت) أثرت على (ايقور) تأثيراً ظاهراً جداً لاسيما مذهبه في الجوهر الفرد .

لا يعلم بالضبط التاريخ الذي غادر فيه (ايقور) كولوفون ورحل الى (ميتلين) ثم الى (لمسالا) وهي تلك البلدة التي كانت معروفة بالثروة والروتق والعلم ، ولكن مما لا شبهة فيه أنه عاد إلى اثينا سنة ٣٠٦ قبل الميلاد وسنه اذ ذاك خمسا وثلاثين سنة ، فاشترى بها في وسط الاحياء حديقة غناء بثمانين ألف مين (المين سكة قديمة الثمانون

ألفأمنها تساوى ٧٥٠٠ فرنك) عرفت هذه الحديقة بحديقة (ايقور)
 صفات (ايقور) . كان ايقور حاوياً الصفات التى تحببه الى الناس
 وتأسره لم فقد كان هادى النفس ، سليم النية ، ثابت الجأش ، متواضعاً ،
 لا يقابل انساناً بالمعارضة والملاجة ، سمحاً هيناً ليناً ، ذاصحة ضعيفة ،
 كثير الأمراض ، لا يحب ولا يحبور . مما حفظ عنه من الخلال
 النادرة أنه لما أصاب بلاده مجاعة صرف كل أمواله فى تقويت تلامذته
 حتى صار معدماً لا يملك شيئاً ، وهذا من السماحة التى لا تصادف فى
 الناس الا قليلاً ، ولم يلبث على التدريس الاسنين قلائل حتى ذاعت
 شهرته فى جميع البلدان ، وتحدثت بسعة مداركه الركبان ، وجابت سمعته
 أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ورغماً عما تقول الناس على هذا الفيلسوف
 ونسبوه اليه من الميل للملاذ البـدنية فانه كان على جانب كبير من
 البساطة فى المأكل ، فقد كان يأكل فى العادة خبز الشعير مغموساً فى
 الماء ومتى أراد فى بعض الأيام أن يأتمم كان لا يتعاطى الا قليلاً من
 الجبن مع ذلك الخبز الخشن ، وكان يقول : « يجب أن يكون العيش
 الكفاف كافياً لاسعاد الرجل الحكيم ، وارى أن خبز الشعير والقليل
 من الماء يكفيان لايتاء الانسان مثل سعادة جوبتير »

هذا ما كان يرويه عنه تلامذته من صفات القناعة ، وخلال العفاف .
 اما من لم يكونوا تلامذة له فقد نقلوا كثيراً من حوادث تمس شرفه
 وتزرى بمقام الفلاسفة من الافراطات والتفريطات الخاقية ، ولكن
 (دوجين لايرس) المؤرخ الشهير نقل عنه انه حاصل على جميع الفضائل

النفسية التي تجعل الانسان محبوباً محترماً .

شيخوخة (أيقور) كانت الية جدا فانه أصيب بالشال في آخر أيامه وأصابته قبل ذلك آلام أخرى ومات وعمره اثنان وسبعون سنة ، وخلفه في رئاسة مذهبه تلميذه (ميتروودوردولساك) ولم يعيش بعده كثيراً لتراثة المدرسة الايقورية الى (أبوالودور) أحد مشاهير تلامذته

﴿ فاسفة أيقور ﴾

لا تعرف فلسفة في العالم خرجها أعداؤها عن أصولها وبعدها بها عن حقيقة مراميها وصوروها بصورة تخالف صورتها الحقيقية مثل فلسفة أيقور فقد ادعوا أن الرجل شهواني محض وفلسفته شهوانية صرفة لا هم لمتبعيها الا الانغماس في لذائذ الشراب والطعام والانغمار في لجج اللهو والغرام ، والحقيقة فوق ما يتوهمون ، فان هذا الفيلسوف كما نقله عنه الثقات كان من الزهد في الملاذ البدنية بحيث كان يكتفي بخبز الشعير غذاء اعتياديا ، وفلسفة توصل رئيسها الى هذه القناعة والزهد لا شك لا يكون من أصولها الدعوة الى الانهماك في الملذات والاغراق في الشهوات ، أن فلسفة زينون التي درسنا أصولها في مقالة سابقة لم توصل ذويها الى مثل هذه الظلالة النفسية فكيف بما يدعونه على ايقور من المبادئ الشهوانية ، والأصول الافراطية ؟ لا شك في أن هذه المزاعم اما نشأت من القول عليه بالباطل حسدا وحتدا ،

واما من سوء فهم مراميه الفلسفية وكثيرا ما يؤدي سوء الفهم الى هذا الشطط في الحكم .

لسنا نقول هذا اطراء لفلسفة ايقور وذهابا بها فوق ما تستأهله من الاجلال والاحترام فانا على بينة من النقص الذي فيها هي وسائر فلسفات الفلاسفة الاقدمين كما تراه في فصل خاتم النبيين ان شاء الله تعالى ، وانما نقول ما قلناه دفاعا عن الرجل فقد هضموا حقه ، وألبسوه غير ثوبه ، ووصموه بما هو منه براء ، ولقد كانت مبادئه الاخلاقية في مذهبه مذبذبة لكثير من اتباعه فقد نبغ على يديه فضلاء كثيرون يحفظ التاريخ اسمهم للآن . على أن تلك الفلسفة ليست فلسفته الخاصة وانما هو نشرها وعممها ، ومن يطالع كتب (ديموكريت) و (لوسيب) يجد أن ايقور قد استقى منها شيئا كثيرا ، ولكن فاقها في نشر تلك المبادئ وإشراكها في العقول ولا يخفى أن هذه صفة أخرى من صفات الكمال البشري تتفاضل النفوس فيها الى ما لا نهاية . فمن العلماء من لا يشق لهم غبار في العلم والحكمة ولكنهم من موات العزيمة عن نشر علمهم بحيث يرحلون عن الدنيا وهم لا يفترقون عن عامة جيلهم في شيء ويتلاشى اسمهم على طول الزمن ولا يبقى لهم في الوجود الذي وردوا اليه أثر يذكر ، ومنهم من فتح الله لهم خزائن العلم وكنوز العزيمة أيضا فأخذوا من هذه وتلك فأصبحوا النجوم السواري يهتدى بها الضال ويؤوب اليها التائه ، ولسنا نرى على سطح الكرة في جميع أدوار التاريخ الانساني إنسانا نال من هذه القوة ماناله خاتم النبيين محمد صلى الله

عليه وسلم فقد نشر ديناً جديداً في أمة تعد بالملايين الكثيرة في مدة ثلاث وعشرين سنة ولا يخفى الفارق الجسيم بين نشر دين ونشر فلسفة فان نشر الدين يستلزم أن يخلق الانسان عاداته الوراثية ، وفي ذلك مافيه من الصعوبات خصوصاً في الأمم الجاهلية الشديدة البأس كالامة العربية ، فتجأحه صلى الله عليه وسلم لم يكن إلا تأييداً الهيا ، وعونا ربانيا ، ومن ادعى غير ذلك فليرنا مستنده من نواميس الطبيعة أو قوانين النفس ، وهيات « لو أنفقت مافي الأرض جميعاً ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم »

إذا نظرت لفلسفة (ايقور) نظرة اجمالية لم تجد فيها تلك الاصاله والجدة التي تصادف عادة في مؤلفات كبار فلاسفة اليونانيين ، هذا النقص يمكن عزوه إلى ما كانت عليه حالة البلاد اليونانية في ذلك العهد من القلاقل والاضطرابات الداخلية . يقول العارفون ان العصر الذي وجد فيه (ايقور) وهو العصر الذي كان يتنازع فيه السلطة خلفاء الاسكندر الاكبر بين قارتى آسيا وأوروبا وكانت الجيوش الرومانية تتقدم إلى الامام في كل جهة تبتلع الأمم والعواصم ، لم يكن أهله صالحين لظهور أفكار كبيرة بين ظهرانهم ولا لبوغ قرائح قوية يستضيئون بنبراسها ، ويحيون بحياتها العالية ، فالتجأ (ايقور) أن يسالم السنة الطبيعة ويسير كما شاء القدر .

كان مثل (ايقور) في هذا الجيل المشحون بالقلقل والمشاغب لخالى من الفلاسفة والعقلاء كمثل قائد تفرقت عنه أجناده شذر منذر

فأراد أن يجمع شملهم ، وينظم عقدهم ، فلم ير أحسن وسيلة لأداء مهمته هذه من أن يجعل الفلسفة الى معناها الحقيقي ويوصلها الى غايتها الأصلية وهي تهذيب ممالك الانسان ، وترقية مواهبه الطبيعية بالرياضة والعمل بالنظريات والعبارات الفارغة كما كان يفعله أكثر الفلاسفة . حيث ينبغ منهم فيكون همّة ابتناء القصور والعلالي الفكرية الخيالية ، ثم يورثها لتلاميذته فيصقلونها شرحاً وتنقيحاً ثم يدعونها لاختلافهم مثلما كمثل العوبة عقلية ، او رياضة تصورية ليس إلا . فلأجل ان يصل (ابيقور) بالانسان الى هذه النقطة من الفلسفة العملية التطبيقية جعل همه الوحيد دراسة الانسان والطبيعة معاً .

نعم انا لو استعرضنا أفكاره على الطبيعة بعلمنا الحالى لرأينا أكثره حديث خرافة ولكن مثله في ذلك كمثل سائر الفلاسفة الاقدمين فلم يكونوا أقل منه غلطاً على مساتير الطبيعة وضلالاً عن أسرارها . ولكن رغماً عن هذا فان طبيعيات (ابيقور) تحتوى على حقائق طبيعية من الطبقة العليا جداً ، ذلك كوجود انه ناموس الجاذبية العامة ، وناموس التجاذب بين الجواهر الفردة في الاجسام ولا يخفى أن على هذين الناموسين قامت صروح العلوم الطبيعية والكياوية في هذا العصر . قبل أن يبدى فكره على شيء من أشياء الكون سأل (ابيقور) نفسه عن مصدر علمه وادراكه فلم يره في غير (الشعور) الذى بتشكله وتطوره على حسب الأحوال والمناسبات يسمى بأسماء مختلفة كاللذة والفرح والحزن وغير ذلك وليست كل هذه الاحساسات فى الحقيقة الا الشعور

بذاته مصبوغاً بصبغة مختلفة .

فمذهب (اييقور) والحالة هذه هو المذهب الحسى الذى لا يعتمد إلا على الأمور المحسوسة والدلائل العيانية المشاهدة بأحدى الحواس الخمس . هذه قاعدة فلسفة (اييقور) وهو بعينه مذهب (لوك) و (كوندياك)

و (ديستوت) و (تراسى) من فلاسفة هذه العصور المتأخرة

أما عقائد (اييقور) فى أمور ما وراء الطبيعة فلا يعلم لنا منها شئ يركن اليه والظاهر أنه كان لا يصدق بشئ منها، ولكن لم يرو عنه أن نابذها وهم بدحضها علناً بل أثر عنه أنه كان يتكلم عن الآلهة باحترام وتبجيل، ولكن قيل ان ذلك كان منه مشايعة للعامة فقط وقد عده الفلاسفة (الدينونيون) أتباع دينون من ضمن الفلاسفة الذين لا يعتقدون بالصانع وقد عجب بعض الفلاسفة من دعواه أن الروح الانسانية جوهر لطيف له خصائص عالية وأنه وجد فى هذا الجسد أمداً محدود واستخدمه حتى اذا ما صار البدن عديم الفائدة واختل خرج منه وتحلل هو أيضاً (أى الروح) وتلاشى فى الوجود .

عجب بعض الفلاسفة من دعواه هذه لمخالفتها لأصول مذهبه فانه لم يرد ذلك الجوهر اللطيف ولم يحضر تحلله وفناءه . قالوا وما دام هو حسياً لا يعتقد بغير المادة أفما كان من السهل عليه أن يزيد المادة صفة فوق صفاتها التى عرفها بها ليستطع أن يفسر مسألة الحياة الانسانية ، بدل أن يفرض هذه الفروض الغريبة ؟

الغرض من فلسفة (أييقور) البحث عن ماهية الاخلاق الفاضلة

التي توصل الانسان الى الحياة الدنيوية السعيدة . فما هي تلك الاخلاق
الفاضلة ؟ هي البحث عن السعادة . وما هي السعادة ؟ السعادة قد
عرفها فلاسفة الاقدمين بمحدود كثيرة اختلفوا بها اختلافات
بعيدة . فقد قال (أفلاطون) هي التخلق بأخلاق الله تعالى . وقال (زينون)
هي ملائمة العمل لنظام الكون . وقال (أريستيب) هي اللذة . أما
رأى (أبيقور) في السعادة فهي : سكينة النفس وسلوك جادة الفضيلة ،
روى عن (أبيقور) أربعة أصول خلقية تهذيبية بسببها كذب عليه
الكاذبون واتهموه بأنه طالب للشهوات ليس غير وهي :

(١) أطلب اللذائذ التي لا يكون وراءها ألم

(٢) إياك والالم الذي لا يجلب لذة

(٣) إياك واللذة التي تحرمك من لذة أكبر منها ، أو تكون
عاقبتها ألماً أكبر منها

(٤) احتمال الالم الذي ينجيك من ألم أكبر منه ، أو الذي يكون
من وراءه لذة كبرى .

هذا ما يروونه عن (أبيقور) وينسبونه به الى الانهماك في الشهوات
ويصمون مذهبهم بما هو براء منه . ولكن (أبيقور) يزيد عن هذه
الأصول الأربعة أصولاً أخرى وأفضل فان هذه الأصول الأربعة
لا تشير الا الى فضيلة واحدة ، وهي الاعتدال ، ولكن لا تنس أن
(أبيقور) كان يوصي باتباع ثلاث أصول أخرى بجانب هذا الاعتدال
وهي : النبصر والحزم والعدل .

السبب في اعطاء (ايقور) هذه العناية للذات الانسانية هو أنه أطال بحثه في أحوال الانسان ومراميه البدنية والعقلية ، وأميا له المادية والأدبية ، فرأى أنه تحت سلطان كثير من مطالب جسدية ركبت فيه بالفطرة ، وسلطت عليه تسليطاً طبيعياً فلم يرد أن يغفل البحث عنها ولو فعل لما استطاع أن يصل بالانسان الى شيء مما يوده له من السعادة النفسية فجعل درسها من بعض اشتغالاته ليصل الى حدود الاعتدال منها . وليكسر من سلطتها على هذا الانسان الضعيف . فاعتبر المذات أموراً مشروعة حقة ولم يحرم على أحد من أتباعه شيئاً منها مادام الاعتدال رائدها .

قسم (أيقور) المطالب الجسدية الى أقسام : وهي طبيعية ، وضرورية ، وغلبة كالجوع والعطش . وهناك مطالب أخرى وان كانت طبيعية الا أنها شهوية كطلب صنوف الأطعمة ، وأنواع الحلوى والأشربة وغير ذلك ، وزاد عليها مطالب سماها صناعية تعودية خطيرة كطلب شرب الأشربة الروحية والحشائش المخدرة وغير ذلك . والاعتدال في نظره هو ايتاء النفس المطالب الطبيعية والضرورية والغلبة . والاحتباس من المطالب الشهوية ، ومكافحة المطالب الصناعية بكل سلاح . فغرضه الأول من الفلسفة اذن هي الحكم على الحواس لا الخضوع لها .

يظهر أن أيقور غالى جداً في بعض الأمور بحثاً عن الراحة والسعادة فقد حرم على نفسه الاشتغال بالأمور العامة وحرم ذلك على أتباعه ، وقد سلك هذا المسلك في هذه العصور المأخرة الفيلسوف

الفرنسى (مونتى) حيث كتب فى ذلك فصولا بديعة سماها معاصروه قانون الأثرة الظريفة . ولكن مما لا يجب أن لا ينساه أحد أن كلا هذين الفيلسوفين اليونانى والفرنساوى عاش فى جيل مشحون بالقلق والفتن ، غاص بالاضطرابات والمحن بحيث يعذر من يعتزل الناس ويتركهم جانبا .

* (فلسفة بيرون) *

هو الفيلسوف اليونانى الطائر الصيت ولد بمدينة (اليس) من البلدان اليونانية سنة ٣٨٤ قبل الميلاد ولا تعلم بالتحقيق السنة التى مات فيها واختلف المؤرخون فى اسم أبيه . فقال (ديوجين لايرس) ان أباه اسمه (بليستارك) وقال (بوزانياس) ان اسمه (ييستوكرات) . ولد (بيرون) فقيراً لا يملك شيئاً واشتغل فى حداثة سنة بفن التصوير . نقل معاصره وكاتب سيرته (أنتيجون دوكاريست) أنه رسم فى شرف مسقط رأسه صورة شمعية (شمعدان) ذات جملة شعب فأعجب بها العارفون اعجاباً كبيراً

يقال ان الذى أثر على فكر (بيرون) وحوله عن الرسم الى الفلسفة هى كتب الفيلسوف ديمكريت فلقد كان مكبا على مطالعتها ، مشغلا بفك رموزها ، وكان قبل ذلك منبعا سير الفيلسوف (بريزون) تلميذ (سيتلون) ثم اقتفى نهج الفيلسوف (أناكزارك) وهو تلميذ (ميتروودور) وميتروودور هذا أحد قادة المذهب الديموكريتي . ويقال ان (بيرون) هذا لحق بجيوش الاسكندر فى غزوته

لآسيا ودرس الفلسفة الفارسية من موايدتها أنفسهم كما أخذ الأسرار الهندية عن ذات الهندين في بلادهم . فكان مثال فلاسفة الهند في سكينه أنفسهم وهدو خواطرهم لا يغيب عن ذاكرته ، حتى إن أستاذه (انا كزارك) الذى كان يعلمه كيفية تسكين نفسه وتهديتها ، كان يوقظ في نفسه دائماً ذلك الحنين الى مذهب الهنود في السكينة حتى قوى على تأسيس مذهبه الشهير كما ستراه بعد قليل إن شاء الله

رجع (بيرون) الى مسقط رأسه (أليس) فاجتذب قلوب مواطنيه إليه واكتسب احترامهم وتبجيلهم بأخلاقه العالية وشمائله الطيبة وفقره المدقع واستجماعه الصفات التي يعرف بها الفاضل في زمنه فلم يلبث غير قليل حتى عينه أهل بلده رئيساً للكهنة : ولأجل حبه اعفت تلك المدينة سائر فلاسفتها من سائر الضرائب .

معاصره وكاتب سيرته المؤرخ (انتيجون دو كاريست) نقل عنه حوادث مضحكة ونسب اليه خلافاً في القوة العقلية ولو كان كذلك لما انتخبه أهل بلده رئيساً للكهنة في زمن كان اليونانيون فيه شديداً التمسك بالدين . أما (انيسيديم) فقد فند كل التفنيد سائر ما نسب الى هذا الفيلسوف من خلل العقل ولكن لم يعفه من داء التشكك وعدم العقيدة . وكذب القائلين بأن من مبادئ مذهبه أن يترك الانسان نفسه للحوادث تقذفه حيث شاءت ، الأمر الذي يشير الى اغفال الارادة واهمال العزيمة

مات (بيرون) بالغاً من السن أكثر من تسعين سنة وهو حاصل

على احترام اليونانيين عموماً .

أخلاق بيرون — كان بيرون يحب العزلة والانفراد وهما للفيلسوف مهبط التأملات ومسقط الافاضات ، ويهوى البساطة التامة في معيشته الداخلية حتى ضرب به المثل في ذلك . وكان يشتغل مع أخته في الشؤون البيتية ، وروى أكثر من واحد من المؤرخين أنه كان يحمل إلى السوق الدجاجات والخنازير بنفسه .

يروى أنه روى يوماً غضباً يثوب أخته على أمر فعلته ، فقبل له أيها الفيلسوف ألسن القائل بأن العاقل يجب أن لا يحفل بشيء ، وأن لا يهتم لحادث ، فأجابه على الفور : « أظن أن فلسفتي تنطبق على النساء ، وكان يكره الاطماع في أى موضوع كانت ، سواء في الثروة أو الجاه وعلى الخصوص في المدح والمجد ، ولا يخفى أن هذه الصفة الأخيرة هي طلبه الفلاسفة وأنشودتهم الوحيدة ، قنعوا بها عن سائر الصفات والمواهب المادية الأخرى .

وقد علل (بيرون) كراهته للمدح بعبارة يحسن إيرادها . قال : « إن الناس في أحوالهم وشؤونهم يشبهون أوراق الأشجار الدائرة مع الرياح تبقى خضراء هنية ثم يعتريها الجفاف واليبس فتصير هشياً ، ومن كان هذا شأنه فأجدر به أن لا يؤبه بمدحه ولا لذمه »

(أيبكتيت) الفيلسوف كان فيلسوفاً اعتقادياً متعصباً لمذهبه تعصباً شديداً ، وكان بالطبع عدواً للملحدين واللاأدريين الذين يرأسهم (بيرون) ولكنه مع ذلك كان يعترف لخصمه بثبات الجأش ورباطة

الفؤاد وكان كثيراً ما يظهر اعجابه بذلك ،

يروى أنه كان يلقي على تلامذته يوماً قوله : « يستوى عند العاقل الموت والحياة » فقال له أحد تلامذته ولماذا لم تفضل الموت أيها الأستاذ ؟ قال « لأنهما يستويان »

ويروى أنه كان مسافراً على البحر فهب اعصار شديد انخلعت له الأفتدة ، وانخلت أمامه العزائم ، وأشرفت السفينة معه على التردى فى مهاوى التلف ، فصاح يرون بمن فى السفينة قائلاً انظروا إلى ذلك الخنزير الذى يشتغل بالأكل وسط هذا الخطر المزعج ، واعلموا أن هذا ما يجب أن يكون عليه الفيلسوف من الهدو والسكينة »

يظهر أن (يرون) لم يكتب شيئاً غير قصيدة مدح بها الاسكندر الأكبر كما رواه « سكتوس » و « بلوتارك » أما كتبه الحقيقية فكانت تلامذته أمثال « أوريلوك » و « فيلون داتين » و « هيكاثيه دابدير »

قلنا انه مال لمطالعة فلسفة « ديموكريت » والغوص فى بحارها ولكنه تركها واتبع فلسفة « ميغار » ثم تركها هى الأخرى واتبع فلسفة « السوفسطائية » ثم يتس من الوصول الى الحقيقة بواسطة كتب الفلاسفة فتركها جميعاً والتفت الى الطبيعة نفسها فهى كتاب الكتب لمن يستطيع أن يفهم عنها . لذلك رحل مع الاسكندر الأكبر إلى آسيا فى حملته على دارا وتكبد مشاق هذه الرحل الشاسعة فى سبيل العلوم والمعارف . وقد كان « ليرون » الحق فى ما طرأ عليه من سوء

الظن بالنسبة للفلسفة فقد كانت في زمنه في اضطراب لم يسبق له مثيل في زمن من الأزمان .

وذلك أنه مات افلاطون فخلفته الجمعية العلمية التي أسسها فلم تستقم على آرائه ومبادئه بل مال بعضها إلى مذهب « فيثاغورس » وبعضها إلى مذهب اللاأدرية . وكان ارسطو في ذلك الوقت وهو رئيس الحزب المضاد للحزب السابق ساقط الآراء والمبادئ لا ستناد مذهب به على الحس والتجربة ومجافاة ذلك لميل اليونانيين لاسيما اتباع الفيلسوف سقراط . (والسينيكيون) رغمًا عن احتقار الناس لهم كان لهم مستقبل كبير أمامهم . وقد كان هؤلاء الفلاسفة شأنهم عجيب جدا وذلك انهم كانوا يعيشون عالة على الغير ، معفين أنفسهم من سائر التكاليف الاجتماعية وكانوا يهزأون بالحضارة والمدنية ، ويسخرون بالشرائع والقوانين الادارية ، ويتربصون للهارة يوسعونهم هجرا وشتما ، ولم يكن يجمعهم بيرون الا توافقهم على ذم الحياة المدنية وتسويء سمعتها .

وكان أتباع الفيلسوف ذينون متبعين نهج « السينيكيين » في هجر العقل والمعقولات وزاعمين أن معتمدهم في الحياة اداء الواجب ليس غير . ولم يكونوا كذلك بل كانوا رغا عما يقضى به عليهم مذهبهم من الخشونة المعيشية والظلاقة النفسية ، متبعين سيرة الايقوريين في ترف الحياة ولذات الحبس .

فكان « بيرون » بين هذه الزعازع الفكرية كلها في غاية التردد والذبذبة ، لا يدرى أى فيلسوف يتبع ، ولا أى فلسفة يدافع عنها .

فلم يسعه الا أن جعل ذلك التردد مذهباً فلسفياً ودعمه تدعيماً منطقياً واتبعه فيه ناس كثيرون ممن هم على شاكلته في ذلك التردد بين المدركات المختلفة. فكان في نظره الاعتقاد مستحيلاً وكذلك الانكار ، ولم يكن امامه الا خطة الحيادة بين الطرفين والتردد والشك ليس يبرون هو أول شاك في العالم ولا أول من رأى الشك اسلم الطرق له بل هو أول من جعله مذهباً فلسفياً ، وأسس على دعائم علمية بقي قائماً عليها لليوم .

اليك كيف وضع « يرون » أول حجر لاقامة صرح مذهبه ، قال : الانسان متى خرج من غيابة العدم الى نور الوجود وأراد أن يسبر غور هذه المساتير المحيطة به من كل جانب فلا يجد امامه الا أحد أمرين : فاما أن يصدق كل ما يراه وما يستتجه ويعده حقائق غير قابلة للنقض ، واما ينكر كل ذلك ويدعى ان ليس هنالك شيء . ولا يخفى أن كلا هذين الأمرين تطرف يناهض طبيعة الانسان ، ويعاكس فطرته الأصلية إذن فليس للانسان الا خطة الاعتدال وهي الامتناع عن الحكم على الأشياء هذا المبدأ يحسن كثير من الناس فهمه كما يريد « يرون » نفسه فظن خصومه ان يخصموه بأقل الحجج واصغر البراهين فقالوا له مثلاً : اما أن يكون شكك عاماً وبذلك فأنت شاك في وجود نفسك وكفاك بذلك تناقضا في مذهبك ، لانك بشكك في نفسك أقررت على انك تفكر وتبحث ، وبناء عليه فأنت موجود . واما أن يكون شكك ليس عاماً وتقر بوجود نفسك فتكون قد أثبت شيئاً

وناقضت مذهبك .

يقول العارفون ان أمثال هذه المقالات تدل على عدم معرفة قائلها بمذهب « يرون » فانه لا يقول انا أثبت ، ولا يقول انا انفي ، وانما يقول أنا أشك فقط ذلك لانه كان يقول ان كل شيء امامه سر غامض ؟ ومساير مغلفة ، يقضى العقل والتبصر أن يكون الانسان بأزائها متبصراً حكماً ، فلا يصدر عليها حكماً ربما كان غلطاً وناقصاً هذا ما رآه « يرون » ألقى بالمتبصر ، وأدعى لعدم الجور في الأحكام على الكون وما فيه .

هذا الشك الذي جعله « يرون » مذهباً فلسفياً لا يقتضى أن يكون الانسان متردداً متذبذباً في سائر أحواله المعيشية ، وفي كل حركاته وسكناته ، فلقد كان من قواعد فلسفة هذا الفيلسوف الدعوة الى الاعتدال في المطالب الجسدية ، والشهوات البدنية . وانما جعل الشك فقط منظاراً لسير الفكر امام البحث وفي اثناء التنقيب على مساهير الكون . قالوا ان يرون لم يكن عدواً للدين ، ولا خصماً للفضائل ، كما يريد أن يدعيه السوفسطائية الخياليون الذين جعلوا الفلسفة آلة لتضليل الأفكار ، وتغريب العقول ، وانما كان كل اهتمامه موجهاً لمنع الانسان من تراميهِ بالاعتقاد ، وتهالكه بالتصديق ، على كل ما يقال له ويقدم اليه ، من قبل قوم لاحظ لهم من العلم الاجمل اتقنوا التفهيق بها ، ومرتوا على حسن أدائها وتصويرها ليس الا . وهي بعيدة عن الحقائق النابتة كل البعد . فلم يرد « يرون » من هؤلاء الناس الا ارجاء الحكم

على تلك الاعتقادات والمرامي الفلسفية والوقوف بها موقف البحث والنقيب لا الذهاب مذهب الأثر والبطر ، زعماً أنها حقائق ، وهي ضلالات وأوهام .

يزعم بعض الناس أن (ييرون) ينكر وجود الحقيقة ، وهو زعم كما يقول بعض المحققين ، لا مستند له البتة ، فان ييرون لم يقل ذلك وإنما قال انه استعرض فلسفات سائر الفلاسفة فلم يجد الحقيقة في واحدة منها ولا في مجموعها فتركها كلها لعدم فائدتها واتبع طريق الشك فوجد فيه راحته ، وثلج عليه صدره .

بالنسبة لما كان عليه « ييرون » من المبادئ المتقدمة اتهمه أعداؤه بأنه مثل بعض السوفسطائية كان ينكر العدل والظلم ويدعى أن الكل وهم في وهم . وهذا كله اقتراء عليه كما تدل عليه فلسفته . والقول المعتمد أنه ما كان ينكر وجود الحقيقة ولكنه ما كان يسلم بها إلا للحوادث المشاهدة المحسوسة وكان لا يأنف من أى شيء يقال على شريطة أن يبدأه قائله بكلمة (يظهر لى) وكان يسلم بالموجودات ولا يدعى انها خيالات أو أوهام كما يثمه به خصومه ، وكان يعترف بالفطرة الانسانية والنواميس الأدبية العامة ويرى أنها منقوشة في صميم المعنى الانسانى . والذى يؤاخذ به (ييرون) هو أنه جعل الشك غاية لمذهبه ، ونهاية لمطلبه ، لا وسيلة يتقدم بها نحو البحث ، ويسلك بها في النظم .

أما ما يقوله عنه أضداده من أنه كان ينكر المحسوسات ولذلك فكان طول حياته محتاجاً لمن يمشى معه في الطرقات مخافة أن يتردى في

هاوية ، أو يصطدم بحائط ، من شدة ما علق بفكره من أنها خيالات لاحقائق ، فهتان لاحقيقة له .

خلاصة مذهب (يرون)

من مبادئ هذا المذهب التصديق بالشئ الواقع أى الحادثة . فإذا حدثت حادثة طبيعية وأحس بها الانسان ، فلا يجوز له أن يقول : انها شديدة أوهينة ، باردة أو حارة ؛ وإنما يقول : يظهر لى أنها شديدة أوهينة ، ويظهر لى أنها باردة أو حارة

وقد أنى « يرون » أن يضع لمذهبه قواعد بنفسه قائلاً مامر . شئ الا ويمكن معارضته ودحضه . وقد أدهشه ما وصل اليه علم الجدل من الرقى الباهر ، حتى أنه كان يقول انه يخشى أن يبرهن علم الجدل للناس « ان مقطعاً من الحروف الهجائية أكل جنباً » كما كان يفعله بعض السوفسطائية لأعدائهم المغلوب على أمرهم .

قالوا وليس من شأن مذهب « يرون » أن ينكر شيئاً ولو فعل لسقط أساسه وانهار ركنه ولذلك متى قال « البيرونى » : أنا لا أفرض شيئاً . يعجل بقوله : بل ولا أقول انى لا أفرض شيئاً .

اليك الأسباب العشرة التى يستندون عليها فى عدم حكمهم على الاشياء :

(١) اختلاف الاحياء من حيث السن ، وتركيب الجسم ، وقوة المشاعر ، ودرجة الاحساس امام الشئ الواحد

(٢) اختلاف الناس فى الصفات الادبية والفزيولوجية « التشريحية »

(٣) اختلاف الاعضاء الحساسة فى الانسان الواحد ، الامر الذى

ينتج منه أن كل حاسة من تلك الحواس تنتج له كمية محدودة من الشعور بالشيء الموجود ، فلا يدري الانسان أذلك القدر من الشعور خاص بعضوه الذي أحس أم طبيعي في الشيء المحسوس

(٤) اختلاف الشعور في الجسم الواحد بالنسبة للأحوال المختلفة ، كالمرض والنوم والحزن والهزم

(٥) الاختلاف في الحكم على حسب كمية الشيء المحسوس : فان زيادة البرودة وقلتها ، أو سرعة الحركة وبطؤها أو شرب قليل من الخمر يغير الحكم السابق عليها كل التغير .

(٦) اختلاف الناس في أساليب الترية ، وفي الشرائع والعقائد

(٧) اختلاط الاشياء ببعضها بحيث يستحيل الحكم على كل شيء منها على حدته . كاستحالة وزن الحديد مجردا عن الهواء المحيط به ، أو ادراك الالوان الا تبعا لأخلاط العين التي يخترقها الشعاع أثناء سيره

(٨) استحالة مواجهة الاشياء مجردة ، فلا مناص من رؤيتها على مساند أو في أماكن أو أوضاع أو أحوال مختلفة

(٩) ندرة أو كثرة الحوادث التي تحدث لمستجلبها الجمود عن رؤيتها أو عدم العناية بها

(١٠) القيود التي لا يمكن الافتكاك عنها في حكم من الاحكام على الموجودات . فان الاشياء متعلقه ببعضها . والحكم على الشيء لا بد من أن يكون مقيداً بحالة الحاكم عليه .

هذه هي الأصول العشرة التي يستند عليها أتباع (بيرون) في عدم

حكمهم على الأشياء . ويؤيدون بها دعواهم من عدم إمكان الوصول إلى حقيقة ما . وهناك أصول أخرى خمسة نشأت بعد العشرة الأولى بقصد إسقاط فلسفة ارسطو وهي :

(١) إحساسات الناس تختلف بالنسبة لكل موجود من الموجودات
(٢) كل برهان يسوقه الانسان لاثبات شيء يحتاج إلى برهان يثبته ، وإلا فعلى أى دعامة يستند فى كونه حقاً ؟ فإذا أقيمت الدليل الثانى احتاج هو أيضاً لدليل ثالث يثبته كما احتاج الاول اليه ، ثم يحتاج الثالث إلى رابع وهكذا لما لا نهاية له .

(٣) الذى يبرهن على وجود المحسوس بالدليل المعقول يلزمه الدلالة على حقيقة برهانه الاخير . ولكن لما كان لا يمكن الدلالة عليه ببرهان عقلى (بناء على الأصل المتقدم) وجب الدلالة عليه بالمحسوس وهذا أمر يقتضى الدور والتسلسل

(٤) الفرض الذى هو كما يقولون حقيقة يجب التسليم بها بدون دليل لتكون ركناً لدليل آخر لا تقبل ، ولا يمكن التسليم بها ، لأنه لا دليل لهم على أن ما يجب أن يكون أساساً للدليل لا يحتاج لدليل يثبته

(٥) كل معقول تابع للعاقلين الذين يدركونه ، وكل محسوس تابع للكائنات المتممة بالحساسية ، وكل شيء تابع لما لا يمكن أن يعرف إلا به هذه الأصول الخمسة الأخرى التى يعتمد عليها اللا أدريّة فى حقيقة مذهبهم . نقلتها عن مواطنها الصحيحة المستخلصة عن شوائب

الافتراء والتعصب الذميمة

أشهر اتباع « يرون » من أهل القرون المتأخرة « انيزيديم » اليوناني الذي كان عائشاً في القرن الأول الميلادي . فقد كتب هذا الفيلسوف كتاباً كبيراً في مذهب اللاأدرية سماه « حجج البيرونيين » قسمه إلى ثمانية أبواب :

الباب الأول عرض فيه الأصول العامة للمذهب اللاأدرى ، وبين الخلاف بينه وبين مبادئ الجمعية العلمية الجديدة التي تشكلت في البلاد اليونانية للبادئ اللاأدرية . وكتب في الفصل الثاني تحليلات فلسفية على المدركات الآتية : الحقيقى والعلة والشهودة والحركة . والتوليد . وزعم انها غير قابلة للحل . في الفصل الثالث سرد وجود التناقضات الموجودة في مدركاتنا على الحركة وعلى الاحساس . في الفصل الرابع جادل ضد أفكارنا على العالم والعقائد . في الخامس درس العلة أى السبب من حيث هو وعرض الثمانية أشكال المعية . أما الثلاثة فصول الباقية فدرس نهاية الانسان ومصيره ، ولم يذكر عنه إلا أشياء سلبية محضة

كتب الفيلسوف « انيزيديم » غير هذه الكتب على مذهب « يرون » كتاباً مهمة أخرى منها « كتاب الفروض البيرونية » ، وكتاب ضد العلم ، وكتاب في البحث .

بعد موت « انيزيديم » انتشر مذهب « يرون » بسرعة في الاقطار العالية من المملكة الرومانية ونشبت في أذهان أعلياء القوم هنالك ، وقام بالدفاع عنها وحفظها عقول من الطبقة العليا توالى

بدون انقطاع مدة من الزمن مثل « زوكسيس دوتارس » و « انتيوكوس
دولا أوديسيه » و « مينودوت » و « هيرودوت دوتارس »
و « سكتوس » الذى كان فى عصر الامبراطور الرومانى الشهير
« ستيم سيفير » . وسكتوس هذا هو الذى جمع فى المذهب اللاأدرى
كتابا كبيرا حشر اليه ما وقف عليه من أقوال الفلاسفة البيرونيين .
وليس لهذا الكتاب أثر الآن .

وبما يحسن الالتفات اليه أكثر أشياح « بيرون » الاخيرين هم من
الاطباء ، وكان فى المذهب الذى اختاروه لأنفسهم فذلكه الفلسفة
اليونانية القديمة القريبة منهم .

لما تأسست جامعة الاسكندرية التى تكلمنا عنها فى بعض فصولنا
الماضية لم يستطع مؤسسو نظامها العلى ان يحددوا محلا فيها لفلسفة
« بيرون » فتركوها لنفسها فوجدت انصارا كثيرين من الخارج فى
كل مكان وكل زمان حتى أنها دخلت الهياكل واتبعها بعض رجال
الدين فى أوروبا . وقريب منا « مونتني » و « بسكال » الفيلسوفين
الفرنساويين كانا تابعين لهذه الفلسفة اللاأدرية وفى العالم لليوم
كثيرون غيرهم

نظرة على ما تقدم

الى هنا انتهى بنا الكلام على موجز فلسفة الأقدمين ، فقد عمدنا
الى أصولها الرئيسية فأتينا بها معزوة الى قائلها من قادة الحكماء
اليونانيين . ونظن أننا بهذا البسط قد استعرضنا أمام نظر القارئ

درجة رقى الفكر الانساني في تلك القرون البعيدة وأشرفنا به على مبلغ حظهم من العلم بالحياة الانسانية في جميع أشكالها وأطوارها وبالكون في جملة وكلية ولكننا لن نكتفى بذلك فسنعقد فصلا مطولا نحشر اليه إن شاء الله خلاصة مجموع تلك الفلسفة القديمة على المسائل الفلسفية الكبرى في فصول متعددة .

وذلك اتنا سنشرح مبلغ مداركهم في اللاهوت ، ثم في الروح والخلود ، ثم في الانسان وأخلاقه وأطواره والفضيلة وماهيتها وعلاقتها به ، ثم في الكون بجملة ثم في أفرع العلوم الكونية الخ لنستطيع أن نحاكمهم على مدركاتهم تلك في كتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم على كل نوع من أنواع تلك المدركات ، ثم نخرج إن شاء الله من هذا البحث الى اتباع حركة سير العلم في خلال القرون التي توالى بعد اليونانيين حتى نصل الى الأمة العربية فندرس مقامها في العلم الطبيعي في جميع فروعها وفي الفلسفة ، ومواهبها بالنسبة لكل فرع من أفرع المعارف الانسانية والخ الخ مما يعز عليه سرده الآن والله المستعان .

ثم نخرج من هذا البحث الى إيراد تاريخ العلم والفلسفة عند الأوربيين فنورد إن شاء الله أشهر مذاهبهم الفاسفية وآرائهم في كل فن من الفنون الانسانية ، رادين عليهم بحول الله كل ما تطفوا به عن جادة العلم ، ولتتضح وسائلنا في ذلك كله كلام الله العزيز الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

﴿ مبلغ حظ الفلاسفة الأقدمين ﴾

من ادراك الحقائق الأولية

درسنا في فصولنا المتقدمة تاريخ ماوصل اليه النوع الانسانى من مبلغ الادراك فى العصور البعيدة وهى فلسفة اليونانيين ، وقصدنا من ذلك كله تتبع حركة رقى العقل الانسانى وتدرجه فى ادراك الحقيقة جيلا بعد جيل حتى يومنا هذا ليرى قارئنا بالبرهان المحسوس إن شاء الله أن الاسلام هو الحقيقة المطلقة التى ليس وراءها مرمى ولا بعدها مطلب بل هى عامات الغايات ، ونهاية النهايات ، ولانستطيع ذلك الا بالطريقة التى سلكناها هنا وهى استعراض معقولات النوع الانسانى كله أمام نظر مطالعنا جيلا بعد جيل ليكون على بينة من قوله تعالى ، إن هذا القرآن يهتدى لى هى أقوم ، وقد بدأنا بالعالم اليونانى لأن الفلسفة لم تكون مستقلة عن تعليم الدين الافيه ، ولقد سردنا أمام نظر القارئ كثيرا من رؤساء المذاهب الفلسفية المختلفة من اعتقاديين وملحدين ولاأدريين رجاء أن يكون لقارئنا فكرة عامة على مبلغ ما كان وصل إليه العقل الانسانى فى تلك القرون ولكننا نخشى أن يكون قد طال الكلام وصار تطاول الزمن على الموضوع وتشعب فصوله مانعين من وصول قارئنا الى النقطة التى ترمى إليها ، لذلك ، رأينا أن نعدها فصلا كبيرا نحشر إليه نتائج مقالاتنا السابقة المبعثرة فى أطواء الصحف الكثيرة لتكون النقطة التى نود أن

يشرف قارئنا عليها مشخصة أمام نظره في حيز محدود . هذا لا يعد تكراراً لما سبق إيراده وإنما هو استخلاص لجوهره ، وتصفية للبابه ، وإيضاح لما غمض في أثناء العبارات ، واستتر في طي التقارير ، وسنزيد عليه إن شاء الله ما لا بد منه للوصول الى هذه الخلاصة الجوهرية ، وسنقسم الكلام في هذه الخلاصة الى أقسام عدة سنبدأها بمبلغ مدارك الأقدمين على مسألة اللاهوت ثم تدرج منها الى مبلغ علمهم بمسألة النفس والخلود ، ثم بمسألة الكون المحسوس وما فيه ، ثم بمسألة ما وراء الطبيعة ، ثم بالاخلاق ، ثم بالسياسة ، ثم بالشرائع الخ وهو بحث كما يراه القارىء كما يحتاج من المؤلف لكلام جديد وتحليل جديد ، يستدعى من القارىء التفاتاً ونظراً .

﴿ مبلغ مدارك فلاسفة اليونانيين ﴾

« بالمسألة اللاهوتية »

الفلاسفة اليونانيون الذين أتينا على فدلكات من فلسفاتهم في فصولنا المتقدمة يشخصون مبلغ ما وصل اليه الأقدمون من المدارك الفلسفية على الأصول الأولية ، والحقائق العلمية . ولقد كانوا ينقسمون الى ثلاثة أقسام : قسم يعتقدون بوجود الصانع جل وعز ، وقسم ينكرونه ويكفرون به ، وقسم شاكون لا يقررون نقياً ولا اثباتاً . القسم الأول أكثرهم عدداً ، وأقواهم جنداً لميل فطرة العالم الانسانى الى العقيدة ، واحتياجها اليها كل الاحتياج .

أما الكافرون والشاكون فقد كان كفرهم سبباً لسقوط مبادئهم ،
وموجباً لانتقراط القلوب عنهم ، وأى جناية يجنيها الرجل على العالم
الإنسانى أشد من حرمانه من نور الإيمان الذى هو مصباح المنير
فى ظلمات هذه الحياة ، القصيرة الأمد ، وكيف لا يظهر الإنسان أشد
الكراهة والمقت لمن يسعى فى اطفاء ذلك المصباح الطبيعى المتلألئ
فى ضمير هذا القلب الواجف ؟

لا يوجد برهان ولا شبه برهان على نفي العقيدة بالصانع جل وعز
وقد تتبعنا آثار أقوى العقول الملحدة ، وأشد الأفكار جماحا وعناداً
فى هذه المسألة ، وأتينا على نزغاتهم واحدة بعد أخرى (١) فلم نجد
من بينها شيئاً يستحق العناية به ، فإلى الاظنون وهو اجس تلم
بعض النفوس المظلمة لأسباب خافية طبيعية ، أو عارضة اكتسابية ،
فتخرج صاحبها عن الطور المعتاد الى أطوار أخرى ظلمات بعضها فوق
بعض نعوذ بالله منها ، لذلك لا نرى موجبا ليراد أقاويل كفار
الفلاسفة الأقدمين فى نفي عقيدة الصانع ، لاسيما وانهم لوجودهم فى
عصر كان للدين فيه سلطة تامة ما كانوا يستطيعون أن يتكلموا بتمام
الصراحة فى بسط عقائدهم الإلحادية ؛ ولقد كان الملحد منهم يكتفم ما
به من الشكوك والهواجس ويتظاهر بالدين واحترام المعتقدات ،
كما كان شأن أبيقور على ما يقال ، فلقد كان كما قررنا يتكلم عن آلهة
اليونانيين بتبجيل واحترام وهو فى الحقيقة على ما يدعيه أتباع ذينون

(١) اطرواؤها الحقيقة الفكرية فى آيات الله بالبراهين الطبيعية

ملحد لا يعتقد بوجود الصانع .

سنأتى هنا ان شاء الله . من بين أقوال سائر الفلاسفة اليونانيين على ثلاثة أقوال فى هذا الموضوع السامى وهى أقوال سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وهى تدل المطالع بأجلى بيان على مقدار ما بلغ اليه العقل الانسانى فى عصر الفلسفة اليونانية من الرقى فى ذات العقيدة والبرهان عليها .

* مدارك سقراط فى المسألة اللاهوتية *

سقراط كما يعلم قارئنا من فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو عصر كانت الشكوك قد كثرت فيه بواسطة السوفسطائية الذين استعملوا أسلحة الجدل فى التضليل والتغريب حتى زلزلوا عقائد بعض الناس ، فكان سقراط أقوى ناصر للعقائد فى زمنه ، أصلاهم حربا عوانا ذاقوا لواجمها سنين كثيرة ، ثم توصلوا الى الوقعة به فرموه بالاحقاد وقتلوه بالسم فى السجن وهو وسط بعض تلامذته وأصدقائه يقرر لهم خلود الروح وذهابها من هذا العالم الى عالم آخر بعد الموت ، وقد احتمل مضض السجن وآلام التسمم بصبر وجلد ضربا بهما المتل ، وعرف بهما كنه نفسه العالية ، وهمته الكبيرة

سقراط لم يؤلف كتابا قط وانما كانت كتبه تلامذته وخيرهم (أفلاطون) فقد نقل عنه مذهبه كله وزاد عليه ، ونحن هنا نورد أقواله عن (أكسونوفوت) الفيلسوف اليونانى المعاصر له قال :

« سأقص عليكم المحادثة التى حصلت ذات يوم بين (سقراط) وبين

« أريستوديم الملقب بالصغير بشأن مسألة اللاهوت . فقد كان سقراط
 « علم عن (أريستوديم) هذا أنه لا يقرب للآلهة القرايين (١)
 « ولا يتقرب اليهم بالصلاة والدعاء وأنه لا يستقسم (يستقسم
 « أى يعرف ما قسم له فى المستقبل) بل وأنه كان يهزأ بمن يمارس
 « تلك الأمور »

قال سقراط : « قل لى يا أريستوديم ! أترى أنه يوجد رجال
 يستحقون منك الاعجاب فى مهارتهم وحسن أعمالهم »

قال أريستوديم : « بلى »

قال سقراط : « ألا نخبرنا عن أسمائهم . »

قال أريستوديم : « انى فى نوع الشعر التاريخى أعجب (بهومير)
 « وفى الحماسة يطربنى (ميلاتييد) ، وفى المراثى يشجونى (سفوكل) ،
 « ويروقى فى التماثيل (پوليكليت) ويعجبنى (زوكسيس) فى فن ،
 « التصوير . »

قال سقراط : « قل لى ايها أحقهم من اعجابك بالقسط الا كبر ،
 « آ الذين يعملون صوراً لاشعور بها ولا حراك ، ام الذين يخلقون
 « الكائنات الحية المتمتعة بالادراك ؟ »

قال اريستوديم : « وحق الاله ان الاحق بالقسط الا كبر من
 « الاعجاب هم الذين يخلقون الكائنات المتمتعة بالحياة ، اذا لم تكن

(١) كان اليونانيون متعددين للآلهة مثل كل الشعوب القديمة التى لم تقف عند حدود الوحي
 الالهى وسيجىء فى أقوال سقراط لفظ الاله كثيرا ، ولعله كان يحارى العامة فى تلك اللهجة
 أما هو فلا تظنه الاموحدا

« تلك الكائنات نتيجة الصدقة بل كانت نتيجة حكمة و ارادة »
 قال سقراط : « رأيت لو عرضت عليك مصنوعات مختلفة منها
 « ماهو خفي المنفعة ومنها ماله منفعة ظاهرة وحكمة في الوجود باهرة ،
 « فأيهما أولى بأن تظنه من نتائج الصدقة والاتفاق أو من نتائج العقل
 « والحكمة ؟ »

قال اريستوديم : « تقضى علينا بداهة العقل أن نقول ان الذى
 « له حكمة فى الوجود ظاهرة ، ومنفعة فى نظام العالم بينة ، هو من فعل
 « العقل والحكمة »

قال سقراط : « ألا ترى معنا ان الذى خلق الانسان وسواه قد
 « أعطاه كل عضو من أعضائه لمنفعة خاصة ، وفائدة بينه ، ومتعه من
 « الأجزاء والأجهزة بما يحس ويشعر بواسطته . فتمتع بعينين ليرى
 « بهما المحسوسات : وبأذنين لسمع بهما الأصوات . وبمذا كانت
 « تفيدنا زكيات الروائح لو لم تكن لنا أنوف تدركها وتحس بها ؟
 « أترى انا كنا نتمتع بادراك الحلو والمر من الطعام وبالاتذاذ بمحوبات
 « الفم لو لم يكن لنا ذلك اللسان الذى وضع لتمييزها والحس بها ؟ ألا
 « ترى أن من دلائل التدبير والحكمة أن تمتع العين وهى ضعيفة
 « بحفون تنفتح وتنغلق عند الحاجة ، وتنطبق عند النوم طول الليل
 « وان توهب تلك العين غربالا من أهذاب لتقيها فعل الرياح الثائرة
 « وأن تمنح لها تلك الحواجب كميزاب يمنع عنها غوائل العرق
 « المتساقط من الرأس ، وأن تصنع الأذن على صورة لا تكلم من سماع

« الأصوات ولا تعيا من الحس بها ، وان تعطى بجميع الحيوانات أسناناً »
 « امامية لقطع الأغذية وأضراساً جانبية لسحقها ، وأن يكون الفم
 « الذى تدخل الحيوانات منه الأغذية الصالحة لها الى أجوافها موضوعاً »
 « قريباً من العينين والمناخير ، وأن المحل الذى يحصل منه الإفراز
 « للمواد المستقذرة بعيد عن مرمى النظر ومعكوس الوضع وعلى أبعاد
 « ما يمكن من الأعضاء الرئيسة . أترى نفسك بازاء كل هذه الأعمال
 « التى تدل على تدبير وحكمة لاتزال متردداً بين عزوها الى الصدفة
 « والاتفاق وبين اسنادها للحكمة والعلم ؟ »

قال (اريستوديم) : « لاوالاله ، فان أقل نظر فى هذه الكائنات
 « الحية يدلنا على أن هنالك ذات عالم رحيم خلقها وعدلها .
 قالسقراط : « زد على هذا الميل المودع فى الطبائع للتكاثر ، والرحمة
 « المودعة فى قلوب الأمهات لتغذية صغارها واعالتهم ، وما غرس فى
 « نفوس تلك الصغار من عواطف حب الحياة والهرب من الموت ؟ »
 قال اريستوديم : « لاشك أن كل هذا يدل على أنه اختراع موجود
 « حكيم أعد الأرض وهياها لسكنى الحيوانات »

قال سقراط : « أتظن بعد هذا أنك وحدك للكائن المتمتع بحكمة
 وعلم وانه لا يوجد غيرك فى هذا الوجود كله عاقل ولا حكيم ، وأنت
 « تعلم ان جسمك هذا هو قطعة لا قدر لها من حجم هذه الأرض
 « ونظفة من مياه هذا المحيط الزاخر ، وان الذى أقام أودك وكون
 « شكلك هذا هو جزء لا يؤبه به من هذه المواد العظيمة الحجم ، الكبيرة

« المدد ؟ اتظن انك وحدك قد استلبت من هذا الوجود حكمة
 « وادراكا ، ليسا فيه ، وان كل هذه الكائنات التي لانهاية لها بالنسبة
 « لك في العدد والعظم قامت كلها في هذا النظام البديع بقوة ليست
 « متمتعة بحكمة وعلم . »

قال اريستوديم : « أنا أنكرها والاله لأنى لم أرصناعها كما أرى
 « الصانع للأعمال الأرضية . »

قال سقراط : « انك لا ترى روحك التي هي سلطنة جسمك
 « ومديرته وعلى هذا فيمكنك أن تقول قياساً على قولك السابق بأن
 « أفعالك كلها تصدر عنك عن غير حكمة ولا تدبير ، ولكن عن الصدفة
 « والاتفاق . »

يرى القارئ من هذه المحاوره بين اريستوديم وسقراط أن
 الفيلسوف قد أحال خصمه بقوة حجته للاقرار معه بوجود الصانع
 الحكيم ، ولكن بقيت لديه شبه أخرى فلم يرد سقراط أن يدعها
 تجول في فؤاده فاستأنف معه المحادثة مثبتاً له عناية الخالق بمخلوقاته : فقال :
 « كيف تزعم أن الآلهة لا تعنى بمخلوقاتهما مع أنك « تعلم أنها
 « قد وهبت الانسان من بين سائر الحيوانات خاصية الوقوف على
 « قدميه ، وهي تلك الخاصية التي تسمح له ببقاء نظره الى أبعد ما يصل
 « اليه ، والتأمل في المرئيات التي فوقه ، وهي مع منحها للحيوانات
 « اللاصقة بالأرض تلك الأرجل التي لا تسمح لها الا بالتحرك وتغيير
 « أوضاعها فقط ، أعطت الانسان دونها أيديا بواسطتها تحدث أكثر

« الأعمال التي تجعلنا أسعد حالا من الحيوانات . انك ترى أن لجميع
 « الحيوانات السنة ولكن لسان الانسان من بينها كلها متمتع بخاصية
 « اظهار الأصوات المختلفة بانتقاله في مواضع مختلفة من الفم وبهذه
 « الوسطة نستطيع أن نعبر لغيرنا عما يضرب في ضمائرنا من الأغراض
 « والأحاديث»
 الى أن قال :

« لم يحدد الخالق عنايته بأمر الجثمان الانساني فقط بل « أنه أبدع
 « الروح الانسانية ! وهي المقصودة بالذات ، على أكمل الصفات ،
 « والا فأرني أي حيوان من الحيوانات يستطيع أن يدرك وجود
 « تلك الآلهة التي فطرت هذه الأجسام العلوية العالية على هذا المثال
 « البديع والشكل الأسر ؟ قل لي أي حيوان آخر ماعدا الانسان
 « سما به عقله الى عبادة الآلهة والاخبارات لها ؟ اخبرني أي روح
 « تضارع الروح الانسانية في اتقاء غوائل الجوع والعطش والبرد
 « والحر ، ومداواة نوازل الأمراض والأعراض وملافاة فقد القوى
 « بأنواع الرياضات الجسمية ، والكد والكدح لنوال العلم ، وتذكر
 « مارأته وما سمعته وما علمته ، أليس من الجلي الواضح بعد هذا البيان
 « أن أفراد الانسان مثلهم بين أنواع الحيوانات كمثل الآلهة لعلومهم
 « عنها جسما وروحا ، أترى أنه لو وهب الانسان جسم ثور وعقل
 « رجل يستطيع أن يحدث من الأعمال ما تحدثه به نفسه ، ومن جهة
 « أخرى فأى فائدة تعود على حيوانات متمتعة بأيدينا ولدينا ولكن لم

« توهب بازائها عقلا مناسباً لها ، وأنت أيها الدكائن الذى وهب
 « المنحوتين وتمتع بالنعمتين الغاليتين تريد أن تظن أن الآلهة لا تعنى
 « بك ولا تهتم بشأنك . وأى شيء تركته تلك الآلهة من الدلائل
 « اللازمة لا قناعك بذلك ؟ »

فأجابه عند ذاك اريستوديم بجواب حمل سقراط على محاولته من
 طريق آخر وألجأه الى محاربته بشهادة النوع الانسانى فى خلال القرون.
 قال اريستوديم :

« لترسل لى الآلهة خبراً بما يجب على عمله أو تركه كما تدعى
 « أنها أرسلت لك أنت . »
 فأجابه سقراط قائلاً :

« لما خاطبت الآلهة الآتينين بواسطة الاستقسام (١) أتظن أنها لم
 « تخاطبك فى زمرتهم ؟ أتزى أنها لما أظهرت لليونانيين ولجميع العالم
 « مكنونات ارادتها بواسطة المعجزات والآيات ، كنت أنت وحدك
 « الرجل الذى تركته نسياً منسياً ؛ أتظن أن الآلهة وضعت فى أعماق
 « الفطرة الانسانية عقيدة الاقتدار على احداث الخير أو الشر ولم

(١) الاستقسام هو أن يطلب الانسان معرفة ما قسم له فى عالم الغيب بواسطة الآلهة وقد
 ولع بذلك الاقدمون واختلفوا فى كيفية على حسب عقائدهم وآلهتهم . أما العرب فكانوا
 يجيئون بثلاث قداح يكتبون على أحدها أمرنى ربى وعلى الآخر نهانى ربى و يتركون الثالث
 غفلاً بدون كتابة ثم يرمونها فان ظهر القدح المكتوب عليه نهانى ربى اقلع عن العمل وان
 ظهر الذى هو مكتوب عليه أمرنى ربى مضى فيه وان ظهر الخالى من الكتابة أعادوا الالتقاء حتى
 يظهر لهم شيء . هذا كان حال العرب أما اليونانيون وكان الاستقسام عندهم على غير هذه الصفة

« تهبها قوة تمكنها من احداثهما ، وان النوع الانسانى قد انخدع بذلك
 « كل هذه القرون ولم يشعر بانخداعه لليوم ؟ ألا ترى أن أقدم التأسيسات
 « الانسانية وأحكامها ، والممالك القائمة والأمم العظيمة هي أكثرها
 « تمسكا بالدين واعتقاداً بالآلهة ، وان أكثر العصور نورا ولألاء
 « هو أكثرها وأشدّها تعلقا بالتقوى والطاعة . إعلم يا صاح أن
 « روحك كما لها السلطة التامة على جسمك تديره وتدبره كما شاءت
 « كذلك الحكمة المحيطة بهذا الكون لها التصرف والارادة النافذين
 « فيه كله . ماهذا ! أيصح أن يكون مرمى نظرك يصل لجملة مراحل
 « ونظر الآله لا يلم بكل المخلوقات جملة واحدة ؟ وهل يتصور أن
 « روحك تستطيع أن تشتغل في آن واحد بما يحصل هنا وفي مصر
 « وصقلية ، وان العلم الإلهى لا يحيط بكل شيء في لحظة واحدة ؟ نعم
 « انك متى أردت أن تصنع معروفا مع الناس لو عرفت من منهم
 « يريد أن يكافئك عليه ، ومتى أدبت اليهم خدمة من الخدم لو علمت
 « من منهم يود أن يقابلك بجزائها ومتى استشرت الناس لو ميزت من
 « بينهم أهل البصيرة والتسديد ، وكذلك متى قدمت واجبات العبودية
 « للآلهة لو بحثت أن تدرك الى أى درجه تريد تلك الآلهة كشف
 « مكنونات العلم لك عند ذاك ، تدرك ماهية صفات الآله العلية
 « وعظمته الحقيقية ، ذلك الآله السميع البصير المحيط بكل شيء المهيمن
 « على كل شيء »

من هذه المحاوره يتضح لقارئنا مبلغ قوة الفيلسوف (سقراط)

فى اثبات الصانع ومنها يرى أنه لم يستند الا على (البرهان الطبيعى) و (البرهان التاريخى) وهما نوعان من البراهين المستعملة فى اثبات الصانع . أما البرهان الطبيعى فهو ضوعه بسط حوادث الكون وصنائه الباهرة امام نظر الخصم ومحاجته بها والاستدلال منها على لزوم وجود واضع لها ، ومهيمن عليها ، وأما البرهان التاريخى فهو ضوعه الاعتماد على شهادة النوع الانسانى وميله الفطرى الى الاعتقاد منذ خلق للآن ، واستبعاد اجتماع كل فطر النوع الانسانى على غير الحقيقة . كيف لا واجتماعهم على هذه العقيدة مع تخالفهم فى الألسن والصور والألوان والاستعدادات والأزمان ودرجات المعلومات ، يدل تمام الدلالة على أن تلك العقيدة حاجة طبيعية من حاجات الروح الانسانية ، وميل غريزى فطرى منقوش فى أعماق الفؤاد الانسانى مثله فيه كمثل سائر الغرائز والعواطف البشرية .

هذان هما البرهانان التى استند عليهما (سقراط) فى محاورته لاريستوديم وهناك أنواع من براهين أخرى فى إثبات الصانع استعملها فلاسفة اليونانيين سيأتى كثير منها فى أثناء هذا الموضوع ان شاء الله

* (مدارك أفلاطون فى المسألة اللاهوتية) *

افلاطون تلميذ سقراط الأول وكتابه الناطق الذى نقل عنه جميع مبادئه ونظرياته وهو أحد أرا كين الفلسفة فى العالم القديم . وقد سلك مذهباً فى تقرير فلسفته أعلا من المذهب الذى علمه أستاذه .

فان صح ما يقال من أن لسقراط مذهبين مذهباً بينه وبين العامة لا يعلموا به عن مداركهم فى كبير شىء ليجعل لفلسفته خصيصة تنطبق بها على الناس أجمعين ، ومذهباً خاصاً بينه وبين خاصته من أصحاب العقول القوية والأفكار البعيدة المرامى . ان صحت هذه الرواية كان فضل (افلاطون) فى مذهبه مشتركة بينه وبين أستاذه وان لم تصح ، وهو الأرجح . كان لأفلاطون الفضل وحده فى مبلغ الرقى الفلسفى المشاهد فى مذهبه .

رأينا من برهان سقراط أنه سلك بالذهن مسلك المحسوسات والملموسات فلم يشق كلامه على أبسط المدارك وأخلاها من العلم وهذا لا ينافى كونها قوية سايمة من العيوب ولكن تليذه افلاطون لم يقف عند هذا الحد ، بل اكتشف نظرية (الأفكار) كما قررناه فى ترجمته فى بعض الفصول الماضية ، وعال بهذه النحو وجود المحسوسات بتلك المعقولات ، وجعل محض الإدراك الانسانى المجرد تابعاً لعالم قائم بذاته غير متلبس بالمادة . هذه النظرية التجريدية هى أساس فلسفة افلاطون وركنها الركين ، وآثارها فيها لا يحتاج لكثير تأمل فى جميع مبادئه وأقواله . حتى أن براهينه فى اثبات الصانع مصبوغة بتلك الصبغة أيضاً كما سيتضح ان شاء الله القارىء .

قد تدرج افلاطون فى اثبات الصانع بتحليل درجات العلم . ولأجل ذلك قسم العلم الى قسمين عامين : علم بالمحسوس وعلم بالمعقول . أما العلم بالمعقول فينقسم الى نوعين : الفكر العقلى (الذى لا يحدث

الا بالتعقل والنظر) والادراك ذاته . فالقسم الادنى أى الفكر التعقل يذهب فى الادراك مذهب الاستدلال والاستقراء ، ويعرف بتلك الطريقة حقائق ثابتة ، وأحكاماً ضرورية عامة ، ولكنه لا يصل بها الى حقيقتها الاولى ولا يصعد بها الى الله تعالى .

أما القسم الأعلى وهو الادراك ذاته فيسلك مسلك الجدول و يصعد بكل حقيقة الى أصلها الاولى ومصدرها الجوهرى . ومن هذا القسم العلم الذى ينير على الانسان حوالك الامور ويضيء عليه مشكلات المسائل . ولكن هل هذا القسم الأعلى من الجوهر الانسانى هو نهاية كل ما يمكن بلوغه من درجات الادراك البشرى . أم هنالك درجات أخرى يمكن الوصول اليها ؟ ألا يوجد مرمى وراء هذا العلم الذى ينير على الانسان دياجير أموره ، ويكشف له مكنونات المعارف ؟

يقول افلاطون ، بلى ! يوجد وراء ذلك كله الذات نفسها والحقيقة عينها وهما اللذان يعطيان الحقية للأشياء والقوة للعقول . فاذا كان العلم والحقيقة على ما يعهد الناس من جمال وكمال فصدرهما أجمل وأكمل . وكما يغلط من يظن أن الشمس هي النور والنظر ، كذلك يخطئ من يظن أن العلم والحقيقة هما الخير المطلق بذاته . ولكنهما صور وظلال للخير المطلق . فنهاية الكمال العقلى وأرقى مرمى لعلم الجدول هو أن يصل بالانسان الى رؤية ظلال العالم الالهى فيريانه بانها صور تقابلها شمس مضيئة

وقد مثل افلاطون العقول التى تعلو عن مداحض الحس الى

التمتع بمجالي عوالم المعاني المجردة بمثال عجيب وضعه في مقدمة الفصل السابع من كتابه في (الجمهورية) قال : ان الذي لم يعمل به فكره عن عالم الحس بل ارتطم فيه وتورط في أحواله ، كمثل رجال بؤساء نشؤوا في غار مظلم وربطوا فيه بحيث لا يستطيعون فكاً ووضعت نار من خلفهم فهي تضيء عليهم ضوءاً ضئيلاً تنعكس بسببه ظلالهم على الجدار المقابل لهم ، فيحسبون أن تلك الظلال كائنات حية متمتعة بعقل وارادة وحركة وكلام ويظنون على ذلك الزعم ماداموا في الغار ، ولكن أى دهشة تلم بهم وأى حيرة تأخذ بمتنفسهم متى أخرجوا من قاع ذلك الغار المعتم وعرضوا على أنوار الشمس الساطعة ورأوا الحياة بأعلى مظاهرها تحت هذا الجوالباهر ؟ فأى فرح يحل بفؤادهم ويطفح من أفئدتهم متى قارنوا بين الحالة التي كانوا عليها وبين ما صاروا اليه من طيب الحياة ورؤية حقائق الأشياء ؟ قال افلاطون هذا مثل حالة الانسان في هذا العالم الحسى . فان ذلك الغار المظلم هو العالم الحسى . وتلك النار الضئيلة التي كانت تضيء عليهم هي هذه الشمس ، وان الذي يصعد منهم على سطح الأرض ويتأملها هي الروح الانسانية التي تعلو عن عالم الحس وتتصل بعالم المعاني والمعقولات ، ومتى انتهى الانسان الى قمة ذاك العالم ادرك معنى الخير وهي قمة لا يصل اليها الانسان الا بشق النفس واجهاد القوى ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك ذلك المعنى السامى الا اذا أدرك قبل ذلك أنه الأصل الاوى لكل جمال وخير في الوجود ، وأنه هو الذى فى هذا العالم الأرضى يعطينا النور المنبعث

من كوكب الشمس وأنه هو الذى فى العالم المعنوى يمنحنا الحقيقة والادراك . مجرد النظر فى هذه المبادئ الافلاطونية يكفى المطالع فى فهم مرامى هذا الفيلسوف بالنسبة لهذه المسألة الهامة ، المسألة اللاهوتية . أما براهينه فى اثبات الصانع فقد كتب فى بعض كتبه مامعناه : « من الواضح الضرورى أن كل ما يتولد يجب أن يكون له سبب » يولده . ومن المعلوم أن الدنيا قد تولدت ونشأت بعد أن لم تكن لأنها « مرئية ملموسة وجسمية : وكل هذه الأوصاف محسوسة فيها ، إذن » فكل محسوس يظهر أنه متولد وناتج . . . وبما أن الكون أجل الموجودات وأكملها فلا مناص من التسليم بأن موجودها أكمل « الأسباب ، وهذا الكون لا بد من أن يكون مصنوعا على نموذج « بديع على مقتضى الحكمة والعلم »

هذا النموذج الذى يقول عنه افلاطون هى المعقولات الأصلية التى يسميها افكارا ويعزوها للعالم مستقل قائم بذاته متميز عن هذا العالم . ولئن سئل افلاطون عن حكمة إيجاد الخالق جل وعز للمخلوقات لأجابك كما كتبه فى بعض كتبه : « لاظهار كماله الإلهى ، ومن كان « كاملا كان منزها عن الأغراض والشهوات ، وهو مع تنزهه عن « النقائص كلها يود أن كل شيء يشبه فى كماله على قدر الامكان . »

هذا هو (البرهان السببى) فى إثبات الصانع توصل به افلاطون لتقرير تلك الحقيقة الكلية كما ترى فأداه إلى وجود الله واحد حكيم عليم قادر منزه عن الأغراض والشهوات . مكون الكائنات ومدبرها

أما في كتابه في (القوانين) فقد جاء أفلاطون ببرهان جديد في إثبات الصانع وهو ضرورة وجود محرك أول للوجود متحرك بذاته . وقبل أن يقرر أفلاطون برهانه هذا أصلى الملاحظة حربا عوانا بكلمات خللت له الذكر ولهم الحزى . قال : أى كدر وغيظ يلم بالنفس متى رأى الانسان أنه قد ألجى لاثبات وجود الآلهة (١) ؟ لا يستطيع الانسان أن يمنع نفسه عن مقت وازدراء هؤلاء الناس الذين هم الباعث اليوم لنا على الجدل في هذا الموضوع . الى أن قال « ولكن يجب علينا أن نكلمهم ونحن بغاية الهدو والسكينة لكي لا يقال بأنه كما أسكرتهم حميا الشهوات ، قد ضللنا نحن مثلهم سورة الغضب . فلنوجه اذن لمن فسدت عقولهم بمثل هذه الأصول الملحدة معارفنا هادئة ثابتة ، ولناخذ أحد أولئك الإباحين على جانب ، ولنقل له بهدو بعد أن تتغلب على سورة الغضب في نفوسنا : يا بني انك شاب ، وكلما كبرت وطعنت في السن تغير فكرك على كثير من الأشياء ، وستذهب بفكرك ضدا تذهب اليه الآن . فانتظر نماء عقلك وكما لك سنك حتى تستطيع أن تحكم على عقيدة هي أمس شيء بحياتك ، وان ماتعه الآن عديم الجدوى لدى البحث والنظر ، هو أفيد ما تنصرف اليه همتك وتتعلق به عزيمتك ، تلك المسألة الهامة هي أن يكون للانسان عقيدة نقية من البدع في ذات الله خالية من الخرافات فان

(١) رأى العارى من البرهان السبى ادى قدمه لما أفلاطون أنه مقر بوحداية الخالق حل وعر

ولا يبعد العارى من ذكره كلمة آلهة بما اعتاد فلاسفة اليونان على محاراة العامة في بعض الاحياء

عليها مدار السيرة الانسانية وبها يتعلق أمر الصلاح والهدى كما يبنى على ضدها الفساد والردى . وانى لا أخشى التكذيب لو قلت لك فى هذا الموضوع أسراً جديراً بالنظر وهو أنك لست أنت وحدك ولا أصدقاؤك معك أول من ألد فى الآلهة ، فان فى كل زمان ومكان يوجد أقوام قليلون أو كثيرون يصابون بهذه العلة . ولا أدري بأى يمين أقسم لك بأنى قد شاهدت كثيرين أصيبوا بهذه العلة فى شبيبتهم وظنوا أن لا آلهة فى الوجود ، فلم تثبت معهم تلك العلة فى سن الشيخوخة »

إليك محاوره من محاورات افلاطون ترى كنه المناهج التى نهجها فى اثبات الصانع والى أى مدى بلغ به تصور من ميدان هذه المسألة الهامة . فى هذه المحاوره الملقب بالآتينى هو افلاطون .

(الآتينى) الحركة نوعان : احدهما ، مواد فى امكانها اعطاء حركتها لسواها ولكنها هى نفسها لا قبل لها بتحريك نفسها ، والاخرى مواد متحركة على الدوام بنفسها وفى استطاعتها اعطاء حركتها لمواد أخرى بالتركيب أو النقص ، وبالإضافة أو التقليل ، وبالتوليد أو الافساد ، فأى هاتين الحركتين يجب علينا وضعها فوق اختها فى الدرجة ، وأيهما أقوى وأنشط من الأخرى بما لا يقدر ؟

(كيناس) لا شك أن النوع الذى حركته حركة ذاتية وغير مستعارة هو النوع الذى يفوق غيره بما لا حد له

(الآتينى) لنسأل سؤالاً آخر ولنسعى فى الإجابة عنه ، إذا سلينا جدلاً

بما يجسر خصومنا على قوله من أن كل الأشياء الكونية آتى عليها حين من الدهر كانت فى غاية السكون ، فمن أين نشأت فيها الحركة الاولى ؟ (كلينياس) يجب أن تكون الحركة ابتدأت من المواد التى تتحرك بذاتها ، لأنه من الواضح الجلى أن لاداعى للمواد الأخرى يجبرها على أن تغير من أوضاعها قبل تلك اللحظة ، فانه قبل تحرك تلك المواد المتحركة بذاتها لا يطرأ أى تغير فى سائر المواد الأخرى .

(الآتينى) لنفرض ان أصل كل الحركات وكل التغيرات سرى فى كل ما هو ساكن وصار المحرك الراهن لما هو متحرك الآن ، وهذا الأصل متمتع كما قلنا بالحركة الذاتية فمتى رأينا مادة من المواد متحركة فكيف نستطيع أن نقول ان تلك الحركة مستقارة

(كلينياس) أترىد أن تسألنى عما اذا كانت تلك المادة حية متى تحركت بذاتها ؟

(الآتينى) نعم ، هل هى حية ؟

(كلينياس) بلا شك

(الآتينى) ولكن متى رأينا مواد حية ، أليس من الضرورى الاعتراف بأن أصل حياتها هى الروح ؟

(كلينياس) لا يمكن أن يقال غير هذا

(الآتينى) فما هو تحديد الروح اذن ؟ هل هى شىء غير ماسبق لنا قوله وهو انها جوهر فيه خاصية التحرك من ذاته . اذا تقرر هذا أفلا تكون النتيجة الواضحة بأن الروح هى مبدأ كل توليد وحركة ، وكل

افساد وسكون فى كل الكائنات الماضية والحالية والمستقبلية؟ ومن هنا أفلا يحق لنا أن نقول ان الروح قد وجدت قبل الجسم؟ .. اولا يجب على خصومنا التسليم أيضاً بأن الروح الساكنة فى كل ما هو متحرك لتدير حركاته هى أيضاً المحركة والمديرة للسماء؟

(كلينياس) نعم

(الآتينى) فالروح اذن فى الحالة والمديرة لكل ما هو فى السماء وعلى الارض وفى البحر، كل بالحركات الملائمة له، وهو مانسميه نحن ارادة، وامتحان، وعناية، وشورى، وحكم صادق أو كاذب، وفرح وحزن، واثمان، وخوف، وكراهة، وحب، كما أن الروح تحكم وتدبر بحركات أخرى مشابهة هى الأسباب الاصلية فتولد فى الكائنات بواسطة أسباب ثانوية النمو أو الضمور، والتركيب أو الانقسام، والصفات التى تنتج منها: كالحر والبرد والثقل والخفة والجود والرخاوة والابيض والأسود والحامض والحلو والمر. ولكن مع هذا يمكن ان يفرض وجود نوعين من الروح: الاولى روح تعتضد بالعقل والحكمة فى ادارة شؤون الحركات وتديرها فتحكم بذلك كل شىء على مقتضى العدالة والحكمة وتهيئه لسعادته الحققة. والثانية روح لا تأتمر الا بما يصدرها لها عدم التبصر والجنون من الاحكام الجائرة. فأى روح من هاتين يظهر لنا انها الحاكمة على السماء والارض وجميع هذا الكون؟ هل الحاكمة فيه هى الروح المتصفة بالحكمة والكمال أو المجردة منهما؟ لأجل الاجابة على هذا السؤال يجب علينا أولاً معرفة

ما اذا كانت كل هذه الحركات الكونية والتغيرات العلوية فى الاجرام السماوية ، منطبقة على حركات العقل وتغيراته وتعقلاته ، فان كانت الروحان متشابهتين فى سيرهما ، كل فى عالمها ، وجب علينا ان نستنتج من ذلك ان الروح التى تحكم هذا الكون هى الروح الكاملة وانها سائرة به فى طريق الكمال .

(كلينياس) هو ذاك

(الآتينى) وبالعكس تكون هى الروح المضادة لها لو كان كل ما على الارض يدل على الخلل والفساد .

(كلينياس) هذا حق

(الآتينى) فما هى اذن طبيعة حركة العقل ؟ ... من بين كل الحركات المعروفة ، الحركة التى يكون لها محل وحاصلة حول مركز هى الحركة المشابهة كل الشبه لحركة العقل ، لانها حاصلة على مقتضى قاعدة ثابتة متماثلة ، حافظة دائما علاقات ثابتة بينها وبين مركزها وبين الاجزاء المحيطة بها على مقتضى نسبة وترتيب لا يتغيران .

(كلينياس) انك قلت الصواب

(الآتينى) وبالعكس ، الحركة التى لا تكون منتظمة ولا هى على مقتضى قواعد ثابتة وليس لها مركز ثابت ولا علاقة معلومة بينها وبين الاجزاء المحيطة بها ، وبالاختصار الحركة التى لا قاعدة لها ولا ترتيب ولا نظام تشبه تمام الشبه للحركة المنبعثة من عدم التبصر والجنون (كلينياس) لا شئ اصدق مما تقول

(الآتينى) الآن لا يصعب علينا أن نجيب على تلك المسألة بغاية الضبط والاحكام ، بقولنا انه لما كانت الروح السائدة على الكون قد طبعته بحركة مستديرة ، وجب بالضرورة أن تكون التغيرات الحاصلة فى الاجرام العلوية ناشئة من قبل الروح الكاملة لامحالة .

(كلينياس) ان ما قدمته كله لا يسمح لقائل أن يقول بغير تلك النتيجة ، وهو أن هنالك روحاً أو أرواحاً متصفة بكل صفات الكمال تدير حركات الأجسام العلوية .

(الآتينى) انك قد أدركت صميم ما أريد أن أقوله يا عزيزى كلينياس ، فأرجوك أن تعيرنى التفاتك لما يأتى

(كلينياس) وما هو ؟

(الآتينى) اذا كانت الروح كما قلنا هى المحركة لاجرام السماء ، أفلا تكون هى أصل حركات الشمس والقمر وكل كوكب على حدته (كلينياس) لاشك فى ذلك

(الآتينى) لنبحث فى كنه الحركة الحاصلة فى أحد هذه الاجرام بحيث ينطبق حكمنا عليه على سائر الاجرام الأخرى (كلينياس) أيهما تختار

(الآتينى) اختار الشمس فاسمع . كل انسان يشاهد جسم هذا الكوكب ولكن لا يرى أحد روحه التى تديره وتدبره ، كما لا يرى روح أى حيوان حى أو ميت . ولكن لنا أن نقول ان هذا الجوهر الروحانى هو من طبيعة لا تدركها مشاعرنا الجسمية ولا تترآى الا

لعين العقل وحده ، فلنجهتد في ادراكه بالعقل والفكر .

(كليدياس) كيف ذلك

(الآتيني) اذا كانت هذه الشمس دائرة ومدبرة بروح من الأرواح فلا يخلو الأمر من أن يكون حاصلًا بأحد الطرق الثلاث الآتية : فاما أن تكون تلك الروح في داخل ذلك الجرم الكروي فهي تحمله الى كل جهة كما تحمل الروح الانسانية الجسم ، واما أن تكون مكتسية بجسم آخر من النار أو الهواء كما يدعيه بعضهم فهي تتوصل بقوة ذلك الجسم الى دفع الشمس حيث تريد ، واما أن تكون منزهة عن الجسمية ومنفصلة عن الشمس تمام الانفصال ، وانما تديرها وتحركها بخاصية فيها لا يديرها العقل . ولكن هب أن تلك الروح تحمل الشمس في عربة وتوزع بذلك الواسطة نورها على العباد ، أو أنها تؤثر عليها بقوة خارجية على صفة وأسلوب لا ندرية ، فكل منا يجب أن يعلم أن تلك الروح لا بد من أن تكون من عالم عال ، وأنها تقرب من أن تكون (الهة) أليس ذلك صحيحا ؟

(كليدياس) هذا لا يشك فيه أحد

(الآتيني) وماذا نقول بالنسبة للقمر والكواكب ، وبالنسبة لتعاقب السنين والشهور والفصول ، أليس كل ذلك مصدره روح واحدة أو أرواح عدة بالغة نهايات الكمال وجميع صفات الجلال ، وان هذه الأرواح هي آلهة تارة تسكن الأجرام وتتشكل بأشكال بعض الحيوانات فتظم كل ما يحصل في العالم العلوي من حركات وانتقالات ،

وتارة أخرى تؤدي أعمالها على غير تلك الصفة،؟ انى سائلك
الآن أستطيع الانسان أن يقر معنا بهذه الحقائق ولا يعتقد أن
العالم مملوء آلهة .

(كلينياس) لا الناس أعقل من ذلك

(الآيتى) لنتم الآن بحثنا هذا الذى وجهناه الى الذين يزعمون
عدم وجود صانع للكون بعد أن نريهم الحدود التى يجب عليهم الوقوف
عندها فى الرد علينا

(كلينياس) أى الحدود

(الآيتى) يجب عليهم أن يثبتوا لنا فساد ما قلناه من أن الروح
هى أصل التوليد وأصل كل شيء، وأن يبرهنوا لنا بتلك الواسطة بطلان
كل ما استنتجناه من هذا الاصل، أو فليقروا بأنهم لا يستطيعون هدم
ما قدمناه فيرجعوا الى ما قلناه وليعيشوا معتقدين بوجود (آلهة) .

— — — — —

براهين ارسطو

أرسطو كما يعلم قراؤنا تليذ (افلاطون) وكان ينتظر مع هذا
أن يكونا متحدين فى فلسفتيهما من بعض الوجوه؟ ولكنهما من
العجيب مختلفان كل الاختلاف؟ لأن كلا منهما رسم لنفسه مبادئ
لا تتفق مع مبادئ صاحبه . فان افلاطون جعل مدار نظره العموميات

والكليات ثم تنزل منها على الجزئيات ، ولكن ارسطوا جعل وجهة بحثه الجزئيات والتدرج منها الى الكليات ليأمن من الخطأ في الحكم ، ومن اللبس في التصور . من هنا نشأ ذلك الخلاف الجوهرى بين افلاطون وتلميذه ارسطو حتى كأنهما خلقا ليتعارضا ولا يتحدان .

العالم فى مذهب ارسطو قديم أزلى أبدي ضرورى ، موجود من من القدم ولا يزال كذلك على الحالة المنتظمة المدبرة التى يرى عليها الآن حاصل على جميع قواه ونواميسه ؟ وحاصل بطبعه على القوى التى تحركه وتدبره . ولكن يكون الكون فى حالة خدر ونمود لو لم يكن لتلك القوى المحركة له مدد يعطيها القوة ويهبها الحركة . اذن وجب أن يكون محرك أول للكون ، ويجب أن يكون ذلك المحرك الاول ثابتاً ساكناً ؟ لأنه لو كان متحركا لاحتاج الى قوة تحدث فيه تلك الحركة ، ولاحتاجت تلك الأسباب المحدثه للحركة الى أسباب أخرى ، وهكذا الى ما لا نهاية وهو محال .

من هنا يرى أن أرسطو توصل الى اثبات الصانع بنظرية الحركة ، وهى من المشاهدات العيانية كما لا يخفى ولكنه وضعها فى قالب يعلو عن فكر العامة فقال : لامناص من التسليم بأنه يوجد شىء متحرك حركة « دائمة ، وتلك الحركة دائرية . هذا ما اثبتته الحس لا الدليل العقلى وحده . »

« ينتج من هذا أن السماء الاولى يجب أن تكون أزلية . ثم لامناص « من التسليم بأنه يوجد شىء آخر يعطى تلك الحركة بطريقة مستمرة »

« وبما أنه لا يوجد الا ثلاثة أنواع من الكائنات وهى : الكائن الذى «

« يحركه محرك ، والكائن الذى يعطى الحركة للمتحرك ، والكائن »
« الوسط بين المتحرك والمحرك ، وهو كائن يجب أن يهب الحركة »
« ولا يتحرك هو ، فهو ابدى أزلى ، أصل لغيره ، منزه ، فعال مؤثر . »
« اليك كيف يهب الحركة للكائنات . لا يخفاك أن الشيء »
« المرغوب والمعقول يهبان للراغب والعاقل الحركة بدون أن يتحركا . »
« وأول مرغوب مشابه لأول معقول لأن موضوع الرغبة والحامل »
« عليها هو الشيء الذى يظهر أنه جميل . وأول غرض للارادة والمؤثر »
« عليها هو ما يظهر أنه جميل ايضاً . وعليه فنحن لانطلب الشيء الا »
« إذا تراى لنا جميلاً ، لا أنه جميل لأننا نطلبه . فأصل الموضوع »
« اذن الفكر . وهذا الفكر يتحرك لما هو معقول كما يتحرك لما »
« هو جميل ، فيكون كلاهما فى صف واحد من حيث أصليهما . ولا يخفى »
« أن أصل الشيء يجب أن يقدم على غيره من العلاقات والخصائص »
« الأخرى الملازمة لذلك الشيء ، كما لا يخفى أن اكمل الاصول هو »
« أبسطها وأفعلمها . اذن فقد دخل الجميل فى ذاته والمعقول فى ذاته فى »
« دائرة المعقول . ولا يخفى أن ما كان أول كان اكمل سواء كان مطلقاً »
« أو مقيداً . وبناء على هذا وجب أن يكون سبب الأسباب كلها »
« موجوداً ثابتاً لا يتحرك . وهذا هو الفرق بين هذا السبب الأول »
« والأسباب الأخرى . فان الاسباب نوعان نوع مطلق ونوع غير »
« مطلق . والكائن الثابت يهب الحركة للاشياء بالصفة التى يهبها »
« الشيء المحبوب وما يتحرك يهب الحركة للجُمُوع كله . من هنا »

« ترى كل كائن متحرك جائز عليه التغير والتحول . فاذا كانت »
 « أول حركة هي حركة الانتقال من مكان الى مكان ، فالكائن »
 « المتحرك يحصل فيه تغير ان لم يكن في أصله ففي موضعه . ولكن »
 « بما أنه من الضروري وجود كائن يحرك وهو ثابت ، وثباته لا يمنع »
 « كونه فعالا مؤثرا فيكون هذا الكائن غير قابل للتغير ومنزها »
 « عن التحول . ودليل ذلك اننا قلنا ان ابسط التحولات وأولها هو »
 « الانتقال من مكان الى آخر ؟ وقلنا ان أول الحركات الأولية هي »
 « الحركات الدائرية . ينتج من ذلك أن الكائن الذي تصدر منه تلك »
 « الحركة الأولى يجب أن يكون ثابتاً ، فالمحرك الثابت اذن ضرورى »
 « الوجود . وبما أنه واجب الوجود ، فهو الكمال المحض . وبناء »
 « عليه فهو أصل . ولأجل أن تدرك ذلك اليك أنواع الضرورى »
 « وهى : ضرورة قاهرة وهى من نوع الضرورات التى تبعث اميالنا »
 « الطبيعية نحو مطالبا . وضرورة هى فى الحقيقة سبب لنيل الكمال . »
 « ثم هناك ضرورة أخيرة وهى ما كانت ضرورة فى ذاتها ولا يمكن »
 « أن تكون الا كذلك . »

(نظرة على ما تقدم)

نقلنا ثلاثة أقوال فى المسألة اللاهوتية عن ثلاثة فلاسفة هم دعائم
 الفلسفة اليونانية وأركانها ليتضح للقارىء مبلغ مدرك الأقدمين فى تلك
 المسألة الكبيرة ولا بد أن يكون قارئنا قد لاحظ معنا أن كل واحد
 من هؤلاء الثلاثة ذهب مذهباً خاصاً به فى تقرير تلك الحقيقة ، فتأدوا

الى نتائج وان اتحدت في الانجاب والاثبات الا أنها تختلف من حيث
النعوت والصفات .

أما سقراط فقد سلك في بحثه مسلك البساطة والوضوح ، فاستجلى
أمام سامعه مشاهد الطبيعة ، ومعاهد آثارها البديعة ، وجال بفكره
في مناحيها جولة المفكر الباحث ، فرآى أنه لا شك في وجود واضع
لهذا النظام البديع ، موجود لهذا الكون الفخيم ، فأمن به ايمانا فطريا ،
يستوى فيه سقراط الفيلسوف وأجهل الجاهلين من هذا النوع الانساني .
ثم انه قوى برهانه الطبيعي هذا بالبرهان التاريخي فاستعرض لذلك
أحوال الأمم ، ودرس شيوع تلك العقيدة بينها جيلا بعد جيل ، مع
اختلافها في اللغات والأجناس ، وتفاوتها في الفكر والعلم ، فأتخذ
سقراط هذا الاجماع دليلا قويا على ان العقيدة بوجود الصانع حاجة
من حاجات الروح ، وغريزة من غرائز العقل ، لا يمكن الانسان أن
يلفت نفسه عنها الا بعارض من النقص ، كما لا يستطيع أن يلفت
نفسه عن خاصية من خصائص جسمه الا بعارض من الخلل فيه .
هذه الحاجة العامة في النفوس عالمها أوجاهلها ، متمدنها ومتوحشها ،
قديمها وحديثها ، دليل محسوس على أن موضوعها حق اذ لا يعقل
ولا يتصور أن تحتاج النفوس الى وهم وترتاح الى خيال مجرد ، وهي
مجمعة عليه هذا الاجماع المطبق .

هذان برهانا سقراط وهما من البساطة والوضوح بحيث لا يعز
إدرا كهما على أي عقل ، ولا يعلو متناولهما عن أقصر فكر . أما

ماورد في أثناء عباداته مما يشعر بتعدد الآلهة فتعذر عنه بأنه انما كان يتسامح في ذلك أحيانا مجازاة للعامة ، واحتراما لأميال الأمة ، وان كان ذلك يعد نقصا في كماله (ان صح ذلك عنه) ويريك رأى العين ذلك الفرق الشاسع بين النبي والفيلسوف . الفيلسوف كما ترى يسائر في العقيدة أحيانا ، فيكتم إيمانه ويخفيه ، ثم قد يذيعه ويفشيه ، وقد يكون بينه وبين العامة شأن يخالف شأنه بينه وبين الخاصة الخ من أمثال هذه الأحوال التي سببها ضعف القوة البشرية . أما النبي فيذيع إيمانه لا يخاف لومة لائم ، ولا يخشى صولة ظالم ، يواجه بها الملوك في أبيهتها ، والرؤساء في سطوتها ويصادم بها الأمم في عقائدها ، لا يتخيل بطشا ولا هضا ، ولا يخاف بغيا ولا صدما ، ولا يزال كذلك حتى يظهره الله على أعداء أنفسهم أو يجلووا عن الوجود وقد أحدث فيه أكبر الآثار وأعظم الحوادث ولسنا نرى من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نبيا مرسلنا نال مثل ماناله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الخصلة الكريمة كما ستراه ان شاء الله .

أما أفلاطون وبرهانه يحتاج الى شيء من العلم والحكمة فهو بعيد عن البرهان الفطري على قدر بعده عن تناول العقل العادي وهذا كما لا يخفى عيب في الدليل لا يغيب على بصير . اذ لا يخفى أن الخالق جل وعز أكبر من كل كبير وأظهر من كل ظاهر ، فكيف يليق أن يكون البرهان على وجوده من الخفاء بحيث يدق على كثير من الأفهام ، ولا يهتدى اليه بعض العقول الا بوسائل من العلم غير متيسرة العالم كله ؟

ان قيل ان ذلك البرهان خاص بأهل العلم ، أما العامة فأمرهم سهل وخطبهم هين . قلنا ان خفاء الدليل مهما كانت وسائل العلم المستعملة له لا يليق الا بالشئ الخفى الذى يعوز شيئاً من الجهد فى ادراكه والحس به . أتراك يوماً من الأيام فى حاجة لاستنباط خفايا النظريات الفلسفية من باحات المجالى الفكرية لتقيم البرهان على وجود الشمس تتلألاً فى رابعة النهار ، أم ترى من نفسك الا كتفاء بالاشارة اليها ، واستلفات النظر الى الضوء الذى حواليا ؟

ان قلت انما اكتفى بالاشارة اليها لمن هم واياى فى مستوى واحد من الشعور . أما بالنسبة للمحجوبين الذين لا يستطيعون ادراكها الا من تلك الطريق فالتجىء أمامهم للغوص فى سرائر الفلسفة لاستنباط أدق البراهين ارغاما لهم ، وكبحاً من شرهم . قلنا ان اغماضك فى الدليل على هؤلاء المحجوبين لا يزيدهم الا مضياً فى عشوائهم واسترسالا فى ضلتهم ، ويكون اغماضك هذا عليهم مغرياً لهم على مقارنة دليلك بمثله ، وتوهم الظهور عليك فلا تزال بينهم فى أخذ ورد ، ومحااجة وملاجة حتى تجدون أنفسكم قد خرجتم عن الموضوع الأصيل الى متاهات يحار فيها الفكر ، ويضل فيها العقل ، فترجعون من تلك الجولة المتعبة لا يمتاز أحدكم عن الآخر فى الاعياء والعجز ، وتكون النتيجة غالباً تثبيت الضال فى ضلاله ، وفرحه بزخارف أقواله . وهلم جرا .

حياة خاتم المرسلين محمد

(صلى الله عليه وسلم)

تمهيد

نحن اليوم بازاء موضوع يحفى القلم دون توفيته بعض حقه ،
وتضييق مجالات التعبير عن تصوير شطر من حقيقته ، وتكل عزمات
الروية عن خوض لجج باحاته ، وتنقطع أنفاس التصور عن السبح
في سبحات أنواره .

إذا كانت النفس الانسانية في ذاتها معضلة العلم ، ومشكلة الفلسفة ،
وعقدة الحكمة من القدم الى اليوم ؛ وإذا كانت المعارف الانسانية
بأجمعها ، وقوانين علوم النفس برمتها ، لم تزل قاصرة عن تتبع سير
النفس في حركتها وسكناتها ، والاشراف على سر تطوراتها في صلاحها
وفسادها ، وعاجزة عن الآلام بصفة عروجها في عالمها على أجنحة
الفضائل ، أو هبوطها بدوافع شهوتها الى حضيض النقص والردائل ،
فكيف يطمع باحث أن يقف على حقيقة روح نزلت من حظائر الملائكة
الأعلى ، وانفصلت من سرادقات العالم الأسمى ، واتصلت بابدع
وأكمل صورة من صور المادة لتأخذ في الأرض بيدأرواح غرقى ،

وتنجى من الغم نفوسا هلكى ، وتشفى بسبحات جمالها عيونا عميا ،
وتخلص من الأدران قلوبا غلغا ، وتفتح لسماع الحقيقة أصمخه جامدة
وآذاناصما ، وتنطق بفصاحتها ألسنة أصبحت عن غير المفاسد بكما ،
وتنقى بمطهرات حكمته مدارك غدت بأوضار الوسوس رجسا ،
وتفك أصفاد عقول أوسعها رؤساء العقائد ضيقا وضغطا ، وتحل
أغلال أفكار قتلها حفظة الأباطل ذلا وأسرا ، وتدحض من حملة
الشرائع ضلالا وزيفا ، وتقيم من الفلسفة عوجا وأمتا ، وتتمم من
مكارم الأخلاق خداجا ونقصا ، وتذك عروش ملوك ساموا الأمم
خسفا ، وأحرقوا الضعفاء عسفا ، وتلصق بالأرض جباها ادعت أن
بينها وبين السماء صلة وودا ، وأن ييدها من أمور الناس حلا وعقدا ،
وتلحق بمصاف العامة أقبالا زعموا أن لهم من الربوية قسطا ، ومن
التسلط على رقاب المخلوقين حقا ، وتنسف قصورا شيدت بمهج
الأرامل واليتامى جورا ، وترد حقوقا اغتصبها الرؤساء عدوانا وظلما ،
وتضع للعدل فى الأرض ميزانا فصلا ، وللقسط قسطا سادلا ، وتكشف
عن جوهر الانسانية خبثاران عليه فجعله غما . وتجلو عن أرواحها
غما سودا وعن ضمائرهما غياهب سحما ، وتهىء بذلك الأرض لقبول
نور يفيض عليها من سماء الرحمة فيضا ، ويعد النفوس لكمال طالما
حنت اليه حنينا وبكت عليه الضمائر شوقا ، وتشرح الصدور لدين
ترتع فيه الأرواح رتعا وتسبح فى سبحاته القلوب سبحا ؟

درس هذه الروح يستلزم معارف جلي وعليا جما ، ويستدعى من

الباحث بعلم النفس احاطة كبرى ، وبضائير المساتير معرفة عظمى .
دعنا من قوم يظنون أن للشعريات في هذه الأقاويل حظا ،
وللخيال في هذه العبارات سهما ، وهلم بنا نستجوب الحوادث فان لها
بالحقائق الستة فصحي وأجوبة مثلى .

من ينكر علينا أن هذه الروح المحمدية الطاهرة الكريمة نشأت
بين قوم كانوا من الدين في وثنية ، ومن الأخلاق في همجية ، ومن العادات
في وحشية ، ومن الاجتماع في انقسامات قبيلية ، وتحزبات عصبية ،
ومن المدارك في جهالة ، ومن الأفكار في ضلالة ، ومن الوجود في
عماية ، ومن العقائد في غواية ، ومن النظمات في فاقة ، ومن القوانين
في حاجة ، حروب متواصلة ، وأحقاد متوارثة ، ودماء مهدرة ، ومهيج
مهرقة ، وعادات نشبت فيهم نشوبا ، وغرست فيهم عيوباً . وجرت
عليهم خطوباً وطباع خلعتهم عن مقتضى الفطرة ، ونبت بهم عن مطالب
الخلقة واصطلاحات بعدت بهم عن قوانين الطبيعة ، وألقت بهم الى
مطارح الرذيلة ، وأشربت نفوسهم سموم القطيعة ، صناديد لا يفكرون
في غير الغارات ، ولا يفاخرون الا بطعن الردينيات وضرب المشرفيات ،
شعراء ولكن في الدعوة الى القتال ، وتيتيم الأطفال ، وافتاء الأهل
والمال ، أقوياء ولكن في نسف المعالم ، واكتساح المغانم ، نجدهاء
ولكن ضد بعضهم ، شجعاء ولكن على أنفسهم . ولكنى مع هذا لا
أنكر أنهم كانوا أقل من سائر الأمم عيوباً وأهون منهم في الرذائل
نشوبا ، وأولى بأن يؤدبهم الله بوحيه ويحملهم الى خلقه أنوار دينه .

ومن ينكر علينا أن هذه الروح المحمدية الشريفة قامت في مبدأ الأمر وحدها بدون مرشد ولا نصير ، وبغير مشير ولا وزير
ومن ينكر علينا أنها لاقت مما يحيط بها من الأرواح مقاومات عنيفة ، ومخاصمات شديدة، وقتنا مظلمة ، وإحنا حالكة وصدورا وغرة، وأعداء فجرة ؟

ومن ينكر علينا أنها صبرت تجالده هذه الأرواح سنين متوالية، تأخذها بالنصيحة مرة ، وبالترغيب أخرى ، وبالترهيب حيناً . وبالجidal أحيانا ، فكانت بذلك وحدها أمام أمة بأسرها ترمقها عن بكرة أبيها شزرا وتوعدها شرا ، وتهدها سرا وجهرا ، وتنصب لها الحبائل ، وترصد لها المخاتل ، وتغري بها اللثام والرعاع ، وتثير عليها الاحن والأحقاد ؟

ومن ينكر علينا أنها فازت في النهاية على جميع مجاوراتها وأخضعت لسلطانها جميع عدواتها ، وسائر حواسدها ، وأتمت كل وظائفها ، ثم صعدت الى حيث أتت قرية العين مرتاحة البال ينلها من تألب أعدائها شيئا ، ولم يالحقها في أداء وظيفتها فتور ولا وني ، ولم تصعد حتى نقشت اسمها في صفحات الوجود نقشا لا يمحي ، وأبقت فيه أثرا لا يبلى ، واستخلفت فيه روحا لاتزهدق . وحياة لا تضمحل أفاعيلها في تابعها الى يومنا هذا .

من يرد أن ينكر علينا كل هذه الحوادث فلينكر الشمس طالعة والنجوم ساطعة ، ونفسه الجاحدة .

اذن كيف نشأت هذه الروح على غير ستة الوسط الذي ولدت فيه وكيف احدثت من مؤثرات ما يحيط بها من العادات والأخلاق ، وكيف نجت من مشائن الغرائز التي كان يجب أن تنشأ فيها بطريق الوراثة ، ثم كيف سلكت وحدها هذه المسالك الوعرة ، وذلت كل هذه الصعوبات الهائلة ، واجتازت كل هاتيك العقبات الكثيرة ثم كيف نجحت في مشروعها ، واستطاعت أن تخضع تلك الملايين من الأرواح لسيطرتها ، وتجعل كل تلك الإرادات القوية تحت سلطان إرادتها ؟

ألا ترى معي الآن أن هذه الروح أكبر روح ظهرت في العالم ، وأن إرادتها أقوى إرادة عرفت من بني آدم . وأن عزمها لما تنذك أمامه الجبال الشمخ ، وتهبط منه العرائن البذخ ، وأن عليها لما لا يدخل تحت نطاق فكر ، ولا ينحصر في دائرة روية .

إذا كنا نحن أمام هذه الروح حيارى لا نستطيع كيف ندركها مع اعتقادنا بأنها روح بني مكرم ، ورسول معظم ، له من جانب القوة الإلهية عون جبوتي ، ومن الملائكة المقرين عضد سماوي ، فكيف تكون حيرة جاحد لا يعتقد نبوة صاحبها ، ولا يصدق بأن له من جهة العالم العلوي توفيقايمده ، ونصيراً يدفع عنه الفشل ويرده ؟

كيف يعلل الملحد هذا التأثير الهائل الذي لم يسبق مثله للأنبياء والتاريخ أصدق شاهد ، وحوادث الكون أعدل ناطق ؟

ألا يكون المكذب به أحر من تحت السماء في تعليل هذه المدهشات ،

وتفسير هذه المعجزات؟

إذا كانت هذه الأعمال العظمى تتم لغير نبى وثمكن لمن ليس له عون ربانى ، ومدد الهى ، فما هو فضل النبوة على السياسة ، وما هو امتيازها على حيل طلاب التسلط وعشاق السلطة ؟ نعوذ بك اللهم من الجمود على احقاد الآباء ، والتأثر بوراثة الأسلاف .

نحن لانكتب السيرة المحمدية الكريمة كتاريخ يقرأ التمضية الوقت ، ولانود أن نجعله تسلية للنفوس فى أوقات فراغها ، ولكننا نود درسها من وجهة فلسفية حيوية ، تتعلم منها ماهية الانسان ومقدار ما وهب من ملكات ومواهب ، وكيف نسلك بأرواحنا سبل المطالب ، وكيف نأخذ نفوسنا بأداب الدنيا والدين ونجمع بينهما فى مسلك واحد . ومن ذا الذى لا يرضى بأن يكون تابع أشرف روح برهنت على حقيقتها وفضيلتها وسلكت فى الحياة كل السبل الممكنة ، وكانت فى كل سبيل منها نورا يعشو إلى ضوئها التائه ، وعلماء يهتدى به الخابط ، وبزت فى كل مجاله من مجالات المجهودات الانسانية كل مزاحم ، ونالت من مسالة الوجود لها ، وموافقة مقتضياته لآمالها ما لم يبلغه حتى قبلها ولا بعدها ألقي بنفسه فى معمعان هذا العالم ؛ ثم عرجت بعد ذلك كله إلى محتدها العلوى نقية الحبيب ظاهرة الذيل ، لم ترتكب إثماً ولا شططاً ، ولم تكتسب إلا ما يخلد لها حسن الاحدوثة وجمال الأثر

من ذا الذى لا يرضى بأن يكون تابع هذه الروح العالية فى حركاتها وسكناتها . وسلمها وحربها ، ورضائها وغضبها ، وانبساطها وانقباضها ؟

لا جرم أن هذه الروح لا تتحرك الا لنوال كمال ومحامد خصال ،
ولا تسكن الا عن حرام وضلال ، ولا تسالم الا الفضيلة والجمال ، ولا تحارب
الا الرذائل وذميمة الخلال ولا ترضى الا الحق والاعتدال ، ولا تغضب
الا لله في جميع الأحوال ، ولا تنبسط إلا لمشاهدة سبحات الملك المتعال
ولا تنقبض إلا لمن لحظ سواه في الأقوال والأفعال .

من منا لم يؤلمه التناقض بين احساسه وعقله ، ولم ينغصه التعاكس
بين عقيدته وفعله ، ولم يسخط على نفسه التباين بين دينه وميله ؟
يرينا العقل أن وقفنا لأنفسنا على الفانيات غاية الغوايات ، وشر
البليات ، فان همت بنا الرغبة الى الاصاخة لصوته ، والعمل بنصحه ،
جذبتنا من الاحساسات الشهوية تيارات ، ولعبت بنا من نزغاتها
نزوات ، وحالت بين أنفسنا وبيننا حيلولة تدق عن أن يتصورها
الفكر بصورة أوقع منها التعبير على كيفية .

ترينا العقيدة ان ذلك الأمر رجس حرام ، وتبرهن لنا الحوادث
على أن فيه الآلام والأسقام ، بل الموت الزؤام فنرى أنفسنا مسوقين
لاتيانه ، مرغمين على غشيانه ، كأنا موجدون على اتلاف أنفسنا
وأموالنا ، ومرشون على اهلاك ذواتنا وأشخاصنا !

ليس هذا قامراً على من كان له دين وعقيدة فان كل الأمم حتى
في هذا العالم المتمدن يرى منها هذه الآثار المحزنة من التناقض والتباين
في كل حيثية . فلقد أرتها معارفها ضرر الخمر وويلاته ، وشروره
وموبقاته ، ومع ذلك فهي تعتصره وتنشط العاملين عليه ، وتبيعه

وتستلفت الأنظار بكل الحيل إليه .

دلّتها معلوماتها وأرشدتها التجارب أن القمار سبب الدمار والخراب ، ومبيد الأسر العالية الاطناب ، وملصق الجباه السماء بالتراب ، ومكثر الاتجار بين الشيب والشباب ، والرجال والكعاب ، ومع ذلك فهي تأتيه جهرة ومن وراء حجاب ، وتعلن عنه في الجرائد اعلانها عن فوائد أعظم كتاب .

دلّتها المثالات أن تكشف النساء ودورانهم في الطرقات ، ورقصهن مع غير أزواجهن في المتدييات ؛ مجلبة لما لا يعد من المخزيات والمنكرات ، وقد أرشدتها الحوادث المتكررة لتلك السيئات بقوارع تنفتت منها إلا بباد وتذوب الاحساسات حسرات ، ومع ذلك فهي سائرة في سبيلها سيرا حثيثاً . وعاملة على بقاء ذلك واستشرائه بكل الوسائل . الى غير ذلك مما يطول شرحه كما سيراه القراء إن شاء الله في موضعه من كتاب الانسان والمدنية .

فلم هذا التناقض الهائل بين مطلب احساساتنا واحكام عقولنا ، ولماذا هذا التعارض بين عقائدنا وأفعالنا ؟ هل قضى على الانسان بأن يكون عمره متذبذباً متردداً ، لا يركن الى شيء حتى يزعج عنه ، ولا يعتمد على أمر حتى يطرد منه ، ولا يقف لحظة حتى يساق للامام ، ولا يساق للامام حتى يجذب الى الوراء ، ولا يكون كذلك حتى تتوزعه القوى المختلفة من جميع جهاته ، وهو مع ذلك يزعم أنه حر رشيد ، وأنه مختار مريد ، وأنه بطل صنيدي ، وأنه ذو عزيمة تقداً للحديد

وتذيب الصياخيد ، وأنه وأنه مما طالت فيه دعاويه ، وكثرت عليه من نفسه شكاويه .

هل للانسان عذر في الحال المرتبك ، والأمر المشتبك ؟ هل له أن يقول عن نفسه مدافعا : انه ضعيف ألقى به في وجود قوى العوامل ، قصير مدى الفكر تكتفه في الكون ألوف من الفواعل ، محدود العلم قضى عليه أن يسير من حياته في مراحل ، بغير زاد ولا رواحل . عديم الخبرة بالطبيعة قذف به منها في مجاهل ، ظامى الفؤاد لكمال مجهول سيق لأن يعرف منه المناهل ، فاتجه اليه من غير دلائل ، ممتع بصفات متباينة حتم عليه أن يختار منها الفضائل ويقاوم الرذائل ، وهو مع ذلك بين أمثاله في حياة لها قوانين وشرائط ، وعليه منها تكاليف ومغارم ، تشتبك فيها مطالب حياتهم بمطالب حياته ، وأغراض نفوسهم بأغراض نفسه ، فتجلى له الحياة على صور شتى ، وأشكال عدة ، لا بسة من جهله وجهلهم ثيابا تتنوع وتباين ، وتتلون وتتخالف ، على نسب يلتوى عليه أكثرها ، ولا يدرك منها الاجزاءها ، فيرى نفسه مرغما على اتيان ما ينكره عقله ، وغشيان ما يستهجنه فكره ، إن رغب في إصلاح نفسه قاومته بما يحيط به عقبات عدة ، وصدمة في صدره صعوبات وشدة ، فيكره نفسه على أن يعيش ناقصا وهو يرى الكمال بعينه ويمضي عمره في تعاسة وهو يرى السعادة بين يديه ، ترنو بنظرها إليه ؟

قلنا هل للانسان يقول هذا مدافعا عن نفسه ، وملصقا العار في

نقصه على بنى جنسه ؟

كان يمكن ان يقول هذا لو لم يكن الله تعالى قد أقام سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم مثالا يرسم الطريق للخاططين ، وعلمنا على سبيل السائرين يتبع التأه اثر قدمه ، ويسير مسترشداً بعلبه قطعاً لعذر المعتذر بوعورة المسالك ، ودحضاً لحجة الزاعمين بأن الانسان مكره على تقحم المهالك ، والتردى فى المضانك .

ليس على الذين رعبتهم مغازات الحيات ووعوثتها ، وهالتهم عقباتها ومعاطبها ، الا ان يتبعوا ذلك المثال الكامل فى سيره ويقتدوا بهديه فى جميع أمره ، فانه جاء ليعلم الانسان كيف يسلك بنفسه الحياة بدون أن يدنسها ، وكيف يطير بروحه الى الغايات بدون أن يتعبها ، وكيف يجرى فى باحات المطالب المختلفة بدون أن يلامسه الجور بذلة ، ويركض فى ساحات المجد غير خاش ان يصدمه الغلو فى صدره .

قضى الله على سيدى المرسلين صل الله عليه وسلم ان يطوف جميع أدوار الحياة الممكنة ليكون للناس فى جميعها مرشداً اميناً ، ودليلاً خبيراً ، فكان (فردا) فى اسرة ، و (واحدا) من قبيلة ، و (نفرا) فى امة ، و (زوجا) و (أباً) و (تاجراً) و (مرياً) و (مرشداً) و (واعظاً) و (جندياً) و (قائداً) و (مشرعاً) و (قاضياً) و (حكيماً) و (اماماً) و (سياسياً) و (ملكاً) و (مسالماً) و (محارباً) و (معاهداً) و (عابداً) و (زاهداً) و (نبياً) و (مرسلأ) وهى وظائف حيوية يستحيل ان تتفق كلها لبشر ولكن لا يخرج الرجل من أن يكون له

بعض صفات منها فلم لا يقتدى بهذه الروح العالية الكريمة التي برهنت للعالم اجمع انها جازت كل عقبات الحياة نقية طاهرة ، ومرت بين أمواج المصاعب والفتن نقيّة زاهرة ، ثم صعدت الى عالمها تاركة وراءها من حسن الذكر شذى أعطر من ارج الزهر في السحر ، وأثرا يكشف بآلائه كل أثر ، ولم تزل قوتها في الأرض تعمل اعمالا تدهش البشر . ونورها بين الأنوار يحسر البصر ،

فهل يصح أن يعد المسلمون هذه السيرة من ضمن السير ، ويجعلوها مجرد فكاكة في السهر ، ورقائق يوشون بها أطراف السمر ، أم يجب ان يدرسوها من جهة فلسفية حيوية ليتخذوها دستوراً للعمل ، ونبراسا يحلون به عن حياتهم ظلمات الخطل ، ويحتمون به التدهور في الزلل ، وعلماء يعشون الى ضوئه في كل أمر جلل ؟

فالفرد في أسرته ، والواحد في قبيلته ، والنفر في أمته ، والزوج مع زوجته ، والآب بين أهله وصبيته ، والتاجر في تجارته ، والمربي امام تلامذته ، والمرشد بين زممرته ، والواعظ امام حلقته ، والجندى في مهنته ، والقائد في رتبته ، والمشرع في وظيفته ، والقاضى في ولايته ، والحكيم لدى طلبته ، والامام حيال حشدته ، والسياسى في حكومته ، والملك في رعيته والمسلم امام اوليائه ، والمحارب قدام اعدائه والمعاهد بازاء اهل ذمته والعابد في محرابه ، والزاهد في دنياه يجد من سيرته صلى الله عليه وسلم نوراً يهتدى به في شرعته ، وروحاً يقوى بها في مزاولة صناعته ، ودستوراً يسير عليه لتحقيق أمنية وقانونا يرجع اليه في حيرته .

كيف لا يجعل المسلمون هذه السيرة المثلى لهذه الروح العظمى ،
 كحلا لأعينهم ، وشغافاً لقلوبهم ، ودخيلاً تحت ضلوعهم ، وشعاراً
 على جسومهم ، ودثاراً فوق لباسهم ؛
 وكيف لا يجعلونها مرجعاً لفخارهم وأصلاً لمجدهم وسؤددهم ،
 ودواء لادوائهم ، ومرهما شافياً لجراحهم ، ومنشطاً لفتورهم ، وسلباً
 لأوليائهم ، وحرباً لأعدائهم ، وحجة على صحة دينهم ، ودليلاً على
 وضوح طريقهم .

نعم ان تجلية هذه السيرة الكريمة على الصورة الحيوية المؤثرة بالنسبة
 لأبناء هذا العصر الذين اشتبكت أمور حياتهم وتداخلت حلقاتها ،
 وامتدت مصالحهم وتشعبت فروعها : حتى يستطيع كل فرد منهم أن
 يجد منها الهادى المرشد ، والدليل المبين لما يحتاج الى بحث وتنقيب ،
 وتفصيل وتبويب ، وأبحاث فى أساطير الحياة طولى ، ودروس فى
 أسرار القوى النفسية جلى .

هذا مما سنتوخاه فى كتابنا هذا والله المعين ، والصلاة والسلام
 على سيد المرسلين ، وآله وصحبه وتابعيه أجمعين الى يوم الدين .

~~~~~

### وجب لزوم السيرة المحمدية لكل انسان

كل مجهودات الانسان ومحاولاته متازعة بين عاملين عامين  
 يتقاسمان قواه ، ويتوزعان سائر قواه المغروزة فى طبيعته عامل مادي  
 جثمانى ، وعامل أدبى روحانى . الاول يدفعه لتأيد مركزه فى هذا

المشهد المحسوس ويبعثه لاداء وظيفته فيه بحيث لا يستطيع الفكك منه ، وله مما ركب في الجثمان من الضروريات الكثيرة كالغذاء والمسكن واللباس والتحفظ من عواذى الأمطار والرياح والهوام ، وما غرز فيه من العواطف نحو أهله وولده وبنى نوعه جنود وأعوان تقوى فعله ، وتشد أزره ، وتزيده قوة على قوته ، وكلما تدرج الانسان في تذليل صعوبات حياته المادية زاد هذا العامل تأثيرا ، وصار أحشد جنوداً وأكثر نفيرا ، وتشكل وتطور على حسب تشكيلات الحياة المادية وتطوراتها . ومن يرد الدليل المشاهد فعليه بالتدبر في حالتى المتوحشين والمتمدنين ، فان المدنية مع ما أحدثته من التسهيلات في أمور الانسان الجسدانية ، لم تقلل من شدة ذلك العامل بل زادته أيذا على أيده ، فصار أقوى مما هو عند المتوحشين بما فتحت لذويها من باحات المطالب ، وما أيقظته في نفوسهم من الحاجيات والرغائب .

هذا العامل يجلى للانسان اللذائذ العاجلة ، ويصور له المشتريات الفاتنة ، ويكسوها من سحر التوهمات والزخرف ثيابا يأخذ بالبصر رواؤها ، ويميل بالاعناق زبرجها ، ويتوجه بمجموع هذا السحر الفاتن الى ما غرز في طبيعة الانسان من عاطفة العجلة ، ويظل يواجهها بهذه المرائى الفاتنة ، والمظاهر الساحرة ، حتى يستولى على ارادتها ، ويتحقق من اثاره حميتها ، ثم يسلطها على الانسان نفسه فيقيم فؤاده ويقعده ، وينسيه ذاته ويذهله ، فيشمر عن ذيله ، سعيًا لنوالها ، وجدا للحصول عليها على الصفة التى تصورها فى خياله فيدأب وينصب ،

ويفتكر ويتخيل ، فاذا لم تنجع هذه الوسائل كلها في انالته أمله ، وتكليل عمله ، ووجد من مصالح معاشيه ما يقاومه في سبيل رغباته ، ويصادمه في محاولاته لعدم اعتداله فيها ، تذرع بالدخائل ، وتوسل بالدسائس ، ومت بالحيل ، وأدرع بالتمويه والكذب ، ففاق ومكر ، وداجى وستر ثم خلب وختل ، وسلب بعد ما قتل ! هذاما يشاهد يوميا من أسرى هذا العامل المادى وهو فى العالم المتمدن أكثر ، وأثره فى تشويه الفطرة الانسانية هنالك أظهر .

أما العامل الروحانى ، فهو عامل قلبى وجدانى ، يناجى الانسان فى ضميره ، ويناغيه فى صميم معناه ، ويناقشه فى سويداء قلبه ، فيبين له علو عنصره وسمو جوهره ، ويكشفه بجمال ذاته ولألاء روحه ، ويفضح له من سوءات الدنيا قصر مدتها ، وكثرة آلامها وشدة محنتها ، ويستلطفه الى الدين وقفوا قواهم فى حبها ، وسروا أنفسهم لفتتها ، كيف عاجلتهم المنية ودهمهم الفناء ، فتركوا المال والولد ، ونزحوا من الدار والبلد ، ونزلوا بعد سكنى القصور الشاحنة ، والعلالى الباذخة ، الى حفرة ضيقة ، ومحلة خشنة ، مثلهم كمثل القدر يؤنف من رؤيته ، ويهرب من ريحته ، ولم يزل به ذلك العامل حتى يوقظه من سكرته ، ويعثه من غفلته ، ويستولى على كليته ، ثم يفتح له من جانب روحه نافذة تطل به على كنوز معناه من ذخائر الجمال المعنوى ولطائف النعيم الروحانى ، ولذائذ السعادة الأبدية ، وحدائق الكمالات الحقيقية ، ما يذيب قواده شوقا اليها ، ولهفأ عليها ، يأخذ بلبه هياما بها وغراما فيها ولكن : دون



ذلك جهاد ونصب ، وسهاد وتعب ، دون ذلك العدل والاستقامة عدل في استعمال المواهب ، عدل في أعمال الحواس الظاهرة ، عدل في وظائف المشاعر الباطنة، عدل في توجيه القوى الخارجة، عدل في إثارة الاحساسات الكامنة ، عدل في مرامي الأفكار ، عدل في خطرات الخواطر؛ واستقامة في معاملات الخلق ، استقامة في منهاج الحق ، استقامة في التوجه لنوال المآرب ، استقامة في النكوص عند فوات الرغائب ، استقامة حين الفتن ، استقامة وقت المحن ، استقامة في كل حركة وسكون ، !

هذان العاملان العايمان المادى والمعنوى لهما في صميم فؤاد الانسان مجال واسع يتصاولان فيه ويتجاولان ، ويتدافعان في أرجائه ويتجاذبان ، والانسان بينهما واقف وقفة المستكين ينصاع لاشارة الغالب منهما ، ويرضخ لسلطان الاقوى فيهما، ولكن لا يلبث المغلوب منهما أن يثور على خصمه ، ويعيد الكرة عليه ، فيرتفع بينهما الصخب والجبج ، ويتجدد العداء والشغب ، ويتنازعان الانسان بينهما من كذب ، فيميل مع من غلب ، وهكذا حتى يجرى يومه فيذهب مع من ذهب !

هذان العاملان العايمان قد تقاسما الافراد والامم، وتوزعا العواطف والهمم ، حتى يعز عليك أن ترى رجلا توصل الى ايجاد الصلح بينهما، فعاش حرا من نزاعهما ، وما الناس الا أحد رجلين : رجل يطلب الدنيا قد تكالب على حطامها ، ووقف كل قواه على التمتع بلذائدها ، فاعمل لذلك ما استطاع من حيل ووسائل ، وما أمكنه من حبال ومخاتل ، ولم يبال عدل أم جار ، أحسن أم أساء ، وكلما أصاب شيئا

بما طلب ، ونال رشحة مما اليه دأب ، زاد نهمه وكلبه ، ونمى لهفه ولهيه ، واستشرى جشعه وطمعه ، وثار ثوران الحصان الجموح يدوس كلما صادفه من حقوق وأعراض ، ولم يزل في سورة جماحه حتى تقابله سهام المنايا في صدره ، فيكون قد أنضب الجهاد ماء قوته ، ونكر الجشع والظلم جمال صورته ، ولاحت أمام عينيه أشباح ضحايا من بني جنسه ، واشلاء صرعا من اخوان حياته ، فتكبكه في مهاوى عمله فيودع الحياة وفي قلبه مافيه من حسرات لا تعرف لها من اللغة وصفاً !

أورجل ( وهذا الصنف أقل من أن يعد ) تشبع فكره بسوءات الدنيا وشدة محنها ، وتذوق عقله تفاهة أشياءها وقصر مدتها ، وأحست مشاعره الداخلة بمباهية اللذات الروحية وجلالتها ، فصدف عن الدنيا نفسه ، وقصر على الآخرة جهده ، فترك الشغل والعمل ، وصرف مجهوده للفكر والأمل ، ولم يبال عضته الفاقة بناب ، أم راشته الحاجة بسهم ، ولم يسأل أنفحه البرد بزمهريره ، أم لفحه الحرب بهجيريه ، بل غرق في لجة التأملات الذاتية ، وأشرف على عجائب القلبية ، وترك مادته تحت تأثير الفواعل وسلطان العوامل ، وقنع بنعيم روحه عن كل نعيم ، وعن لذائد الجسمانيات بالصفاء المستديم .

دلنا تاريخ الأمم كلها أن الانسان لا يقوم أمره ولا ينتظم حاله بواحد من هذين العاملين على انفراده ولا بد من أن يكون كلاهما متسلطين عليه . شوهدت أمم قامت بالعامل المادى فنالت من خير الحياة الأرضية مانالت ولكن لم تلبث أن جار بها ذلك العامل عن

قصد السبيل فورطها في أنواع من الافراطات والتفريطات كانت السبب في تلاشيها وفنائها وشوهدت أمم قامت بالعامل الروحاني فنالت من رقى الروح المكنات العلى ، والمقامات الفضلى ، ولكنها لم تأمن عدوان جيرانها ، وجور متآخميها من الأمم ، بل ولم تنطق فطرتها الصبر على تلك الحالة فجاءها الفساد من ذاتها ، وعدى عليها عامل جسدها فذهبت الى حيث ذهب السابقون .

فانتظام حياة الانسان واستبائها متعلق بايجاد الصلح بين ذينك العاملين المسيطرين على كيانه ، وهو مجهود أصبح الشغل الشاغل اليوم للعالم الانساني في الغرب خصوصا ؛ فقد أرشدتهم المثالات والحوادث الى ذلك كما سيمر بك ان شاء الله تفصيله ؛ ولكن كيف نجد تلك الطريقة وانى نبحث عنها وعن نتعلم حدودها وشرائطها ؟

يدل تاريخ الانسان من أول نشأته لليوم ان الحقائق الكبرى لا تسرى الى فؤاده ولا تأخذ مكانها اللائق بها منه ، الا اذا رأى لها مثالا محسوسا يحس به وينظر اليه ، وتنفعل به نفسه وتنتقش في ذهنه صورته . فما هو ذلك المثال المحسوس الذى يتعلم الانسان منه كيف يوجد الصلح بين عاملى مادته ومعناه ؟

لو كانت المسألة تصورية فكرية لكفاه ما هو موجود فى بطون الكتب من الحث على العدل بين مطالب الروح والجسد ولكن المسألة عملية أكثر مما هى علمية ولا يوجد الآن من يشك فى أن التربية الحققة هى ما كانت بالقدوة الحسنة والأسوة الصالحة لأنها هى وحدها



التي تستطيع أن تستولى على مشاعر الفرد فتقوده الى صراطها رغم أنفه وضد ارادته ، بخلاف الترية بالأقوال فانها تذهب على الأكثر ادراج الرياح ، ولولا ذلك لكانت الامة المصرية اليوم ارقى الأمم في معارج الكمال الخلق لكثرة ما يذيع فيها الآن من الفاظ التهذيب والترية . ذلك لان الانسان حسي بطبعه لا يستطيع أن يرضخ الا للحوادث نفسها والمحسوسات بذاتها . يظهر هذا الخلق منه في كل حركاته وسكناته حتى في الحين الذي ( يعتقد ) فيه أنه ( يعتقد ) مدركاته بدون شك ولا ارتياب . والافالى أى علة تنسب اتيانه للافراطات وهو يدعى أنه ( يعتقد ) ضررها على جسمه وعقله ، وبماذا تفسر غشيانه للتفريطات وهو يزعم أنه ( يعتقد ) أنها عادية على كمال مادته ومعناه ؟ لماذا لا يمسك النار المحرقة يديه ؟ لماذا لا يلقي بنفسه في لجة بحر ؟ لماذا لا يرمى بنفسه من مأذنة ؟ اليس لكونه يعتقد أن كل عمل من هذه الأعمال عاد على حياته ، وعائد عليه بالضرر المحقق ، فان كان يعتقد بدون شك ان كل افراط وتفريط له على تركيبه المادى والمعنوى مثل ذلك الضرر لآنس من طبيعته النفرة عنه والهرب منه ، وان غشى شيئا من ذلك يوما أو أياما فلا تزال عقيدته تراحم عادته حتى تتغلب عليها تماما . كل هذا يثبت ان الانسان مرغم على ان لا يعتقد الا على الأسلوب الحسى العملى حتى في الحين الذى يدعى ويحلف فيه انه على غير تلك الصفة ، ولولا هذه النظرية للزمنا أن نقول بان أكثر المتدينين مجانين لأنهم يأتون ما ( يعتقدون ) ضرره الدنيوى والآخروى ،

ويكسلون عما ( يعتقدون ) نفعه وضرورته في كليهما ، ولا حيلة لهم بعد ذلك الا أن يجلسوا الى بعضهم فيكون ويولولون على سوء طريقتهم وشر ما لهم ومنقلبهم ألسنت ترى أن أكثر الذين يدعون أنهم معتقدون يخاتلون طول النهار ويكذبون ويسرقون ويرأفون ويمنعون الماعون ثم لما يخلون ببعضهم يتحسرون ويتأفقون ويحوقلون ويسترجعون ويقولون ضاع الدين وعدم الايمان وذهبت كمالاتها الى الأوربيين فعملوا بها وسادوا علينا وتركناها نحن فهبطنا وانحططنا ، ويظنون يظنون من هذا الأمر غاية العجب ، ولا يدرون ما حقيقة السبب وهو ما نقوله من أن الانسان حسي بطبعه لا يعمل الا ما يعتقد ( بالحس ) نفعه . فترك المتدينين لفضائل دينهم وتأسفهم على عدم امكانهم العمل بها لا يشعر بأنهم يعتقدونها بقلوبهم ، فان عمل جوارحهم على ضدها يبين أوضح بيان انهم شاكون في فائدتها ، مرتابون في حسن نتائجها . كما أن تحلى الأوربيين بها لا يدل على انهم متدينون وانما يدل كما يقرون بذلك ، على انهم اختبروها فوجدوها أليق الصفات بالانسان وأمسها بتحسين حياته فلصقوا بها لما احسوا بآثارها الجليلة عليهم . هذا بحث مهم لذيذ يفضح كثيرا من تليسات الشيطان على الانسان موضعه في الجزء الأول من كتابنا واما جئنا به هنا تمهيدا للبحث المهم الذي نحن بصددده .

قلنا أصبح الانسان بدوافع الحوادث المتكررة في القرون المتوالية يميل ميلا اضطراريا لأن يجمع بين مطالب روحه وجسده في سلك

واحد ويؤاخي بينهما مؤاخاة طبيعية ثابتة ، وقد دل على هذا الميل الاضطراري بلسان قادة معارفه المادية أنفسهم كما رأيت وسترى أقوالهم ان شاء الله ، فما الذي يمنعه من احداث تلك المؤاخاة المرجوة ؟

لو كانت المسألة من المسائل التي تتم بالأقوال لرأيت بعينك اليوم أساطين دنيا ودين ، وأراكين علم ويقين ، قد اتحدت مطالب أرواحهم وأجسادهم ، فاستقاموا على منهاج الذين خلوا من الأنبياء والصديقين والشهداء ، لأن الأقوال فيها قد بلغت الغاية من أصابة جوهرها ، والاشراف على لبابها ، ولكن المسألة عملية شاقة تحتاج لاستاذ كبير حلل دقائقها ، وعرف طبائعها ، وخبر أجزائها ، وأدرك نسبها في ذاته بالاختبار والحس ، لا ترديدا من كتاب ولا حكاية من خيال . واذا كان الترديد من الكتب والحكاية من الخيال لا يفيدان في أحداث أبسط الأمور العملية فهل يفيدان في أحداث أكبر الأعمال التي من بعض نتائجها إقامة الانسان على منهاج الفطرة ، وإيجاد الصلح والوثام بين عاملي طبيعته الروحية والجسدانية ، الذين جعلاه بتنازعهما يحسد الحيوان في هدو ضميره ، ويغبط النباتات في عدم ادراكها : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا . »

إليك مثالا محسوسا : عرف كثير منا أن الماء مكون من جوهرين بسيطين وهما الأكسيجين والهيدروجين فاعتقدوا ذلك قلباً وقالبالما عرفوا من أنه صحيح بالاختبار ، ولكن اذا مست الحاجة إلى إيجاد



الماء مهما استحال الأمر عليهم وأدركوا عندئذ أن مجرد العلم بالشئ لا يكفي في إيجادهِ وعلبوا أنهم يحتاجون لجملة أمور عملية تشق عليهم بل تستحيل على قوتهم : (منها) استخراج كل من هذين العنصرين على حدة من الاجسام التي هما من مركباتها ، وهو يستلزم المعرفة التامة بوجوه استخلاصهما بالطرق الكيماوية وبوسائل الحصول عليهما نقيين غير مشوبين بمركبات أخرى تحول دون نجاح العملية، ثم يحتاج الأمر لاجداث الحرارة اللازمة لاجداث ذلك الاتحاد لأنهما لا يتحدان على الدرجة العادية ؟ والخلاصة لا يمكن إيجاد الماء منهما إلا بتوقيف الأستاذ الكيماوى وارشاده ارشادا عمليا . هذا ما يعوزه إحداثك التآخى بين عنصرين بسيطين كثيرى الانتشار فى الكون وميالين لبعضهما كل الميل وقد رأيت أن مجرد العلم بذلك لا يغنيك من العمل شيئا ، فما بالك بايجاد الوحدة بين مطالب الروح والجسد ؟ للروح مطالب لا يستطيع أكبر الفلاسفة إحاطة بعلم النفس سردها سرداً فضلاً عن الإحاطة بحدودها ومعرفة نسبها إلى بعضها ، وللجسد أيضاً مطالب عدة وهى وان كانت أيسر عند الباحث من الأولى إلا أنها تستلزم علماً جماً بالمسائل الفزيولوجية ( علم وظائف الأعضاء ) والزولوجية ( علم الحيوانات ) والتشريحية ، فان كانت عملية إيجاد الاتحاد بين ذينك العنصرين البسيطين الأوكسيجين والهيدروجين تعوز العمليات التى سردها عليك فان المؤخاة بين الروح والجسم تستدعى من العمليات ما يتلاشى بجانبه كل ما رأيت ولا يعد شيئاً يذكر . ألا ترى معي أنها

تستوجب إحاطة كبرى بقوى الروح وأنواعها ، ونسبها إلى بعضها ،  
 ومامننا مقدمة لتاليه ، وما منها نتيجة لسابقه ، وما منها مستقل ، ومامننا  
 تابع ، ومامننا متبوع ، ومامننا متغير ، ومامننا ثابت ، ومامننا متعدد ، ومامننا  
 متوافق ؛ ثم إن كل هذا يستدعي الماما كليا بمجاري سيالات كل منها  
 ومنابعها وغاياتها وتعرجاتها في سيرها ونكوصها على نفسها ، ثم تستلزم  
 إدراكا ذريعا بحاجيات الجسد ومسارب تيارتها وما منها جوهرى  
 طبيعى ومامننا عرضى وهمى ومامننا صالح ومامننا فاسد ؛ ثم تقتضى وقوفا  
 تاما على وجه نسبة كل قوة روحية بما يقابلها من حاجيات الجسد ، وتحريا  
 مضبوطا فى كيفية توفيق نتائج تلك النسب الجزئية مع بعضها لتنضم كلها  
 الى نتيجة واحدة يكون من أثرها المؤاخاة التامة بين مادة الانسان ومعناه  
 وانقطاع تلك المنازعة الشديدة بينهما ، وهى التى حرمتها من الغبطة بنفسه  
 والتنعيم بجمال روحه

نعم ان هذه العملية الانسانية الجليلة تحتاج الى استاذ مجرب وموقف  
 ذاقها فى ذاته وصار هو نفسه النموذج الناطق بها ، فما هو ذلك الرجل الذى  
 يصح أن يتخذ مثالا لهذا الكمال الانسانى المحبوب ؟ هو عبد الله  
 ورسوله خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . لسنا  
 نقول هذا مجردا عن الدليل ؛ او عاريا عن الحجة فان الوجود وما فيه  
 شهود عدول ودلائل ناطقة وما علينا الا ان نتناول منها بأقلامنا  
 مانشاء فانتظر ترالعجب العجائب ان شاء الله . نحن فى سيرنا فى السيرة  
 المحمدية الكريمة على الأسلوب العلمى لانريد أن نقيم اعدل الحجج

العلمية على نبوة خاتم النبيين فقط ، بل نريد أيضا ان نعرف ان شاء الله السبيل الذى يجب على كل مسلم أن يسلكه لنجاة نفسه واستئصال الرحمة الالهية على قلوبنا التى تسممت بسموم ما يحيط بنا من هذا البدع الجديد الساحر . من هذه الحيثية نرى أنفسنا فى حاجة كبرى فى كل خطوة نخطوها فى بحثنا الى مدافعة حجب كثيرة حالت بين النفوس وبين القلوب فغيرت فى نظرنا كل شيء ونكرت فى بصائرنا كل صورة حتى تكاد تلبس الالفاظ غير مدلولاتها . ولئن تعجب متفلسف متعسف من قولنا ان نبينا صلى الله عليه وسلم هو الكمال المجسم والنموذج الذى يجب تعلم كيفية إيجاد الوحدة بين الروح والجسد منه فقد قالت مثل ما نقول أمة بأسرها بعد ان كانت من الشك بحيث يقول الله عنها : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون . » ثم انتهى أمرها بالخضوع له والاقتداء بهديه وسنته نصارت بعد ان لم تكن أمة عدت خیر أمة أخرجت للناس ونالت من بسطى الحياة المادية والروحية ما لم تنله أمة قبلها ولا بعدها . هذه الظاهرة الاجتماعية الكبرى كادت الغواشى المدنية والالفاظ العلمية القشرية تنسينا عظمتها بل تعمينا عن جلالتها . لو صحت وأنا فى القرن العشرين باعلى صوتى وبين قادة العلوم الاوربية أنفسهم وقالت روح محمد أكبر روح ظهرت فى بنى آدم منذ نشأتهم لليوم لما استطاع أحد أن يتردد فى صدق قولى ولو تردد لقلت له ارنى رجلا فرداً أنجح وحده فى أمر واحد فقط من هذه الأمور (١) توحيد



أمة منقسمة إلى قبائل متعادية (٢) سن قانون كفل لها السلطان على جميع الأمم بعد أن كانت لا تعد في مصافها (٣) ملاشاة رذائلها الوراثية وابدالها بفضائل اتخذت مثالا للكمال الانساني (٤) نسف عقائدها الباطلة وابدالها بدين لا يزال يزيد وينمو بصفة مدهشة الى اليوم وينتظر أن يرث كل الأديان الباقية . فعل كل ذلك ولم يفقد من طهارة نفسه ولا سمو روحه مثقال ذرة أى أنه عاش وسط هذا النجاح الذى يفتن أقوى الأفئدة زاهداً عابداً عادلاً كما كان فى أول يوم من دعوته ، وكان فى كل أفعاله المثال الكامل والنموذج الناطق والميزان العادل ؟ إذا كانت كل هذه الفتوحات المادية لم تستطع ان تؤثر على القواد المحمدى العظيم ولا أن تفتن نفسه الطاهرة مع علمك بأن عشر معشار هذا النجاح فى شق صغير من مثل عمله قد فتن الملوك والمشرعين والفلاسفة والقواد أفلا يكون هذا أقوى دليل محسوس على ان لديه صلى الله عليه وسلم السر الذى من عرفه آمن على نفسه سلطان الفتن ، والا كسير الذى من تعاطى منه جرعة وقي المحن ، واستقام على اعدل سنن ؟

﴿ كيف كان العالم قبيل بعثة ﴾

( النبي صلى الله عليه وسلم )

قلنا فى فصلنا الثالث من كتاب ( الانسان ) ان لكل جيل روحاً عمومية تنتشر فى أفق العالم فتعم سائر الأمم الداخلة فى نطاق الاتصال بأثر واحد تظهر نتائجها فيها على حسب قابليتها ، وقلنا إن تلك الروح قد تكون سامية شريفة أو سافلة وضيعة ، أو مختلطة من هذه وتلك ،

وقلنا إن وظيفة الأنبياء محصورة في إيجاد روح جديدة في الأمم التي يرسلون إليها « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده . » لتقاوم تلك الروح السائدة وتلاشيها لتحل مكانها فترفع الأمم من معارج التقدم الى الدرجات التي قدرت لها ، وقلنا إن أظهر مثال لنظريتنا هذه أعمال خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا . »

قلنا ذلك في الفصل المشار اليه ونريد من هذا الفصل أن نجلى لقراءتنا تلك الروح العمومية التي كانت منتشرة في أفق العالم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لنبين لهم بطريقة محسوسة أن حال الأمم كافة كان يستدعي الإصلاح والتعديل ، ويستلزم قارعة عظمى تقيمهم على نهج السبيل ، وليتجلى لهم بأدل دليل أن رسالته كانت للعالم كافة كما قال الله تعالى « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون . »

عما رأيناه بالبحث والاستقراء أن روح رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لبثت تقاوم الأرواح المحيطة بها وتجاهدها ثلاثة عشر سنة من عمر الفرد الواحد ثم ظهرت بعد ذلك عليها ظهوراً سريعاً مذهشاً ودانت لها أرواح العرب كافة في عشر سنين آخر ، كذلك بقيت روحه الكريمة تصاول الأرواح العامة المحيطة بأمتة من كل جانب ثلاثة عشر قرناً من عمر العالم ثم ابتدأت بعد ذلك في الظهور والجللاء والتأثير على العواطف والاحساسات بطريقة في غاية الغرابة . ومن

يتأمل في الثلاثة عشر قرناً الماضية ويطلع على ما كتبه أعداء الاسلام على الاسلام والمسلمين تحريفاً لتعاليمه ، وتشويراً على قواعده وأصوله ، وشاية وإيقاعاً بأهله ، ووصمهم بما لا يتصوره العقل من الوصمات الفاضحة ثم يتأمل في مجموع الحركة الاسلامية المنبعثة من ذات أوربا في هذا القرن ، ير أن الشبه تام بين تأثير الروح المحمدية العظيمة في عمر الفرد الواحد ، وبين تأثير الروح العامة التي أودعها في أمته في عمر العالم . وبما أن المدة بين بدء انجلاء هذه الروح الكريمة الى تمام ظهورها وكال سطوعها كانت عشر سنين من عمر جيله فكذلك اظن أن المدة بين بدئ تجلي روحه في العالم أجمع الى تمام أشراقها سيكون عشرة قرون ، فلا يأتي القرن الثالث والعشرون من الهجرة حتى يكون القرآن دستور الأمم كافة ، يتلوه التالى في المشرق فيرن صدهاء في المغرب ، وليس هذا بعجيب لأنه الحق الصميم والأمم بمجموعها مسيرة سيرا اضطرارياً نحو الحق بعامل ناموس الترقى فلا بد من أنها ستنتهى الى القرآن كما قال تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

وبما أننا وصلنا من بحثنا الى هذه النقطة فسيكون بحثنا على الانسان والانسانية في الجزء الأول سائراً مع بحثنا في حياة سيد الانام صلى الله عليه وسلم ، لآتنا رأينا كما سيراه قارئنا معنا أن الروح المحمدية التي أدبت الأمم كافة حين ظهورها ، هي بعينها التي تؤثر عليها لليوم وتجذبها الى نورها شيئاً فشيئاً . وبما أننا تكلمنا اليوم في فضل الانسان



على الأرواح العمومية فنريد أن نجلى للقارىء الروح العمومية التي كانت قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بشهادة علماء أوروبا أنفسهم ليكون الكلام أعجب فنقول :

كتب المسيو ( جول لا بوم ) في مقدمة فهرسته الذي جمع فيه الآيات القرآنية الشريفة المتماثلة تحت عنوان محمد ما يأتي :

« لأجل أن يفهم الإنسان تمام الفهم أى دعوة من الدعوات يلزمه أولاً الإلمام بحال الداعى فى ذاته ، ولأجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التى وجه همته للتأثير عليها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التى خصصناها للشرح العربى مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الإسلامية .

« حوالى ميلاد محمد ( صلى الله عليه وسلم ) فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم متلبساً بغيرم الاضطرابات والفتن . فكان شعب ( الويزيجو ) الآريين فى اسبانيا وفرنسا الجنوبية يصولون الملك ( كلوفيس ) وأولاده الكاثوليكين فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة امبراطور ملكة الرومان الشرقية المدعو ( جوستينيان ) ثم جبروا بالدخول معه فى حرب جديدة تخلصاً من سلطة القواد الذين جاؤوهم بتلك المساعدة فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المحامين .

أما فى فرنسا نفسها فكان أولاد ( كلوفيس ) هذا متغادرين متسافكين وكانت الحروب التى شبت نيرانها بين الملكة الويزيجوتية

( برونهو ) والمملكة الفرنكية ( فيريديجوند ) تهيء التاريخ أشد الصحائف  
اثارة للأسى والكمد .

أما في انجلترا فكان ( الانجلو ) ينازعون ( السكسونيين ) الأرض  
التي احتلوها واستعبدوا فيها ذرية ( كيمريس ) وهم أقدم المغيرين على  
تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الأمم علما وصناعة  
وقوه ، وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالا للقوة الوحشية السائدة  
في تلك الغياهب الحالكة .

أما في إيطاليا فكان اسم ( الرومان ) وهو ذلك الاسم الشاخص قد  
فقد أهميته القديمة وكانت رومة وهي الشظية الأخيرة أو رأس ذلك  
التمثال الكبير المتشتم ( يعنى مملكة الرومان ) في حالة تمللها من  
استحالة أمرها الى مركز ديني بسيط . ترتج وتضطرب كلما ألم بها طائف  
من ذكرى عظميتها القديمة أيام كانت مركزاً دينياً أصلياً ، فكانت تبيء  
نفسها لأن تكون . مركز البابوية وهي تلك السلطة الزمنية كما اقتضت  
سياسة ( شلماني ) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان : ولكنها  
مع ذلك لم يسعها حمل نير ( الهيرولبين ) و ( الاستروجوتين ) وامبراطرة  
المملكة الرومانية ( والومباردين ) الذين تداولوا السلطة عليها تداولا .  
أمامملكة اليونان التي كانت قد نسيت مجدها القديم فكانت  
ناعبة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء .  
وكان شرق أوروبا مقلقا جنوبها من أول مصاب نهر ( الران ) من  
جهة الغرب لناية مصاب نهر ( الدانوب ) من جهة الشرق . فكان

(الاسكندريانيون) و(النورفيجيون) و(الدانماركيون) يتزاحمون في الطريق الذي سلكه (الجوتيون) و(الهونيون) الذين احتلوا (تارس) و(مكدونيا) و(لومبارديا) ( وإيطاليا ) سواء بالقوة أو بالخديعة . في ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى ، وهي تلك الأمة التي حصرت فيما بعد مملكة اليونان حوالى أسوار القسطنطينية .

« التصوير البديع الذى جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الامبراطورية الرومانية فى القرن الاول من التاريخ المسيحى لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوربا فى القرن السادس : تلك كانت مفاسد قيصرية محتمرة ، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالارواح وتتمرغ فى الأوحال (١)

» أما آسيا فلم تكن أهدأ بالاً من أوربا فى شيء : فمملكة ( تيبِت ) و ( الهند ) التى اقتبست منها الأمم السائدة فى أوربا الآن قرائنها وأفكارها العامة ولغاتها ، والصين التى تعد مسائلها أغرب المسائل السياسية والفلسفية ، وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية ، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

أما السفح الشمالى من الهضبة الآسيوية العالية التى هى فى حوزة الروسيا الآن ، فكانت غير معروفة على الإطلاق . « أما مملكة الفرس



التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب خصوصا من لدن تجريدة الاسكندر المقدوني فكانت مشتبكة في حرب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية .

« أما في افريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة ، دأبين على امتصاص دم القطر المصري وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجنة المصبرة عديمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضاً في الأقاليم الخصبة وقتئذ الواقعة في الجهات الشمالية من افريقيا التي اتزعوها من أيدي ( الفندالين )

» والخلاصة كان جو العالم الارضى متلبدا بسحب الاضطرابات الوحشية في كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في اصلاء نيران الحروب والمعارك . ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا وان كان وقتيا الاشياء واحده هو : الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة وبعض الجراثيم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح الى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرقي في المستقبل لكانت البربرية أسرع في خطاها مقودة بخطرسة زعماء البهيمية واستحالت

الى وحشية محضه .

«مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الأرض لم يصبه لفحة من هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن مضطرب الامم التى كان يقال انها متمدنة . ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى أوروبا الا عن بعد وما كان يصلها ذلك اللغظ الا فى غاية الضعف والضوالة . وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التى كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سوريا الى تبعية امبراطورة القسطنطينية تبعية اسمية ، أو رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها ، على أن ذلك الوادى الأخير كان يهم بلاد العرب جدا لان ابناءها كانوا يذهبون اليه لتجارة وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطئ الغربى من نهر الفرات وصعدوا رويدا رويدا الى بحر قزوين . ومما يشبه المساتير الدينية انها بقيت منفصلة عن القطر المصرى الذى أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماما الا بعد أن انجلى عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى ( عليه السلام ) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم .

أما المملكة الوحيدة التى كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهى بلاد الحبشة . اما الجهة الشمالية من افريقيا التى أغاروا عليها مرتين

والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يحملون بوجودها .  
ثم قال : قال المسيو ( كوسان دوپرسو قال ) في كتابه تاريخ العرب « ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفرس أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة احرارا لا سلطة عليهم . وكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر انها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه »

ثم قال ( جول لا بوم ) : « ولم يكن العرب احسن استعدادا من غيرهم لقبول أى دين من الأديان قال المسيو ( دوزى ) في كتابه ( تاريخ عرب اسبانيا ) : كان يوجد على عهد محمد ( صلى الله عليه وسلم ) في بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية والعيسوية والوثنية ، فكان اليهود من بين اتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم . نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الاقدمين ولكن ما وجد منه فمنسوب الى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها اتباع كثيرون ، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها الا معرفة سطحية . . . وكانت هذه الديانة تحتوى على كثير من الخوارق والاسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسي كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد



الأعظم من الأمة والذين كان لكل قبيلة بل اسرة منهم آلهة خاصة والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الالهة شفعاءهم لديه فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق أخبارهم بالمغيبات أو لو عولوا على فضحهم الاصنام بأن قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعجة . وكانوا يسبون اصنامهم اذا لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم بآمالهم . قال المسيو ( كوسان دو بر سوفال ) : « من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصا الشمس ، فكنعان كانت تدين للقمر والدبران ، وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشتري ، وكان الاطفال من بني عقد لعطارد ، وكان بنو طى يدعون سهيلا وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعري اليمانية » . وكان عليهم بما وراء الطبيعية على نسبة أفكارهم الدينية قال ( كوسان دو بر سوفال ) في كتابه تاريخ العرب : « كان من العرب من يعتقد بفناء الانسان اذا خلعتة المنون من هذا العالم ، ومنهم من كان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة ، فكان هؤلاء الاخرون اذا مات أحد اقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى وهي نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت نائحة ساجدة تأتيه بأخبار أولاده فاذا كان الفقيد قتيلا تصبح صداه قائلة « اسقوني » ولا تزال تردد هذه المفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه . »

قال المسيو لا يوم بعد إرادته هاتين الجملتين من الاستاذين السابقين :  
 « كانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب  
 لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع لو لم تكن  
 الأسيرة عندهم بل القبيلة أيضا — وهي نقطة تستلفت النظر — تهتم  
 اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها ولو لم يكن — وهو أمر أغرب من  
 سابقه — أدراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعيا إلى  
 الالتفات بنوع أخص » : ثم قال مباشرة « قال المؤلف المحقق الذي  
 اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة : كان العرب مغرمين  
 بشرب الراح .

ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفخرون ويعجبون به  
 وبلعب الميسر . وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء  
 بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متى شاء  
 هو ، وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها ، ومن هنا نشأت  
 تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب وقد حرم  
 ذلك الاسلام وعده زواجا ممقوتا . . . . . وكان هنالك عادة أفطع من  
 كل مامر وأشد معارضة للطبيعة وهي وأد الأهل لبناتهم . ( أى  
 دفنهن أحياء )

« هذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية  
 صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية جابجا ويمارسون  
 فعائل الكرم وبذل القرى .

« الافراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلي العدد جداً ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة الى ملتهم . فاليهود الذين كانوا متشبعين بالآثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم الا بالخضوع لقوانين الأمة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية . ولئن شوهد أنهم أدخلوا الى ملتهم بعض العرب ، فلم يكن ذلك الا نتيجة بسيطة لاشتراكهم في الأساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين ؛ تلك القرابة يستدل عليها أيضاً بتساويهم في حب الكسب ، وتآزيمهم في الاستعداد لعدم الانفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر لنوال كسب أو حطام . ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدبى . أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئاً فشيئاً الى بلاد العرب هرباً من الاضطهادات الدينية التي كانت في مملكة الرومانيين ولكن لم يكن في حالهم نور يستلقت البصر تألقه ، وفي حالة مسيحي الحبشة اليوم نموذج لذلك ، فانه لا يمكن أن يتحلى الانسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد .

« فى عهد هذه الأحوال الحالكة ، وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد بن عبدالله ( صلى الله عليه وسلم ) فى ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ » انتهى



هذه هي الروح العمومية التي أرسل المصلح الأعظم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لملاشاتها وتخليص العالم من غوائلها ، وقد رأيت بلسان الأجني عن الاسلام أنها كانت محتاطة بالأمم الداخلة في نطاق المواصلات العامة احاطة السوار بالمعصم ، وفاعلة فيهم الأفاعيل المحزنة بحيث تدل الراى لأول وهلة ان بقاء الانسانية على تلك الحالة يودى بها الى التلاشى العاجل ، ويريه بطريقة جليلة أن لا بد من صاخة كبرى تنزل على تلك الأدمغة الجامدة ، والقلوب الصلدة فتردها عن غيها ، وتكبحها عن جماحها ، وهذا ما حصل على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وامام المصلحين ، وفي التفصيل بلال الغلة ، وشفاء النفس فانتظره تر العجب ان شاء الله .

### ✽ الاسرار مبال الادوار التي تفتاب العقائد ✽

قلنا ان كتابنا في حياة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم سيكون ان شاء الله تعالى كمرآة تتجلى فيها صورة موجزة من أعمال تلك الروح العظيمة في العالم واننا سننهج لذلك المناهج التي نستفيد منها في تعديل عوجنا وتقويم أودنا ومداواة عللنا لهذا نرى أنه لا مناص من أن نختط لأنفسنا خطة جديدة لم يقم عليها من سبقنا من كتاب السيرة الشريفة وفاء بمطلوب الروح العلمية الجديدة واستشرافاً لسبحات الأنوار المحمدية من جهتها التي تنطبق على أحوالنا في العصر الذي نحن فيه .

وبما أننا وصلنا من بحثنا في كتاب الانسان الى تفصيل حوادث تلك الحرب القائمة بين الاعتقاد والعلم وبسط الادوار المختلفة التي دخل فيها الانسان تدريجاً تحت تأثير ناموس الترقى مما لا نشك في أننا داخلون فيه أيضاً فلا بد لنا من التعويل في حياة المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم على أسلوب ينطبق على تلك الأدوار نفسها لنجد منها الدواء المناسب لنا فنقول :

### هل يمكنه أنه يعيش الانسان بهر ديه

الجواب على هذا السؤال يستدعى أولاً معرفة كنه الدين . لأنك لو حددته بأنه مجموع العقائد التي يتلقاها الانسان عن أمه وأبيه ، وينقشها في ذهنه معلبه ومريسه ، ويزيدها الوسط الذي يعيش به نشوباً فيه أو أنه تلك الاساطير التي تفرقت عليها الأمم أحزاباً ، وانشقت بها الشعوب أسراباً ، وكثر فيها الجدال أحقاباً ، وصقلتها القرائح فصارت فصولاً وأبواباً ، فلا تعدم قائلاً يقول :

« تلك أيام خلت ، وسنين مضت ، وأدوار حدثت وانقضت . وقد استقام الانسان بعد ما تجاذبته الأدوار والأطوار وتنازعت المذاهب والأحزاب ، على طريق العلم الذي لم ينله الا بعد ما بذل مهجة فؤاده وضحي في سبيله عزيز حياته ، وبهذا قد دخل في دور نهائي ليس الدين عليه فيه سلطان ، ولا للعقائد في فؤاده مكان وصارت ، الأديان في نظره من

ضمن أساطير الماضي يلقي نظره عليها تفكها بسير من غير ، واستجلاء لوجوه العبر من مقادير البشر . ألا ترى أن التدين اليوم قاصر على الأمم الشرقية . المتأخرة في ميادين المدنية . ومن تراها من الأمم الغربية ، على شيء من العقيدة الدينية ، فسهما من الحضارة أنقص من سهم من تخاصت منه تماما ، وليست فيها تلك البقية الا لتأخرها عن غيرها في مجال العلوم والفنون ، وابطائها في ترك ما كان عليه الأقدمون ، وليس بينها وبين مساواة غيرها في عدم الدين الا تعميم العلم في البنات والبنين ، وأنتم معاشر الشرقيين ، لا سبب لتأخركم عن غيركم وجهودكم على حالكم ، الا انكم تزدون أن تعيدوا مثل الاولين ، وترجعوا سنة الماضين ، في الحياة بتعاليم الدين . وكيف يتأتى ذلك وحياة الأمم كحياة الافراد أطوار بعد أطوار ، ورقبها أدوار بعد أدوار ، ولكل طور لوازم ومقتضيات ، ولكل دور حالات ومناسبات ، فما مثلكم في نشوبكم بالدين وأحكامه ، وتعلقكم بأدابه وأهدابه ، الا كمثل من أراد أن يعيش طفلا وقد دخل في دور الشبوية فكما أن نلشاب أميالا وعواطف لا يحس بها الطفل ولا يتخلها حتى يستحيل أن يتصنع أحدهما حالة الآخر ؛ كذلك للأمم في كل دور من أدوار حياتها آميال وعواطف يستحيل معها أن تتصنع انها في دور غير دورها ولو بذلت في ذلك غاية وسعها .

هذا هو سر جمودكم وهبوطكم ومادمت لا تعرفونه ولا يقوم فيكم رجال جسورون يدعونكم إلى تقليد الأوربيين في ترك الدين بالمرّة



أوبالآقل لفصله عن حياتكم الاجتماعية كما فصلوه هم قبلكم ببضعة قرون فلا يرجي لكم إصلاح مطلقاً .

ومما يستغرب من أحوالكم أنكم تريدون أن تجاروا أوروبا وتساموها في حركتها ومدنيتها وأتم كارهون دورها الذي هي فيه فكأنكم تريدون أن تباروها وتسبقوها وأتم على ما أتم عليه من الجمود على دور سابق . مثلكم في ذلك كمثل شخص جاز دور الطفولية ولكنه عز عليه أن يخلم مناسباته عنه وهو مع ذلك يريد أن يسابق شاباً آخر رضح لأحكام الطبيعة ولم يعارض فعلها عليه فقادته إلى طريق الحياة الكاملة ورفعته من الكمال إلى الدرجات المقدرة له . لا جرم تذهب أتعاب الأول أدراج الرياح ولا يكون حظه من الحياة إلا الأسر والانغلاب ، والرضوخ للأقوى وحمل نيره على عاتقه . »

هذا ما يجيش في صدر بعض من شربوا من دن المعارف الأوروبية في القرن الماضي وهو بعينه ما يتغنى به على وتر الفلسفة بعض الكتاب ويخنالون على بثه في الأذهان بكثير من الوسائل : تارة في أطواء المقالات العلمية في المجلات الدورية . وطوراً في الأبحاث السياسية ، على صفحات الصحف اليومية ، وقد نجحوا بعض الشيء في إشراكها في نفوس كثير من الأحداث حتى أخرجوهم عن دائرة الجامعة التي تربطهم بماضيهم . وهي من أقوى الشبه التي لو نشبت في الأذهان حلت معاهد العقائد منها وأصبح تعب الكتاب الإسلاميين في إرجاع الدين إلى الأذهان كالضرب في الهواء أو الكتابة على الماء .

لهذا لا ترى بدامن بسط أمثال هذه المدركات المضرة بغاية الحرية والصراحة لأنها المكاريب الكامنة في النفوس الناشئة بالأفئدة ، بل الرجز المنتشرة جراثيمه في الهواء بما لا مناص لكل حي من تنسمه فهي إن صادفت رتتي ناشقها ضعيفتين سممتها وحالتها تحليلًا ، وإن وجدتتهما قويتين ساورتها من مكان قريب وعطلت من حركة صاحبها بعض التعطيل . ولما كانت الحكمة في معالجة الأمراض تقضى بإبادة جراثيمها أولاً بدل مكافحة أعراضها التي لا تزول حتى تظهر ولا تضمحل حتى تنشط ، فقد رأينا أن تتبعها في مكانها ونفتق دونها الحجب حتى نصل إلى مواطنها ومساقط ويلاتها

### ﴿ ماهر الدين ﴾

ليجرد الإنسان نفسه ولو لحظة من آثار الوراثات المختلفة التي لها السلطان الأقوى على فكره وخطرات هواجسه وعلى كل حركة وسكون فيه ، وليمح من لوح ذاكرته كل مانقشته فيها المؤثرات المختلفة في المكان الذي يعيش به وفي الأسرة التي هو فرد منها وفي الجمعية التي هو من أحادها ، وليتناس كلها عنه عن الوجود وكائناته وما أدركه من مخلوقاته ، وليحسب نفسه خلق من ساعته ، ثم لينظر إلى الوجود نظر الذي لا يملك من العلم إلا ما تهديه إليه مشاعره الظاهرة ، وإحساساته الباطنة ، وليبدأ بتسريح نظره في تلك القبة الزرقاء التي تحيط بالكون من كل جانب ، ثم لير به على ما يحيط به من الخلاء المترامي الأطراف إلى كل جهة يوجه إليها بصره . ثم ليلق نظره على نفسه بعد ذلك ، فماذا

يجيش في صدره من هذه الجولة السريعة ؟ لا مشاحة في أنه يؤوب وفي نفسه رعدة من الخوف والدهشة ، وألم من الفرق والوحشة ، لماتين له من عظم الكون وشسوع أكنافه ، وحقارة شخصه وضوؤة جثمانه . رأى تلك اللانهاية فوق رأسه فوق عقلة منها حيث انتهى بصره وارتد فكره منهزماً يرجف من شدة ما أصابه من نخامة هذا المجهول الهائل المسدول عليه من كل جانب !

أراد تصوره بما فطر عليه من حب اكتناه المساتير أن ينفذ إلى صميم ذلك الأمر الجلل فأنحلت عزماته انحلالاً ، وارتخت معاقد همته إرتخاء . وأخذ الفرع بمتنفسه أخذاً كاد يفقده حسه من شدة ما شعر بحقارة ذاته وتفاهة أمره في وسط هذه اللانهاية الفخيمة !

رنا يبصره إلى ما حوله ، وما بين يديه وخلفه ، فرآه محاطاً بفضاء تضيق عنه سعة خياله ، ويخرج دونه متسع وهمه ، فأنزل نفسه منه على قدر ما أخذه جسمه من حيزه غير المتناهي ، فكاد يصعق من الوجع أمام هذا السكون المطلق ! فاذا جن عليه الليل وهو في تلك الحالة الساذجة ورأى أديم السماء قد تلون بذلك اللون القاتم ، وتلألأت في أرجائه النجوم والكواكب ، وبرزت تلك القبة السماوية في ذلك المعرض المرصع . وزادت مهابة الليل نخامة وعجباً ، ازداد أمرها غموضاً على فكره وتبين له أنه وسط بحر من مجاهيل وأسرار أيسر ما يستطيعه أمامها الاقرار بعجزه وضعفه ، والخنوع بحقارته وضوؤة شخصه ، واحتياجه المطلق للملجأ يلجأ إليه ، وهوئله يقول في النجاة عليه ، وفقره لقوى يهبه من



قوته ، ورحيم ينشر عليه من افاضات رحمته .

هذا هو مبدأ الدين والباعث الطبيعي على العقيدة ، والسائق القاهر للبحث عن خالق الكون جل وعز ، وهو بعينه الدافع الذي دفع الأمم لتكوين الأديان ، والرضوخ للكهان ، وتسليمهم أمرهم في كل شأن ، وهو بذاته أيضاً الداعي لارسال الله تعالى رسله تترى الى الأمم بالهدى ودين الفطرة

ربما يقول قائل : « ان هذا التصوير البديع ان صدق على الإنسان مجرداً عن آثار العلم فلا يصدق عليه وهو كما نراه اليوم ، ثملاً من رحيق المعارف ، نشوان من سلافة المعلومات ، مدعياً انه أدرك المعلومات والعلل ، ووقف من أمور الكون على ما لم يحلم به الأول ، ولا اضطرب لهم به أمل » نقول لهذا المعترض هون عليك ؟ جرد نفسك من كل ماذكرته لك من آثار الوراثة والعقائد ، وما قرأته في كتب الملاحدة من الظلمات الكشيفة ، ثم قف ذلك الموقف بما لديك من العلم ، وابدأ بنظر الفضاء المحيط بك من كل جانب ، واستورد الى فكرك النظريات الرياضية التي تثبت لك أن الفضاء يمد الى ما لا نهاية . . . . . أى انه ليس له حد . . . . . وانه مشحون بعوالم لا تحصى من نجوم وكواكب وتوابع وذوات أذئاب ، وان الارض التي أنت عليها ليست إلا كالذرة بالنسبة لتلك الأجرام الضخمة ، وتذكر ماقرأته في أبحاث ( كيلر ) و ( كوبرنيك ) و ( هرشل ) و ( زولنر ) و ( فلامريون ) من أن الارض كوكب من الكواكب السيارة السابحة

في الفضاء حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً ونصفاً في الثانية الواحدة ، وانها ذات شكل كروي محيطها ٤٠٠٠٠ كيلو متر وانها واحدة من سيارات أخرى أكبر منها حجمادائرة كلها حول تلك الشمس المضئية التي هي أكبر من الارض مليوناً وأربعمائة ألف مرة ، وان المسافة التي تفصلها عن الأرض هي ثمانية وثلاثون مليوناً من الفراسخ ، وان هذه الشمس بهذا الحجم الهائل لا تقارن بالشموس الاخرى التي تسبح مثلها في هذا الفضاء المدهش ،

واذا أردت أن يكون لك فكر عام على حجومها فاعلم أن أقرب نجم الينا يصل الينا ضوءه في ثلاث أو أربع سنين فاذا كان ضوء الشمس يصل الينا في أقل من أربع دقائق ومع ذلك فهي أكبر من الأرض بمليون واربعائة الف ضعف فكم يكون حجم نجم لا يصل ضوءه الينا الا في أربع سنين أى في ( ٢٠٧٣٦٠ ) دقيقة ..... ثم ما ذا يكون حجم الشعري التي يصل الينا ضوءها في ٢٢ سنه ..... نخل هذا جانباً وقل كيف تتصور احجام تلك النجوم التي تكتشف جديداً ويزعم علم الفلك ان ضوءها لم يزل سابحاً في الفضاء من يوم تكونها الى يوم وصول ضوءها الينا أى في ملايين من السنين ..... أليس في هذا التخيل ما يرعد الفرائص ، ويأخذ بمخفق التصور ؟

هذا بالنسبة لما فوق رأسك أما ما هو بين يديك وخلفك من ممالك الطبيعة من جماد ونبات وحيوان وانسان فليس أمرها بهين عليك ، لأنك لو استعرضت شيئاً قليلاً من عجائب النباتات ورأيت

أنك تلقى الى الأرض برة لاتكاد تحس بها بين أصابعك قراها بعد سنين شجرة ذات جزع غليظ وفروع ممتدة الى أمتار عديدة وأوراق وأثمار ذات ألوان وطعوم وأريج يفعم الأنف من مسافات بعيدة ثم لو طفت على مملكة الحيوانات واستحضرت الى فكرك تلك الكائنات المختلفة فى الصور والاحجام والأشكال والطبائع والغرائز والحيل مما لاتكفى المجلدات لشرح عجائبه ، ثم لو تفكرت فى أن المادة التى هى أصل كل هذه الصور البديعة مجهولة لديك بالمرة ، لرجعت وكنك شعور بضعفك وعجزك ، واحساس بوهن طبيعتك وحقارة شخصك ولو جدت فؤادك ساجداً بفطرته أمام هذه القوة العظمى التى أبدعت هذا الوجود المدهش ، ولتحققت أنك كلما ازددت بالكون علماً ازددت احساساً بجهلك وشعوراً بضعفك ، واحتياجاً لمن يأخذ يدك ، ويسكن جيشان صدرك . « انما يخشى الله من عباده العلماء »

ثم انك كلما رنوت الى أجزاء هذا الكون ورأيتها تتلاشى وتتجدد وتتفرق وتتجمع ، ووقفت على حركة سريان الحياة من النبات الى الحيوان الى الانسان وجدت نفسك مسوقاً لأن تتساءل عن حظك من هذه الحياة وعن مصيرك بعد تلاشى هذا الجسم السريع العطب . ولو خزك حب الحياة المرتكز على أجمل عواطف نفسك ودفعك لأن تجول بفكرك فى مضمرة الأشياء ومستورات المعارف ، لتشق الحجب التى تحول بينك وبين مطلوب روحك حتى تجد ضالتك فتعيش سعيداً ، أو لاتجدها فتبقى فى هذه الأرض العمر الذى قدر لك بين فرع



وجزع ، ووحشة ووهل ، تعالج من اضطراب نفسك ما لا تعبر عنه ، حتى تجيء تلك الساعة المنتظرة على صفة لا أستطيع أن أتخيلها ألا ترى بعد هذا أن الانسان على أى حالة من أحواله سواء كان جاهلاً لا يعرف شيئاً أو عالماً يعلم شيئاً . . . لو جرد نفسه من آثار الوراثة المختلفة ومحا من ذهنه كلها يربطه بالمكان الذى عاش فيه وبالمذاهب الذى ينتمى اليه ، ثم تفكر بعد ذلك فى الكون وفى نفسه لاندفع بفطرته وطبيعته اندفاعاً اضطرابياً الى القاء نفسه ساجداً أمام خالقه ولولم يستطع أن يتصوره بصورة ، أو يقع فكره منه على كيفية . هذا هو الدين الفطرى الذى خلق الانسان مطبوعاً عليه بطابع الخالق الحكيم الذى أقام الانسان على هذا المركز الوسط وقدر عليه ما قدر . من الكمال الصورى والمعنوى . فالدين على هذه الصورة الطبيعية لا يتصور زواله بوجه لأنه مرمى كل عواطف النفس وغايتها وقد أدرك ذلك أهل البصر من الغربيين فقال غطريف الفلسفة الاوربية ( ارنست رينان ) فى كتابه تاريخ الأديان : « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شئ نحبه وكل شئ نعهده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي الدين أو يتلاشى بل سيبقى أبداً الأبدى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الانسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الطينية »

وقال الفيلسوف الشهير ( اجوست سباتيه ) فى كتابه ( فلسفة

الأديان) : « لماذا أنا متدين ؟ انى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة الا وأراى مسوقا للإجابة عليه بهذا الجواب وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع خلاف ذلك ، لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون لى : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج . فاقول لهم قد اعترضت على نفسى كثيرا بهذا الاعتراض نفسه ولكنى وجدته يقهر المسألة ولا يحلها . وأن ضرورة التدين التى أشاهدها فى حياتى الشخصية أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية فهى ليست أقل تشبثا منى باهداب الدين . الى أن قال : « اذن فالدين باق وغير قابل للزوال وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن ، نرى ذلك ينبوع يتزايد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحىوية المؤلمة » انتهى

وهذا كله نفحة من نفحات هذا الناموس الكبير الذى أوحاه الله لخاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

### ﴿ الاسم وهو الرسمى الفطرى ﴾

الفطرة لغة الخلقة والخلق فى اللسان العصرى الطبيعة فالدين لفطرى يمكن تعبيره باللسان العصرى بالدين الطبيعى ومعناه أنه لا يكلف الانسان إلا بما ينطبق على طبيعته ويناسب حال جبلته وقد سعى فى القرون المتأخرة أرومات العلم الطبيعى فى أوروبا وكونوا لهم

ديناسموه بهذا الاسم ولم يدخلوا الى أصوله الا ما تقضى به الفطرة الانسانية وتقر على حقيقته العلوم الطبيعية ، خالصاً من الاختلافات والتأويلات ، منزها عن الرموز والاسرار ، عملاً بقول شيخهم الكبير ( كانت ) الفيلسوف الالماني حيث قال : « الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوى الا على قوانين أعنى قواعد صالحة للجري عليها تشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة وتكون مجردة عن الاساطير والتعاليم الكهنوتية » ( ١ )

سلك هؤلاء هذا المسلك في القرون المتأخرة بعد ماسثموا من تناقض الأديان ، وأنقوا من الرضوخ لكهان ، ولم يعلموا أن الدين الطبيعي قد أوحاه خالق الطبيعة على أشرف عباده قبلهم بأكثر من عشرة قرون . فلندع هؤلاء الآن وشأنهم فسيتبينون الحق بعد حين ، كما وعد بذلك الخالق في كتابه المبين . ولنثبت لقرائنا أن الاسلام هو الدين الفطرى الذى لا يعتريه الزوال ، ولا يلحقه الاضمحلال فنقول : تبين لنا أن الانسان على حالة البساطة الأولية ، والسذاجة المبدئية شعر بلزوم الاخبات لخالق ذاته ، وأحس بضرورة الاعتصام به لنجاة حياته ، فلم يحرمه الله من اسعافه بعبادته كان يصطفهم لحمل أمانته ، والقيام بتبليغ أمره الى خليقته ، فكانوا يجيئون أقوامهم بدين الفطرة ، لأن الله لا يكلف عباده بما لا ينطبق على طبيعتهم ( لا يكلف الله نفساً الا وسعها ) ولكن الناس فى تلك الأحيان كانوا من سن الحياة العمومية ، فى دور الطفولية ، تؤثر عليهم الخيالات أكثر من



الحقيقة ، فكانوا لا ينصاعون لرسولهم الا مادام فيهم ومتى اتقل الى العالم الآخر ارتكسوا الى عقائدهم الاولى مكسوة بثوب جديد ، حتى اذا جاءهم رسول آخر قاوموه وناذوه ، ومكروا به وصاولوه ، وماروه بكل حجة وجادلوه ، وفيما يحكى الله عن حالهم صورة من أمرهم مع رسلهم قال تعالى : « وقال موسى إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فان الله لغنى حميد . ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، لا يعلم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وانا لنى شك مما تدعونا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا إن أتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتىكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

هكذا كان حال الأمم مع رسلهم فى خلال تلك القرون المتوالية حتى جاء القرن السادس وقد درسنا حال الأمم فيه فى الفصل المتقدم وقد رأيت أن حالتهم كانت تدعو الى قارعة كبرى تردهم عن غوايتهم وتوقظهم من سكرتهم ، وقد كان ذلك ، فأرسل الله تعالى خاتم أنبيائه بدين الفطرة الذى أرسل الله به رسله من قبل ( شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ) فخاطب الناس قائلاً عن ربه ( يا أيها الناس قد جاءكم

برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ( فدخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً لأنهم كانوا قد سثموا الخيالات المضلة التي مرقهم أحزاباً ، وفرقتهم أفذاذاً ، فدخل فيه من غير العرب في قرن واحد ما يزيد عن مائة مليون ولم يزل ينمو لليوم بصفة مذهشة بتأثير المدنية الأوروبية نفسها . وان تعجب من ذلك فإليك التفصيل : قد رأيت أن الفارق بين الدين الفطري أى الطبيعي والأديان الأخرى هو أن الأول مرتكز على الحقائق المحسوسة والثانى على الخيال ، فيكون الانسان متقرباً للحق على قدر ضعف سلطان الخيال عليه ، والأمم قبل سريان الحركة الأوروبية الاستعمارية في العالم كانت كل أمة منها جامدة على دينها مستنيمة الى أساطيرها لا يزعمها عنها شيء : تؤله ماشاءت من الرجال ، وتعبد ما أرادت من الحكماء والأبطال ، والخلاصة أنها كانت من الدين على خيال ومن المدركات فى ضلال . فلما جاء دور الأوروبيين وجاسوا خلال الممالك بالحديد والنار ، واثكروا بالبخر ، أقاموا لتلك الأمم بأفواه المدافع والبنادق ، وبالسنة المشرفيات الصوارم ، أكبر البراهين الحسية على أن عهد الخيالات قد مضى وأن ما كانوا فيه من الاعتماد على معجزة ذلك الاله أو كرامة ذلك الكاهن ، خرافات باطلة ، وترهات فاضحة فانجلي الدين عن أفئدتهم وخوى جنانهم من العقيدة فاستعرضوا الأديان التي وصلت اليهم فلم يرتضوا منها غير الاسلام ديناً لخلوه من الخيالات ، وارتكازه على

المحسوسات ، ندخلوا فيه أفواجاً أفواجاً ولم يسمع في تاريخ الانسان أن القبائل بحذاقها تدخل الى دين في زمن ضعف سلطة أهله غير الدين الاسلامي . وبناء على هذا فكلما توغلت مدافع الأوربيين في أحشاء البلاد الوثنية ازداد انتصار الحقيقة على الخيال ، وفتحوا لدين الله أكبر مجال « إن الله ليؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أهله » الاسلام الدين الفطري أو الدين الطبيعي لأنه لا يكف الانسان الا بما هو مطبوع على البحث فيه واعتقاده ، ولا يجيئه من العقائد الا بما لا يقف حجر عثرة في سبيل تقدمه وترقيه لأن غرضه الأول تخلص النفس الانسانية من تلك الكسف الظلمانية التي أسدها عليها حفظة العقائد ، وسددة المعابد ، والزاعمين بأن لهم حق الوساطة بين المخلوق والخالق ، وليطهر الأقدمة مما ران عليها من آثار الوراثة والتقليد ، وما تراكم على سويداواتها من غلف التعصبات والجمود .

كان الناس من جهة الدين في غيابة من الوهم ، وظلمات من الجهل ، يقدسون أساطير جمعت من مدركات الماضين ووساوس المتقدمين مالو أرادت البصيرة أن تنسم منها روح اليقين لارتدت على عقبها ترسف في اصفاد اليأس ، واغلال اللبس من هول ما وضع أمامها من عقبات وما أحيطت به من غياهب وظلمات ، فكانت بين أمرين إما أن تقتنع من الحياة بمجرد البقاء ولو كان العمه لزيما ، والحيرة صفتها ، واما أن تحاول أن ترى النور فتعرض نفسها لخطر أيسره أن تضاعف عليها تلك الكسف فلا تعود بعدها تذكر النور ولا توها .



جاء الاسلام والبصيرة في هذا الانين ، من ثقل نير الدين ، وفي لطف شديد ، الى نور جديد ، فصاح بالناس : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه ويهديهم اليه صراطا مستقيما » .

كانت النفوس حيرى في معنى الدين ؛ لا تعرف من آثاره غير هذا الضغط المشين والحال المبهين فقرر لها الاسلام بأن الدين ضالة الأرواح وأنشودة العواطف ، وبلسم جراح الحياة ، ونسيم الراحة والطمانينة ، ومهب نفحات الحق ، وهو واحد لا تعدد فيه ، بعث الله به كافة الأنبياء الى الأمم رفعا لما طرأ عليهم من الخلاف ، وحسما لما احتوشهم من روح النزاع : « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا » .

أما ذلك الدين فهو الاسلام لله أى الاستسلام الى أحكامه بالقيام على صراط الفطرة المجردة عن الأوهام والأفكار البشرية التى هى داعية الخلاف ، ومثيرة التناذب بخلاف الفطرة ، فانها واحدة فى عموم النوع الانسانى فلا يعقل نزاع بالاستقامة عليها ، ولا يتصور شقاق بالانصياع لمقتضياتها » ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك (أى جادلوك) فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والايمنان أسلمتم ، فان أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فن يهدى من أضل

الله وما لهم من ناصرين . فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر  
الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس  
لا يعلمون . منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين  
من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون «  
التفت الى أولئك الذين استعبدوا أنفسهم للأهواء ، وخضعوا  
لسلطان الأوهام ، وحصروا عقولهم في مضائق الخرافات ، فنعى  
عليهم سذاجتهم قائلا : « ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل  
الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد  
جاءهم من ربهم الهدى » ثم طالبهم بالدليل على ما حملوه عقولهم من  
هذه المدارك الفاسدة قائلا : « اتتوني بكتاب من قبل هذا أو إثارة  
من علم ان كنتم صادقين » « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون  
الا الظن وان أنتم الا تخرصون » « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »  
ثم سجل عليهم انهم أسراء الوهم ، وعبداء الظن فقال : « وما لهم  
به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا »  
ثم بين لهم الفرق بين المعتقد بالدليل والبرهان ، وبين المستسلم  
لزعخارف الخيال ، الاسير لكواذب الأوهام فقال « أفمن كان على بينة  
من ربه كن زينا له سوء عمله واتبعوا أهواءهم »  
ثم توجه للذين قبلوا هذا النور الباهر وخلعوا عن أعناقهم ربة  
الذل والاسر ، ونفضوا عن رؤوسهم غبار الصغار والعبودية فقال :  
« ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى

الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور » « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً » ثم أمرهم أن لا يتبعوا ديناً من الأديان التي أقيم لها المعابد والكهان وصارت عبثاً ثقيلاً على هامة الإنسان ، لما سرى إليها من الضلال والبهتان ولكن ألزمهم الاعتراف بأن أصل جميعها واحد وهو الناموس الأقوم الذي بعث الله به الرسل إلى الأمم كافة فلم يحفظوه من التبديل والتحريف والتزييف ، فكلف الإسلام أهله بالآيمان بها إجمالاً فقال : « وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون »

هذا هو الدين الفطرى فى بساطة معناه ومتانة مبناه وهو الذى دعا إليه الأنبياء كافة وتمت الدعوة إليه بخاتمهم وإمامهم محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأيت أنه من جهة التدين لا يدعو إلا لما يشعر به الإنسان فى ذاته شعوراً ضرورياً طبعياً ، أما تلك الأساطير التى طمت بها الديانات وعدت من أركان الإيمان فيها فقد أثبتت العلوم الطبيعية والتاريخية بطلانها بالمرّة وصار اعتقادها والتمسك بها من الأضرار



بالعقل ، والتغريب بالنفس لأنها ليست الا مبلغ علم الأقدمين بالطبيعات والتاريخ توارثها اللاحقون عن السابقين واكتسبت لقدمها شكلا مقدسا كما هي سنة الناس في احترام اسلافهم حتى صارت هي الدين بذاته وقد سبق القرآن العلم والفلسفة في تقرير أنها أباطيل وأوهام فقال « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » ثم انبأنا بأن الاسلام مقدمة عصر العلم ، وطليعة دولة الحق ، ومؤسس سلطان الحكمة فقرر الناموس الطبيعي الكبير الذى اكتشفه ( دارون ) و ( ولاس ) بعد القرآن بثلاثة عشر قرنا تقريبا وهو قولها ( لا يبق الا الاصلح ) فقال تعالى بافصح عبارة وأكمل بيان « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »

أما من جهة العلم بالكون وأشياءه فأرانا أننا لم نعلم منه الا قليلا وأمرنا بدوام طلب العلم فقال تعالى « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدنى علما » وبهذا فقد هدم صرح تلك العقائد الباطلة التى يزعم أصحابها أنها حوت علم الأولين والآخرين ، على السموات والأرضين مما اذن الله به للعالمين ؛ وان ما عداه فرجس باطل ، وخيال حائل ، يستحق معلمه ان يحرق بالنار ، أو ان يصلب كالفجار . أما من جهة سير الماضين ، وأخبار المتقدمين ، مما جعلوها أساس العبادة والايمان ، وعلقوا عليها نجاة الانسان ، مما أثبت التاريخ العصرى ، بالحس والعيان ، انها خرافات اخترعها الخيال ، وسطرها الجهال ، وانها ليست خاصة بدين دون دين ، ولكنها عامة عند الامم

أجمعين ، مما يشعر أنها دأب الأولين ، فقد سد الاسلام هذا الباب سدا محكما بتقريره و « ان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى » و « كل امرئ بما كسبه رهين » و « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »

أما سرد حوادث الماضين فهي وظيفة التاريخ له فيها أسلوب خاص به مثل سائر العلوم الأخرى أما الأديان فوظيفتها أشرف من كل وظيفة وهي إقامة الانسان على سنة الفطرة بتخليصه من كل ما ليس طبيعيا فطريا ، وتنزيهه مما يرضخ له تقليديا ، ليعيش حرا متمتعا بعقله وفكره وحكمه ، لا عبدا لأوهام غيره . ألا ترى انه لما سأل فرعون موسى كما قال تعالى : « فما بال القرون الأولى » أجاب موسى عليه السلام كما قال تعالى « قال عليها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » فانظر الى هذا الجواب النبوى الكريم الذى يشير بغاية الصراحة الى أن التاريخ ليس من وظيفة الانبياء من جهة ، ومن جهة أخرى يشير الى أن سير أهل القرون الاولى ليس مما يمكن التهجم عليه بتلك الجسارة التى تشاهد فى الجهال بالتاريخ بل هى حوادث كبرى تحتاج لمثل ما يحتاجه كل علم من العناية والدقة . انظر الى هذا الجواب النبوى ثم انظر الى أولئك الذين يسردون لك تاريخ العالم من لدن آدم الى اليوم سردا يشعرك بأنهم شهدوا أحوالهم ومن العجب أنهم يعلقون على ذلك عقائدهم وإيمانهم

أما من جهة الأخلاق والعوائد فالاسلام لا يطلب من الانسان

فيها غير الاعتدال والتوسط . لأنه لما كان الدين الفطرى (أو الطبيعى بلهجة العصر) فينظر للانسان نظر العلم الطبيعى له أى بصفته أبداع الانواع الحية وأكمل نموذج للصورة المادية « إنا خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » ليس فى تركيبه الخارجى والداخلى ولا فى شكله الصورى والمعنوى زيادة ولا نقص لو اتبع فى نموه قانون الحكمة الالهية، ولكن الخالق الحكيم إذعده إلى منصات من الكمال يحسر دون إدراكها التصور فقد متعه بخاصيتى الاختيار والارادة وأراه طريق الاعتدال والانحراف بالفطرة وبالوحي وصرح له بأنه إن اعتدل نال غايتى كماله المادى والأدبى وان انحرف ارتطم فى عقبات النقص وارتد الى أسفل من عالم الحيوان كماهى السنة الطبيعية فى هبوط العالى فقال تعالى : « إنا خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون »

### ﴿ نظرة على الأدوار التى تمتاب العقائد ﴾

من أكبر الشبه التى يطعن بها فلاسفة هذا العصر صدور الملمين ، ويغض بها الماديون من أعين الاعتقاديين هى قولهم ان الانسان مرويّر من عقائده على ثلاثة أدوار (أولاً) دور الاحترام والاجلال ، والاعتقاد بأنها نهاية الكمال (ثانياً) دور الشك والارتياب ، عند يقظة الأفكار والألباب (ثالثاً) دور العلوم والمعارف حيث يبلغ العقل أشده ، وينال الانسان رشده ، فيعلم أن الأديان أساطير الماضى ،



ووساوس الأقدمين فيتركها ويتجه للعلوم يحتلب درها ، ويستسقى ربابها ، ويكون بذلك كالشباب جاز دور الطفولة ، واتسم بصفات الرجولة ، تمر به مدركاته القديمة فيعدها حلماً لذيذاً ، وخيالاً مسلياً ، ويضحك منه كما يضحك من كل أفعاله وهو طفل ؛ ثم يأخذ في شأنه من الجد وراء الحقائق المحسوسة والدأب لاستغلال خير الطبيعة ، وتحسين حال بني نوعه من كل الوجوه الممكنة

نقول ان هذه المقولة ان صدقت في نصف صروح العقائد التي أنس بها الانسان في دور طفوليته فلا تصدق على الاسلام الذي أرسله الله عند ما بلغ الانسان رشده وسم الوصاية عليه . واليك التفصيل

المسائل الكبرى التي يطأطئ المسلم أمامها رأسه ويحترمها جهده هي بعينها كبرى المسائل الفلسفية التي ستبقى مادام الانسان نقطاً بارزة في حياته يزيد لها من الأيام وضوحاً وجلالاً ، وتكسوها زيادة العلم كمالاً وجلالاً وهي :

(أولاً) ان لهذا الكون الباهر غير المتناهي صانعاً حكماً « لا تدركه الأبصار » « ليس كمثله شيء » « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » « خلق كل شيء فقدره تقديراً » ولا ينكر أحد أن هذه كبرى المسائل العالية التي لا يتصور زوالها بوجه من الوجوه . (ثانياً) ان للإنسان روحاً غير مادية لها حياة خالدة في وجود غير هذا الوجود . وهذه أيضاً من المسائل العظمى التي أصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول كأنقله عنهم

## في كتاب ما وراء المادة

( ثالثاً ) ان الله ملائكة وهم خاق متجردون عن المادة « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » وهذه أيضاً مسألة اثبتتها مسألة استحضار الأرواح اثباتاً حسياً كما استراه ان شاء الله

( رابعاً ) ان الله رسلاً من الناس يتمتعهم بخاصية الاشراف على الملأ الأعلى ويستودعهم اسرار وحيه ، وقوانين الدين ليلغوها الى أمهم « وما من أمة الا خلا فيها نذير » « وما أرسلنا قبلك الا رجالاً بوحي اليهم » « كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق » وهذه أيضاً مسألة كبيرة زادتها مسألة التنويم المغناطيسى واستحضار الأرواح جلاء ووضوحاً لما أثبتنا من أن الروح الانسانية اذا جردت عن الاشتغال بالماديات أمكنها أن تستقى معلوماتها بدون وساطة المشاعر كما ستفصل ذلك ان شاء الله تفصيلاً في محله من كتابنا

( خامساً ) الكتب التي يرسلها الله الى خلقه أى وحيه الى أنبياءه وهى مسألة كبرى أيضاً لا يرتاب فيها الا من يجهل مسألة التنويم المغناطيسى العصرى كل الجهل ورضى أن يكون واقفاً من العلم حيث وقف ملحدو أوربا قبل قرن من الزمان وزعم أن الكون محصور على ما يعلم .. ( سادساً ) مسألة القضاء والقدر وهى مسألة عظمى توزعت عقول الفلاسفة أجمعين من القدم لليوم ولها انصار وزعماء حتى من الذين لا يعتقدون بغير المادة لأن تشبع الفكر العصرى بوجود نواميس للكون ثابتة لا تتغير تجعل مسألة القضاء والقدر من نتائج العلم الطبيعى نفسه كما

سنفصل ذلك إن شاء الله تفصيلا .

هذه هي مسائل الاسلام التي نحترمها وأمرنا بالتفكر فيها للوصول الى المدرجات العالية منها وقد رأيت أنها مسائل الانسانية كلها لا المسلمين وحدهم وانها مما لا يتصور في العقل عدم احترامها واعتبارها من المسائل الكبرى في أى دور من أدوار الرقى العقلى لارتباطها بحياة الانسان مباشرة ووقوفها في مهب فكره ومضطرب ذهنه .

أما دور الشك فان صح على العقائد الأخرى فلا يصح على الاسلام بوجه من الوجوه . الشك هو التردد في صحة شيء ودواؤه العلم . وقد رأيت أن المسلم ليس له من العقائد الا ما هو مغروز في طبيعة البشر حب الاهتمام به واعتقاده وهي تلك المسائل الست ؛ وبما أنه قد يطرأ الشك للانسان فيها لقلة علمه فالاسلام لا يعاقب الشاك أو المستشكل بالحرق بالنار أو بالصلب بل بدوائه الحقيقى وهو العلم واستنزال روح الرحمة الالهية من قبله ، وقد وعده الله بحسن النتيجة فقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » بل أنذر الضارب عن العلم صفحا بالطبع على قلبه فقال عز وجل : « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون »

قلنا ان الاسلام جاء بعد أن بلغ العقل الانسانى أشده ولذلك فهو لا ينزل الانسان منزلة القاصر بل الراشد الذى له حق التصرف بفكره وارادته بخلاف الأديان الأخرى التى ادعى قادتها أنهم أوصياء على الانسان وانه لاحق له فى استعمال عقله وفكره فى شؤون حياته



إلا طبقا لما يوحونه اليه من التعاليم والقواعد وقد أساووا استعمال هذه الوصاية لحد أن الناس تركوا الدين من أجلها وتخلصوا من تلك السلطة بعد جدال وجلاد دام قرونا متوالية وعدى على حياة ملايين كثيرة من الأبرياء، أما الاسلام فلم يجعل لأحد من بنيه حق الوصاية على غيره بل أسبغ على الكل نعمة المساواة الحققة وآخى بينهم اخاء ملكوتيا لم يسبق له مثال في تاريخ العالم، وجاء الخطاب عن لسان العزة الالهية بهذا القسطاس العادل: « الجنة لمن أطاعني ولو كان عبدا حبشيا والنار لمن عصاني ولو كان شريفا قرشيا » ولذلك تراه يخاطب أبناءه عموما بلسان واحد لا يخص بالخطاب طائفة دون طائفة ولا قبيلة دون قبيل، ولم يعلق نجاة روح على روح أخرى وفي هذا الحديث الشريف أكبر عبرة لمن يعتبر: « اعمل يافاطمه فاني لا أغني عنك من الله شيئا » وهذا غاية ما يتوق اليه أنصار حرية النفس، ومحبو رفع القوة الاستبدادية.

أنظر الى هذا المثال الباهر من الحرية وقارنه بذلك الاستعباد الهائل الذي طوق به قادة الأديان الأخرى أعناق أتباعهم حيث عقلوا نجاة السواد الأعظم منهم بشفاعه رجال قلائل أو رجل واحد. ولا غرو فانهم يتصورون الخالق تعالى على صورة الملوك الارضيين الذين لا يمكن التقرب اليهم الا بالتوسل بحاشيتهم وذوى الزلفى منهم، أما المسلم الذي ينزه خالقه عن مشابهة المخلوقين، ولا يجرى عليه صفة الملوك الأرضيين، ويعلم أنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، وأنه

ليس بينه وبين عبيده حجاب ، ولا جلاوزة ولا حجاب ، وأنه سميع مجيب « وهو أقرب إليه من حبل الوريد » فانه لا يحتاج لمن يقربه إليه زلفى غير صالح أعماله ، وعقائل صفاته . أما التعلق بشفاعاة الشافعين ووسيلة الوسطاء والمقربين ، فليس من عقيدة المسلمين ، ولا صفة لها عندهم في الدين ، وما ورد من ذلك عندنا فمقيد بأذن الله ومعلق على أمره بالنسبة لبعض مستحقى المغفرة قال تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه » « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . » أما أولئك الذين ليس فى أعمالهم ما يؤهلهم للحظوة بمغفرة الله فلا يستطيع أحد أن يشفع عنهم قال تعالى : « فما لهم من شافعين » « فما تنفعهم شفاعاة الشافعين »

هذا الأصل وحده هو أهدى قائد لنفوس الآخذين بالدين الى باحات الحرية ، وأقوى باعث لهم الى ساحات المساواة الأخوية ومن يعلم أن الحرية أصل كل الأصول المهدبة للأمم الرافعة لها الى منصات العظم ، الباعثة الى نفوسها روح الهمم ، يتحقق معنا أن هذا الأصل كان من أقوى الأسباب التى نهضت بأسلافنا الأولين ، الى أعلا علين بينما كان غيرهم فى أسفل سافلين ، مأسورين لرؤساء الدين ، ويتأ كدمعنا أنه كما كان سبب اسلام عشرات الملايين ، من الأقوام البعيدين عند ظهور هذا الدين هرباً من الضغط المهيمن ، كذلك سيكون هو نفسه الجاذب للعواطف ، المالك للأمال فى هذه القرون وما بعدها حتى يخلص السلطان للاسلام ويكون الدين كله لله . فان روح هذه العصور المتأخرة

قد بعثت الى قلب الانسان حب الحرية والمساواة وسيتمو هذا الشعور في الانسان بتوالي الحوادث حتى لا يكون عليه سلطان غير شعوره الخاص وعواطفه الذاتية ، وأين يوجد ما يلائم هذا التطور غير الاسلام الذى يخلى بين الانسان وربّه ، ويرفع الحجب بينه وبين مالك حياته « قل انى هدى ربي الى صراط مستقيم ، ديناً قى ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل غير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبشكم بما كنتم فيه تختلفون » .

والباحث فى أسباب خلع أوروبا لطوق العقائد يرى من أهمها مسألة الشفاعة والوساطة . قال الفيلسوف ( لوسيان اريا ) فى كتابه ( عقائد الغد ) : « ان كراهة الناس لرؤساء الدين هى التى ولدت فى أكثرهم كما يظهر لى المجافاة للدين . فان الخطر جاء من تسخير الناس بسبب الدين نفسه . ومع هذا فلم تكن وظيفة الكاهن من مواضع المناقشة فى مؤتمر الأديان ولكنها فيما أرى من المسائل الأولية التى يجب حلها فى مستقبل قريب » انتهى . وانك ترى علماءهم وفلاسفتهم يعدون عدم وجود الوساطة من ضمن المزايا الكثيرة التى للاسلام على سائر الأديان وأقرب شاهد على ذلك ماورد فى ( المجلة ) الفرنسية فى جزء ١٥ مايو وهو : « ليس فى الاسلام البتة لاطقوس



دينه ولا أسرار كهنوتية ولا كهان ولا هياكل ولا شيء مما يعتبر شرطاً أصلياً في أداء العبادة . بل فيه أن الانسان شفيع نفسه امام خالقه فتراه يرجو بذاته رحمة ربه وغفرانه . وبعبارة الاصطلاحات الدينية الاسلام بعد وجود الجمعيات الكهنوتية والسلطة الروحية من البدع المضادة لنص العقيدة .

قلنا الاسلام ينزل الانسان منزلة الراشد لا القاصر ولم يكلفه من العقائد الا مالو خلى ونفسه لاهتم بها لانها نتيجة عواطف المغروزة في طبيعته ، وقلنا انه لو شك فيها يعالجه بعلاج الشك وهو العلم لا بالضغط على فكره أو حرق جسده كما فعل غيره . لهذا جعل العلم قوام الدين وملاك اليقين حتى فرضه على عموم أتباعه من ذكر أو أنثى ، وسن لهم كل ما من شأنه زيادة العلم ونموه اذنه ، كالسياحة واستشراق أحوال الأمم وتعرف نوااميس الخائفة والعمران . وكالنظر في الكون وتنوّر أسرار الكائنات . حتى قال عن السياحة « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا . الخ الآية » « قل سيروا في الأرض فانظروا الخ الآية » وقال عن النظر في الكون « وفي الارض آيات للوقنين وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون » فانظر كيف أن السياحة واستطلاع أحوال الأمم والكون التي شككت اليونانيين في عقائدهم قبل الميلاد بأربعمئة سنة ، وحلت معاهد عقائد الأوربيين في ابان اختلاطهم بالمسلمين واشرافهم عن مدينتهم كما أثبتنا لك ذلك في كتاب الانسان ، قد ندب اليها الاسلام بصفاتها مقوية للعقيدة ، مثيرة لروح الدين ، مثبتة

لأراكين اليقين حتى قال الله عن السياحة « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » وقال مبكتاً الذين لا ينظرون في مساتير الطبيعة « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فأى فرق هائل بين دينين يقوى أحدهما بما يهدم الآخر، ويحيى بما يلاشى ضده ؟

السياحة تزيد في سعة المدارك وتشرف بالإنسان على أسرار العالم وعلى نواميس العمران والخراب في الأمم ، وعلى أسباب المدنية والوحشية في الشعوب وتجعل للإنسان فكرة عامة على معنى الحياة الإنسانية الصحيحة . والنظر في الكون نتيجة توسيع نطاق سلطة العقل الإنساني على الإدراك والسيان في ضمائر الكون ، والوقوف بالتصور والفكر المواقف التي هما جديران بها من هذا العالم البديع ، وتحويل القوة البشرية خاصة استخدام قوى الكائنات في تحسين الحياة الإنسانية وتهذيبها بما يفتح للعقل من مغلق المساتير ومؤصد الأسرار . وهذا كله كما لا يخفى يعلو بالعقل والفكر ويسمو بهما درجات متوالية على نسب محسوسة فيحصل ما يسمونه الترقى في الهيئة الاجتماعية ، وهذا الترقى كما يحصل في الصنائع والفنون كذلك يحصل في المدركات والعقائد ، والدليل على ذلك أن كل أمة تترقى تترك عقائدها وتهجرها لتطلب عقائد أرقى منها . وقد شعر بذلك رؤساء العقائد فحرموا النظر على أتباعهم ، وقرروا أن كل علم لا يوافق العقائد

فهو مردود باطل يستحق صاحبه سوء العذاب . فكيف يخالف الإسلام هذه السنة التي جرى عليها حفظه العقائد ويعلق كمال الإيمان وتمام اليقين على ما أحدث الشكوك في أذهان الأديان الأخرى وانتزع العقائد من أفئدتهم ؟

ذلك لأن الإسلام كما قلنا لم يكلف الإنسان من العقائد إلا بما لو ترك الإنسان وشأنه لتعلق به من نفسه لأنه نتيجة قوى عواطفه واحساساته ، وهي تلك العقائد الست التي ذكرناها آنفاً ، ثم إنه بعد ذلك لا يكلف الإنسان إلا خلع نير التقاليد والوراثات والعقائد الباطلة عن عاتقه خلعا كلياً ليستوى بشراً سوياً خالصاً لله ، لا تمثالا محشوا باقذار آبائه وأجداده ، ضلالات أسلافه وأواليه ، عقله أسير رئيس دينه ، وفكره مغلول عن البحث خوف الكفر ، كأنه مصاب بشلل في قواه ومواهبه ، أو مسلوب التصرف في نفسه . فما الذي يخشى على المسلم بعد ذلك من وراء العلم ؟ وهل للروح المسلمة غذاء غير العلم ، ونور غير الحكمة « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » « انما يخشى الله من عباده العلماء »

إذا تقرر هذا فهل يسرى قانون الأدوار التي تنتاب العقائد على الإسلام وهل يخشى على المسلم من تشبع فكره بأحوال الأمم وعظمة الكون وهل يليق بعد هذا أن يقال لمسلم أنك لا ترتقي إلا إذا خلعت طوق الدين من عنقك كما فعله غيرك من الأمم الراقية ؟ وهل يقال له إنه من الحياة الإنسانية في دور الطفولية أو أنه يود أن



يبقى في ذلك الدور ويسابق الأمم الأخرى التي تجاوزته ؟  
 ان الذي حرم المسلمين من التمتع بمزايا دينهم هو اضرابهم عن  
 السياحات وعن تعرف الاحوال والنظر في الكون ومتى جاء ذلك  
 اليوم الذي يأذن الله فيه للحقيقة الاسلامية ان تنفذ الى أوروبا من  
 خلال هذه التعصبات القديمة المتكاثفة لما ترتقي روحها السائدة في  
 هذا الجيل عما هي عليه درجات أخرى ، فسترى في ذلك اليوم كيف  
 يكون رجوع الحق الى نصابه بل كيف يكون الدين كله لله » ولتعلن  
 نبأه بعد حين .

— — — — —

### ﴿ سحر المدنية المادية ﴾

أطلقنا التساؤل في فصل الانسان عن أثر المدنية المادية على  
 المتدينين وطفنا بالقارىء على كثير من صور الشبه الرائجة في جيلنا  
 هذا وهي الشبه التي تسلطت على مكان الشعور من أفئدة أكثر النشأة  
 الحالية من جراء احتكاكها بزخارف الصناعات التي تجرفها الينا سيول  
 الترف الأوربي وصارت فتنة للأعين والعقول معا ، وبلغت منا مالم  
 تبلغه الطبا من الهوادي ولا الرماح من الأفئدة فلم نر بدا من مناقشة  
 هذه الأفئدة المفتونة الحساب في كتاب حكيم القلوب الأعظم خاتم  
 النبيين محمد صلى الله عليه وسلم لنستطيع بعون الله وقوته أن نوجه  
 اليها شعاعا ساطعا من روحه الكريمة يمزق غياها ويكشف كسفها  
 ونهتدي به الى كنه المدنية الفاضلة التي جاء صلى الله عليه وسلم يدعو

العالمين اليها بذلك الكتاب الكريم الذى يهدى للتي هي أقوم .

قال الله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم » وقد حقق وعده وأرى العالم آية هي أكبر آياته في خليقته ، وذلك بأنه بعث في الأميين رسولا منهم في الحين الذى أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، وناهيك بمديتى الرومان والفارسيين وقد رأيت في فصل الانسان لمعة صغيرة من وصف مدينة الفرس حين ملكها الاسكندر وأمامدنية الرومان فكانت لا تقل عنها في شيء بل تزيد عليها في كثير من الشؤون ، ولكي يبرهن الخالق الحكيم لعموم النوع الانسانى على أن الفضائل روح إلهية اذا حلت في الأمة رفعها الى أعلا عليين ولولم يكن في وسائلها الطبيعية ما يؤهلها لذلك الرقى المبين ، وسادت على سواها وإن كانت أصغر من ذلك في أعين الناظرين ، اختار الأمة العربية على أنها كانت من عدم الوسائل الطبيعية بحيث دامت آلافا من السنين حافظة شكلها ، وواقفة مكانها ، أعرض عنها سائر الفاتحين يأسا من استصلاحها وتقاديا من العناء الذى يأتى من قبلها ، فلما أرسل الخالق رسوله اليها حاملا روحا كريمة ، مكث بين أظهرها ثلاثا وعشرين سنة سقاها في خلالها من ذلك الحوض الملكوتى جرعا بعثت اليها حياة جديدة وصبغتها بصبغة إلهية ، فاصبح العرب وبين جوانحهم قلوب كأنها انفصلت من الملاء الأعلى قدملت بأنوار الحق وتشبعت من روح الفضيلة ، فهبوا يحققون وعد الله من أحقاق الحق وازهاق الباطل وتأسيس خلافة يطأطىء أمامها كل جبار

عنيد ، وتعنو لها جبهة كل عات صنيدي . كان يلزم أن يكون هؤلاء القوم الذين كانوا بالأمس يسكنون في الصحارى ويجولون في الفياض أكثر الأمم تأثرا بسحر المدنية وانسجارا بالمموهات الصناعية . كما يشاهد من البدو اذا جاؤا الى المدائن العامرة ولكن سبحان ربي الذي جعل في كل شأن من شؤون خاتم أنبيائه معجزة باهرة فان أصحابه قد خالفوا كل السنن النفسية المعروفة ، وبذل أن تنهر أبصارهم وتندهش بصائرهم عند رؤيتهم تلك المعاهد الفاتنة في مدينتي الفرس والرومان قابلوها بفتور الآنف منها ، المحتقر لها ، ترفعا عما فيها من الجرائم السامة للفضائل ، القاتلة للعواطف ، فلم تلفتهم عن شأنهم بل قابلوها بأفئدة عرفت حقيقة الحياة الصالحة واطمأنت الى ما وعدّها الله به من السعادة الحقّة ، والكمال الخالص ، فلم يقم منهم داع الى تقليد في بدعة ، ولا محاكاة في ضلالة ، ولم تمت من احتكاكهم بها غيرتهم ، ولم تنحل بسحرها الفاتن همهم ، بل استقاموا على صراطهم وهو الصراط القويم ، ووزنوا الأمور بقسطاسهم وهو قسطاس العدل المستقيم .

ان هجس بهم هاجس وصور لهم أنهم قليلون مستضعفون ، وان أضدادهم كثيرون قويون « تذكروا فاذا هم مبصرون » وقالوا « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » « انه لا يأس من روح الله الا القوم الكافرون » وان نزع بينهم الشيطان وقال لهم أين أتم من لحاق هذا الشأو



الباذخ ، ونوال مثل هذا الشأن الفخم ؛ قالوا كما كانوا يقولون قبل ذلك « هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا إيماناً وتسليماً » وتلوا على أنفسهم : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم الخ الآية » .  
وان همس لهم هامس وأراد ان يفتنهم بتلك الزخارف التي كانت تقع تحت أنظارهم قالوا هذه سعادة الدنيا ونحن لا نريد الا السعادتين معا وقرأوا : « ومن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وان أراد الشيطان أن يوهمهم باستحالة الجمع بين سعادتى الحياتين ويريهن أن الدين ليس بشرط في سعادة البشر بدليل قيام أضدادهم بدونه قالوا : « واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا يديهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالها نهراً وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره ، أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ، قال له صاحبه أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً . لكن هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً . ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ، ان ترن أنا أقل منك مالا وولداً فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء

فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح مأوها غورا فلن تستطيع له طلبا ، وأحيط  
بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها  
ويقول ياليتني لم أشرك بربى أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون  
الله وما كان منتصرا هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبي )  
« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » « سنة  
الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

لم يأتهم الشيطان من جانب إلا سدوه في وجهه بآية من كتاب الله  
وسنة رسوله فلم يمر عليهم قرن من الزمان حتى أصبحت الدنيا دنياهم  
والخلافة فيها خلقتهم ، ترتعد الملوك عند ذكر سلطانهم ، وتهتز العروش  
خوفا من نفوذهم ، وصارت لهم مدنية كسفت بنورها كل مدنية ،  
وبلغوا بها ما لم تبلغه أمة قبلهم ولم تزل آثارهم تدل العموم على عظم  
مكاتبتهم وسمو أرواحهم .

قال (دروى) المؤرخ احد وزراء معارف فرنسا السابقين : « بينما  
أهل أوروبا تائهون في دجى الجهالة لا يرون الضوء الا من سم الخياط  
اذ سطع نور قوى جانب الأمة الاسلامية من علوم أدب وفلسفة  
وصناعات وأعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدنية بغداد والبصرة  
وسمرقند ودمشق والقيروان وبصرة وفاس وغرناطة وقرطبة  
مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت في الأمم واغتنتم منها  
أهل أوروبا في القرون المتوسطة صناعات وفنوننا » يأتى بيانها « نقل  
المؤرخ ( سديو ) عن ( هومبلد ) « ان العرب خلقهم الله ليكونوا

واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطئ الفرات الى الوادى الكبير  
باسبانيا وبين العلوم وأسباب التقدم فتناولتها تلك الأمم على أيديهم  
لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت فى الدنيا تأثيرا لا يشبه  
بغيره » ثم قال : « وهذا حجة على أنهم كما قال غيرنا ونحن نعرف  
به أساتيدنا ومعلمونا »

وقال (دراير) أستاذ بكلية نيويورك بأمریکا : « ان أقوى  
وأكبر الممالك الدينية التى لم ير العالم مثلها قد ولدت فجأة وامتدت من  
المحيط الاتلاتيكي الى أسوار الصين ومع ذلك فلم تك قد بلغت نهاية  
ما قدر لها من الامتداد والنفوذ فلقد أتى عليها بعد ذلك حين من  
الدهر طردت فيه خلفاء القياصرة وملكى بلاد اليونان ونازعت  
النصرانية السلطة على أوربا ونشرت نفوذ عقائدها خلال الصحارى  
الوحشية والغابات الموبوءة من أول شواطئ البحر الأبيض الى خط  
الاستواء » « لقد طافوا (العرب) معاهد الفاسفة والعلم بسرعة تشبه  
السرعة التى طافوا بها بملكة الرومان » « انا لتأخذنا الدهشة أحيانا  
لما نصادف فى كتبهم آراء علمية كنا نظنها نشأت فى هذا القرن .  
من هذا القبيل مذهب النشوء والترقى للكائنات العضوية فقد كان  
يدرس فى مدارسهم . »

وقال عن مدنيته : « ان خلفاء الاندلس كانوا محاطين بأنواع الأبهة  
التي هى من لوازم الحياة الشرقية ، وكان لهم قصور عامرة ، وحدائق  
زاهرة (وسرايات) يعمرها الجلالة والجمال وان أوربا بالحالية (تأمل)



لا تعلو في حسن الذوق والرفق والظرف في شيء من أشياءها عما كان في العواصم العربية الأندلسية في الزمن الذي تتكلم عنه . كانت شوارع هذه العواصم مضأة بالليل ومبلاة تبليطاً متقناً . وكانت البيوت مفروشة بالبسط ومزينة حوائطها بالنقوش وكانت تسخن في الشتاء بالمدافئ وترطب في الصيف بتيارات من النسبات المعطرة تصل إليها من سراديب تحت الأرض مغطاة فوهتها بالأزهار الزكية ، وكان لهم حمامات ومكاتب ومحلات للغذاء وفوارات للياه والزئبق . وكانت المدائن والأرياف حافلة بالاحتفالات والرقص الذي كانوا يأتونه على نعمة (العود) و (المزهر) وكان شعار العرب في ملاعبهم القناعة وطلاقة النفس ، بخلاف جيرانهم الغربيين فقد كان ديدنهم النهم في الأكل والادمان للسكر . وكان الخمر حرام عليهم لا يقربونه وكانوا يتمشون في حدائقهم في الليالي القمرية وفي غياضهم المنعزلة المزروعة برتقالات وهم يصغون إلى قصة أدبية أو يتحاورون في بعض المواضيع الفلسفية مسلمين أنفسهم عن أحزان الدنيا بقولهم : إنها لو كانت خالصة من شوب الآلام لأنستنا الحياة الآخرة ، وراضين بالكد والتعب في المعيشة الأرضية أملاً في نوال الراحة الأخروية الدائمة . انتهى

هذه مدينة سامية لا تقل في نظر (دراير) وغيره في حسن الذوق والرفق والظرف عما عليه أوربا اليوم ولقد نالها آباؤنا في أقل من قرن واحد بمحض سيرهم على صراط العدل المستقيم المبين في القرآن الكريم .

كونوا هذه المدينة وطبعوها بطابع اسلامي محض وأثروا بها على سائر الأمم ولم يتأثروا هم بشيء منها .

وإن تعجب من هذا فاعجب منه أنه كانت مساجدهم بجوار هذه المعاهد الفتاة عامرة بالمصلين والشعائر الدينية خافقة الاعلام على الرؤوس أجمعين يقول المؤذن حي على الفلاح فتجيبه الارواح قبل الاشباح ، وتسجد لندائه الأفتدة قبل الجوارح ، لا كما نحن اليوم يلفتنا ملهى قدر عن أكبر مطلب من مطالب أرواحنا ، ويأخذ بعقولنا مرقص مخجل عن أسمى رغبة لنفوسنا ، حتى أن ما أقيم في بلادنا من تلك المعاهد التافهة التي لا تساوى جزأ مما كان لآبائنا قد أنسانا الدين والدنيا والشرف والحياة والحياة .

السبب الأكبر لما ألم بنا من السحر بهذا البدع الجديد ، واغتيال من نفوسنا أشرف عواطفنا ، هو ولا شك العناية المطلقة عن قوانين الحياة ، ولقد بلينا بكتاب فقدوا رشدهم من سحر هذه المدنية الجديدة فقابلوا الأئمة وهي في غفلة عن ذاتها فصوروا لها المدنية الحالية في صورة خيالية محضه ، وانتهزوا فرصة فتور حركتها فملؤا فؤادها بأسا من لحاق شأو الأمم الأخرى ، ونفثوا في روعها القنوط المطلق وسموم الاستخذاء للأقوياء ، وقتلوا كل عاطفة شريفة فيها فنشأ تحت هذه النعمة نشء من الناس مستعدين للتقليد والمحاكاة فسلكوا المسالك التي نسعى جهدنا اليوم لرددهم عنها ولولا أن اليأس كفر في مذهبنا لقلنا قد استعصى الداء وعز الدواء ولكن الله غالب على أمره والافراد

كالأُمم في قبضة الله بميتها و ينشرها ولا معقب لحكمه . « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله »  
 أى شئ يكسر من شرة اولئك المترنمين بمدينة هذا الجيل أكبر  
 من نقل أقاويل أصحابها فى بيان نقصانها وانها ساعية بالأمم الى حتفها  
 ان لم يقوموا بها على صراط الدين الحق ؟

قال الفيلسوف ( فيرنس جيا فرت ) « ان العلم قد غلا  
 فى الاستفادة من سرعة تصديق العامة أكثر مما غلا رؤساء الدين ،  
 فلقد أثبت لها عدم صحة رموزها الدينية القديمة ووعدها بتعويضها  
 لها بأصول ثابتة أبدية لدين حسى جديد ، فلم يف بوعده لها . ولما آب  
 للانسانية رشدها ، وقد فقدت شعرياتها السابقة ، وجدت نفسها حيال  
 فراغ أوسع مما كانت فيه قبلا . وفى الواقع ماذا يفيد الانسان عليه بعض  
 الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الاتحاد المتجدد المؤلم الذى يجرنا اليه  
 ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة »

« انهم ينصحون كل انسان بأن يكون لنفسه دينه الخاص ،  
 ولم يفتنوا الى أن هذه النصيحة المزدوجة تحتوى على تناقض بين  
 حيث ان المذهب الحسى لم يترك للانسان مجالا فى غير المسائل  
 المادية المحضة .

« ان الحق والعداء يزدادان يوما فيوما فى نفوس أهل البأساء  
 المحكوم عليهم بالفاقة الى الأبد ، وان جنون البذخ والجبروت ينمو  
 على قدر ذلك لدى أهل اليسار والبذخ . وهذا الاتحاد الآخذ فى النمو



يسوق جمعياتنا بعاطفة المساواة الى حالة ثورية دائمة . وأصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد في وزراء الأزمنة الماضية . والحكم الاستبدادى بدل أن يتشبح في بعض الافراد أضحى منتشرأين الملايين فكل ديموقراطى يتمنى أن يبلغ الرتب العلية وترى الشعب لما أحس أنه خلص من أسر الواجبات الوحية التى تفرضها الكنيسة وازدرى بذلك الدستور السياسى الذى يراه يتغير بسرعة جنونية أعطى لعاطفة الاثرة فيه كل الحرية وصار يعتبر أن ماله من حق المساعدة فى ادارة شؤون حكومته وسيلة لنوال مآربه الحيوانية بأسرع ما يمكن ولقد رجونا أن نداوى مصائب النوع الانسانى بالكنوز المادية التى ألقيت بين أيدينا من منذ قرن من الزمان . ولقد تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظيمة ، ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات الا نشرحى حب المال فى الطبقات السحيقة جدا .

« فأى قانون أخلاقى يكفى لكبح جماح أهوائنا وادخالها الى مجاريها الطبيعية المعتدلة » لقد ذهب عنا الكمال المعنوى ولم يبق فينا الا خوف مبهم من شئ غير مدرك . لأن العيقدة بالله لا يمكن زوالها من النفس فترى الذين لا احساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات ، وترى العقول المستنيرة بالعلم ، المحرومة من الدين تعذرهم فى ارتكابهم الجرائم ، وبهذا فقد أصبحت الشهوات غير واقفة عند حد »  
وان تحت هذا السلم الذى اقتضاه الخوف العام لا حقاً تختمر

اختياراً بأشدهما كانت في أى زمن من الأزمان . فان جرائم الفوضويين وافلاس الممالين وابتحار الأسر بأجمعها والوساوس الخرافية الآخذة في الانتشار بين الناس والجنون الذى لا ينتظر الا سنوح الفرص ، وأصحاب الاثره البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقى الشديد الوطأة البعيد القرار الذى عم اجناسنا ناشئ من عدم وجود قاعدة دينية تصلح لاحداث الوحدة والائواء بين احتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب .

« لذلك ترى ظلمات من الحزن والكمد آخذة في الاسوداد كل يوم ملقية أطناها على عالمنا . ويزعم الانسان في غروره ان حرية الاثره ستحصل له كل ما يتمناه من سرور وانسراح حتى صرنا وكل يوم لنا مطلب جديد وكل طائفة تسعى لنوال امتيازات جديدة ، وكل فرد يدعى لنفسه حقوقا ليس لها حد تنتهى إليه وبذلك فقد أصبح الانسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفا بأنه أمام الحياة أضعف مما كان في أى زمن من الأزمان »

وقال العلامة ( كاميل فلامريون ) ونظن أنه غير مجهول لدى المسلمين : « لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لاننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشعبة بالآثره لاهم لها إلا أغراضها الذاتية أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلامبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات ؟ » « وإن من التناقض

الذين المؤلم أن ترى أن الرقي الباهر الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للانسان في الطبيعة ينما رفع عقولنا إلى المدرجات العالية أهبط انسانيتنا إلى أخس الدركات . ومن المحزن أن نحس بأنه ينما نشعر ببناء قوتنا يوما بعد يوم ، تنطفي حرارة قلوبنا وتتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية » انتهى .

هذا تمهيد بسيط سقناه أمام الكلام في حل الشبهة الماضية ليعلم أولئك المتفهمون بزوال الدين وبقيام العلوم الطبيعية مقامه أن سنة الله لا تتبدل ، وأنه سيجيء يوم يرى الانسان فيه أن الدين دواءه الوحيد ، وأن ما كان فيه من تلك العجرفة والكبرياء لفحة من لفحات الشيطان ، ولكنه في ظننا لا يعود حتى تصهره الحوادث صهرا وتؤدبه بعصاها أدبا ينتقش في كل ذرة من ذرات جسمه « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »

هذه الفتنة العمياء التي يموج في دياجيرها الأوربيون الآن بشهادة من تنقل عنهم من كبار علماءهم أتهم من الرقي الصناعي المدهش الذي حصل لهم لما تركوا عقائدهم التي كانت تحول بين عقولهم وبين مشتهياتها من العلم ، فبدل أن يقفوا عند حدود الدين الفطري جازوه إلى متاهات الاتحاد وقالوا إذا كان كل ما نلناه من سعادة هو من العلم فلا نعترف بناموس غيره وقد أريناك بعضا من أقوال عرفائهم في هذه الفتنة العلمية الخطيرة وهو دور من أدوار حياة الأمم أشار الله اليه في كتابه



الكريم بقوله تعالى : « فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ( تأمل ) بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين » .

### \* ( الشبه العلمية والعقائد ) \*

استعرضنا أمام القارئ في فصل الانسان تحت عنوان « نشأة الروح العلمية التي يسيطر بها الغرب على الشرق » كثيرا من الشبه العلمية التي تلوكها اليوم بعض الألسن وتجيش في كثير من الضمائر ، واستدر كناها في كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بفصل تمهيدى اجمالى ووعدنا قارئنا بالتفصيل الشافى فنجز اليوم وعدنا فنقول والله ولى المؤمنين :

قلنا فى ذلك الفصل : « فهل فى هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة ان الدين باعته الجهل ومادته العماية عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الأديان الموجودة هى حوادث تاريخية استلزمها أدوار خاصة ، وقد أدت وظيفتها وأخذت فى الانحلال ولن يقوم لها فى عصر العلم قائمة ؟ »

وقلنا : « فهل فى الرقى المادى شىء من السحر يعترى النفوس فيلقطها عن مطالب أرواحها ويعمىها عن رؤية كالاتها ؟ ان كان كذلك فما هو ذلك السحر فى نفسه وما منشؤه وكيف يؤثر على العقول هذا

التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن أن يوجد على سطح الأرض مدنية مادية متحدة بكالات روحانية ويكون الانسان بينهما مغمورا في نعيم روحه وجسده متمتعاً بلذائذ مادته ومعناه ؟ ان كان لا يمكن ذلك فهل شرع الدين ليكون مقصورا على الفقراء والمساكين ، وموقوفا على المحرومين والمستضعفين ؟ وان كان من الممكن جمع مدنية مادية وكالات روحية فما بال بعض المسلمين الذين قضى عليهم بالاحتكاك في قشور هذه المدنية الأوربية قد خلعوا أعنة الدين وأملسوا من وشيجة العقيدة ؟ »

ثم قلنا : « ماهى المدنية وما تأثيرها على الروح الانسانية ؟ ماهى الشهوات الجثمانية وماهى الكالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الانسان الشهوات الفانية على الكالات الباقية ؟ هل السبب فى ذلك عدم الايمان ؟ فما هو الايمان ؟ كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل فى العلوم المادية ما يقوم مقام الدين فى إيتاء الروح حاجتها وتهذيب النفس فى جيشانها ؟ هل فيها ما يغذى عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الأرضية وتكتفى بملاذها الجسدية ؟ هل نمو القوة العقلية ينتهى بالانسان الى اعتقاد بطلان الأديان ، وادراك فساد ما بنيت عليه من الأركان ، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل حتى يتم الأمر بزوال الدين وانتهاء سلطته وقيام العقل مقامه فى أداء وظيفته ؟ . » ان قيل نعم فما هو العقل وما هو الدين وما حدود سلطانهما على النفوس « » وان قيل لا نقول : اذن ما هذا الأثر الذى نشاهده ؟ « » ان قيل : ذلك لما تسهله المدنية

لهم من أسباب اللهو والترف ، وما تجلله لهم من المغريات على الخلاعة والسرف ، نقول : وكيف يقوم الأمثال هذه الأعم قائمة وكل ما ذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ، عاد على كيان حواظها الأصلية ؟ هل ذلك لأننا واهمون في تحديد ماهية الفضيلة و ماهية الرذيلة ؟ » ثم أوردنا على أنفسنا قول معترض يقول : « انكم تتعجبون من كونكم مسحورين من أنوفكم الى تقليد الأوربيين والأخذ بعاداتهم ، وتذهبون في تعليل هذا الأمر مذاهب الخيال والشعر فتسمونه سحرا أو تسمونه روحا وقد جعلتم التفهيق بأمثال هذه الكلمات مادة لكم في أبحاثكم وكتاباتكم . أتدرون ما تجدونه في أنفسكم من الاندفاع للتقليد أثر أى قوة هو ؟ هو أثر قوة الفضيلة فى الأمم التى تحتكون بها لأن الفضيلة جذابة خلابة تؤثر تأثير السحر على العواطف والأميال فهى تجذبكم كل يوم اليها بقوتها الذاتية فترضخون لأحكامها بالفعل بينما تكون ألسنتكم وأقلامكم لائكة تلك العبارات الاستفهامية ، والجلل التعجبية اندهاشا من كونكم مسحورين بالرذائل ، ومجبرين على ترك الفضائل . »

هذا ما قلناه فى الفصل المذكور آنفا وآتيناه ههنا لمناقشته الحساب من قريب خشية أن يكون الرد فى مجال والشبهة فى مجال آخر فيعضل الموضوع على المطالع فلا يهبه من العناية ما يستحقه فلنبدا الكلام والله المستعان :



## تعهد

لو أردنا أن نعالج كل هذه الشبه التي سردناها واحدة بعد أخرى لطال بنا الكلام وتشعبت بنا فنون التعبير وذهب فكر القارئ مع قلبنا مذاهب بعيدة يصعب معها إشرافه على مجموع المقال ، ويتعذر عليه الإحاطة بأطرافه من أول جولة فتضيع الثمرة التي نقصدها بالذات من إشباع القول في هذا البحث . لهذا رأينا أن نحدد ميدان المناقشة في دائرة محصورة يستطيع القارئ أن يلم بمحيطها من أول نظرة ويدرك لها مركزاً معلوماً ؛ ولا خرج علينا بعد ذلك أن مددنا أنصاف أقطارها إلى حيث يقتضيه منا خطر الموضوع ، فانه مادام واقفاً في مركز الدائرة يمكنه أن يتتبع خطوات القلم إلى حيث يشطح ثم يعود بنفسه إلى النقطة التي خرج منها ليتجه حيث أراد بدون أن يخشى الشرود عن جوهر الموضوع .

هذه الدائرة التي نقول عنها هي عبارة عن بسط مقدمات أولية أساسية صالحة لأن تكون لهذه المباحث كالأحدود المرسومة للبناء ، لأنرى بدأ من إقامتها ومن الله نستمد القوة والحول :

---

✽ دستور الكائنات ودستور الإنسان ✽

لكل كائن في عالم الكون دستور يسير على موجهه في حياته ،

وتريد اليه سائر محاولاته ، حتى ان الجمادات والنباتات ليست محرومة من دستور خاص بها ملائم لأحوالها وان كانت لم تتمتع من خصائص الادراك والتمييز بما يشعرها به ويهديها اليه ، وليس دستوراهما الا النواميس الطبيعية المسطرة على كيانهما حتى انك لو كلفت شخصا من أشخاص الجمادات أو النباتات بما لا ينطبق على تلك النواميس أى على دستوره الخاص لقاومك وأعياك ، فاما ان تقلع عنه وإما أن يذهب فقيد هواك . فاما الحيوانات الخاصة من الحياة على قسط أكبر من هذين العالمين السابقين فدستورها أوسع مجالا ، وأبعد اختصاصاً وأنأى مرامى وأغراضا ، ولكنه مهما اتسعت مجالاته ، وتشعبت اختصاصاته ، فلا تعدى مراميه الحاجيات المادية ، والمطالب الجسدانية ، وليس فيها من القابلية والاستعداد مهما ارتقى وتهذب لأن ترمى لما وراء حسها بأى وجه من الوجوه

أما الانسان فقد دل حاله بالاستقراء على أن عوامل دستوره لا تقف به عند المطالب الطينية ، بل تتعداها الى باحات أخرى معنوية لا يحددها له الوهم بحد ، ولا ينتهى منها تصوره الى غاية . وكلما ارتقى فى الفكر والشعور درجة اتسعت أمامه تلك الباحات المعنوية درجات كثيرة ، وزادت شدة العوامل الدافعة اليها حتى أنه قد يصل من الالتذاذ بالمعاني لدرجة يضحى معها الماديات فى سبيلها ويكتفى من بواعث الحاجات الجسدية بما يسد الرمق تفرغا لتلك المطالب العالية ، وجريا وراء أمانيه منها . وقد شوهد من أحوال الأنبياء أنهم مع

سمو مناصبهم ، واستطاعتهم للتعم بالماديات فوق ما يستطيعه الملوك والقادة لتسلطهم على أرواح الناس وأجسادهم ، كانوا يكتفون من الخبز بقلبيات تقيم صلبهم ، ويلتفتون من عالم القدس وأنوار الجمال الالهى لما هو أكبر من الدنيا وما فيها فى نظرهم . وأعظم مثال تقدمه لقرائنا حال سيد الانام محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان من السلطان على رعيته فى درجة لم ينلها عشاق الملك ومؤسسو الممالك بحيث أن كل واحد من أتباعه كان يهون عليه أن يفديه بنفسه وأهله وماله ، ومع ذلك فقد أبت نفسه الشريفة كل ذلك النعيم الفانى ولم يصب من حاجيات بدنه الا ما يقيم شخصه اكتفاء بذلك الصفاء الروحانى الذى كان يشعر به مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتدلنا سيرة كبار أصحابه وعظماؤه تابعيه فى كل الاجيال أن منهم من تبعه فى هذه الخطة الشريفة فانغمر مما يتوق اليه فى بحر من الفيض الالهى لو وضعت الدنيا بلذائذها فى صدقة من أصدافه لما وازنت أصغر درة من درره المعنوية الكريمة .

نعم ان تاريخ النوع البشرى ليدل دلالة صريحة لاسيما لو استقرينا أحوال الأمم المرتقية منه على أن دستور الانسان فى حياته ، الذى يسيطر على سائر حركاته وسكناته هو غير دستور العالم الحيوانى ولا هو ترق منه الحيوان لاهم له إلا خدمة الجسد ، واداء مطالب البدن ، يعيش ويموت أسيره وخادمه ، والانسان على الضد منه : له مرام أبعد مدى ، وأغراض أشرف مقصداً ، وهو طلب كمال يشعر به فى صميم ذاته ،



ويتضرع لأجله في لباب كيانه ، وان لم يستطع ان يصوره بصورة ،  
أو يقف منه وهمه على كيفية

نعم خلق الانسان مغرماً بالكمال ، ولهان به في كل حال . . . .  
فهو لا يأكل ولا يشرب ، ولا يسكن ولا يلبس ، ولا يحارب ولا يسالم ،  
ولا ينقض ولا يبرم ، بل ولا يماكر ولا يداجي ، ولا يدلس ولا  
يحاجي ، وان شئت قلت ولا يسرق ولا يقتل إلا وفي قلبه نار تدفعه  
لطلب الكمال ، وتزعه عن الوقوف في الأوحول ان غلط في اختيار  
الوسائل ، وارتكس بجهله الى أحسن المنازل

طلب الكمال صفة من صفات الروح الانساني ، ولازم من لوازم  
تركيبه الروحاني بل هو النتيجة اللازمة لكل هذه العواطف والأمال  
والقوى التي ركبت في هذا الفؤاد الخفاق الساكن بين الجوانح !

دع عنك لحظة ما تعرفه من حال الانسان في جهله وعمايته ، وما  
تسمعه من غيه وضلته ، وما أكسبته له التربية الرديئة من الصفات  
الحيوانية ، والأمال السفلية ، كالإيغال في المآثم ، والانغماس في أقذار  
الجرائم ، وأرجاس الذمائم ، وانظر اليه بشرا سويًا خالصًا من مؤثرات  
التربية المعوجة والوسط المفسد ، طاهرا من شوب التقليد والوراثات .  
تركائنا أعطى من القوى والمواهب ، ومنح من الملكات والبواعث ،  
مالا يدخل في حساب حاسب ، ولا ينحصر في أبحاث باحث . ماذا  
ترى ؟ ترى ادرا كالا تعجزه حقيقة ، وعقلا لا تعمى عليه معضلة ، وفكرا  
لا ترتد تموجاته دون غاية ، وتصورا لا تنتهي قواه عند نهاية ، وخيالا

ليس لمراميه دائرة تنحصر فيها ، وأميالا لا تنتهى لها مطالب ، وقوى لا تعيها الرغائب ، وهو مع كل هذه العطايا فى عالم لا تنتهى عجائبه ولا تقنى غرائب ، ولا تنضب مادة آياته ، ولا تغيض أسرار مدهشاته . تأمل فى هذا الكائن المتمتع بهذه المواهب ثم قل لى أى مطلب يليق أن يتخذ له غاية فى حياته ، وأى مرمى يصح أن يجعله غرض محاولاته ، وأنشودة ملكاته ؟ قلنا دع ماتعلمه من حالة الانسان فى الفساد والدنايا جانبا وقل لى بعدها أى طلبة تليق أن تكون مرمى هذه الخلقة الشريفة ، ومطمح نظر هذا التركيب البديع غير كمال مناسب لهذه الغرائز ، ولائق بهذه المنح والنحاز ؟

نعم خلق الانسان وكل مافيه يسوقه ويخزه لطلب الكمال والجمال ، بل ويهيئه ويدفعه فى سبيله دفع الجوع والجوعان ، ويسوقه سوق الظمأ للظمآن ! ولكن :

فيادارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال  
أى قلب لا يتفتت كذا وحسرة ، وأى حشاشة لا تذوب أسفاً  
وحزناً ، اذا علم الانسان من حال بنى نوعه واستعدادهم لأسمى منصات  
الكمال ، ما أتينا على طرف منه ، وانهم قد وهبوا من الملكات والقوى  
ما يدفعهم اليه دفعاً ، ويهيئهم له تهيئاً ، ثم يرى أن أكثر هذا النوع  
المكرم قد شا كل البهائم فى شرها ونهمها ، وضارع الوحوش فى  
ضلالها وجهلها ، وأشبه الضياغم فى ضراوتها وقسوتها ، وحاكى  
الشياطين فى حيلها وخدعها ؛ وقد عكسوا كرائم تلك القوى والملكات عكسا

سقط بهم دون عالم الحيوان ، فوجوا بينهم زمام الصفات ، وخصائص الأخلاق ، وقاسوا على مقتضاها معاملاتهم وأحوالهم ، ورتبوا على أصولها قوانينهم وشرائعهم ، وحبسوا أنفسهم بذلك في مضيق لا يليق بكاملهم ، ولا يناسب سمو حالهم !

هذا هو الذى كان يلم بفكر المصلح الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم فيجعله دائماً الحسرة طويل الفكرة ، أسفاً على ما آل إليه أمر هذا النوع الكريم وقد كاد هذا الأسف يؤثر على مزاجه الشريف حتى أن مبدءه جل وعز خاطبه على لسان الروح الأمين قائلاً : « فلعلك باخع نفسك ( أى مهلكها ) على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » وقال تعالى : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . » فرجع عليه الصلاة والسلام الى هذا الأدب الإلهي وعلم أن تلك حكمة بالغة وابداع لا يعلمه إلا هو ، فهو وحده المصرف للأمور ، العليم بصيور الشئون ، واعقاب الأحوال سبحانه لا معقب لحكمه .

انظر الى هذه الفطرة الانسانية الكريمة والى ما تمتعت به من قوى ومواهب ، والى ما تليق له من عاليات المراتب ، وساميات المناصب ، لو أسلمت وجهها الى الله أى لو تخلصت من شائبات التريية الفاسدة ، وحررت من مؤثرات العادات القبيحة ، والتقليدات المردية ، والوراثات المائلة بالملكات الى غير ما خلقت له من الكمال والاعتدال ، ثم قدر تلك الحجب الطينية الغليظة التى تحجب عن هذه الفطرة الكريمة نورها الزاهر وجمالها الباهر ، وتأمل كما ينبغى ان تتأمل فى تلك الغياهب



إذا تأملت فيما قلناه ورأيت أنك بينما ترمى الإنسان نورا صرفا وجمالا خالصا وكمالا بحتا إذا هو بعدم اسلامه أى بعدم اسلام وجهه لله ظلمة متكاثفة وقذرا محضا ونقصا يسفل فيه عن أخس الحيوان ، إذا تأملت في هذا وتعجبت منه ، فإن أعجب منه بما لا يقدر ان الحد الفاصل بين هاتين الحالتين المتناقضتين عقيدة واحدة قد تحل بصميم فؤاده فتمتلك سائر قواه فتوجهها الى مصاعد الكرامة ، ومعارض الجلالة فيخرج على أجنحتها الى الغايات القدسية ، ويتصل بالعوالم النورانية ، وقد تتخلي عنه هذه العقيدة فتدعه لهواه فيهوى به الى أسفل من دركات الحيوانية ، ويغمره من عالم النقص الى أخس المنازل ، ويتركه من مداحض الأهواء في هوة ليس لها آخر .

هذه العقيدة هي الايمان بالعالم الروحاني واليك البيان :

— 558 \* \* \* 353 —

**\* (الناس أمام هذه العقيدة) \***

الناس بإزاء الاعتقاد بالعالم الروحاني ثلاثة أصناف : صنف

يعتقدها اعتقاداً ذوقياً فوق اقراره بها اقراراً برهانياً ، بمعنى أنه لم يكتف باقامة الأدلة على حقيقتها وجعل دينه مجرد حفظ تلك البراهين والثرثرة بها كتابة وقولا فقط ، بل صدقها بالحجة والبرهان ، وعمل بما تقتضيه من الأركان ، فذاقها ذوقاً ذاتياً فأتتجت فيه ثمراتها النورانية فسطعت في أعماق ضميره ، وأقصى ثنيات فؤاده . ورجل لم يعتقدها ولم يصح لديه برهان على حقيقتها فكشطها من ذاكرته ، ولم يعد يخطر على باله ، فلم يعمل بموجبها ولم يبين أموره على أصولها .

ورجل ثالث يعتقدها بالوراثة عن آبائه وأجداده فاكتمى منها بمجرد وهمه بأنه واحد من حملة أمانتها ، وفرد من الأمة التي كانت تحمل عليها ، وتستضيء بمصباحها .

لا جرم أن لكل رجل من هؤلاء الثلاثة دستوراً خاصاً في الحياة يلائم مكانه من هذه العقيدة لا بد لنا من الإلماع الى طرف منه تمهيداً لحل كل تلك الشبه المتقدمة لارتباطها بهذا الموضوع تمام الارتباط .

### ﴿ حال المعتقد بالعالم الروحاني ﴾

هو رجل لم يقف من هذا الوجود المحيط به في الدائرة التي تحددها له حواسه ، أي لم يقصر عوالم الكون على محض ما تبصره عينه الكلية وما تلمسه يده الغليظة وما يتأثر به شمه وسمعه وذوقه ؛ وعز عليه أن يكون من الجمود والغلظ بحيث يحزم بأن هذا الوجود الذي لا نهاية له لا يشمل إلا عليه وعلى ما يمكن أن يحسه فقط ؛ وأنف تصويره

أن يحكم على نفسه بأنه والحيوانات في مستوى واحد لا يمتاز عنهم في شيء مطلقا كما يدعيه غلاة التاريخ الطبيعي ، وأنى فكره الطموح الجوال أن يزعم أن هذه الطبيعة المدهشة لا يصرفها ويحركها الا نواميس طبيعية محدودة لا علم لها ولا اختيار ولا ارادة ، وان كل هذه البدائع المحيطة بهامن كل جانب ليست الا مقتضيات تلك النواميس وتأتيجها ، وتعاصى عقله أن يقبل تلك التعليلات الطبيعية التي جاءه بها أولئك الذين ذهبوا بصائرهم ، وطمست أفئدتهم لعلمه بأنها ثمرة الفكر ولا يخفاه كلاله حده ، وعجزه عن ادراك كنه الذرة البسيطة فضلا عن الاحاطة بالكون والحكم عليه هذا الحكم الجائر .

علم صاحبنا كل هذا ثم نظر الى تاريخ النوع الانساني نظرة فرأى أن العقيدة بالعالم الروحاني قديمة وعامة في سائر الأمم فصعب عليه أن يزعم أن النوع الانساني عاش كل هذه القرون الكثيرة مغموسا في بحار الخيال ، وواهما في أكبر مسألة تعنيه وتهمه . ثم ألقى بنظرة أخرى . على تاريخ الانسان ومر على أحوال أولئك الرجال العظام ، الذين ملكوا قياد الشعوب والقلوب في سائر الأجيال من لدن القدم لليوم ، وأحدثوا أكبر الحوادث الاجتماعية وهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فرآهم كلهم مجمعين على وجود عالم روحاني فوق هذا العالم الجسداني ، ودعوا الى الاعتقاد به كافة الناس فأحدثوا بهذه العقيدة أعظم القوارع الأدبية التي كان ولم يزل لها أكبر أثر في حال الانسان وأخلاقه . فرأى أن مجرد حال أولئك الأنبياء والرسل إن لم



يكن هو وحده أدل الأدلة على وجود ذلك العالم ، فلا أقل من أنه يستلفت إليه النظر ، ويوجه عليه الفكر ، ويميل بالعقل الى ترجيح وجوده ، ويحبب اليه المتاع بشهوده .

جال صاحبنا هذه الجولات الطبيعية والتاريخية ثم عاد الى نفسه فرآى أن الحياة الارضية دار آلام وأحزان ، وقرارة أكدار وأشجان ، ومحلة بلايا وأرزاء ، تارة في النفس والمال ، وأخرى في الاخوان والآل ، وأن حوادثها سلسلة من أدوار وأطوار ، لا تنتهى بحلقة منها حتى تبتدى حلقة أخرى والانسان بين تلك الحلقات في حرب عوان ، وضراب وطعان ضد نفسه وأهله وبنى بلده واخوان وطنه وعموم نوعه وفوق ذلك كله ضد الطبيعة وعوارضها ، وهو من معمران هذه المعركة الدائمة في تيار يجرى به الى حيث يجهل . ويجول به في كل جدول . يجتهد ليقف لحظة أو يرتاح هنيهة فيرى أن في وقوفه الهلاك المعجل ، والشقاء المسجل ، فلا يسعه إلا الاستسلام لدفع ذلك التيار فلا يزال يقذف به من جانب الى جانب حتى ينتهى به الى غاية حياته ، أو يصدمه في إحدى جمحاته ، صدمة توقف حركاته . ربما يكون هذا الرجل في أثناء دورانه هذا قد جاء بأولاد اندفعوا معه بهذا التيار نفسه ، وصار حظهم من الحياة لا يفترق عن حظه ، وكثيراً ما تمزقوا أمام عينيه فيكون ألمه مضاعفاً ، وحزنه وأساؤه ليس يسهل على الواصف .

رأى صاحبنا نفسه في هذه الحال فتحقق أن الحياة على هذه الصفة عبثاً ثقيلاً ، بل بلاء وشر أمهولاً يجدر بالانسان معها أن يحسد

الفأرة في وكرها ، والنملة في مسكنها ، والحمامة في عشها ، بل والحجارة في جبلها ، والرمال في سهلها . وبينما هو يفكر في هذا الشأن ويتشس من حالته ويجأ إلى قيوم الوجود ليهديه في حيرته ، وينعشه من وهدهته ، وإذا بصوت جهوري يرن له من أعماق قلبه ، و يصعد إليه من لباب معناه تاليا عليه قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » فلم عندها أنه مستودع أمانة جليلة ، وحامل سر عظيم ، فهم يتعرف تلك الأمانة ، ويدرك معنى ذلك السر ، ولكن أين العرفاء ، أين الأدلاء ، أين المرشدون ، أين الهادون الخيرون ، أين الحكماء الروحانيون ؟ فبينما هو يجأ إلى الله بهذا القلب المنكسر ، واللب المنذعر ، وإذا بصوت كالأول صعد إليه من غيابة سره تاليا عليه قوله عز وجل : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » فرمى بنفسه بين يدي أولئك الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام رجاء أن يأخذوا بيده ليقفوه من هذا الدوران الهائل ، وينقذوه من أسر هذه الحلقات الموبقة ، ولكن من الذي يقصد منهم وهم كثيرون ، ومن الذي يستمد من روحه وأكثر تعاليمهم قد حرفها المحرفون ، وبدلها المبدلون ، فانه ليموج في متائه هذه الخيرة وإذا بالهام يذكره بهذه الآيات : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » فلم يسعه بعد أن يظهر له وجه الخلاص ، وتراءت

له سفينة النجاة إلا أن يعتصم بها من هول ذلك التيار الجارف ، ولكن هيات كيف الوصول الى سلم السفينة وهو من موج أحواله في هبوط وصعود ، ومن ثورتها في اضطراب يضيع الرشد والحيل ، ويغرى باليأس عن بلوغ الأمل ، فبينما هو على مهواة القنوط وإذا بذاكرته مرت به على هذه الآية : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فلم أنه لن يحرم من معونة مبدعه الذي خلقه ووعد به الهداية ، وصوره على هذا الابداع وحاطه بحسن الرعاية ، فلم يزل يأخذ نفسه بأدب القرآن ، ويستمد نور طه عليه الصلاة والسلام حتى هدأت تلك الزعازع ، وركدت هاتيك الزماجر ، وقد كان يظنها لا تهدأ ، ثم منحه الله كرامة السكينة في فؤاده بعد ذلك الجيشان الابليسي ، والسكينة مشرق النور الالهي ، ومهبط السر القدسي ، ومهب نسيمات الطمانينة والراحة « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » فازداد حبا في التأدب بآداب النبي الأعظم وتشبثا بتعاليمه صلى الله عليه وسلم فقال على قدر ذلك قربا من الحق الأقدم ، وتمتعابشهود الجمال الأقدس ، وبصر أب نور الخالق ، وشعوراً بلذة الرضا والاستسلام ، والتذاذاً بلذة العبودية ، وهياماً بما ينتظره في العوالم التي تلي هذا العالم « يهدي الله لنوره من يشاء » واكتسب ثباتاً في قوله وفعله ، ورزاقته في فكره ونظره ، وزايلته تلك الحمى الشيطانية التي كانت تدفعه وراء المطالب الكاذبة ، وتستبعد الكالات الوهمية الكاسدة ، وارتفع عنه ذلك الطيش



الحيوانى ، والنزق الجنونى ، والخرق الشهوانى الذى كان ياعب به لعب  
الطفل بالكرة ، ويستطيره استطاره الريح للريشة ، فكان من الذين  
قال خالقهم فيهم: « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا  
خطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً .  
الآية » ثم كان من أثرتلك الحالة الكاملة عليه ان انفتح له من قبل عالم  
الجلال والجمال نافذة عليه يصل اليه منها نور يغمر فؤاده ، ويحميه من  
غاشيات الفتن المادية ، ومفسدات المطالب الجسدية ، ويحجب عنه  
أفاعيل الشياطين التى لا تفتأ تناصب الانسان العداوة والجفاء ، وتنصب  
له اشراك المكر والخداع ، فيكون من هذا النعيم فى حالة تغبطه عليها  
الاملاك ، وتخدمه فيها القوى الروحانية العلوية والسفلية ، وتخضع له  
نواميس العوالم المعنوية والمادية مما لها نسبة بحالته البشرية .

هذا هو الرجل الذى يعتقد بالعالم الروحانى اعتقاداً ذاتياً ، وعمل  
بمقتضياته عملاً حقيقياً ، ولم يكتف بالثرثرة به لفظياً ، فهو يعيش عيشة  
مباركة طيبة حاصلها على سعادته ، وفرحاً بكمال حالته « ومن يعمل  
من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم  
أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

**\* ( أنزه فى الوجود ) \***

يظن الذين لم يذوقوا طعم العقائد ، ولم ينتعش فؤادهم بسبحات  
نورها سواء كانوا من المنتسبين اليها أو من أضدادها بأنها تغض من

طرف الانسان عن الاحتفال بالعالم الفانى وثببط من حركته - من الرقى فى مجال الكمال التصورى الجسدانى وهو زعم لا أساس له من الواقع ، وما يرى من ذلك عن بعض الأنبياء فان صح كان ذلك خاصا بزمانهم لحكمة يعلمها الله تعالى وهو أمر لا يبنى عليه حكم فان تاريخ الرسل عليهم الصلاة والسلام عامة وتاريخ امامهم وخاتمهم محمد خاصة يدل على أن أكبر الحوادث الاجتماعية التى بعثت الى الكمالات الصورية والمعنوية تمت على أيديهم وبإسقطهم . على انى لا أعنى بالكالات الصورية والترقيات المادية تلوين الألوان وتزويق الالبسة والتفنن فى صنوف المآكل والمشارب واقامة معالم المراقص والملاعب وتهتك النساء وذهابهن فى الزينة والخلاعة كل مذهب . كل هذه الافراطات يجدر أن تسمى نفثات شيطانية ونزعات حيوانية لا كالات انسانية ، وانما أعنى بالرقى المادى المتاع بالمزايا العظيمة التى خلقها الله لنا فى الطبيعة وصرف القدر الواجب من قوانا فى تحسين حياتنا الجسدية تحسيناً لا يفتن النفس والعقل ، ولا يعدو على الشرف والعرض ولا يصرف الانسان عن الجمال الباقي الى الوهم الفانى » قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق «

اذا عجبت من هذا وقلت كيف يجتمع الزهد فى الدنيا مع هذا السعى فيها ، قلنا :

الرجل الذى يعتقد بالعالم الروحانى يعلم تبعاً لذلك أنه النسخة الصغرى لهذا الوجود كله ، وخليفة الله عز وجل فى أرضه ، وانه قد

منح من القوى المختلفة ذات القابليات العجيبة ، مالا يحصره وصف الواصف ، أريد من هذا أنه كلما ازدادا تنورا بأعالم الروح ، واستشراقا لأنواره الباهرة ، ظهرت فيه قوى جديدة ، ومواهب لم يكن يحلم بها ؛ ويرى بالحس أن تلك القوى لم تخلق فيه عبثا ، ولم توضع فيه ثنيات فواده جزافا ، بل خلقت لأغراض يجب أن تسعى إليها ومرام لا تنفك تتطلع لها ؛ فيكون الذى يعتقد بالعالم الروحاني والحالة هذه مجبرا على أعمالها فيما خلقت له ، مسوقا الى توجيهها الى مراميها التى طبعت عليها ، عملا بشروط خلافة الله فى أرضه ، وقيامه على صراط العدل الذى هو طريق حياته ونجاته . وبناء على هذا فيكون دأبه على أعمال قواه واستخدام مواهبه على النحو الذى صوره عليه مبدعه بقدر شغفه بكمال ذاته ، وكلفه بالصعود بها الى العوالم التى يتوق إليها ، لأنه يعلم أنه لا كمال إلا بأدائها ، ولا صعود إلا بالنهوض بأعبائها .

هذا سر تلك الهمم العلية ، والعزمات القوية ، التى تسوق أصحاب العقائد الحققة الى جلائل الأعمال فى هذا العالم الأرضى مع زهدهم ، وتفاهة الطينيات فى نظرهم

الرجل من هؤلاء لا يستثمر الطبيعة لينال منها لذة ، أو يصيب منها وطرا ، فان ما يشعر به من اللذة الروحانية تكفيه النظر للدنيا وما فيها ، ولكنه يستثمر الطبيعة لكونه يعتقد أنه آلة من آلات الحياة . ينشرها حيث يصل اليه امكانه ، وأنه شعاع من نور الكمال خلق لكشف الغمم ، ويقشع الغياهب ، وأنه عامل من عوامل الحق أرسل



ليقارع الباطل حيث كان وأنى وجد .

أنا لا أدعى أن جميع أفراد الأمم ذوات العقائد الحققة هم على هذا النمط من الكمال وإنما هذه الحال مخصوصة بأفراد من تلك الأمم يعدل الواحد منهم الألوف المؤلفة ممن ليسوا على شاكلته . فإذا كان منهم مائة في أمة عظيمة فإن إراداتهم القوية تستولى على مجموع إرادات الملايين من أبناء جلدتهم فيسوقونهم إلى حيث يريدون ويصبغونهم بنفس صبغتهم ولو تقليدياً ، وليس هذا بعجيب بل هو أثر من آثار قانون الموازنة ألا نرى أن من كان جسمه أقوى كان جذبته لمن هو دونه مناسبة لتلك القوة ؟ كذلك من كانت روحه أقوى جذب من هو أضعف منه لا محالة وحركه بحركته . ومن هنا ساغ لنا أن نقول إن روح خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم أقوى الأرواح التي ظهرت في العالم لتأثيرها في الأرواح المحيطة بها تأثيراً لم يعهد له مثيل في تاريخ الانسان

﴿ حال الذي لا يعتقد بالعالم الروحاني ﴾

حاله على الضد من سابقه بمعنى أنه وقف من وجوده في الدائرة التي حددتها له حواسه ، وقصر الكون كله على ما تبصره عينه وتلمسه يده ويتأثر به ذوقه وسمعه وشمه .

بحث عن روحه وعن عالم الغيب فلم يحس بهما بواحدة من تلك الحواس فأنكر وجودهما ، وأراد أن يعلل وجوده ووجود الكائنات

على غير الطريقة الاعتقادية ، فاخترع أسماء اتزعما من حال الموجودات وعلائقها ببعضها وسماها نواميس طبيعية وزعم أنها قديمة كقدم جوهرها وهي المادة ، فزعم أنها هي التي أبدعت كل هذا الابداع الباهر في ملايين لا تحصى من السنين ، وأن ليس الكون وما فيه إلا سلسلة غير متناهية . تولد الدنيا من الدنياوات فتعمل فيها النواميس المتسلطة عليها فتظهر عليها الكائنات الجامدة والحية ، ثم تلبث ما قدر لها أن تلبث ثم تتلاشى وتتحطم بمصادمة كوكب آخر لها أو بسبب آخر وهكذا الحال أبد الأبدين ودهر الداهرين . . . .

ولكن كيف العمل وهو من أدوار الحياة مسوقاً بنفس التيار الذى كان يسوق صاحبنا المعتقد ، ومن هم العيش ومنغصاته على ذات الحال اتى وصفناها هنالك ! ويزيد عليها أمراً فضع عليه من كل ماسبق وهو اليأس من الخلاص !

يرى هذا الرجل نفسه من مضاضة العيش ولواعج الحياة على أحر من الجمر وأمضى من المهتد المصقول ، ويرى المصائب تترى من بين يديه ومن خلفه عليه وعلى أهله وإخوانه وبنى نوعه ، ثم لا يرى له من ذلك مخلصاً ، ولا يتخيل أن له منه معزياً ، ولا يتوهم أن وراء هذا الطور المضطرب طوراً من الحياة يرتاح فيه ، ويلتذ بانتظاره وتمنيه ! ينظر الى مناجل الموت تحصد حوله الرقاب ، وتهدم القصور والقباب ، ويرنو الى مقذوفات البلايا تهوى بالآرائك والعروش ، وتحطم الملوك والجيوش ، ويلتفت الى ما بين يديه وخلفه فيرى صرعى

هذا العالم الفانى يستثيرون الذعر من أعماق الصدور **فويصير جيشين** الخوف من الفؤاد الصخر ! ثم يلتفت الى نفسه فيراها فضلا عماهى عليه من الحال المقيم المقعد ، هدفاً لقارعة تذهب بأنفاسه ، وترجفه الى شق من الأرض لا يقيم بعده رأساً ، ولا يحير جواباً ، تتسلط عليه فيه الهوام والحشرات تستأصل عناصره وتمتص نخاع عظامه ، ثم يلحظ فلا يرى له من ذلك الأمر محيصاً ولا مفراً ، ولا يتصور دونه منجاة ولا مستقراً ، فكيف تكون الظلمة التى تلم بفؤاده والالم الذى يحل بمعناه ، والكمد الذى يستولى على لبه ، والنكد التى يخيم على كيانه ؟

لا جرم أن كل هذه الأمور المزعجة تدفعه رغم أنفه لطلب المخلص فى العالم المادى وتدفعه فى ذلك السبيل دفعا قهريا فيتجه بمجموع قواه الى الماديات لتحسين حياته اتجاها جنونيا ، لا التفاتا كاليا ، فينال منها شأوا لا يستهان به « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » ذلك لأن الله سبحانه خلق الانسان وقذف به الى الأرض وركب فيه من القوى والمواهب ما يسيطر على قوى الطبيعة وتصلح لما فوق ذلك من تسخير القوى الروحانية أيضا أو بالأقل لاستثمارها والاستفادة منها . فهو ان طلب الدين وحده ناله وان طلب الدين والدنيا معا حصلهما ووجد من قواه ما يساعده على ذلك ، وان لم يرد الا الدنيا وحدها بلغ منهاه منها فان منح الله معروضة لكل من طلب كما قال سبحانه : « كلا نمد هؤلاء



وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . »

### ﴿ أثره في الحياة ﴾

تصنع ساعة من الساعات حال الذي يئس من وجود الآخرة ،  
وهب أنك ممن لا يرى في الوجود الا ما يحسه بمشاعره القاصرة ، وادفع  
بنفسك في معمران الحياة وويلاتها واستورد على فكرك اليوم الذي  
يلتف فيه الساق بالساق ، وتبلغ النفس التراق ، وتخيل مضاضة تلك  
اللحظة التي يخمد فيها الحس والشعور ، ويدس فيها الانسان الى أعماق  
القبور ، بعد سكنى القصور ، تاركاً ما لا جمعه بعد طول التعب ، وأفلاذ كبـد  
رباهم بالجهد والنصب ، واخوانا شاطرهم الحزن والطرب ، ومعاهد  
أوطار نال فيها الأرب ، قلنا تصنع أن تكون في هذه الحالة  
الخرجة ساعة من الساعات ثم انظر ما يلم بفؤادك من ألم ووجع ، وما يحيط  
بمعناك من ظلمة وكرب ، ولكن لا تعجل بالخلاص مما أوقعت نفسك  
فيه بل انتظر قليلا ، وتأمل في ثورة عواطفك تأملا طويلا ، تر أن  
اليأس الذي خيم بفؤادك استحال الى حمى تدفعك لتتلس عن الآخرة  
عوضا ، وتزعجك لترتاد عن الخلود بدلا ، وتراك اندفعت اندفاعا  
قهريا لأن تحصل من لذائذ هذا العالم أقصى ما يصل اليه الامكان ، وأبعد  
ما يناله الجهد والعرفان . تراك تستهل خوض الصعاب والعقاب ،  
ونستهون اقتحام المخاوف والأخطار ، جريا وراء المطالب الكبار ،  
والرغائب الجسام ، ولسان حالك يقول :

( وإذا لم يكن من الموت بد \* فمن العجز أن تكون جباناً )  
وترى أن هذا اليأس نفسه قد ألبسك نفس الصفات التي تكسيها  
العقيدة للمعتقد من حيث الجد لاستثمار الطبيعة ولكن مع هذا الفارق  
الجسيم : وهو أن صفات المعتقد يكون سائقها أداء واجبات خلافة  
الله ، وتتميم نظام الوجود في أكمل معناه ، وتجليته في عالم الامكان  
بأجمل مجلاه ، والجرى وراء الكمال الروحي باستعمال سائر قواه  
فيما خلقت له ، فيكون بذلك ساكن الفؤاد ، مطمئن الجأش ، هادئ  
الضمير ، غير مصاب بحمى الطلب ولا رعونة الحاجة ، خالصاً من  
نهم الحس وثورة المشاعر ، ناجياً من وخزات الشهوات وطعنات  
الآهواء . وأما غير المعتقد فيكون مسوقاً إلى العمل والاقدام باغراض  
سافلة ، ومحفوزاً إلى الهمة ولكن بعوامل هائلة ، لا يفكر إلا في إيتاء  
جسده غاية لذاته ، وأقصى امنياته ، فيلازمه الشره أينما سار ، وينغصه  
النهم حيثما دار ، يطلب فلا يهجع ، ويأخذ فلا يشبع ، له في كل نظرة  
وخزة من شهوة ، وفي كل لحظة طعنة من رغبة ، يريد أن يحصل ما يؤمله ،  
فإن ناله كان نيله سبباً لزيادة همه وتفاقم غمه

من هنا ترى أنه ليس بعجيب أن ينال غير المعتقدين مدنية زاهرة .  
وحضارة باهرة ، ولكن لا تنس أن بواعثها هو ما أصف لك ، ولذلك  
لا ترى فيها نصيباً للروح ، ولا قسطاً لكرائم العواطف . ترى أن الحق  
فيها مع القوة . ، والحكم للسيف والفتوة ؛ الضعفاء فيها أسرى الاغنياء ،  
وعبيد الأقوياء ، يستغيثون فلا يغاثون ، ويجأرون فلا يجابون ،

ويتعصبون فينهزمون ، ويضربون عن العمل ثم يرغمون ، فلا يكون لهم من حيلة بعد ذلك إلا العمل بمبادئ الفوضى ، يترصدون لقتل الملوك ، ويعملون على تل العروش ، وينابذون الأديان ، ويهزؤون بالمعابد والكهان ، وينتظرون بالائتم الدوائر الجسام ، والخطوب العظام يشكو عقلاء هذه الأمم من سوء الأحوال ، ومن ضياع العواطف الغوال ، ويذكرونهم بواجبات الكمال والاعتدال ، وينذرونهم بسوء المآل ، ولكن من يسمع ومن يجيب ! القوم سكرى من حمى الشره والنهم ، وصرعى من دن الشهوات والفتن ، فلا يفيقون حتى تنزل بهم القوارع تتلوها القوارع ؛ وتوقظهم الحوادث تتبعها الحوادث : « لنذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » والا فقد عرضوا أنفسهم لما حاق بالاولين من المكذبين : « فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم »

### ﴿ المعتقد بالوراثه ﴾

هو رجل وجد أبويه على ملة من الملل فدرج عليها ثم كبر ولم يحكم فيها نظراً ، ولم يعمل فيها فكراً ، بل قنع من الحياة ونعيم الوجود بما حصله له آباؤه من الرقى المادى فجعل هذا الميراث حظه من الدنيا ، ورام أن يبقى فى يديه كما ورثه ثم ينتقل الى أولاده وأحفاده لا ينقص شيئاً فأشبهه فى ذلك من يرث عن أبويه مالا فيجتزى به غير طامع فى سواه ولم يدر أن حفظ المال يحتاج لعلم وعمل ، ويلزم لاستبقائه



أو إنمائه حالة من الحالتين : إما عقيدة تعرفه أنه هو وماله الله ، وأن كليهما مخلوق لتنظيم ملك الله ، فيسعى له إقامة لأمر الله ، وردعا عن مناهى الله ، فيكون كالمسلمين الأولين حيث انصبت إلى خزائهم ماليات الأمم بمحض قيامهم بخلافة الله . وأما أن يكون بلا عقيدة فيظن أن المال قوام الحياة ، وقيمة الانسان في الوجود ، ودستور الأمم والشعوب ، ومفتاح السعادة والنعيم . . فيسعى اطلبه بكل الوسائل والحيل كما هو حال أكثر أمم هذا العصر . هذان هما السيلان لاستغلال المال واستبقائه ، كما أنهما السيلان لايجاد كل مدنية واستمرارها . أما الذى هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فلا يصلح أن يكون مستقلا في نفسه لأن الأرض لأحد رجائين : أما لرجل يعتقد أن الأرض لله فيأخذها صيانة لأمانة الله وأداء لخلافته ، وأما هى لرجل يعتقد أنها جنته ومأواه ، وليس له غيرها له فيتكالب عليها تكالب الضواري على فرائسها ، ويذل في سبيلها كل ما يملك من حول ومن حيلة أما صاحبنا الذى يعتقد بالوراثة فليس واحداً من هذين الرجائين انه ليس بمعتقد لأنه غير عامل بعقيدته ، ولا جاحد لأنه مقر بقبح الجحود وبشاعته ، فهو وسط بين الاثنين وليس له إلا تحمل أحد النيرين : فاما أن يرضخ لسلطان صاحب العقيدة فيحيه بحياته ، ويصرفه بحركته ، وإما أن يقع تحت ضرس غير المعتقد فيمزقه ثم يذرده مع ما يزدرد .

نعم العقيدة بالوراثة مالم يعززها الذوق الذاتى لا تفيد صاحبها

في الدنيا شيئاً ، ولا أدري ماذا يكون نصيبه في الآخرة . لا تفيد في الدنيا لأنه محروم من دافع العقيدة ودافع الجحود معاً . لأن المعتقد له من شعوره بأنه خليفة الله في الأرض أكبر باعث على استغلال الطبيعة وإحياء مواتها والذهاب في الابداع فيها كل مذهب ، وتاريخ آباءنا الأولين أكبر شاهد ، وغير المعتقد له من يأسه من الآخرة أكبر سائق على التكالب على الدنيا والتنعيم فيها بكل الوسائل الممكنة ، أما الذي اكتفى من العقيدة بمحض تذكره أن أبويه كانا مؤمنين ، فلا يحس بأثر دافع من ذينك الدافعين ، فلا جرم لا يجد في نفسه لذة العقيدة ونورها الذي يضيء عليه مسالك الحياة ، ولا حمى الجحود ويأسه الذي يسوقه لكل ما ينعمه في دنياه ، وبناء عليه فلا يكون نصيبه من الحياة إلا التمتع المؤقت بميراث آباءه فلا يلبث أن تغشاه غاشية من صولة الأمم الطامحة فتجعله لقمة سائغة وتذهب به إلى حيث ذهب الغافلون من كل الأمم .

### ﴿ الفضائل والبرذائل ﴾

قد أكثر الناس في هذا العصر خصوصاً من ذكر هاتين اللفظتين وجالوا بهما في كل مجال فنشأت بازائهما شبهة قوية في الدين يكثر ترددها على ألسنة المشككين ، فيقولون مثلاً : « انكم تدعون ان الفضائل قوام الأمم وملوك الحياة ، وان عدمها نذير التلاشي ومقدمة الدمار ، فما بالكم ترون الأمم التي تزعمون أنهم أحط منكم في الفضائل أو أنهم

مغمورون في الرذائل قد سبقوكم الى ياحات الرفعة والعظمة وأخضعوكم  
لنيرهم ؟ » ليس حل هذه الشبهة بالامر الهين الا اذا أسسناها على قاعدتها  
الطبيعية ، وذلك لا يتأتى إلا بما قررناه آنفاً من أن الناس ثلاثة أقسام :  
قسم يعتقد بالعالم الروحاني ، وقسم لا يعتقد به ، وقسم يعتقد بالوراثة  
فهو وسط بينهما . وقد قررنا بواسطة التحليلات الفلسفية ان لكل من  
المعتقد وغير المعتقد دافعاً يدفعه الى الرقي والتقدم ، وان رقي الأول يشمل  
الرقي الروحي والجسدي ، واما الثاني فرقيه محدود في عالم المادة فقط ،  
وقلنا ان المعتقد بالوراثة لاحظله من أحد هذين الدافعين ، وانه لا يليق  
الا أن يكون تبعاً لأحد هذين الصنفين . والآن نقول : ان ذلك الدافع  
الظاهر الذي يدفع المعتقد للتقدم للأمام هو ( طلب الكمال ) بمعناه  
الحقيقي . هذا الدافع هو مبدأه الذي يسير على مقتضاه ، ويجعله دستوراً  
في كل أمر من أمور دنياه . وأما غير المعتقد الذي يرى نفسه مدفوعاً  
لتكميل بدنه واشباع حواسه فبدأه ( تنازع الحياة ) لأنه لا يرى سعادته  
الا في نيل أقصى ما يستطيعه من المال والجاه فتراه ينازع الناس فيهما  
منازعة اليأس المستमित بما يراه أحسن الوسائل .

هذان الدافعان دافع طلب الكمال ، ودافع تنازع الحياة دافعان  
عظيمان للحياة ، ودستوران كبيران للبقاء فهما من هذه الجهة فضيلتان  
طبيعتان ، ولكنهما لعالمين مختلفين . أما فضيلة طلب الكمال فهي  
فضيلة العالم الانساني لأنها تلائم سمو فطرته وتوافق جوهر عنصره كما  
أريناك ذلك في الفصول السابقة ، وأما فضيلة تنازع الحياة فهي فضيلة



العالم الحيوانى بأسره لأنهم عاثشون بهذا الدستور وهى بالنسبة لهم فضيلة طبيعية مقيمة لحياتهم ولا يصح أن نعبر عنها برذيلة الا باضافتها للنوع الانسانى لأنها لا تليق به ولا تؤديه الى غايته التى خلق لأجلها . ومن هنا ترى أن للأمم الخيار فى القيام على أحد هذين الدستورين لأنها تحيا بكل منهما حياة طبيعية ولكن مع هذا الفارق الجسيم وهو أن الأمة التى يكون مبدأها ( طلب الكمال ) تنال كمال الروح وكمال الجسد معاً كما حصل لأتباع الرسل الذين يقول الله تعالى فيهم : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . وأما الأمة التى يكون مبدأها تنازع الحياة فلا تنال إلا كمال الجسد وحده كما قال تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون »

### ﴿ بيان لطبيعة هذين المبدئين ﴾

مبدأ ( طلب الكمال ) الذى هو دستور المؤمن مرتكز مباشرة على الاعتقاد بأن الانسان جسد وروح ، وأن روحه هذه هبطت اليه من عالم التقديس والجمال لتبتلى فى الدنيا الى حين ، ولتتم بهذا التدلى ابداعاً قدره الخالق لا يعلم سره إلا هو ، وأنها بعد أداء وظيفتها فى هذا العالم تعرج الى عالمها على جناح جهادها الحيوى الى حظائر النور الأقدس فى عالم فيه مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتنضم هناك الى أرواح عالية سبقتها بالكمال والايمان فتبقى معها بقاء أبدياً سرمدياً فى نعيم مقيم ، وراحة لا يشوبها ألم . ولا يخفى على الناظر أن

هذا ارتقاء في الشعور ارتفع به الانسان عن عالم الحيوان الذي لاحظ له من الوجود الا التكالب على إثباع كرشه وإيفاء حاجة حواسه .

أما مبدأ الذي لا يعتقد بعالم الروح فهو ( تنازع الحياة ) لا طلب الكمال . وهو مبدأ مؤسس على الزعم بأن الانسان لم يخرج عن كونه أرقى الحيوانات ولا فرق بينه وبينها في شيء على الاطلاق إلا في كونه أرقى منها عقلاً وأوسع إدراكاً وأقدر على استثمار الطبيعة بما وهب من الآلات الجسمية ؛ وأنه ليس له من الحياة إلا ما قدر لجسمه من البقاء سنوات معدودة ، ثم إذا مات تحللت عناصره في الأرض وذهب كل عنصر إلى ما يشبهه من عناصرها ، وفي عقله وإدراكه وذهب إلى هوة العدم كما تذهب الدجاجة والهريرة سواء بسواء ؛ وإن الانسان لا مناص لهم أن يكون مع معاشريه في حرب مستمرة ينازعهم الحياة وينازعونها إياها والغلبة في هذه الحرب تابعة للقوة العضلية والعسكرية ، فمن كان أقوى يداً وعقلاً كان أحق بثمرة الحياة دون غيره أما الضعيف في الجسم والفكر فلا يكون نصيبه من المعيشة إلا النكد الواصب والهم الناصب ، ولا بأس عليه بعد ذلك أن سُم الحياة وأرسل نفسه إلى عالم العدم . أما الصفات المحمودة والخصال الشريفة فليست مطلوبة إلماً تجراليه من المنافع المادية والأدوية في دائرة هذه الحياة وحدها . أصحاب هذا المبدأ لا يوجبون البشاشة مثلاً لكونها خلة من خلال الكمال التي يشاكل بها الانسان سكان عالم التقديس وتهيته

لجوارهم متى فارقت روحه الجسد ، ولكنهم يوجبوها استجلاباً لرضى  
المعاشرين الذين يتعاملون معهم واستدرااراً للربح منهم ومزاحمة لمن  
يؤدي مثل وظائفهم .

وبناء على هذا فالفضائل والردائل لدى أصحاب هذا المبدأ دائرة  
حول حطام الدنيا ونعيمها ، وهو بعينه مبدأ العالم الحيواني تقوم عليه طوائفه  
برمتها ، ولها العذر في ذلك فانها محدودة القوى والمواهب محصورة  
العقول والملكات ، لا تشعر بغير ما تحس به ولا تتخيل مرمى  
وراء ما تنظره . أما الانسان الذي لا يقف عقله عند حد ، ولا ينتهى  
تصوره عند غاية ، فأشد ما يظلم به نفسه أن يحشرها إلى أدنى من عالمها ،  
ويسلبها أشرف خصائصها .

هذا المبدأ الحيواني أى مبدأ ( تنازع البقاء ) يصلح لاقامة أمر  
الطوائف الانسانية ، بل ويعيشها للرقى والفلاح فى السعادة الجسدية ،  
لأنه لم يخرج عن كونه مبدأ طبيعياً تقوم به أشخاص لا يحصى لهم  
عدد من الكائنات الحيوانية ؛ ولكن فيه غبن فاحش على الانسان ،  
لأنه بقيامه على هذا المبدأ لا يحصل الا الحياة الدنيا ثم لا يزايله  
الهم والكدر طريقة عين ، ولا يدعه الكمد والوحشة يطمئن الى  
شئ ، وكثرة المتحيرين فى الأمم القائمة بهذا المبدأ دليل محسوس  
على ما نقول .

أما مبدأ ( طلب الكمال ) فهو المبدأ الكامل الذى يليق بالانسان  
ويجدر به لأنه يكسبه الحياتين معا كسبا طبيعياً لأن الكمال فى ذاته



الغاية القصوى التى ينتهى اليها كل شيء ويخضع لها كل شيء . فما من شيء الا وله كمال خاص خلق مسوقا اليه فاما أن يحصله فيعيش على أكمل صفة من وجوده الخاص ، واما أن تصرفه عنه الصوارف فلا يزال يتخبط فى كيانه حتى يلفظه الوجود الى يتهور العدم . ولما كان الانسان أكمل الكائنات وجب أن يكون كماله أكمل الكمالات ؛ فلا جرم أنه متى تكمل امتلك سر نواميس الكائنات التى فى عالمه فتخضع له خضوعا اضطراريا ، فتأتيه الدنيا بحذا فيرها صاغرة تقبل قدميه وتقف بين يديه ، ألم تر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نهض هو وأصحابه يؤدون واجب الطاعة لله فى طلب الكمال خضع لهم كل شيء وخافهم كل شيء ، وانحدرت اليهم سائر خيرات الارض انحدارا لم ير مثله فى تاريخ الفاتحين . فانظر كيف أنهم قاموا المحض طلب الآخرة ، فجاءتهم الدنيا صاغرة ، والأعجب من ذلك أنها هربت اليهم من أولئك الشعوب الدين كانوا يعبدونها ويسجدون لها ، ولا يعرفون لهم كالا سواها ، ورضيت أن تكون الخادمة الخاضعة لأولئك الفضلاء الذين كانوا يمجونها وينكرونها ، ولا يحفلون بالنظر اليها فى حسناتها وبهاثها . أما تلك الأمم التى تجعل مبادئها فى الحياة كمبادئ الحيوانات العجماء فلا يكون لها حظ الا فى الحياة الدنيا ولا تكاد تنالها الا باتخاذها لها من دون الله ، وصنما لا ترى لها ملجأ سواه ، وناهيك بما فى هذا من الاذلال لتلك الجهة الانسانية السماء ، التى لم تخلق إلا لتحاذى السماء . أما لو علم الانسان ان مفتاح السعادة الحقة هو طلب الكمال وأن

سبيله سبيل الله لما اذلوا أنفسهم هذا الذل الفاضح ولطلبوه من صميم  
اقتدتهم فقالوا سعادتي الحياتين معا ، والى هذا السر العمرانى الكبير  
يشير الله تعالى بقوله : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب  
الدنيا والآخرة . »



### ﴿ المدنية الاسلامية والمدنية الحديثة ﴾

الاسلام دين الله وهو الحقيقة المطلقة التى استودعها من عهد  
نشأة الانسان قلوب سائر الانبياء والرسل الكرام « شرع لكم من  
الدين ما وصى به نوحا الخ الآية » ولكن كانت أيدى تلك الأمم  
الجائرة تمتد الى تلك التعاليم بالتحريف والتبديل رجاء أن يطبقوها  
على ما يناسب مقتضيات النقص الذى هم فيه ، ودام هذا الحال آمادا  
حتى اقتضت الحكمة الالهية ايداع هذا السر الأقدس لخاتم أنبيائه  
ونخبة أصفياه محمد صلى الله عليه وسلم فى كتاب لا يأتية الباطل من  
بين يديه ولا من خلفه وقد حماه الله من امتداد الأيدى المحرقة اليه ،  
وصانه من عدوان العادين عليه ، وهو الى اليوم كما أنزل يقيم الحجة  
على الغالى والمقصر ، ويبشر المعتدل وينذر المعذر ، ويشير الى الطريق  
الذى لا يضل سالكه ولا يخاف طارقه ، وهو طريق العدل المستقيم  
« وان هذا صراطى مستقيم فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن  
سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

الغرض الأسمى من الاسلام تخليص الانسان من قدر التربية

الفاسدة ، وأثر الوسط الرديء ، ووضر الوراثة الساقطة التي تلم بمجموعها بفؤاد الانسان فتحرمه من سبجات نور مبدعه ، وتعميه عن رؤية الطريق الذي دفعه فيه مولاه وهو الطريق الذي يقول عنه عز وجل : « انا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفوراً . » هذا السبيل هو سبيل الكمال ، هو سبيل الجمال هو سبيل الرحمة ، هو سبيل الهدى ، وان شئت التعبير باللهجة الجديدة فقل هو سبيل التقدم ، هو سبيل التمدن . وهو السبيل الذي ساره خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم بوحي من مولاه فكان من شأنه ما كان ، وساره أصحابه من بعده فأصبحوا ملوك الأرض وملوك السماء .

أنا لا أريد بالمدينة الاسلامية والمدينة الحديثة مبلغ الرقى الصناعي في كليهما ، لا ولكنى أريد الروح التي سافت اليهما وأقامتهما على قطبيهما والسبب الذي يجعلنى أفضل روح الأولى على روح الثانية ، هو لكون تلك مبدأها طلب الكمال بأخص معانيه وهو المبدأ الجدير بالانسان المناسب لما وهب من المنح الجسام ، لدفعه الانسان الى طريق الحق والعدل واكسابه حظ الحياتين معا ، أما هذه ( أى المدينة الحديثة ) فمبدأها تنازع الحياة وهو المبدأ الذى سطنا أثره فى الفصول المتقدمة وقلنا انه لا يناسب الكمال الفطرى للانسان ، وان فيه غبنا عليه لعدم صلاحيته الا لنوال الحياة الفانية دون الباقية . على أننا لسنا أول الناعين على هذه المدينة نقص مبدئها فان عقلاءها أنفسهم يشاركوننا فى هذا .  
لنظر وقد نقلنا كثيرا من أقوالهم فى ذلك فى الأجزاء السابقة



ربما يقول قائل : « ان كنت تنقم على من يدعو الى الأخذ بأسباب المدنية الجديدة والسير على قوانينها فهل أنت ممن يسهل عليه أن نبقى كما نحن تناولنا الحوادث وتتقاذفنا المثالات ، ونحن بين ذلك في حال لا يرضى به من له مسكة من شعور ؟ ألا ترضخ لقول القائل من أننا في عصر لا مناص لنا فيه من تقليد المتمدنين في جميع شؤونهم بدون شرط لنستطيع مجاراتهم في الحياة وحفظ شخصيتنا بازاءهم ؟ » نقول اننا ممن يرى ان دون التمسك بأصول المدنية الحديثة على علاقتها وبمحض الدعوة الاجمالية اليها عقبات اجتماعية وحوائل أدبية ومادية شديدة المراس ، بحيث اننا لو أضعنا وقتنا في محاولتها ومعالجتها لذهب تعبنا أدراج ولم نحن من وراء ذلك الا تجريبي أصحاب الأهواء الى الجرى وراء شهواتهم بغير مبالاة تحت ستار الفكر الجديدة وحجاب الأخذ بأسباب الحضارة . ألم تر أنه من يوم ظهور الدعوة فينا الى لزوم التمسك بآداب المدنية الجديدة لم نحصل من ورائها غير الخسران والبوار ولم تفعل فينا الا تشجيع الشبان والكهول على الانطلاق في ميدان الاباحة والحرية البهيمية ، بحجة أنهم طليقة النشأة الشرقية . والسابقون الغيرون في طريق المدنية ، وماذا تنتظر لنا من النجاح والفلاح لو تبعتهم البقية الباقية ؟

إذا تقرر هذا فعندى أن تداعينا الى الرجوع الى مبادئنا الأصلية القويمة أضمن لحياتنا وأقرب لاصلاح أحوالنا من تلك الثثرة باسم المدنية الحديثة التي رأيت من أثرها ما رأيت .

فان قيل : « هب انك غير واهم في قضيتك من امكان الرجوع الى الفضائل الاسلامية الطاهرة وهب انتا أصبحنا كلنا فضلاء أتقياء ، فمادا يفيدنا ذلك امام قوة هذه المدينة الجديدة من حيث الصناعة وأساليب الاستعمار . »

نقول أما كوننا غير واهمين في أن الدعوة الى الفضائل الاسلامية تفيد فائدة عظمت في الرجوع اليهامهما قاومتها الأحوال الساقطة التي وقعنا فيها ، فذلك أمر ليس بعجيب ولا هو بدع في تاريخ الطوائف الانسانية . فاننا من المضانك الاجتماعية والارتباكات المادية والأدبية في الحال التي تصلح لتدفعنا رغماً عنا الى طلب المخلص وارتداد الملجأ بكل الوسائل . ولو درس الناس سر التفاف الشعوب بحذاويرها حول المصلحين لرأى أن من أكبر أسبابها ما هم فيه من الأخطار التي تهددهم بالزوال والتلاشي ، فان الطبيعة الانسانية مجبولة على عدم الاستسلام للفناء الا بعد نضوب مادة ما أودع فيها من المقاومة والمقاومة . ونحن بما نرانا فيه اليوم من الشعور بلزوم المخلص ، لانظن أن بيننا وبين الأخذ بالفضائل الحقبة الا دعوة داع متعظ ، وارشاد هاد مهتد . وليس بعزيز على الله ان يتلافانا بنبوغ أرواح كبيرة تنشر الحياة حولها وتكشف عن الأعين والعقول تلك الغمم التي انسدت عليها من غاشيات الغرور والغفلة . أما الشك في أثر الفضائل امام قوة هذه المدينة فهو غمط لحق الفضيلة ، وجهل لأثرها على نفوس الأخذين بها . أنا لا أعنى بالفضيلة تلك الظواهر التي تبدو على بعض ضعفاء النفوس

كاللبن والبشاشة والانعطاف والخالخ من الأخلاق التي يظنها الناس فضائل ويقيسون الفضلاء على أصحابها فيشكون في آثارهم في بناء صروح مجد الأمة وإعادة شرفها . وأن لهم العنبر في هذا الشك ماداموا لا يميزون بين الضعف الذي يؤدي للحشمة والوقار واللين والهشاشة والسماحة وبين الفضيلة التي لاحد لسلطانها على النفوس .

انا ان قلت فضيلة فانما أعني بها تلك الروح السامية التي تهبط على النفوس فتزعج أصحابها عن الوقوف في قدر النقص ، والخوض في حماة الدنيا ، وتهيب بهم الى مسابقة الأمم في مزايا الحياة ، ونعمة البقاء ، وليس بعظيم على أمة تهبط عليها هذه الروح أن ترقى في السنة الواحدة مالا يرقاه غيرها في قرن من الزمان .

ليس ما أقوله بالشعر ولا بالخيال فقد هبطت هذه الروح العالية على أصحاب المصلح الأعظم بواسطته صلى الله عليه وسلم وهم من القلة بحيث لا يتجاوزون عقود العشرات وحواليهم من الأعداء الألداء والصناديد الأقوياء والأضداد العتاة ما كان يكفي أن يزرع اليأس في قلوب أضعاف أضعافهم ممن ليسوا على منهاجهم فلا يعودون يذكرون النهوض ولا تمنيا ، ولكن روح الفضيلة قوة الهية لا يعرفها الا الفضلاء فلم تزل تفعّل فيهم فعلها حتى رأينا تلك الشرذمة القليلة جذبت اليها العواطف والقلوب وانضمت الى أمثالها بسرعة مدهشة ثم تحركت حركة صارت بها صاحبة السلطان الأقوى على أكثر المعمور .

ان تعجب من هذا فأعجب منه رجل يرى هذا الأثر المدهش



—45834—

يقول قائل لقد طفت بنا من شعب المباحث في مناح شتى ومطارح بعيدة وجعلتنا بذلك كما قلت في دائرة محدودة يحيط بها البصر من أول نظرة ويستطيع قارئك أن يشطح معك الى حيث أردت ثم يعود الى مركزه على طريق مستقيم لا يتعداه ، الا أنك قسمت الناس الى ثلاث رجال وقلت ان أحدهم رجل يعتقد بوجود العالم الروحاني وعامل بما يقتضيه اعتقاده ، والثاني جاحد به ، والثالث يعتقد وراثته عن آبائه وقومه فهو لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ثم فصلت المبادئ الحيوية التي تنتج من عقيدة كل رجل من هؤلاء الرجال الثلاثة فقلت : ان مبدأ الأول ( طلب الكمال ) ومبدأ الثاني ( تنازع البقاء ) والثالث لامبدأ له بالكلية ، ثم سرت في تفصيل هذه التقسيمات ماشاء الله أن تسير ولكن بقي عليك أمر أعظم خطراً وأشدّ مراساً من كل ما سبق وهو اقامة الحجة البينة على وجود ذلك العالم الروحاني ، ونصب الدليل الواضح المحسوس على ان الذي يعتقد به ليس يضرب في يدياء الخيال ولا يسبح في آل الوهم خلافاً لما يزعم أعداء العقائد ، وسياسرة الاحاد ، نقول نعم بقي علينا ذلك وهو المفتاح الوحيد لمغالق كل الشبه المتقدمة ولكن سلوكنا ذلك السبيل يستدعي توجيه نظر قارئنا الى

حقيقة رئيسية وهى ان نكران عالم الروح ليس بنتيجة علم من العلوم ،  
 أوزبدة فلسفة من الفلسفات نشأت فى قرن من القرون ووقفت حيث  
 هى بحيث أن من قرأ ذلك العلم أوشارف تلك الفلسفة أنكر الروح  
 والخلود . كلا وانما ذلك الانكار حال يعترى النفوس المستعدة له فيسلب  
 عنها أجمل صفاتها وهى الطمأنينة للحق ويجعلها مسرحا لشياطين الشكوك  
 والريب حتى ان الواحد من المصابين بهذا المرض ليشك فى وجود  
 ذاته ووجود الكون المحيط به من كل مكان وقد حكى الله لنا الوصف  
 المميز لهذا المرض فقال تعالى : « ولوقد جئنا عليهم باباً من السماء فظلموا  
 فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »  
 ذلك الحال الذى يحل بالنفوس وينشب فيها ، فيلفتها عن ذاتها  
 ويطوح بها فى متاهات الشك ، ومحارات الشبه ، ويحول بينها وبين  
 أنوار الحق الواضحة ، لا يحصل من قراءة علم مخصوص كما قدمنا وانما  
 يحصل كما تحصل كل حال من الأحوال الانسانية بواسطة أسباب كثيرة  
 منشأها الترية والمعاشرون وروح المدنية التى فيها الأمة ، ومقام دينها  
 السابق من الضغط على العقول والأفكار . أو من الحرية والاطلاق  
 الخ الخ من الأسباب التى تشكل الطباع والأموال ، وتصيبها فى قالب  
 لا يقدر على بعضها أى علم من العلوم .

ومن ينتقد حال الأوربيين فى القرن الماضى والقرن الحالى كان  
 ولم يزل يرى أن الاتحاد فى بعض طبقات العامة أكثر منه لدى العلماء  
 أنفسهم مما يدل تمام الدلالة على أن الإنكار لا يأتى من صفة العلوم

وحدها بل من الأسباب الاجتماعية والأدبية التي تعيش الأمة في وسطها أيضاً .

وربما يظهر لنا بواسطة الاستقراء والتحليل أن تلك الأسباب الاجتماعية والأدبية أشدّ فعلاً في أحداث تلك الحال الإلحادية من العلوم التي يقصد بها بث الإلحاد والجمود بغاية الصراحة .

ذلك لأن سلطان العلم تابع لدرجة الاقتناع ، والاقتناع كما لا يخفى ليس فيه الناس سواء بخلاف تلك الأسباب الاجتماعية والأدبية فإنها متسلطة على الكل على حد سواء ، بل هي العوامل التي تتلقى الإنسان وهو على حالة السذاجة الطفولية فتنشئه على قالبها ، وتخرجه على مقتضى أسلوبها ، فيشب متشبعاً بدرياقها وسمها ، ريان من صفوها وكدرها ، ولسان حاله يقول

( أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلباً خالياً فتمكنا )

إذا تقرر هذا ربما علم قارئنا أن سيرنا في اثبات العالم الروحاني سيدفعنا رغماً عنا الى درس تلك الأسباب العديدة التي تهىء النفوس لقبول مرض الإلحاد ، ولما كان عش الإلحاد الحاضر هو الغرب فسيكون كلا منا في تلك الأسباب موجهاً اليه ان شاء الله تعالى سواء فيما يختص بالاسباب العلمية التي هيأه كمنذهب لامارك وداروين اللذين يزعمان أن الانسان مترق من القرد ، ومنذهب اجوست كونت وليتريه وغيرها الذين قصروا العلم على الحواس الخمس وسدوا في



وجه الانسان نافذة النور السماوى، أو فيما يختص بعاداتهم وأميالهم وبواعث مدنيّتهم التى أصبحت فتنة العالم الأرضى اليوم .

نسلك هذا المسلك الشاق وكان فى وسعنا أن نقتصر على اثبات العالم الروحانى بواسطة التحليلات العلمية والمقررات الفلسفية ، ولكن ما الفائدة من ذلك بعد ما علمنا أن الاتحاد اولى به أن يسمى حالاً تنتج أسباب كثيرة من أن يسمى علماً تثمره المطالعة فى كتب مخصوصة .

هب أن الناس كلهم أصبحوا يعتقدون بوجود العالم الروحانى فماذا يكون من أثر هذه العقيدة على أفعالهم ماداموا فى هيئة من الحياة تبعثهم لصد ما يعتقدونه رغماً عن أنوفهم؟ ألسنا نرى فى أنفسنا أننا قد نعتقد فى أمر من الأمور أنه حق وصواب وصد، باطل وخطأ فنجد أنفسنا مسوقين لآتيان الباطل ، محفوزين لغشيان الخطأ ، بينما يكون قلبنا يتضرم أسفاً وندماً ، واحساساتنا تحترق أسى وسدماً ؟ أليس ذلك نتيجة أسباب وعوامل تنشأ من طبيعة الحالة الحيوية التى فيها الأمة ؟

أما نحن فبدرسنا للأسباب التى تولد ذلك الحال السيء تؤمل أن نجعل أمتنا على بصيرة من الأمر قبل أن تتوغل فى مظاهر هذه المدنية المنصبة عليها من كل مكان والله ولى المؤمنين

﴿ محاضرة مدارك الفلاسفة الأقدمين ﴾

( فى مسألة اللاهوت )

أتينا فى مبحث الانسان على أكبر مدارك الفلاسفة اليونانيين

في المسألة اللاهوتية واستعرضنا أمام قارئنا المناهج التي نهجوها في  
تقرير عقيدة وجود الصانع جل وعز ، فرأينا أن سقراط استند على  
البرهان الطبيعي والتاريخي . عرض بالأول على انظار خصومه بدائع  
الصنائع في هذا الوجود ، واختار منها ما وسعه عليه فبسطه بسطاً جديلاً  
وألزم خصمه من تلك الجهة بلزوم الاعتقاد بوجود موجد لهذه  
الأشياء يمسكها بقوة ويمدها بحوله ورحمته . وحاول يبرهانه التاريخي  
أن يقنع مناظره الى أن العقيدة مساك الأمم ونظام الأمور ، وأنها  
عامة في سائر النوع الانساني ، شائعة في كل أجياله ، واستبعد بذلك  
أن يكون النوع الانساني كله مجعاً على غير حقيقة .

ورأينا من براهين أفلاطون وارسطوأنهما خرجا عن حدود  
البراهين الطبيعية ودخلا الى متاهات الفلسفة الكلامية فتكلما عن  
لزوم وجود سبب أولى للأسباب الثانوية ومحرك أصلي يهب الحركة  
للحركات العلوية والسفلية ، ونهجا لبراهينهما مناهج تقتضيها فلسفتهما .  
وتستدعيها مداركها الخصوصية .

كل هذا أشرف عليه قارئنا تفصيلاً ولعله قد اتضح له مثلنا ان  
أحسن تلك البراهين كلها اسلوباً ، وأقواها على ذهن السامع تأثيراً ،  
وأشدها لمقاتل الخصم المعاند اصابة ، هو البرهان الطبيعي الذي بسطه  
( سقراط ) . وإن براهين ارسطو وأفلاطون رغماً عن علوها عن  
متناول العقول الوسطى فيها من التعسف والافتيات والحكم على

المجاهيل مالا يخفى على ذى فطنة . ولا غرو بعد ذلك إن قلنا لقراءتنا إن أحسن تلك البراهين أثراً في الأمانة التي نشأت فيها هي براهين (سقراط) فقد أصلى الملاحدة بها ناراً حامية نثرت نظامهم ، وحلت معاقدهم ، وأخذت بمتنفسهم ، ولم يأمنوا شره الا بوسيلة لا يستعملها الا الجبناء السفلة ، وذلك بالوشاية في حقه لدى حكومة تلك العصور ، واتهامه بالألحاد في آلهتهم ، فانصاعت تلك الحكومة الجاهلة لمزاعمهم وحكمت عليه بالقتل سماً ، فتجرعه بصبر الحكماء ، وثبات أصحاب الاعتقاد وهو يدرس كما قلنا لتلامذته في السجن خلود النفس بعد الموت .

ذلك لأن سلوك مسالك الخفاء ومناهج الاغماض في البرهان على مسألة كالمسألة اللاهوتية هي أجلى المسائل وأوضحها ينقل تلك المسألة من حيز الوضوح والجلال ، ويحشرها الى عالم النظريات والظنون وهناك يتسع فيها المجال للأخذ والرد ، ويشتد فيها الحجاج بين قبول وصد؟ ويظن كلا الحزبين أنهما في موضوعهما الأصلي وهما في الحقيقة قد خرجا الى غيره مما ليس بينه وبين ما كانا فيه أدنى علاقة ولا نسبة . ثم لا يكون من وراء كل هذه الجلبة والصياح الا تثبيت الملحد في الحاده ، وابقاء الجامد على جموده ، وخروج المؤمن منه وقد أضاع وقته ، ورضى من الغنيمة بالاياب .

ذلك لأن النفوس من جهة الاستعداد للعيقة وعدم الاستعداد



لها تنقسم الى ثلاثة أقسام : قسم مستعد للإيمان بالفطرة . وقسم غير مستعد له بالفطرة ، وقسم جامد ساذج .

### ﴿ النفس المستعدة للإيمان بالفطرة ﴾

هذه نفس كريمة رقيقة الاحساسات ، دقيقة الشعور ، حية العواطف ، كثيرة الانفعالات بالفواعل ، جواله لا تقف عند حد ، تواقه لا يقنعها غاية تصل اليها ، عالية لا ترضى بشيء ولو سمت على السماك الأعزل ، وحلت بين الملوك في المحل الأول ، بعيدة الآمال لا يسع هذا العالم المادى بعض ما تنوق اليه وتتمناه من صنوف الكمال والجمال ، واسعة الخيال يضيق هذا الوجود المحسوس عن مضطرب خيالها ، ومختلف أحلامها ، شديدة الحرص على الحقيقة فلا تقنعها قشور الأمور ، ولا ظواهر الشؤون ، فهي تميل دائماً لقب الأغلاف ، وهتك الحجب توصل للباب ما تبصره ، وكنه ما ترمى اليه ؛ رحيمة الفؤاد تكاد تذوب أسى على نقصان الناقص ، وأسفا على عيب المعيب ، ولولا شيء من العلم يريها أن الله أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين ، لقضت أيامها حزنا وكدا على جهل الجاهل وغرور الغافل ، وميل المائل .

هذه النفس تعشق الكمال وتتحرق لنيله ، وتهوى الجمال وتفتنى شوقا لاستشراقه ، وتحس بالفضيلة وتلهف للوصول الى غايتها ، وتشعر

بجلالة العلوم وتتضرم للسبح في لجتها .

تنظر الى أديم السماء الناصع والشمس في أبهة لآلائها ، تختال في غلائل أشعتها ، فتود أن تنفذ الى سر هذا الفضاء الفخم فتردها أنوار الشمس حسرى ، تذرف دموع الهزيمة وتسكب عبرة الخيبة ، ألا انها مجرد من ذاتها قوة أقوى من قوة البصر بما لا يقدر وهي قوة البصيرة ، فتصعد بها على أجنحة التأمل والاعتبار ؛ تطير من أفق الى أفق ومن سماء الى سماء ، والى أين ؟ عند ذاك تصيح هل من نهاية ؟ هل من غاية ؟ هل من حد يقف التصور عنده ؟ هل من تخم يرتد الفكر بعده ؟

تنهزم هذه النفس من عالم الحس فتعترىها دهشة القصور ، ووحشة التقصير ، فتميل لتعويض ما فقدته من شمها بإدراك سرها ، فتنزل الى عالمها في سويداء قوادها ، وتقطع دونها علاقات المحسوسات وشواغلها فتغوص في بحار معانيها على قدر ما تسمح لها به قواها فلا تجد نهاية ترتد دونها ، ولا غاية تقف أمامها ، فتقف حيرى لا تحير جوابا ، ولا تستطيع خطابا ، ثم ترتد الى حالها الأولى حائرة بين عالمين لانهايين ، عالم محيط بها ، وعالم في داخلها هي محيطة به ، لا تدرى أيهما أصل لصاحبه ، فلا تسل بعد ذلك عما يساورها من أرق وضجر ، وما يلابسها من ألم وسهر . لفوات مطلوبها ، وعجزها عن نيل بغيتها .

هذه النفس لا تقنع بعدهايتين الخيبتين التي صادفتها بلزوم السكينة ، والمعيشة كما يحب . ولو على غير طمأنينة . هيهات ! بل لا تزال تترامى طوراً

في مهاييع هذه اللانهاية السماوية ، وآخر في مضارب هذه اللانهاية  
الفؤادية ، وكلها تخيب تثن ولكن لأنين اليأس ، وتحن الى مطلوب  
ولو لم يكن متميزا .

هذه النفس الحية المضطربة لا تطمئن الا اذا وجدت العقيدة ،  
ولا ترتاح الا اذا سلكت مناهجا الرشيدة .

هذه النفس في كمال خلقها أو استعدادها للكمال تحتاج لغاية كاملة  
تركز فيها نهايات أخلاقها ، وتجعلها قابلة لصاعدات عواطفها واحساساتها ،  
وهذه الغاية لا تقنعها ، لما اتصفت به من العلو عن المحسوسات والماديات ،  
الا اذا كانت أعلى من كل خيال يضطرب في ذهنها ، وأسمى من كل  
كمال يجيش في صدرها ، وليس كذلك الا الله وحده فهو كل الكمال ،  
وغاية الجمال ، سبحانه وتعالى .

هذه النفس في اطاقها ورحمتها ورفقة عواطفها وجمال جوهرها  
تنظر الى الكون فيشق عليها أن تعتقه خاليا من اله رحيم ينشر على  
المخلوقات أشعة رحمته ، ويقوم أمورها بحوله وقدرته ، ويفيض على  
أصنافها من افاضات عنايته ورأفته .

هذه النفس الطاهرة لو اتفق وأقنعها مقنع جدا بعدم العقيدة ، اضطربت  
وتألمت ، وتخبطت وتوجعت ، ولا تزال كذلك حتى تجد سلام العقيدة  
على صدرها ، وتحس بريحاتها في روحها ، والاعاشت منعصة متألمة  
لا يرتاح لها بال ، ولا يقر لها قرار .

هذه النفس الكريمة هي النفس الانسانية السليمة من آفات النقص ،



معوارض الخداج ، فهي بطلب العقيدة انما تؤدي وظيفتها التي خلقت لها ، كما تؤدي العين وظيفتها الطبيعية بإبصار المبصرات وإدراك الألوان والأشكال .

إذا تقرر هذا فما فائدة البرهان الفلسفي لمثل هذه النفس المؤمنة بالفطرة وليست في حاجة إليه بوجه من الوجوه ؟

هذه النفس لا تنتظر البرهان لتؤمن بخالقها فهي مؤمنة به بذاتها كما قررنا ذلك ، بل هي ذاتها اصرح البراهين على وجود مبدعها فلا ترى في البراهين الفلسفية الا اضاعة الوقت فيما لا يجدي ولا ينفع ، بل ربما عدتها ضرراً على العقيدة لا غماضها في طرق الاستدلال ، وسلوكها مخالج الجفاء في أمر هو من الواضوح بحيث لا يحتاج الا الى محض استلفات كقوله تعالى : « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم »

### ﴿ النفس الكافرة بالفطرة ﴾

هذه نفس مظلمة خشنة الاحساسات ، غليظة الشعور بكل ما لا يؤديها الى لذة جسدية ، أو شهوة حيوانية ، قليلة الانفعالات بالفواعل الا ما يدفعها لغشيان قبيح أو اتيان أمر منكر ، جوالة لا تقف عند حد ، ولكن في الأميال السفلية ، والمطالب البهيمية ، تواقه لا يقنعها غاية ، ولكن من غايات هذا الجسد المظلم ولذائذه ، ساقلة ترضى بالهون متى لم تجد فيها القوة الحيوانية لبلوغ مآربها ، فاذا آنست من نفسها شيئاً من

الحول والحيلة نهضت نهضة البهيمة المفترسة تعدو على الأموال والأعراض والأنفس ، لا ترتدع بزاجر قلبى ولا تنتهى ببناء وجدانى ، شديدة الحرص ولكن على ما فيه لها منفعة عاجلة ، أو طلبة سائغة : وقاقمع الحس ، مرتظمة فى أحوال المادة ، يكفيها من معانى الأشياء . الغلف الظاهرة والحجب الساترة ، الإفاها يختص بلذات الجسد ، وشهوات البدن فقراها ثقباً للحجب ، هتأة للأستار ، سبارة للأغوار غليظة الكبد تنظر للبؤساء نظرة المتشفى الشامت ، وتلحظ الزمنى والهللكى لحظة المنتقم الأشر ، ولولا شئ من الخجل من الناس لأعلنت على رموس الأَشهاد أنها ترتاح لرؤيا المصائب السود ، وتطرب لذوب المهج والكبود ، وتود لوجاء طاعون قتال فاجتاح الناس أجمعين لكيلا تبقى إلا وحدها ومن يكون وسيلة لتكميل لهوها ومرحها .

هذه النفس لا تدرك الكمال الخلقى فلا تحبه ، ولا تعرف الجمال المعنوى فلا تهواه ، ولا تشعر بالفضيلة فلا تتمناها ، ولا تحس بجلالة العلوم من الجهات الروحية فلا تريدها لتلك الفائدة بل تريد العلوم لتسهل لها نيل وطرمادى ، أو تكميل حظ دنيوى ، تنظر الى استبرق السماء ، وتأحظ مجالى الغزالة فى تنقلها فى ذلك الدست الماسى المشرق ، فتود أن لا تشرق إلا عليها ، ولا تنير إلا حوالها ، وتقف مع حسها لا تود النفوذ الى ورائه لا بالبصيرة ولا بالبصر . فهى اذن لا ترى الا نهاية الحسية والمعنوية ولا تريد أن تراها .

هذه النفس الحرجة الضيقة الظلمانية لا تحب أن ترى الوجود الا

على قدر عقلها فهي لا تحس بوزيمة أمام لانهاية ، ولا تعترها وحشة القصور الذاتي الذي يدفع صاحبه الى التكمل ، ولا تلتجى الى سويداء فؤادها لتبحث عن سر ذاتها ، كل ذلك لافائدة منه لها ولا ترى له وجهاً في تسميم نظام شؤونها . فهي إذن لا تعرف تلك الحيرة التي تلم بالنفوس العالية طلباً للسكون الى نقطة ؛ والركون الى حقيقة . نعم انها تحس بنوع من الحيرة ولكن فيما يختص بأمور ذاتها المادية ؛ وأحوال حياتها الدنيوية .

هذه النفس الحامدة الراكدة ، الحشنة الخامدة ، لا تبحث عن العقيدة ، ولا تسمع لمن يدها عليها لفقدانها معنى الكمال الذاتي ، ومغزى الجمال الا دبي . قلنان العقيدة ضرورية للنفس الطاهرة الكاملة لتكون كقبة تتوجه النفس اليها في توقها للكمال الاقدس ، واشربابها للجمال الاقدم ؛ أما النفس الكافرة فهي من النقص والقبح في الحضيض التي وصفته لك ، فكيف تتطلب العقيدة . وهي غاية الكمال ونهاية الجمال .

هذه النفس كافرة بالفطرة ، فهي مظلمة معتمة ، لا تدرك النور ولا تبحث عنه ، وان حلة اليها فلا تدركه ولا تحسن به وأصحاب هذه النفس معنيون بقوله تعالى : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير »

هذه النفس لا تفيدها البراهين الفاسفية بل تزيدها مرضاً على



مرض ، وتكسبها ظلمة على ظلمة ، ولا يرغم من معاطس أصحابها ، ويكسر من خراطيمهم الا البرهان الطبيعي المحسوس ، حتى أنك لو برهنت لاحد هؤلاء الملاحدة وجود الصانع بالبراهين الفلسفية وسلكت معه مسالك المنطق ، لوجدته يطير فرحاً لعله بأنك أفسحت له مجال القيل والقال ، وساويته في الاقرار بأن حقيقتك تحتاج الى جدال ، ثم لرأيته رفع عقيرته وزجر ، وهز رأسه وتجبر ، وأخذ يرد عليك رداً ، ويوسعك تأنيباً ونقداً . ولكنك لو تركت له مجال التعسف في التفلسف ، وحاكمته للحس والعيان ، وخاطبته مخاطبة الانسان للانسان ، وناجيت منه الوجدان ، بلسان الوجدان ، لرأيته نكص على عقبيه وانهزم ، ونكل عنك وانصدم ، وغاب عنك وله رسيس في الصدر يذيب الحجر ويهد الجبل .

### النفس الجامدة بالفطرة

بقي نوع ثالث من النفوس هي النفوس الجامدة بالفطرة ، الجامدة من أصل طبيعتها . وهي بين النفس الكافرة والنفس المؤمنة في مركز لا تغبط عليه ولا تنهأ من أجله .

النفس المؤمنة نفس عالية كريمة لها لذات روحانية لا تعبر بلسان ولا تعرف الا بذوقها بالوجدان ، ولها اشراف على علم كل مافيه جمال وكمال ، وعظمة وجلال ، وهي بين جسمها وبينه طورا في شقاء وآخر في صفاء . آونة في نصب وأخرى راحة ، وذلك تبعاً لأحوال الجهاد الذي هي فيه ، وشؤون العالم الذي تعمره وتحياه . والنفس الكافرة وان لم تكن نفسا

شريفة ولا عالية إنما لها عالم ظلماتي خاص بها . فيه صور من لذات لها وهمية ، واشكال من موهات طينية وقتية ، فهي توهم نفسها بالسعادة وإن لم تذقها ، ويخيل اليها أنها على مقربة منها وإن كانت تدابرها وتبتعد عنها ، فهي تعيش عيشة مصطنعة وهمية ، وتحيا حياة ملفقة سراية . إن فاتها لذة المعاني الروحانية ، ولألاء المرأى السماوية ، اعتاضت عنها بأنوار الكهرباء وأضواء الثريات ، والملاعب التياترية ، والمظاهرات العيدية ، وحسوا السلافة الحقيقية . وغير ذلك من الملاحى الوهمية . وهذه الظواهر الفاتنة الساحرة وإن لم تكن ذات فائدة حقيقية للروح الانسانية ، لكنها لا تخرج عن كونها لذات وملاهيات ، فيها للنفس مسرح ومجال . أما النفس الجامدة فأمرها على غير تلك الشاكلة . ليس لها استقلال فى ذاتها فيقال انها من عالم قائم بذاته له شؤون وأحوال مثل كل العوالم الأخرى ، ولا هى تابعة لطبقة من النفوس خاصة حتى يقال انها محكومة بسننها ، مقودة بقوانينها ، وإنما هى نفس لا صفة فيها ولا خاصية ، كأنها لم تستكمل شروط النفس الانسانية فيكون صاحبها إنسانا ، ولم تهبط إلى الدرجات السفلية فيكون صاحبها حيوانا . وإنما هو شيء يشبه الانسان ، ويسفل عن الحيوان فى كثير من الأحوال .

هذه النفس الناقصة لا تحس بحاجة روحية مطلقا فتوق اليها . ولا تهوى معنى من المعانى فناهف عايتها . وكيف يتوق الانسان لما لا يحس بلذاته ، أو يهوى ما لا يخطر به خيلته ؟

هذه النفس لا تهوى أى مسألة من المسائل الانسانية الكبرى ،

فلا تبصر في الوجود ولا تتأمل الكائنات ، ولا ترفع طرفها الى السماء ، ولا تلقى بصرها الى الأرض ، بقصد استكشاف سر أووقوف على أمر . وان نبهها إلى ذلك منبه له سلطة عليها من وجهة من الوجهات . لبت طلبه بتثاقل ، فان همت بالفعل أحست بكابوس على نفسها وثقل في أعضائها ، ونحو يدب إلى سائر جثمانها ، حتى لو أدمنت النظر ، وأعملت الفكر يخشى أن تسقط مغشياً عليها ، أو تخر نائمة لا تستطيع حراكا . ذلك من تكلفها ما ليس في طبعها ، وتعملها ما لا يوجد في كيانها .

هذه النفس تعيش ما تعيشه وهي في يقظة تشبه النوم من أكثر الوجوه ولا تعلو في ادراك الأشياء وتعقلها عن حلم النفس المؤمنة أو الكافرة ، فهي في نوم مؤبد تمر بها الأشياء مرور الأشباح على بصيرة المضطجع وقت القيلولة وهو بين اليقظة والاعفاء وهكذا تمر حياتنا سنة بعد سنة وعاماً بعد عام وهي في مركز طفوليتها الأولى لم تتحول عنه إلا في مقتضيات نمو أعضائها الطبيعية ليس إلا .

هذه النفس تسمع بالدين وقد تنسب إلى مذهب من المذاهب الاعتقادية المنتشرة بين البشر ولكن ذلك منها تقليد اضطراري ، وعمل آلى لا تعقل معه ولا فهم . وتراها تصلى مع المصلين وربما سبحت مع المسيحين ولكنها إنما تفعل ذلك مسوقة بعوامل الوراثة القاهره ، مدفوعة بفواعل المحاكاة الطفلية ليس إلا

هذه النفس ليست مستعدة لشيء من الأشياء المعنوية سواء كانت



اعتقادية أو الحادية ، فهي لا تنبغ في علم من العلوم ، ولا تبرز في فن من الفنون ، ولا تفيد الأمة التي هي منها الا بأمور مادية محضة تعملها عملا حيوانيا مسخرة لا مختارة . هذه النفس هي المعنية بقوله تعالى : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا »

هذه النفس ان تفضلت عليها بدعوة الى الايمان فلا تحدث نفسك بدعوتها اليه بالفلسفة والمنطق فربما نامت قبل أن تكمل حديثك ، واعمد الى البرهان الطبيعي فاسرده عليها سردا خروجا من الاثم ليس الا .

### ﴿ نظرة على ماسبق ﴾

رأيت من التقسيم الذي مر لك ان النفس على أى حالة من أحوالها لا تود البرهان على عقيدتها الا طبيعيا محسوسا ، لا فاسفيا غامضا . وكلما ابتعد أصحاب الاعتقاد في حفظ حقائقهم عن الفلسفة ، وقضايا الجدل ، سلموا من آفات الاقتراقات في الدين ، والتحزبات في المذاهب هذه هي الخطة الاسلامية التي بعث الله بها سائر الأنبياء فأضاعها أتباعهم فبعث الله بها أخيرا خاتمهم وامامهم سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ فأدى امامتها أحسن أداء وجلب بها للنوع الانساني خيرا في العقيدة والأخلاق والشرعية ما كان يحلم به فلاسفة العالم ولا يضطرب لهم به أمل .

جاء النبي صلى الله عليه وسلم والناس من أمر الدين وطرق الوصول

إليه في حنادس حالكة وظلمات متكاثفة . هذا يعدد في الآلهة ، وذلك يشبه الله بمخلوقاته ؛ ويعطيه صفات عباده ؛ وذلك يتخيله على ما يحدده له وهمه ، وتتردد به أخلاقه والكل مطيعون منصاعون لرؤساء اتخذوا الدين وسيلة للسلب والسطوة وجعلوا العقائد أحاييل للقهر والسلطة ، فعلوا عن مستوى العامة حتى صاروا كأنهم من نوع أرقى من نوعهم ، حتى ادعوا أنهم وسطاء بين الله ومخلوقاته وأنهم مهيمنون على مقادير عباده . فان جال في صدر أحد مرءوسيه شك أو دبت الى نفسه شبهة كان السيف الى عنقه أسرع من سماع الاجابة عنها بأذنه . فان تفضلوا بشيء من ذلك في كتبهم صونا للعقائد ، وحفظا للتقاليد ، أتوا بكسف من الغياهب يتلوها كسف ، وقطع من الدياجير الحالكة يتلوها دياجير أشد منها سواداً ، بحث لو ألقى الانسان عليها بصره غار في ظلمات فاذا هم عقله بانقاذه منها غرق فيها معه وسجا معا في عيلم لا قاع له ولا ساحل ؛ وصار بين أمرين : فاما أن يبقيا في تلك العماية طول حياتهما يقاسيان لواعج تلك الغيابة الحالكة واما أن يعودا فلا يذكر الدين بعدها لما قاسوه أول مرة ؛ فيكتمان ما يلم بصدرهما حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

جاء النبي صلى الله عليه وسلم الى الأمم وهم هذه الحالة السيئة من جهة اشرف الأشياء على أنفسهم وأعزها على قلوبهم فقال عن لسان ربه : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم

اليه صراطا مستقيما » « هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » ثم جرى صلى الله عليه وسلم على طريق الاسلام متبعا وحي ربه في الدعوة ، مؤتمرا بهذه الآية « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

التفت الناس اليه صلى الله عليه وسلم بعد ما أظهره الله على أعدائه وجعل كلمته هي العليا فاذا معه أنشودة الروح ، ومطلوب الفؤاد ، وضالة العواطف ، ومفقود الفطرة الانسانية . وما هو ؟ دين واضح ، وشرع حكيم ، وعقائد مثبتة بالحس ، وأوامر لا تيجنبها الا المجنون لوضوح حكمتها . وجلالة أثرها ، ونواه لا يغشاها الا المصاب بعقله لظهور ضررها ، وشيوع قدرها .

دين يدعو الى الله الواحد المنزه عن كل ما يجيش بالفؤاد من صور وأشكال ومقتضيات وشؤون لا تليق بمقامه . ولم يكلف النفوس بما ليس في طبيعتها ادراكه من العوالم التى تعلو عن مداركها ، فما الذى يمنع النفوس من الترامى عليه خفافا ، والهرع اليه بكل ما تمتلك من حول وقوة ؟

هذا هو الذى حصل فى العالم فان النبى عليه الصلاة والسلام لبث فى أمته ثلاثا وعشرين سنة داعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا لهم فلم يدعه الله اليه حتى كانت الأمة العربية بأسرها تعبد الله لا تشرك به شيئا وهذا أنر لم يحصل فى أية أمة من أمم الأرض . لا على يد فيلسوف



ولا على يد رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام . ولم ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم الى الدار الاخرى حتى قام بعده خلفاؤه بالامر ولم تمض مائة سنة حتى دخل في الاسلام طوعا لا كرها مائة مليون من النفوس ولا يزال لليوم متبعا سيره في الرقي والنماء حتى ينتظر أن يكون دين أوروبا بعد قرون قليلة ان شاء الله تعالى .

إنالسنا هنا بصدد سرعة انتشار دين الاسلام وانما نحن بصدد الأدلة على أن البرهان الطبيعي في العقيدة هو البرهان الحق الذي قرره الاسلام ودعا به النبي عليه الصلاة والسلام ، فانظر الآن الى الفرق بين دعوة النبي ودعوة الفيلسوف . دعا به سقرات وقاوم به أضداده حيناً ونال منهم شيئاً ولكنهم رموه بعد ذلك بالالحاد في آلهتهم وفعلوا ما فعلوه من صفات الجبناء وهذا جهد الفلسفة والحكمة . أما النبي عليه الصلاة والسلام فأحال به أمة بأسرها الى ارقى درجات الايمان ، في سنين تعد على الأصابع . فهل بعد هذا يهم واهم بأن الفلسفة والنبوة متقاربان ، أوهما معا في ميدان ؟

ان الذي أثر على الأمة بأسرها فجعلها مؤمنة بعد أن لم تكن هي روح المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم وهي تلك الروح التي سادت على أرواح معاصريها كلهم وبسطت نفوذها على قومها عن بكرة أبيهم ، لم تترك فارسا ولا حكيما ، ولا شابا ولا هرما ولا غنيا ولا فقيرا ، الا وأدخلتهم تحت سلطانها ، وأظلمتهم بظلالها ، فأين الفلسفة بعد هذا ، وأين الفلاسفة من ذلك ؟ أما ترى معي من هذه النظرة البسيطة

أن مجرد التأمل في هذه المسألة يهب الانسان أقوى البراهين الحسية على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أفضليته على سائر الرسل الكرام عليه وعليهم التحية والسلام.

### ﴿ ماوراء المادة ﴾

#### ﴿ على حسب الأسلوب العملي ﴾

#### ﴿ أهميته عند علماء أوروبا ﴾

إننا لم نربدا لتسميم بناء هذا الصرح الفخيم الذي ندبنا أنفسنا لإقامته لديننا الاسلامي الحنيف في مقدمة هذا القرن الجديد من الخوض في علم ( ماوراء المادة ) لاعلى طريقة من سبقنا من رجال العلم في القرون الماضية ، أيام كان القضايا المنطقية والأفكار المجردة السلطة الكاية على العقول ، والسطوة العظمى على الوجدان ، بل سنخوض بحره إن شاء الله على القاعدة العملية التجريبية كما هي مطالب الروح العلمية العصرية .

ربما تعجب قارئ من عزمنا على خوض علم ماوراء المادة على الأسلوب التجريبي العملي ، مبعداً أن تدخل الأشياء المعنوية غير المحسوسة تحت سلطان الاختبار والامتحان ، وله العذر في تعجبه مادام لم يقف على خبر من تلك القوارع الالهية العظمى التي انصبت

على هامة طواغى العلوم المادية فى الغرب فقلبت شكل نظرياتهم رأساً على عقب ، ولم تزل لليوم تفعل بهم وبمدركاتهم المؤيسة الأفاعيل . « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »

ليست أعاصير الشكوك والريب التى تهب فى رؤوس بعض المتعلمين والمتفلسفين منا بشيء يذكرك بجانب تلك الأعاصير المجتاحة من شكوك قادة العلم الأوروبابوى الذين بسيطرتهم على موارد السعادة المادية ، والزخارف الصناعية ، كادوا يحرمون على الشفاء ذكر الدين فضلاً عن ملاشاتهم لأصوله ؛ ولقد كتبوا فى ذاك من المؤلفات والأسفار وملكوا فيها مسالك من العلم ما يمحو كل أثر من عقيدة ، ويعنى على كل صورة منه فى الوجدان ؛ فالى ماذا آل أمرهم اليوم ؟ هذا سؤال تحتاج الاجابة عليه إلى ماتصدينا له من كتابة ألوف من الصفحات ، وسترى ذلك بعينيك إن شاء الله . إنما نقول باختصار تعجلاً بالنتيجة : اداهم إلى خلل فى الضمائر ، خلل فى العواطف . خلل فى مرامى الأفكار ، خلل فى شكل الاجتماع ، خلل فى الاخلاق ، خلل فى الأموال والأنفس والثمرات ! أدى بهم الأمر لأن يقوم أحد رؤساء النهضة الجديدة فى فرنسا وهو (هنرى بيرنجيه) قائلاً لقومه (١) : « ان المسألة الدينية أصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول لان مستقبل الأمم المتمدنة يتعلق بحلها . » أدى بهم لأن يقول العلامة الألمانى « الشهير (ادوارد هرتس) (٢) : « لم يوجد أبداً عصر كان أهله أقل »



« تدنياً من هذا العصر الذى نحن فيه ولكن مع ذلك قدلاً »  
« يوجد عصر هاجت أهله المسائل الدينية مثل هذا الهياج الهائل . »  
« أدى بهم لأنه يصبح بينهم الفيلسوف ( فيرنس حيقايرت ) ( ١ ) :  
« لقد شعر النوع الانسانى بحاجة كبرى الى الاعتقاد ولكننا لانستطيع  
« تحديد شكل تلك العقيدة بالدقة ، ولقد أحسنا كلنا بضرورة ارجاع  
« الحياة الى أرواحنا ولكننا لاندري ان كانت تمت روح تقية  
« أقوى من روح عيسى ( عليه السلام ) وأشد نفوذاً منها على الوجدان  
« تستطيع احداث هذا العمل المعجز . ان أرواحنا لمتعطشة الى دين لانا  
« فى غاية الألم من أنه لا دين لنا . ان هذه الاستغاثات التى تتصاعد  
« من العالم العصرى وتختلط فيها صيحات الرجاء بصيحات الشك  
« تشبه بصفة مذهشة تلك الشهقات الياثسة التى كان يصعدها  
« العالم القديم زمن تلاشى الوثنية اليونانية ان الهيئة الاجتماعية  
« الحاضرة التى توحدت تماماً فى أحوالها المادية المعاشية نراها  
« بعكس ذلك متشعبة منشقة بالنسبة لمرامها الفكرية والدينية . ولقد  
« أجهدنا أنفسنا فى بيان كيف أن جيلنا هذا قد تدلى شيئاً فشيئاً  
« فى حضيض هذه الفوضى الأدبية الأخلاقية . وانا نعتقد أنه لا يوجد  
« العلاج واحد يداوى به هذا الداء العياء : وذلك الدواء هو  
« العقيدة الدينية ، فانها وحدها تستطيع أن تداوى العالم الانسانى بما  
« ألم به . » انتهى

ولكن كيف تؤوب العقيدة الا تلك القلوب التي أصلدتها المعلومات  
المادية قروناً متوالية ، وكيف تلين تلك العقول التي نشبت شعاب  
الفلسفات المختلفة فيها مع ما تأسست عليه من شكوك واستشكالات  
هائلة ؟ لو كان الحال واقفاً عند هذا الحد ، لاستسهننا الأمر ،  
ولقلنا ان البرهان اذا تجلى للفؤاد قلب كيانه وفصله عما جمده  
عليه ؟ ولكن هنالك داء دوى أشربته النفوس في الثلاثة قرون الماضية  
ونشأت عليه وهو سحر هذا الرقى الصناعى المدهش الفاتن ، وزخرف  
هذه المدينة الساحرة !

الانسان وان كان يعرف من نفسه الضعف ، ويأنس من حاله  
العجز ، ومن شخصه الضئولة أمام ما يحيط به من هذا الوجود الواسع ،  
والكون المدهش ، الا أنه شديد المحال ، كثير الادعاء ، عظيم المراوغة ،  
متقن فن التدليس على نفسه ، والتمويه على عقله ؛ يتظاهر بالجبرية  
المطلقة ؛ والخطرة المفرطة في الوقت الذي يعلم أنه أضعف من بعوضة ،  
وأشد عرضة لمبيدات الحياة من ذرة . يتصنع القوة والحول ، ويرأى  
بالمقدرة والطول ، في الحين الذي يندب على قلة وسائله ، وعجز  
حيله . هذا شأنه وهو في أبسط أحواله وتاريخه يشهد عليه ؛  
فما بالك وهو في هذا الجيل جيل المدهشات والعجائب ، جيل  
المكتشفات المحيرة للدارك ، جيل العلوم الطبيعية ، والحرية  
الفلسفية ، لاجرم أن يزيد توغلا في دعاويه ومزاعمه ، ويتغلغل في  
ريائه وتصنعه .

كان الانسان وهو في أبسط أحواله في القرون الخالية يكذب  
الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بدعوى أنهم اخوانه في البشرية ،  
ياكلون كما يأكل ويشربون كما يشرب ، ويموتون كما يموت ؛  
فكان يحاول أن يرسل الله اليه رسلا من السماء في أبهة تأخذ بعصره ،  
وجلالة تذهب بلبه !

كانت هذه الشبه وحدها تمنعه من سعادته ، وتنشطه في غوايته ،  
فكيف يكون حال الانسان اليوم وهو بين هذه المدهشات الصناعية ،  
والسحريات الفنية : التليفون عن يمينه ، والفنوغراف عن يساره ،  
والمنظار أمامه والآلة البخارية وراءه ، والآتومويل تحته ، والبالون  
فوقه ؛ هذا غير ما يحيط به من الآلات والأدوات ، وما يتخلل ذلك  
من مدافع مكسيم ، وبوم بوم ، وبنادق مرتين وموزر ، وصناديق  
الديناميت والتوريد . لا جرم يكون قد زاد ادعاؤه وكبره ، وعظم  
رياؤه وتصنعه وأصبح يزعم ( معاذ الله ) أن الأنبياء دونه علماء وادراكا ،  
وأقل منه فهما وتصورا .

يرى بين يديه الملايين الكثيرة من المؤلفات والأسفار وقد  
أودعت من عجائب العلوم المادية ، والأبحاث الطبيعية ، على أصل  
تكون الأجرام العلوية ، والكرة الأرضية ، والجواء السماوية ،  
والأمطار والسحاب ، والرياح والعواصف ، والنباتات ومراتبها ،  
والحيوانات وفصائلها ، والانسان وأدواره ، وتدرجه في أطواره ؛  
واللغات ومناشئها ، والشعوب وتخالفها ، يرى ذلك كله بين يديه فينتفج



حضناه كبرا ويرتفع أنفه شموخا ، ويصغر خده عجبا ، ويتمايل في مشيته اختيالا ؛ ثم يرمى بصره الى القرون الخالية في قلة علومها ، واغلاط أعلامها ، وجهالة السواد الأعظم من أهلها ، فيكبر أن يكون فيها رجل يرضى لنفسه باتباعه أو يطأ من من كبره للرضوخ لأوامره . وكيف يتأتى ذلك وانصياعه له يستلزم أن يعتقد أنه أكبر منه علما وفهما ، وأفوز منه من قسط المعارف سهما .

هذا من جهة . وأما من جهة أخرى فانه يرى أنه قد قيد نفسه بعادات في الكلام ، عادات في السلام ، عادات في اللقاء ، عادات في الوداع ، وحمل جسمه أحمالا وأى أحوال : أطواقا براقة في عنقه ، وألواح ملبعة على صدره وفي معاصمه ، وأقمشة مفصلة على جسده ، وسراويل لاصقة بسيقانه ، وأحذية ضاغطة على أقدامه ، وفي صدره ومعاصمه من أحجار الياقوت والماس ما يأخذ بالعين بصيصه ، ويداعب أشعة الشمس بريقه . ينظر الى نفسه وهو في هذه الهيئة ثم يلقي بصره الى أولئك الأنبياء في بساطة ألبستهم ، وعدم تكلفهم ، فتنتفخ أوداجه صلفا ، ويحاول أن يقنع نفسه رغما عن احتجاج ضميره بأنه قد صعد درجات في سلم الانسانية وارتقى مراقى بعيدة في الكمالات الصورية :

ثم ينظر لنفسه في تفتنه في أصناف ما كله ومشربه ، وما استوجبه بذخه من استعمال الأواني الذهبية والفضية ، والموائد الأبنوسية ، والمناشف الحريرية ، والطنافس الصوفية ، ذات الصور الملئية ، ثم يرنو بصره الى أولئك الرسل الكرام في خشونة ما كلفهم ، وقلة مؤوتهم

فيراوغ عقله بما أوتى من قوة المراوغة والخداع ، ويحاول أن يقنعه بأن هذا رقى عظيم لم ينله أهل العصور الماضية ، ويكبر عليه أن يخضع لرجل منهم مهما كانت صفته ! ولما ينزل نفسه بقوة المخادعة والمخاتلة الى هذه الدركة باختياره يكون قد هيا قواده لقبول أثرهائل أنكى في تسميم معناه من كل ماسبق وهو قصيف هذه الجلبة المصمية المنبعثة من هذه المدنية الذهبية فيعتريه دوار في رأسه ، يذهله عن ذات نفسه ، فيدور في تياراتها مع الدائرين ، ويمثل دورا فيها مع الممثلين . هذا الأثر الهائل الذى بعثه هذه المدنية فى قلوب أبنائها هو بعينه أثر كل مدنية مادية ظهرت فى العالم وستكون نتيجتها كما كانت نتيجة ما تقدمتها من مدنيات الرومان واليونان الارتكاس بأهلها إلى أشد ما عليه الأمم الميتة اليوم إن لم يكن الله تعالى يريد أن يرينا من آيات حكمته أمراً .

بدى فى العالم المتمدن جهة أعلا شرقية من شرفات بنائه الشاخ ضياء ساطع ، وسناء لامع ، يبشر بقرب انفراج أزمة الاحاد ، وانقصاص حلقات العناد ، ولكن أين العامة منه ؟

ذلك النور ظهر شطر وجه رجالات خاصتهم ، وأعلياء كلتهم ، وقد احتملته أعين بعضهم ، وعشت عنه عيون البعض الآخر ، أما العامة ( ١ ) الذين تسممت قلوبهم بتعاليم أولئك القادة سابقاً فأمرهم

(١) لا أريد بالعامة من عرف القراءة والكتابة كما اصطالحا عليه فى بلاد ما بل أريد بالعامة كل

لم يزل عويصا .

العامة من كل أمة وفي كل زمان كان علاجهم شديدا على الرسل والأنبياء ، ومراسمهم صعبا على الاتقياء والأولياء ، فكيف بهم في القرن العشرين الميلادي وقد أعماهم الترف ، وقد قتهم المدنية المادية بسحرها الى متائه الضلالة والغى . هل ينتظر بهؤلاء إلا أحد أمرين : إما إياب إلى الرشاد ، وتنكب لسبيل العناد والالحاد ، والتوجه شطر هذا النور اللامع ، والأخذ بيد أرواحهم من هذه الهلكة المحتاجة ؛ وإما الاسترسال مع التيار الذي هم هائمون على وجوههم فيه ، فيكون مصيرهم كمصير كل الأمم التي تقدمتهم من الفناء والتلاشي « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

الفائدة العظمى التي نتظرها من بحثنا في علم ما وراء المادة العصري وإثباتنا حيرة زعماء الماديين ودهشتهم من تلك القوارع التي صبت عليهم ، هي إلفات تلك العقول التي تتيه بذلك العلم الطبيعي الناقص وتزعم من أجله أنها فاقت كل أهل العصور الخوالي في مضمار الفهم والعرفان ، حقيقة كبرى : وهي أن هذا العلم مهما اتسع نطاقه ، وشسع مجاله فليس له علاقة إلا بظواهر الأشياء وقشورها ، ولا نسبة بينه وبين الكائنات إلا من جهة غلفها . أما العلم الذي يمس حقائقها ، ويدرك لبابها ، وأعد الإنسان بطبيعته للتغذى منه ، وإحياء روحه بمدركاته ، وقضى عليه أن لا يكون انسانا إلا به ، فهو علم جاءت به الأنبياء وحملته صدورهم الرحبة . وإن ما أرسله الله على قادة العلم المادي في هذا العصر



فكسر من شوكتهم ، وأراهم أنهم جهلاء لا يدرون شيئاً ، وإن كل ما حصلوه لا يساوى قطرة مما حجبته عنهم هذه المادة الصماء ، فليس إلا صورة ناقصة من ذلك العلم العالى الذى تغلغل أولئك الأنبياء فى أرجائه ، وقلبوا به العالم من شكل الى شكل آخر .

أما نحن الذين قضى علينا أن نكون بضعفنا وباضمحلال شخصيتنا عرضة للتأثر بحال الأمم الغربية والدوران فى حركتهم ، فان أبنا إلى عقولنا ، واعتبرنا بالمثلثات التى أدبتهم ، فحمدنا الله على أن هدانا إلى دينه القويم ، وصرأطه المستقيم ، حمينا أنفسنا من مثل ما وقعوا فيه ، وصنا أمتنا من فتنة يطول فيها أمد الحيرة ، ويدوم فيها ألم البلاء ، وأما ان أيننا الآن ننسحر بترف أولئك العامة منهم ، مدعين أن عدم التدين دليل على سمو العقل ، ونكران العوالم الملكوتية ارتقاء فى الفلسفة العالية ، فلن نلوم إلا أنفسنا ، ولن نجنى من وراء هذه الحركة الشيطانية إلا ما جنته كل أمة كفرت بأنعم ربها : « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً » .

نحن قبل الخوض فى هذا الموضوع يحسن بنا أن نقدم بين يدي القارىء بعض أقاويل كبار أولئك الخاصة ليعرف أنه امام أكبر موضوع من مواضيع العصر الحاضر ، وحيال مسألة أمالت رؤوساً كانت لا تميل ، وحولت عقولا كانت لا تستحيل : « والله غالب على أمره » .

قال العلامة (م . ت . فالكومر M. T. Falcomer) أستاذ علم الحقوق في الكلية الملكية باسكندرية ايطاليا في كتابه ( المدخل الى علم الاسبرتزم العملى ) : « هذه النظرية ( النظرية القائلة بأن ما يحصل من خوارق العادات فى جلساته الاسبرتزم » منسوبة لأرواح الموتى ) يظهر بادىً بدء أنها جديدة ، ولكن الحقيقة أنها ليست « كذلك ويمكن أن يقول الانسان بدون أن يخشى معارضا أن الفيلسوف « ( أما نويل كنت ) ( قد أدركها وإن (اللان كاردك ) قد نشرها بين « العالم بعد أن فحصها فحصاً علمياً من جهاتها الثلاث : تجريبياً وفلسفياً « وأدياً ، ولكنها بالأسف كانت ولم تزل عرضة لنقد صارم بالنسبة « لا اختبارها اختباراً عملياً وتعليل المشاهدات الروحية بها وبالنسبة « لتطبيقها على الحياة الاجتماعية والدينية وأخيراً بالنسبة للشهادة « الشخصية . أى نظرية غير هذه النظرية مما يكون أقل تأسيساً على « العلم كانت تزول من الوجود وتتلاشى أمام هذه الصدمات الهائلة « من الماديين والقائلين بوحدة الوجود والروحيين الأقدمين « أنفسهم . فانك ترى الكنائس ومجامع العلوم الجامدة على مألديها « تحاربها فى آن واحد ( مع أنها تسعى فى إيجاد الصلح بينهما ) لأنها « تاتى على الناس نوراً ساطعاً فينكشف به فساد ذمة البعض وجهالة « البعض الآخر وكبر العموم . فالحرب التى تقاسيها هذه النظرية « شديدة المراس جدا وأهول مما يمكن وصفه ولكن كلما شهر « عليها النقد العلى سيفه ضمنا صفوفنا وهيانا أنفسنا وجمعنا أدلة «

« للبقاومة . ( فاكزا كوف ) يصول ( هارتمن ) و ( ريشانباش ) »  
 « يقارع ( بوشنر ) و ( ولاس ) ينازل ( سيد جويك ) و ( يونج ) »  
 « دحره ( جاردى ) و ( شيايا ) هزم ( لومبروزو ) . وكانت نتيجة »  
 « هذه الحرب إن انضم الى صفنا واحداً بعد واحد ( شياپارلى ) »  
 « و ( لودج ) و ( ريشيه ) و ( ا كوروويكنز ) و ( منديليجيف ) »  
 « و ( زولنر ) و ( تندل ) و ( ويليم كروكس ) و ( اليوت كوس ) »  
 « و ( اديزون ) و ( بلفور ) و ( جون لبوك ) و ( جلادستون ) »  
 « ( جيرس ) و ( داريجليو ) و ( بروفيريو ) و ( جييه ) وعدد »  
 « عظيم من علماء مشاهير آخر (١) الى أن قال . »

« مجموع المشاهدات التى تتأسس نظرية الروحين العصريين »  
 « عليها متشعبة يجب معرفة كيفية الاتجاه فى بحثها وفحصها ولذلك »  
 « فنحن ننصح الذين يريدون الاشتغال بها بأربعة أمور : المطالعة والنظر »  
 « والاختبار والاستنتاج . » الى أن قال : ان الظواهر والمشاهدات »

( ١ ) هؤلاء علماء مشاهير من شعوب مختلفة ( Aksocaf ) من كبار علماء الروس ومستشار القيصرو ( R. Wallace ) اكبر علماء الفسيولوجيا الانجليز و ( Lodge ) من أشهر علماء الانجليز ويلقب بداروين الطبيعة و ( Richet ) أشهر أطباء العالم وهو فرساوى له من آثار عظيمة فى الطب و ( Zollner ) عالم ملكى المانى شهير بعد اليوم أذكرى بشر و ( Tyndall ) علم فرد فى علم الطبيعة وهو انجليزى و ( Crookes ) أكبر كيمائى الانجليز و ( Coues Elliot ) عالم امريكاني رئيس الجمعية العلمية الاميريكية و ( Edison ) عالم امريكى شهير جدا باختراعاته وهو مخترع الفونوجراف و ( Balfour ) عالم انجليزى ورئيس وزراء الانجليز الحالية و ( I. Lubbock ) عالم انجليزى طائر الصبث ويلقب بلورد امبرى و ( Gibier ) تليد باسور



«الروحية المذكورة ليس لها أدنى علاقة بظواهر علم الطبيعة والكيمياء»  
 « الأرضيين ، بل هي من متعلقات طبيعة وكيمياء علويتين أعنى من »  
 « عالم ما وراء المادة فليعلم الجاهل وليتذكر المتناسى أن العلم البشرى لم »  
 « يزل موصوماً بالنقص وإن العالم المحسوس ليس هو في الحقيقة »  
 « إلا ظلاً للعالم غير المحسوس ، أعنى أن المحسوس ليس هو إلا »  
 « الظاهر القشري ، أما غير المحسوس فهو الباب الحقيقي إلى أن قال : »  
 « هذه الطبيعة العالية ليست خيالية تأملية ولا هي مما تتعلق بالعقائد »  
 « الجامدة ، بل هي حاصلة على جميع شرائط العلوم الكونية لأنها تجريبية »  
 « امتحانية . وأخيراً هذه الطبيعة العالية هي وحدها التي تستطيع أن »  
 « تسلك بجميع العلوم وبالدين مسالك التركيب الفلسفي بأشباع العقل »  
 « والاحساس معا . »

هذا واحد من خاصة أولئك الأقوام نقلنا مامست إليه الحاجة من كلامه وسنعود إن شاء الله إلى ما يلزم الاستشهاد به من أقاويله . وأنت ترى أنه ليس بفاقد العقل ، ولا بقاصر التصور ولا بجاهل غمر بل درج في مهاد العلم الطبيعي والفلسفي ، وبين يديه من مجالي الصناعات المدهشة والمرائي الفاتنة الملئية ، ما ليس لغيره من صرعى هوى المدنية الغربية من المترفين ، ومع هذا كله وما هو فيه من المركز الاجتماعي العالي بين قومه ، وما يحيط به من نقدة الأعلام ، وأصحاب القيمة في العلم ، والذراية في اللسان ، قام يلفت قومه إلى جمال ذاتهم وخلود أرواحهم ، معالجالهم مما وقعوا فيه من الدوار المدني الذي أصابهم

من سحر حضارتهم . وسمح لنفسه مع عظم مركزه أن يختم كلامه بقوله :  
 « ان هذه المشاهدات المتعلقة بالعلم الروحاني التي بسطتها »  
 « وشرحها في هذه الوريقات مما يشوش عقل العامة ، كما قال ذلك »  
 « أيضا الفيلسوف ( بابوس Papus ) وسيحكم على عمل هذا أكثر »  
 « من واحد من قرائي ، ولكن بدون برهان ولا حجة ، بأنه نتيجة »  
 « شكل خاص من أشكال الخلل العقلي ولكن هذا الحكم لا يمنع من كون »  
 « مذهب ( الاسبرتزم ) التجريبي تامة للعلوم الطبيعية لما تأكد من »  
 « أن الانسان مخلوق صالحا لأن يعيش في عالين متميزين . فمن العقل »  
 « والتبصر أن يطالع الانسان وينظر ويجرب ويتأمل ويستنتج بعد »  
 « معرفة السبب بدل أن يحكم مثل هذه الأحكام بلا دليل ولا »  
 « برهان . »

### أهميته عند علماء أوربا

كتب الاستاذ الطائر الصيت ( الفرد روسل ولاس ) الفسيولوجي  
 الانجليزى الشهير مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعى مع الأستاذ  
 ( داروين ) الطبيعى الشهير الى جريدة التيمس : « بما انى قد حسبت  
 لدى كثيرين من مكاتبيكم فى مصاف رجال العلم الذين يصدقون بصحة  
 مذهب استحضر الأرواح فأرجوكم ان تسمحوا لى بايراد مبلغ البراهين  
 التى أسست عليها معتقدى . »

ابتدأت أبحاثى من مدة ثمان سنوات تقريرا واعتبر من حسن

حظى أن هذه المشاهدات العجيبة كانت في ذلك الوقت أقل شيوعا وأضعف استلفاتاً مما هي عليه الآن ، لأن ذلك سمح لى أن أعمل أبحاثى فى منزلى الخاص بمراى جماعة من اخوان لى لأشك فى طهارة قلوبهم » إلى أن قال :

« أنا لا أنتظر من الذين يتشككون سواء كانوا يشتغلون أو لا يشتغلون بالعلم أن يعتقدوا صحة هذه الخوارق التى أستطيع أن أسرد لهم منها عددا كبيرا اختبرته بنفسى ، ولكن يجب عليهم هم أيضاً أن لا ينتظروا منى أنا ولا من الأئوف المؤلفة من رجال الذكاء والفتنة الذين تحصلنا على حجج ساطعة فى هذا الموضوع أن تقبل تعليلاتهم الموجزة التافهة . ولم أكن أخشى أن أطيل عليكم لكنك أريتكم جملة ملاحظات على الأفكار الوهمية التى تغلبت على عدد كبير من أهل العلم بخصوص طبيعة هذا البحث ، فلأأخذ خطاب المستر ( وركس ) مراسلكم مثالا لذلك : اعتبر حضرته عدم امكان الحصول على هذه الظواهر بمجرد الارادة برهاننا قويا ضد صحتها ، وحسب أن عدم تعليلها بالنواميس الطبيعىة المعروفة حجة أخرى على بطلانها ، وغاب عنه أن الاغماء وسقوط الأحجار الجوية وداء الكلب لا يمكن الحصول عليها أيضا بواسطة الارادة وهى مع ذلك حوادث لا يشك فى وجودها . »

ثم سرد أسماء جملة من اخوانه العلماء الذين يعتقدون بمذهب استحضار الأرواح ووصف فضلهم على العلم ودقتهم فى التجارب

( م — ٢٣ — أول )



ثم قال :

« ولم يكتفوا فقط باعتقاد صحة هذه الظواهر العجيبة ولكنهم كانوا يعتبرون نظرية الروحانيين الحاليين ( أى النظرية القائلة بنسبة هذه المدهشات إلى أرواح الموتى ) المفسرة الوحيدة لحصول هذه الحوادث الخارقة للعادة . وأعترف أيضاً فيزيولوجياً حياً للآن ذا مركز سام وهو من أمهر الباحثين في هذا المذهب ومن أشد المعتقدين به . ملخص الأمر أنه يمكننى أن أقول انه وإن كان من الناس من ينسب حصول هذه الخوارق للغش والتدليس الا أنى لم أكتشف على شيء من ذلك مطلقاً وبما أن الجزء الأكبر من هذه الخوارق لا يتأتى حصوله بطريق الغش الا باستعمال آلات غاية في الدقة فلم يستطع أحد أن يقف على سر تلك الحيل للآن . على أنى لست بمغال إن قلت ان المشاهدات الرئيسية لهذه الخوارق صارت الآن مؤسسة على قواعد علمية وسهلة على الباحث مثل سائر الظواهر الطبيعية التى لم يكتشف ناموسها للآن . لهذه المشاهدات الخارقة للعادة أهمية كبرى جداً لتفسير حوادث التاريخ فانه غاص بمثل هذه المسائل ، ولدرس مصدر الحياة والعقل اللذين لم يتوصل العلم إلى فك معماها الآن الخ » انتهى

نقول : يرى القارىء من هنا أن اهتمام مئات الألوف من علماء أوروبا وأمريكا في بحث مسائل استحضار الأرواح ليس موجهاً للالتواء وتمضية الوقت بالنظر لخوارق الطبيعة بل غرضهم أسمى من ذلك بكثير . غرضهم الوصول كما يقول الأستاذ ( الفردولاس ) المتقدم

ذكره لادراك أصل الحياة والعقل وذلك معميات أخرى في الخليقة وقف العلم المادى أمامها حائراً لا يحير جواباً .

لما قام هؤلاء العلماء الأماثل يبحثون المسائل الروحية بالطريقة العلمية العملية ، قام في وجوههم أعداء العلم ونصراء اليأس ، ونذر الظلمة ، يستهزؤون بهم و يندونهم بالألقاب ويكذبون تجاربهم من غير أن يكون لهم أدنى علم بمسائل ذلك الموضوع ، ولكن سطوات الحقيقة تردع كل جبار عنيد فان أولئك العلماء الجسورون وقفوا أمام خصومهم وقفة الحزم والحكمة وردوا عليهم الردود المفحمة و سلقوهم بالسنة حداد ، قال الاستاذ الشهير ( وليم كروكس ) أكبر كيمائى الانجليز وأحد رؤساء الجمعية العلمية الانجليزية في كتابه ( الأبحاث في الظواهر النفسية ) الذى طبعت ترجمته الفرنسية اثنتى عشرة مرة بالانجليزية والفرنساوية عشرات من المرات ما يأتى :

« وبما انى متحقق من صحة هذه المشاهدات فمن الجبن الأدبى أن آنى الشهادة لها بحجة أن كتاباتى قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ( تأمل ) من يعلمون شيئاً فى هذا الشأن ولا يستطيعون لما علقوه من الأوهام ( تأمل ) أن يحكموا عليها بأنفسهم . أما أنا فساأرد بغاية الصراحة ما رأيته بعينى وحقيقته بالتجارب المتكررة ( المدفقة ) » .

عجيب أمر هؤلاء الماديين يعلمون كما يعلم كل انسان أن الانسان لم يزل من العلم فى دور الطفولية وان المسائل المجهولة لم تزل تنغص عقل كل باحث ، ثم اذا رأوا باحثاً أخذ ينمى مواد العلم بشيء من الأشياء

التي تهدم أصلاً من أصولهم المقررة قاموا في وجهه يدعونه دعاً ،  
ويوسعونه شتاً وهجراً ، كأنهم مأجورون على أن يدافعوا عن الاتحاد ،  
أومرشون على أن يطفئوا نور الايمان من قلوب العباد ، وكلما اشتدوا  
في تحمسهم الباطل لمذهب الفناء والعدم ، قابلهم أولئك العلماء  
الجسورون بشبه من الاتهام تقف بهم عند حدهم .

قال العلامة الانجليزى الطبيعى ( كرمويل قرلى ) كما نقلته عنه  
( المجلة الروحية ) ما يأتى : ان الشتائم التي تكبدناها في سبيل الاعتقاد  
بمذهب استحضر الأرواح لم تأت إلا من جهة الذين لا يحصل لهم  
اقدام على البحث والتنقيب الا بعد معاداة ما يجهلونه . «

وكتب العلامة ( اجست مرجان ) رئيس قومبانيات التلغرافات  
الانجليزية وهو من كبار علماء الطبيعة في مجلة ( فروم ماستراف  
سبريت قال ) :

« أنا مقتنع بصحة مذهب استحضر الأرواح مما رأيته بعيني وسمعته  
بأذنى اقتناعاً يجعل تطرق الشك مستحيلاً على : وان الروحيين لعلى  
الطريق التي تقدم العلوم الطبيعية وليس اضدادهم الامشخصين للذين  
يريدون وضع العقبات في سبيل الترقى . «

عجيب أمر هؤلاء الماديين . ماذا يصيبهم من الأذى لو ثبت يوماً من  
الأيام بالتجربة والامتحان أن للانسان روحاً خالدة وأنه مجزى  
على كل صغيرة وكبيرة من أعماله وأفكاره في دار بعد هذه الدار ؟  
ماذا يلحقهم من الضرر المادى أو الأدبى لو رجعت تلك القلوب



اليائسة ؛ والاحساسات الكئيبة المتلظية ، في هذه الحياة الأرضية ؛ فاعتقدت أن الدنيا دار عمر الى دار أخرى فيها ينصب ميزان العدل الالهى ، وتتجلى للفاضلين والكاملين سبحات النور القدسى ، فينالون جزاء جهادهم الحيوى الطويل فى معترك هذه المادة الطينية ؟ ثم ماذا ينالهم من الفائدة لو ثبت عكس ذلك وبقت الفطرة الانسانية تئن من فقد العقيدة وانتشر الالحاد فى طبقات العالم حتى أكل الناس بعضهم بعضا من الفساد الخلقى ؛ وأصبح الانسان يرى فى الموت العدو اللدود الذى يقطع بينه وبين أهله الأعزاء وأفلاذ كبده المحبوبين ؛ وأضحت الأم التى تفقد ولدها أو بنتها لا ترى لها معزيا ولا مسليا غير الذهاب مثله أو مثلها الى عوالم الظلمة والفناء .

الله أرحم بعباده من هؤلاء الماديين ، فليموتوا بغيظهم فان الله متم نوره ولو كره الكافرون وهو القائل وقوله الحق : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » .

كتب الفيلسوف الفرنساوى الشهير ( شارل فوفى ) فى كتابه المسمى ( الوحي الجديد — الحياة ) يقول : « لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الأرواح صارت منابع الحياة الخلقية مهددة بالغيضان وأحست الجمعية الانسانية ( تأمل ) من نفسها بأنها قد دخلت فى دور الفتن والانحلال الذى يجب أن يعقبه الخراب التام ، ولكن لما أشرقت فى الأذهان هذه الفكرة الجديدة ( مذهب استحضر الأرواح ) — وان لم تكن بينه الحدود الآن — أحست النفوس بقرب

حدوث تغير جديد في الأفكار » انتهى .

ولكن حضرات الماديين يظهر أنهم لا يريدون ذلك التغير في الأفكار بل يريدون أن يبقى الانسان معتقداً بأن روحه ليست إلا وظائف أعضائه المختلفة ، وأن عقله وفكره إفراز من مخه كما أن البول إفراز من كليتيه ( كما يثرثرون بذلك في كتبهم ) وان الانسان مثله كمثل النباتات لاحظ له من الحياة إلا السنوات التي يعيشها على سطح الأرض في وسط هذه المحن الشديدة . دتهم يصدقون هم أنه لا أرواح لهم ولكن هيهات هيهات أن ينصاع الناس بعد اليوم لاعارة أقوالهم السامة جانب الأهمية . فقد زال سلطانهم وتقوضت دعائم دولتهم ونجى الناس من شرك أباطيلهم والحمد لله رب العالمين .

لنرجع إلى ما كنا فيه من نقل أقاويل علماء أوربا في بيان أهمية مذهب استحضر الأرواح حتى إذا وجدنا لقارئنا فكرة عامة على ذلك نقلنا له إن شاء الله تفصيلات الأبحاث المختلفة ، والمشاهدات العجيبة التي قام بها فحول علماء الارض ( والله غالب على أمره ) .

نقلت المجلة الروحية أقوال الأستاذ ( هودسن ) الانجليزى جاء فيها ما يأتى : « قد ابتدأت أنا والأستاذ ( هزلوب ) البحث من منذ اثنتى عشرة سنة وكنا ماديين دهرين لانصدق بشيء مطلقا ولم يكن لنا إلا غرض واحد وهو كشف الغش والتدليس ليس إلا . أما اليوم وما أدراك ما اليوم فاني أعتقد وأجزم بإمكان المحادثة مع أرواح الموتى . وقد قام لي الدليل على هذا الأمر بحيث لا أتصور أن يتطرق الشك إلى

فيه مطلقاً .

وقال الاستاذ الفسيولوجى الطائر الصيت ( روسل ولاس ) المتقدم ذكره فى مقدمة هذا الفصل فى كتابه ( الخوارق العصرية ) قال : « لقد كنت دهرياً صرفاً مقتنعاً بمذهبي تمام الاقتناع ولم يكن فى ذهنى أدنى محل للتصديق بوجود حياة روحية ولا بوجود عامل فى هذا الكون كله سوى المادة وقوتها ، ولكنى رأيت ان المدهشات الحسية ان تغالب . . . . فانها قهرتني وأجبرتني على اعتبارها أشياء حقيقية قبل أن أعتقد علاقتها بأرواح الموتى بمدة طويلة ، ثم أخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلى شيئاً فشيئاً ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ( تأمل ) ولكن بتأثير المشاهدات التى كان يتلو بعضها بعضاً بطريقة لا يمكن التخلص منها بطريقة أخرى ( أى بغير نسبتها إلى أرواح الموتى ) . »

وقال الاستاذ ( متزجر Metzger ) السويسرى فى كتابه المسمى ( الاسبرتزم العلى ) : « هذا المؤلف يتركب من سلسلة خطب قرئت فى جمعية الأبحاث النفسية فى مدينة ( جنيف ) وليس من السهل على المؤلف ( يحكى عن نفسه بضمير الغائب كما هى عادة بعض العلماء ) نشره بين الجمهور على هذه الصفة لأنه يعلم أن شكل الخطب لا يليق أن يكون تأليفاً لما يكون فيه من التكرار فى المواضيع والترداد للأفكار التى لا يسهل على الخطيب اجتنبها لاشتغاله فوق كل شيء باقناع سامعيه والزامهم بالحجة .

« الموضوع الذى نحن بصدده مشتبك ببعضه جداً فان المشاهدات



التي يلزم امتحانها كثيرة جداً ومتخالفة ، والنظريات التي رؤيت كافية لتعليلها وتفسيرها عديدة ومتناقضة . فمن الناس من ينسب لأرواح الموتى حدوث كل الظواهر النفسية حتى أصغرها ، ومنهم من يقول بأن الرأي القائل بتداخل الأرواح في حدوثها لا لزوم له أصلاً ، فإن مجرد قوى الإنسان تكفي لتعليلها كلها . فالتوسط بين هذين الرأيين المتعاكسين بالبرهنة للأولين بأنهم واهمون في نسبتهم للأرواح مشاهدات لا دخل لها فيها ، وبالأثبات للآخرين بأن تعليلهم كل المشاهدات بدون استثناء بمجرد العوامل الانسانية هو تكليف لنظرياتهم بتفسير ما لا قبل لها به لا يكون من نتيجته التعرض لاغضاب كل من الخصمين المتجادلين :

« فما العمل إذن ؟ الأولى قول الحق لا السعى في ارضاء حزب من الأحزاب . فالمؤلف بعد أن درس هذه المسألة درساً مدققاً اقتنع بأن كلا هذين الطرفين مفرط في مزاعمه سواء في ذلك أنصار مذهب استحضر الأرواح الذين يصدقونه بدون أقل تحفظ ، وأضداده الذين ينكرونه بتاتا . فإذا كان لا شك في أن عدداً عظيماً من المشاهدات الروحية يمكن تعليلها بدون فرض تداخل الأرواح في أحداثها ، فلا شك كذلك في أن هنالك مشاهدات أخرى تستلزم فرض تداخل الأرواح بطريقة لا يمكن دحضها ولا التردد في قبولها . هذا ما يجب التجاسر على قوله ولو كان فيه مصادمة الثقة الطفلية للذين يتوهمون رؤية الأرواح في كل شيء ، ومكافحة ذلك الكبر المتناهي من الذين

ينكرون وجودها رأساً أو الذين ينسبون لها لفعل الشيطان .  
« الذى شحن عزيمة المؤلف وأمضاها هو أنه يعتقد قلباً وقالبا بأن  
مذهب استحضار الأرواح المنقى مما علق به من الأوهام الطفلية التى  
يحط من كرامته وتفسده سيحدث أثراً أدبيا فى غاية من الأهمية فى  
هيئاتنا الاجتماعية المختلفة . فانه عدا عما يكسبه للعلم من المواد العلمية  
ذات القيمة التى لا تقدر ، سيقذف نورا ناصعا على هذا الخبط الفكرى  
الحاضر ، وسيكسب القسم المعنوى من الفلسفة والدين عضدا قويا ،  
وسيوجد تسليية عظيمة لعيون الباكين ، وروح رجاء لقلوب اليائسين .  
« مذهب استحضار الأرواح يثبت وجود الروح ويكاد يجعلك  
تلبسها بأصابعك . ولقد أصبحت مسألة خلود الجزء المعنوى من  
الانسان مما لا يمكن الجدل فيه لبدايتها . كما أنه قد انسدَّت تلك المهواة  
السحيقة القرار التى كانت تفصل الأحياء عن من كان يقال عنهم ميتون .  
« هذه حقائق جديدة فى الواقع ونفس الأمر ، ولكن ما أجل  
فوائدها وأعظم عوائدها ! فان هيئاتنا الاجتماعية فى هبوط مستمر ،  
ولقد أصبح الناس يتساءلون بقلوب يملؤها الأسف والآسى عما  
ستؤول اليه حالة مدينتنا المتنازعة من كل جانب التى اقترسها مذهب  
الماديين المحتاح للفضائل ( تأمل ) الذى بقتله فيها عواطف الجرى  
وراء الكمال ، وبمحوه أنوار مستقبلها يدفع الانسان لغشيان كل ما يطوف  
بفكره من الملاذ الجسدانية بدون المبالاة بوسائل الحصول عليها .  
« بعد هذا كله ألا يكون إقامة الأدلة العلمية على ضلال الذين

يحددون وجود الروح وبيان أننا لا محالة مجزيون على جميع أفعالنا وأقوالنا وأفكارنا هو أنجح العلاجات لهذا الجنون الكثير الاشكال ؟ هذا هو تأثير الاسبرتزم وسيكون تأثيره دائماً كذلك فيما يرى . »

ثم تكلم الأستاذ السويسرى على ما سيكون له من التأثير العظيم على الفلسفة والدين لتأسس مبادئه على المشاهدات المحسوسة التى لا تدع للشك مجالاً فى النفس ، ولالارتباب سلطاناً على الفؤاد ، فقال مشيراً الى الدين والفلسفة : « انهما سيكونان بواسطته أقرب للفهم ، وسيكتسبان به حياة جديدة وصبغة علمية وستسترد أوامرهما وتعاليمهما السلطان الكبير الذى كان لهما على أرواح الناس ، وسيستطيعان مكافحة الاتحاد الذى وقعنا فيه بوسائل أنجح وأسلحة أمضى . هذا ما يعلل سر تزايد استلفاته لأنظار الباحثين رغماً عن العداوة الكامنة أو الظاهرة التى يصادفها فى بعض المراكز . فأصبح العلماء ( تأمل ) يهتمون به لأنه يفتح لهم مجالاً عظيماً للبحث والتنقيب عن المساتير . والروحانيون ذوو الصبغ المختلفة من الفلاسفة ابتدؤا يفهمون بأنهم يجدون منه وحده سنداً ركيناً فى الحقيقة ، وعماداً لا يتزعزع ، يعتمدون عليه فى تأملاتهم على مسائل الروح وبقائها بعد الموت وعلى أحوال الحياة فى العالم الثانى . لهذا ترى عالمين من العلماء الأعلام المسيو ( أجوست سباتيه ) الأستاذ الشهير جداً فى كلية العلوم فى ( مونتيلية ) فى خطبته ( بالاولا ) من جنيف والمسيو ( ارنست نافيل ) الفيلسوف الكبير فى كتابه ( العلم ومذهب الماديين ) يتمنى كل منهما بفتور ولكن



بصراحة تامة أن يرى تحقيق نظرياته بواسطة المشاهدات النفسية أى مذهب استحضار الارواح .

« فأهمية مسألة استحضار الأرواح وجسديتها ، ولزوم محاربة مذهب الماديين ، مذهب الفناء والعدم الذى سيؤدى بنا الى أسفل سافلين لو لم توضع العقبات ضد انتشاره ، وضرورة تغيير كيان ذلك التشدد الدينى القديم الذى ساعد مساعدة كبرى على ايجاد هذا الاحاد الذى يساورنا من كل جانب ، والفائدة المنتظرة للحقيقة الفلسفية والدينية والعلمية ؛ كل هذه الأسباب هى التى ساقى المؤلف لابرار بحته هذا ولو أنه لا يجهل عدم كفايته لبلوغ الغاية من هذا الموضوع وهو يتمنى من صميم قواده أن يوجد كتابه هذا ميلا عند بعض قارئيه لبحت هذا الموضوع الذى لم يزل فيه كثير من الجهات المظلمة ، ويرجو أيضا أن يخفف دموع عيون باكية وأن يعيد القوة والجلد للذين فدحتهم المصائب وذلك بأن يبرهن لهم بأن ستجىء الساعة التى فيها تشرق العدالة والنجاة والسعادة لجميع العالم . فغرض المؤلف من هذا الموضوع هو خدمة الحقيقة والبر . » انتهى

الامضاء ( د . متزجر )

بعد هذا كله يوجد من الناس من يتهم الباحثين فى هذا المذهب والمصدقين به بالجنون تقليداً لبعض علماء أوربا عند بدء ظهور هذه الخوارق بين ظهرائهم . ولكننا نقول لهؤلاء قد مضت سنة الأولين وقد رجع أكبر القائلين بذلك وهو الاستاذ الكبير ( سيزار لومبروزو )

عن زعمه لما رأى أن أكثر اخوانه دخلوا في ذلك المذهب أفواجا أفواجا ، ثم فحصه بنفسه وألف فيه كتاباً مهما ذكر في آخره هذه العبارة الصالحة : « ولتحذر من ادعائنا دقة العقل والاعتقاد بأن كل الناس من قبيل المخرفين ، والتوهم بأننا نحن العلماء دون سوانا فان ذلك يوقعنا في الجهل والضلال . »

فرحم الله فتي خلع عن عقله غاشيات العقائد الجامدة وأسلم وجهه لخالقه تالياً قوله (رب زدني علماً) .

### \* مذهب استحضار الأرواح \*

( عامل كبير لنشر الاسلام في أوروبا ) (١)

أجل مزايا مذهب استحضار الأرواح في أوروبا هي ما نراه من أنه فتح لذويه نافذة واسعة تطل على العالم الروحاني أشرفوا منها على مسألة الوحي والنبوة وهي تلك المسألة التي طالما قام بمنابتها أسرى الحس وقصار النظر وأرادوا بذلك الغض من كرامة الأديان والخط من شرف العقائد ، ولكن أين يتاه بهم ! وقد حكم الخالق لأصفيائه بالنصر والتأييد ، رغماً عن كل جبار عنيد فقال تعالى : « ولقد سبقنا كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون . »

( ١ ) هذه المقالة تمة لسؤال وجهه إليها حضرة الأستاذ السبح أحمد محمد الالهى طواح

نعم ان مسألة التنويم المغناطيسى ومذهب استحضر الأرواح قد دلا الانسان من طريق الحس على وجود عالم روحانى ، وراء هذا العالم الجسدانى وكفى بهذا الرقى العلى هادما لأصول الملحدة الذين قصروا العالم لقصور مداركهم ، على ماتحسه حواسهم الكلية . فكانت هاتان الآينان الكبيران التنويم المغناطيسى ومذهب استحضر الأرواح اللتان أرسلها الله تعالى فى هذا العصر من البواعث العظمى التى ألجأت الانسان الى الاعتقاد بالنبوات والاعتراف بوظيفة أولئك الرسل الكرام فى هداية الناس وترييتهم ، ودلتهم على مقاومهم من عالم الجلال والجمال وخصوصا مقام خاتمهم وأمامهم محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام . وهذه درجة فى معراج الكمال الانسانى لا تساويها درجة سواها وهى بعينها مقدمة لوعده الله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »

اعتقاد الشاعر الفيلسوف الشهير ( فيكتور هوجو )

« برسالة نبينا عليه الصلاة والسلام »

ليس فى الشرقين اليوم من يجهل مقام الفيلسوف الفرنساوى ( فيكتور هوجو ) الذى يحمله الفرنساويون إجلالا لا مزيد عليه وتشاركهم فى ذلك كل الأمم الأوربية التى استقت من جداول فكره حكمة فكت لهم كثيرا من معمية الحياة . هذا الرجل الكبير كان يعتقد بمذهب استحضر الأرواح وله فى ذلك كلام كثير وليس



يعنينا منه اليوم إلا نقل ما يؤخذ منه صورة اعتقاده بالنبوات وبالأنبياء ومنهم نبينا عليه الصلاة والسلام .

جاء في المجلة الروحية بتاريخ مارس سنة ( ١٩٠٣ ) ضمن مقالة مستخرجة من كتبه الشهيرة قوله في كتاب له : « العالم متحرك بمحركين متميزين ، كلاهما محجوبان عن مشاعرنا وهما الأرواح واثقوى الطبيعة ، أما القوى الطبيعية فهي تابعة لدستور رياضي لا يتبدل ولا يتغير ، وأما الأرواح فهي حرة لا يقيدتها شيء . من هنا كان من لوازم القوى الطبيعية النظام والأحكام ، أما الأرواح في حريتها فجائز عليها الشطط والضلال ، ومع ذلك فلتلك الحرية التي تتمتع بها الروح معدل يعدلها وينظمها كلها مالت ذات اليمين أو ذات الشمال ، وذلك المنظم هو الضمير . هذا الضمير ليس هو في الحقيقة إلا الشعور بدستور معنوي خفي ناتج من ذلك القانون الأدبي العام المعزوز في فطر البشر .

ماتلك الذات الكاملة التي نسميها (الله) والتي يمكن تسميتها أيضا بمركز الافاضات ، فهي المقيضة لتينك القوتين السالفتي الذكر وبناء عليه فهي قيوم الروح والقوة معا . »

ثم شبه تلك الذات الكاملة بالشمس وشبه الأنبياء في اكتساب النور منها بالأقمار فقال : « الفطرة المودعة في صميم الانسان بوجود الله آتية من تلك الشمس مباشرة . أما الديانة اليهودية والصائية والبوذية والمعددة الآلهة والمناوية و (المحمدية) والمسيحية فهي من نور القمر . لأن موسى ، وبوذا ، وذورو ، واستر ، وارفيه ، وكونفوشيوس

وماني ، ( ومحمد ) ، وعيسى هم أنواع من الكواكب دائرين حول تلك الشمس يستشرقون نورها ويعكسونه على من دونهم من العالمين . فالديانات التي هي أقمار الشمس الالهية وظيفتها افاضة النور على الانسان في غياهب حياته وظلمات بقائه . » انتهى .

هذا ( فيكتور هوجو ) وليس هو وحده الذي أصبح يقول هذا الكلام بل كل نخبة المعتقدين بمذهب استحضر الأرواح وقد أضحى هذا الموضوع شائعاً بينهم لدرجة معها صار يخطب به خطباؤهم ويكتبه كتابهم بدون حرج . ومن ذلك ما نقلته المجلة الروحية في جزئها الصادر في يوليو الماضي سنة ( ١٩٠٣ ) من ملخص خطبة خطبها فيلسوف الاسيرتزم وخطبها المفوه ( ليون دوني ) في غرفة الزراعة بباريس . تكلم الخطيب في أثناء الخطبة على وظيفة رجال القرائح الكبرى في العالم الانساني وعلى مكانهم في هداية الخلق وارشادهم ثم قالت المجلة : « المسيو ( ليون دوني ) استعرض أمام سامعيه كبار الوسطاء بين الملائكة الأعلى والناس ، وهم الذين خلد لنا التاريخ أسماءهم ، وسرد أدلة وحججاً استملاها من الحوادث ومن تفاصيل حياتهم ، وذكر من أولئك الرجال المسيح ، ومحمد ، وكريستوف كولومب ، ولوتاس ، وشكسبير ، وجوثر ، وديكارت ، والفريد موسيه نفسه الذي كان يقرباً أنه إنما كان يكتب أشعاره باملاء روح عالية ( ١ ) من

( ١ ) يرى قارئنا معنا أن القوم اعتقدوا بالوحى حتى أفرطوا فصادوا لا يفرقون بين الانبياء

ورجال القرائح . انما الذى يهنا هو اثبات اعترافهم بوظيفة نبينا وخرجهم من جحودهم السابق

هنا يرى أن خاصية الإشراف على العالمين قد ملأت تاريخ العصور كلها ، وإن كل العاملين العظام على ترقية النوع الانساني كان يوحى اليهم من قبل الأرواح العالية النيرة .

« هذه الخاصية كانت دائماً المدة للقرايح العالية ، والمهذبة للعالم والمعلمة المرشدة للأمم والشعوب أى أنها كانت الوسيلة التى بها يربى الخالق عباده ويخرجهم من طور الى طور آخر . وقد كان ينجى بها الشعوب فى بعض الأحيان من سيطرة الظالمين كما حصل بواسطة ( جان دارك ) التى خلصت فرنسا من هاوية العدم . فالأرواح الكبرى بوحيا للمصطفين من النوع الانساني ونريد بالمصطفين رجال المدارك العالية ترتقى الانسانية بهم ، ويكبر معهم قسطها من ادراك الحقيقة ومن التنور والحب » انتهى

وكتب الكاتب الباحث ( سنكس ) فى المجلة الروحية فى جزئها الصادر فى يونيو سنة ( ١٩٠٣ ) مقالة تحت عنوان « محمد » هى عقيدة اراكين مذهب اسنحزار الأراح فيه صلى الله عليه وسلم ، نقتطف منها مايمس موضوعنا ، وربما ترجمناها برمتها إن شاء الله فى فرصة أخرى قال حضرته : « ظهر محمد بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة وكانت وظيفته هو أيضاً ترقية عقول البشر بإشرابها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة وبارجاعها الى الاعتقاد باله واحد وبحياة بعد هذه الحياة . » ثم قال :

« ان الديانة الاسلامية أحدثت رقياً كبيراً جداً فى الفكرة الدينية



فى العالم وخلصت العقل الانسانى من قيوده الثقيلة التى كانت تأسره  
حول الهياكل بين يدى الكهان ذوى الصبغ الدينية المختلفة . نعم ارتقى  
العقل بواسطة الاسلام للاعتقاد بحياة أخروية ، وهذه العقيدة هى  
الوازع الأقوى فى محاولات الانسان المادية والى الأخبات لاله  
واحد يستطيع أن يعبد نفسه ، بدون مداخلة أحد بينه وبينه ، وان  
يرتقى فى مصاعد كرامته الى مجالى أنواره بدون وساطة الوسطاء ولا شفاعة  
الشافعين من بنى جنسه . ولقد توصل محمد بمحوه كل صورة فى المعابد  
وابطاله كل تمثيل لذات الخالق المطلق ، الى تخلص الفكر الانسانى  
من عقيدة التجسيد الغليظة التى كانت من لوازم الفكر البشرى فى  
القرون الخالية ، وأجبر النوع الانسانى بتأثير هذه التعاليم لأن يرجع  
الى نفسه ويبحث عن الله خالقه فى أعماق روحه وصميم سره ليستطيع  
أن يرتفع بهذه العقيدة النقية اليه تعالى بواسطة العبادة القلبية المملوءة  
احتراما وشكرا ومحبة . ولقد قصر الناس فى الالتفات الى ذلك الرقى  
الادبى الباهر الذى تم بواسطة الديانة الاسلامية . وقد حصل هذا  
الرقى بعيدا عنا لدى شعوب يسهل علينا وصفهم بالمتوحشين ظلما  
بمجرد كونهم لا يخضعون لأفكارنا ولا يقولون بعقائدنا ولأنهم أخط  
مننا فى العلم والفكر ؛ ولكن مع كل هذا يجب علينا أن نعترف بأن  
هذه الحركة الدينية قد رقت ولم تزل ترقى الى اليوم عقول أمم شتى  
من سكان هذا المعمور .

« أما الاسلام فى ذاته فهو فى نظرنا اليوم — على شرط تخليصه

من كل التعاليم التي ألصقتها به الشعوب الطفلة ومن كل الشروح الباطلة التي شرحت بها أقوال النبي — أكبر وأعظم ما يدركه الانسان من معنى الدين ، وتعاليمه في العلاقات التي يجب أن تكون بين الانسان وخالقه هي أكثر التعاليم انطباقاً على نوااميس الطبيعة وقوانين العقل الانساني « انتهى

هذا أجل نتيجة لمذهب استحضر الأرواح في أوربا وهو من أهم الأسباب التي تدعونا للاكثر من الكلام فيه والتنويه به وتلقى كل ما يجد في مواده بالبشر والارتياح ، لأننا رأينا من مطالعة ما كان يكتبه القوم في مؤلفاتهم وما كانوا يثبثونه في فلسفاتهم قبل ظهور هذه المسألة العجيبة ، ان أفكارهم قد تشبعت بأصول المذاهب الحسية حتى صار من المستحيل عليهم أن يتصوروا بعقولهم ما لم يكونوا يلمسونه بأيديهم أو يحسونه بأحد حواسهم ، وكان قد تأصل فيهم هذا الجمود وأفرع فروعاً كثيرة تشبثت كلها في مجارى تصورهم ، ووقفت في مهب روياتهم ، وأثمرت ثمراتها المعهودة من الشكوك والشبه والاشكالات والشطط . على انا رأينا أن كل ذلك كان منهم تابعاً لناموس رد الفعل حيث أن رؤساء مذاهبهم الدينية كانوا قبل ظهور دولة العلم وتأيد صولته عاملين على نشر الأوهام والخرافات وتسميم الفطر بالترهات والأضاليل ترويحاً لمصالحهم ، وحفظاً لما كرههم ، فلما ظهر نور العلم على ظلمات الأوهام ، واسترجع كل من العقل والفكر حريتها الفطرية المفقودة ، وهبت نفوسهم من خدر الغفلة والجمود ، ذبذبا كل شيء يشتم

منه رأتحتهم ، ويحس فيه بأثرهم ، وأولعوا بالتشنير عليهم ، والخط من كرامة كل شيء يذكر فيه اسمهم ، ولما كان أكثر كلامهم في مواعظهم ، وأكبر دعامة يستندون عليها في أداء وظيفتهم هي مسألة الوحي والنبوات ، فقد تشدد أنصار العلم وقادته في القرون الثلاثة الأخيرة في دحضها وإبطالها فانهم لكذلك وإذا بهذه الآلة الكبرى آية استحضر الأرواح قد ظهرت من بين تلك الكسف الاحادية المتكاثفة ظهور الكهرباء الجوية من خلال السحب المتراكبة في الليل الدامس ، فثار ضدها العلماء من أراكين المذاهب الحسية ، وصاحوا بالناس صيحات تدل على نهاية الكبرياء والتطرف في الجبروت قائلين : هذا عود الى الظلمات الماضية ، هذا رجوع الى خرافات الامم البائدة ، هذا هدم لأصول العلوم العالية . وغلا كثير منهم فقالوا : هذا جنون يلم بالحاضرين في جلسات التحضير فيريهم أشباحاً ومرأى لاحقيقة لها إلا في وهمهم ، ولا أثر لها إلا في خيالهم ، حتى أن الاستاذ الشهير أ. بر البحاثين في الجرائم ( سيزار لومبروزو ) كتب هذه المسألة في بعض كتبه ونسبها لجنون آتيا وعين اسم هذا النوع من الجنون وزعم بذلك أنه هدم أصل المسألة واستأصل شأفتها وتبعه غيره في مزاعمه هذه وكثر الجوار والخوار من كل الأفواه مصبوغة بصبغ مختلفة حتى أن رجال الدين أنفسهم كانوا من أكثر الناس تشدداً في دحضها وإبطالها قائلين ان تلك من الأعيب الشياطين والجنة بعقول الناس ونصحوا العامة بعدم التعرض لها وقاموا لها مقاوم لها شأن في الهياكل والمعابد ، ولكن ! تلك



حادثه اقتضتها الحكمة الالهية رحمة بذلك العالم الخابط في متاهات  
الالحاد والجود ، المشرف على هاوية العدم والزوال . فينبأهم يتلفتون  
يميناً وشمالاً وإذا بها امتدت وانتشرت واتبعت في انتشارها عين  
الناموس الذي تتبعه كل حقيقة ، وصار لها اليوم أى بعدمضى خمسين سنة  
تقريباً من ظهورها أكثر من مائتى مجلة خاصة وعشرون مليوناً من  
الأتباع ذوى المكانات الاجتماعية والعلمية المختلفة . وقد مرت في  
خلال هذه المدة على قرائح قوية ، وأفكار نقية ، وثافتها نقدة العلوم ،  
وأصحاب الباع الأطول في تدقيق التجارب ، وتمحيص الحقائق ، ولم  
نسمع أن عالماً فحسبها أو كذب بها ، أو نقاداً اختبارها وأرى العالم وهن  
أصولها ووهى أسانيدها ، بل بالعكس رأينا أن كل من جربها هام بها  
وصدقها وصار من أشياعها ، ولو كانت أحبولة من أحاييل المشعوذين ،  
أو ضرباً من سيميا الدجالين ، لما مرت على كل هذه الأنظار سليمة  
من الطعن ، نقية من الجرح . كلا فهى لليوم تنتشر انتشار النور في  
الظلام تفتح غلف الأفئدة وتأسر أقوى العقول المتشدة ، وكانت  
هى السبب الوحيد في رجوع الناس إلى الاعتقاد بأن لله رسلاً إلى  
خلقه يحملون اليهم أنوار دينه ، وأصول شرائعه ، ولئن رأيت في كلامهم  
على الوحي والأنبياء شيئاً مما يخالف العدل والتبصر كوضعهم الفلاسفة  
والشعراء في مصاف الرسل والأنبياء فليس ذلك بالخطب الصعب ،  
فان الذى أرجعهم عن الجنود المطلق إلى هذا البصيص من النور قادر  
على أن يقيمهم على الصراط السوى بعد قليل » سأريكم آياتى فلا

وأنت لو عرفت كم حجاباً كان يحول بين هؤلاء وهذه الحقائق ،  
وكم سداً كان مقاماً بينهم وبين هذه العقائد ، لقلت انهم قد خطوا خطوة  
لو حدث الإنسان بها لما صدق ، ثم انك لو رأيت كل ما كتبوه في  
كتبهم إبعاداً للقلوب عن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وتنفيراً لها  
حتى عن الحوم بالفكر حوله بواسطة مأسوه من تلك الأكاذيب  
والأراجيف التي سمحت لهم أنفسهم بابتكارها واختلاقها ، ثم قرأت  
اليوم ما ترجمناه عنهم بشأنه صلى الله عليه وسلم ، لعلمت أن روحه الشريفة  
قد عملت فيهم وهي في عالمها العالى مالم تفعله الظبي من الأعناق ، ولا  
السمهريات من خبيثات الأضالع .

أليس كل هذا تحقيق لوعده تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق ،  
وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء  
شاهد . ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط . »

~\*~\*~\*~\*

﴿کیف کان اسراء النبی صلی اللہ علیہ وسلم﴾

وردتنا من حضرة المحترم رياض سايم افندى بمصر هذه  
الأسئلة وهي :

(۱) هل اسراء النبي صلى الله عليه وسلم حصل بالجسد والروح أم بالروح فقط ؟

(٢) المراد بالصراط والميزان أشياء حسية أو معنوية؟

- ( ٣ ) هل الحشر والنشر بالأجساد والارواح أم بالارواح فقط ؟
- ( ٤ ) أى شيء يتنعم فى الآخرة الاجساد أم الأرواح ؟
- ( ٥ ) ما الحكمة فى إبراز عالم الشهادة من عالم الغيب ؟ هل هى كما يقال لاظهار النور المحمدى ؟ وهل حق ما يقال من أنه لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تخلق هذه العوالم كلها ؟ انتهى
- هذه خمسة مسائل من أعوص المسائل الدينية التى خاض عباها العلماء قديماً وحديثاً وكانت سبباً لكثير من الخلافات بينهم وهى من الأمور التى تختص بعلم ما وراء المادة ولذلك فقد جعلناها من مواضيعه فى هذا الجزء ولكننا لانحب أن نجمل الكلام فيها اجمالاً لا تشفى النفس به بل رأينا أن نحاول حلها واحدة بعد أخرى ليكون الموضوع أنفع لغلة العقل ، وأرد لعادية الريب ، وأنقذ لمكان الاقتناع من النفس والله الكافى .

## المسألة الأولى

( هل حصل الاسراء بالروح والجسد أم بالروح فقط ؟ )

قال الله تبارك وتعالى « سبحان الذى أسرى بعه ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا » وقال تعالى « والنجم اذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى عليه شديد القوى . ذومرة فاستوى ،



وهو بالآفاق الأعلى ، ثم دنى فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ؛ فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفهمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى . »

هذه الآيات الكريمة نصوص صريحة في حصول الاسراء إلى بيت المقدس والعروج إلى السماء ورؤيته صلى الله عليه وسلم لآيات الله الكبرى مما لا يخطر على بال أحدنا خطوراً لما نحن فيه من التورط في أحوال الحس ، والأمة بازاء هذه النصوص النيرة مجمعة على حصول الاسراء والعروج لا خلاف بينها فيما لا اعتقادها بأن النبوة أمر عظيم ينكشف به للأنبياء من جهة عالم الملكوت والجبروت نوافذ يطلون منها على سكان حظائر التقديس ، وعمار الصفيح الأعلى ، هذا ما لا خلاف فيه بين اثنين من هذه الأمة ، ولكن الخلاف في كيفية الاسراء والعروج : هل كان بالروح وحدها أم بها وبالجسد أيضاً ؟

قال الأستاذ القاضي عياض رحمه الله تعالى في شفاة « ثم اختلف السلف والعلماء : هل كان اسراؤه بروحه وجسده ؟ على ثلاث مقالات :

( ١ ) فذهبت طائفة إلى أنه اسراء بالروح وأنه رؤيا منام ، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى وإلى هذا ذهب معاوية وحكى عن الحسن والمشهور عنه خلافة ، الخ »

« (٢) وذهب معظم السلف والمسلمين الى أنه اسراء بالجسد وفي اليقظة ، وهو الحق ، وهو قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حية البدرى والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج ، وهو دليل قول عائشة ، وهو قول الطبرى وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين ، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين » (٣) وقالت طائفة كان الاسراء بالجسد يقظة الى بيت المقدس ، والى السماء بالروح ؛ واحتجوا بقوله تعالى « سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى » فجعل الى المسجد الأقصى غاية الاسراء الذى وقع التعجب فيه بعظم القدرة والتمادح بتشريف النبي محمد صلى الله عليه وسلم به ، واظهار الكرامة له بالاسراء اليه . قال هؤلاء ولو كان الاسراء بجسده الى زائد عن المسجد الأقصى لذكره فيكون أبلغ فى المدح الخ الخ » انتهى كلام القاضى عياض .

نقول من هنا يتضح لقارئنا أنه لا يوجد نص صريح بالاسراء بالروح والجسد معاً ، ولو وجد لما كان مساعاً لهذا الخلاف كله ؛ وبما يحسن أن يلتفت اليه المطالع أن منكرى الاسراء بالجسد ليسوا ممن لا يعتد بايمانهم أولاً يؤثرونه لأقوالهم ، الأمر الذى يدل على أن القول بالاسراء بالروح فقط ، لا يقدح فى ايمان المؤمن ، ولا يؤثر على كمال عقيدته بشيء .

على أن الذى يود الاحتياط لعقله فيميل لرأى القائلين بأن الاسراء

كان بالروح فقط ، لا يليق به أن يتخذ هذه الرخصة سببا للخط من كرامة السواد الأعظم من الأمة الذين قالوا بأن الاسراء كان جسدا وروحا . ولو تأمل أحدنا لرأى ان أولئك نفر الكبار الذين قالوا بمحض الاسراء الروحاني ، لم يقولوا ذلك استبعادا له على قدرة الله وعلى كرامة رسوله ، ولكن قالوها وقوفا مع مبلغ اجتهادهم فيها . ولو حاسب نفسه المستبعد منا وقوع ذلك الاسراء بالجسد والروح معا ، لرأى أن حرج صدره يرتكز على ضيق دائرة علمه بمساطر الوجود وجهله لأسرار الخليقة ، وعلى ظنه ( وان لم يصرح به ) بأن كل ما خرج عن احاطته الذاتية ومعارفه الشخصية باطل لا يعتد به في شيء . ونحن لأجل تبرة هؤلاء الأسلاف الكرام . الذين كانوا يعتقدون بالاسراء الروحاني الجسداني ، من وصمة الركون للخيال وسرعة التصديق لكل ما يقال ، كما يميل لأن يريهم به أعداؤهم ، نود أن نقيم الأدلة الطبيعية على قدر يسمح به طاقة العلم المادي بأن عقيدتهم ليست من باب المستحيلات أو الظنون البعيدة التحقق بل هي من مشاهدات الطبيعة وحوادثها اليوم فنقول :

ان وجوه استحالة هذا الاسراء الجسداني ينحصر في أمرين :  
 ( أولهما ) السرعة العظيمة التي يقتضيها ذلك الانتقال من مكة الى بيت المقدس وهي مسافة يمكن تقديرها بألفي كيلو متر يتعذر على القطار المستعجل قطعها في أقل من ستين ساعة ذهابا وإيابا .

( ثانيهما ) انتقال الجسم الانساني من مكان الى مكان بدون آلة من



## آلات الانتقال المعروفة .

نقول : أما الأمر الأول فليست السرعة اللازمة لقطع ألفي كيلو مترا ذهابا وإيابا في بضع ساعات من الليل بالأمر المستحيل في ذاته . فان هذه السرعة لو قرنت بالسرعة المتمتعة بها السيارات السماوية في مداراتها الواسعة لما عدت شيئا يذكر . وهذه كرتنا الأرضية التي نعيش عليها ولا تتخيل أنها دائرة ، قد برهنت العلوم الفلكية على أنها دائرة حول الشمس بسرعة ( ثلاثين كيلو مترا ونصف في الثانية ) أى أنها تقطع الألفي كيلو متر التي تفصل مكة عن بيت المقدس في أقل من ( عشر دقائق ) وبناء على هذا فليس أمر هذه السرعة بالخطب الكبير ، ولا بالشئ العجيب . وكيف نعجب منه بعد ما ثبت بالبرهان المحسوس أن هذا الكوكب الأرضي الذي نسرح ونمرح على صهوته ، دائر بنا كل لحظة هذا الدوران المزعج لا يفتر آوثة ولا يغفل طريقة عين ، ولو حصل فيه شئ من التغير لا خلت موازته ، ولنغيرت أوقات الشروق والغروب ، ولتبدلت أحياء الفصول ، ولتعطلت بسبب ذلك الزراعة والضرع ، مما لا أستطيع أن ألم ببعضه فما بالك بكلمة والله أعلم . على أن هذا كله ليس هو الشأن العويص في هذه المسألة ، فان الخطب الجلل هو البرهنة على إمكان حصول انتقال الجسم الانساني بدون وسائل النقل المعروفة الى مثل هذه المسافات الشاسعة .

نقول المسلمون بازاء أمثال هذه المسائل العويصة التي تختص بالنبوات أحد رجلين : رجل جاز عتبة الحياة المادية ، واخترق

قشور هذه الحوائط الصورية فأشرف بروحه على عالم الأرواح واستشرف  
 بفؤاده عجائبها وغرائبها ، وألم بطرف من أمورها وشؤونها . فهو  
 لا يصدق فقط ان بعض المسائل يصح أن تحصل بقوى روحانية فوق  
 القوى الانسانية ، بل يعتقد اعتقاد مشاهدة وعيان ، بأننا تحت سلطان  
 العالم الروحاني بحالتيه العلوية والسفلية . فتوايانا الصالحة ، وعواطفنا  
 نحو الكمال والجمال ، وما نحدث به نفوسنا من جلائل الأعمال ،  
 وصالح الآمال ، وما نجده من الخفة للنجدة والمروءة ، وما نحسه من  
 الحمية لمداغة الضيم ، ومقارعة الذل ولو عدى على الحياة ، كل ذلك  
 الهامات ودوافع آتية إلينا من تلك القوى العالية المحيطة بنا من كل  
 مكان مما نسميه الملائكة . وأما مقاصدنا السيئة ، وساركنا خطط  
 الفجور ، ومخالج الفتن وتفكرنا في الاضرار بالناس ، فوسوسة من  
 القوى السفلية التي تتناثر حولنا من كل صوب ونسميها بالشياطين ،  
 هذا الرجل الذي نحكى عنه ممن تذوق طعم الروحانيات وعرف  
 مكانها من الخليقة ، لا يستبعد مثل هذه الأمور ، ولا يجيش في صدره  
 أن يشور عليها .

ورجل آخر مؤمن ولكنه لم يفتح له ذلك الباب العالى ، ولم يشرف  
 على شيء من بدائع العالم الروحاني فانه يحتاج بازاء هذه المسائل الى  
 دليل يعتمد عليه ويقارع العدو بسلاحه كما هو شأن المسلم في كل ما  
 يعتقد ، فلهل هذا الرجل نسوق شيئاً مما فتح الله به على بعض العلماء  
 الطبيعيين في أثناء تجاربهم في مسألة استحضار الأرواح لنستطيع أن

تقرب للأذهان كيفية انتقال الجسم الانساني من نفسه (بحوامل روحانية) محضة . واذ كانت هذه المسألة من عويصات المسائل فقد آلينا على أنفسنا أن لا نبني أسانيدنا إلا بواسطة من لا يمتري أحد في صدقهم من علماء أوربا .

كتب الاستاذ الشهير العالم الفرد في علم الكيمياء العصري (ويليم كروكس) الانجليزى فى كتابه (القوة النفسية) الذى ترجم إلى اللغة الفرنسية وطبع بها اثنتى عشرة طبعة ، تحت عنوان « ارتفاع الجسم الانسانى » ما يأتى :

« هذه الحادثة حصلت فى الظلام بحضورى أربع مرار فى شروط من الرقابة كافية مرضية . ولكن لما كان البرهان الحسى لازم جداً للبرهنة على مثل هذه المدهشات ليكفنا أن نهدم من أذهاننا عقائد جامدة » حددنا بها لأنفسنا ما هو الممكن وما هو المستحيل » رأينا أن لا نذكر من هذه المشاهدات إلا ما يكون فيها الاستنتاج العقلى معضداً بحاسة النظر .

« شاهدت فى فرصة من الفرص كرسيّاً عليه امرأة جالسة ارتفاع بها عن سطح الأرض بمقدار عدة عقد . وشاهدت مرة تلك المرأة ، وقد أرادت أن تبعد عنها كل ظن من الحاضرين فى أنها سبب هذا الارتفاع ، جثت على ركبتيها فوق كرسيها ، فارتفع بها الكرسي على هذه الصفة بحيث أننا رأينا كلنا قوائمه الأربع . ارتفعت هذه المرأة بهذه الصفة مقدار ثلاث عقد ومكثت معلقة فى الهواء مدة عشر ثوان



تقريباً . ثم نزلت بهدوء وببطء . ورأيت مرة غلامين صغيرين في فرصتين مختلفتين ارتفعوا بكراسيهما من على سطح الأرض في رابعة النهار وفي شروط من المراقبة والضبط مرضية جداً (بالنسبة لى) لأننى عند ذاك كنت جاثياً على ركبتى لم تذهب عن مرمى عيني مطلقاً قوائم الكرسى . فتحقت أنه لا يمكن أن يكون بينه وبين أحد أدنى اتصال .

« أما أغرب مسائل انتقال الجسم البشرى وأعظمها فوق كل ما حصل من ذلك أمامى ورأته عيناي فهو ما حدث بحضور (المسيو هوم) فلقد رأيته في ثلاث حالات مختلفة يرتفع بجسمه من على سطح الأرض تماماً ويتعلق فى الهواء . أما المرة الأولى فقد كان جالساً على كرسى طويل . وأما المرة الثانية فقد كان جاثماً فوق كرسيه . وأما فى المرة الثالثة فقد كان واقفاً على كرسيه . وفى كل مرة من هذه المرات الثلاث كنت متمكناً من مشاهدة هذه الحادثة فى بدى ظهورها .

« وقد حصلت هذه الارتفاعات الجسيمة من المسيو هوم نحو مائة مرة شوهدت أحسن مشاهدة ، وروقت تمام المراقبة امام كثيرين من ذوى الصفات المختلفة . وقد سمعت من فم ثلاثة من شهود العيان وهم الكونت (دونرافن) والورد (لندسى) والقبطان (س . وين) تاريخ حوادث من هذا القبيل من أغرب ما يتصوره العقل شوهدت بكل مفصلاتها وادق جزئياتها » ثم قال الأستاذ عقب هذا « ان رفض صحة هذه الحوادث يعادل رفض كل شهادة انسانية مهما كانت صفتها ، لأنه لا توجد حادثة سواء فى التاريخ الدبنى أو فى التاريخ الدنيوى

مستندة على براهين بهذه القوة . « انتهى كلام الاستاذ ( كروكس )  
 من هنا يرى قارئنا ان مسألة انتقال الانسان بواسطة القوى  
 الروحية أمر أثبتته العلم العصري ، وقد رأيت أنه يحصل لمثل الدكتور  
 ( هوم ) على ما به من رعونات البشرية ، وغلبة القوى النفسية مما لا يسلم  
 منه الا الأقلون ؛ فما بالك بنبي مرسل أخاصه الله لنفسه ، واصطفاه  
 لاعباء وحيه ، وانتخبه لحمل شرعه ، وطهره من أدناس الخصال ،  
 وأرجاس الخلل ، وزكاه من جماع البشرية وزيف الأُميال الشهوية ،  
 وجعله في عالم وسط بين عالمي الملك والملكوت . لا جرم أنه لا يستبعد  
 على مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تلك الروح العالية التي  
 برهنت للعالم أجمعها على أنها أكبر الأرواح قدراً ، وأعظمها مقاماً ،  
 ان تنال من مزايا القوى الروحانية أكثر مما يناله مثل هوم بما لا يقدر ،  
 فاذا كان هوم يستطيع أن يقف على كرسية في الهواء فلا يستبعد على  
 محمد صلى الله عليه وسلم ( لاتنس ما بينه وما بين هوم من الفارق في  
 القوة الروحية ) ان ينتقل بجسمه الشريف على أجنحة القوى الروحانية  
 من مكة الى بيت المقدس ثم يعود في ليلته . فيا صاح لا تقنع بأنك  
 صاح !



## ما وراء المادة

سالنا حضرة الفاضل محمد أفندي العطفى مترجم محافظة السويس

عن رأينا فيما قالته مجلة المقتطف في مسألة الاسبرتزم ( استحضار الأرواح في أوروبا ) بمناسبة سؤال وجه اليها فقال حضرة : طالعت في أحد أعداد مجلة المقتطف اجابة لصاحبه على سؤال وجهه اليه أحد قرائه بشأن مسألة استحضار الأرواح فأنكر صحتها ونسب التصديق بها لهوس المشتغلين بالبحث فيها وقال لا عبرة بكونهم علماء فان مرا كز الادراك تختلف في الدماغ فقد يكون الانسان أعلم العلماء بفن من الفنون ولا يفترق عن العامة في ماعدا ذلك من الأمور ، فما قولكم في ذلك . أرجوكم الاجابة كتابة في الاسلام في عصر العلم لافادة العموم »

نقول : نحن ان كنا نكتب في فن استحضار الأرواح وندافع عنه فانما نكتب فيه بجملة أوجه مهمة : منها أكبر هادم لمقررات العلم المادى الحاضر الذى قرر عدم وجود شىء فى الوجود غير المادة وقوتها الذاتية ، وان كل هذا الأبداع فى عالم الشهادة ناشىء من فعل نواميس الطبيعة القديمة كقدم المادة ، وأنه لا روح ولا خلود ولا روحانيات ولا ملاأعلا ولا نعيم أخرويا ولا شقاء ولا جن ولا ملك ولا مما ترويه للناس كتب الأديان ، وان الانسان حيوان مرتق فى سلسلة الوجود ليس غير . فننقل من مذهب ما وراء المادة التجريبي العمل ما يكسر من شرة القائلين بهذه المقالات ، المطنطين بتلك المنكرات ، لاسيما وهم يتبجحون بطلب الأدلة الحسية لا العقلية . حتى انك لو أتيتهم بأعظم البراهين العقلية المنطقية لقالوا انما أنتم واهمون ، وفى



يحار الخيال غرقون ، تصدقون ما تتصورون ، وتدينون لما لا تتحققون ، ولو كانت ثمة حقيقة كما تقولون لظهرت آثارها للعيون ، ولا اهتدى اليها الباحثون . فان رويت لهم من كتب الأولين والآخرين ما شاهده الأولياء والصالحون ، وراه بأعينهم العابدون ، لما ازدادوا الا سخرية بك واستهزاء منك . زاعمين أن تلك المشاهدات ليست على أسلوب يكفل لها الحفظ من الخطأ ، والتنزه عن العبث واللعب كما هو عليه أسلوب البحث في هذا العصر . فلم نر سلاحاً يطأطىء من هذه الرؤوس الشائخة ، ويطأمن من هذه الكبرياء المفرطة ، ويرغم من هذه المعاطس المعجبة ، الا مقابلتهم بأبحاث أراكين علماء أوروبا في فن استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى فانها أقوى سلاح اتخذته حماة العقائد ضد هؤلاء المبطلين ، وشاع استعماله في الناس أجمعين . قال المسيو (دولن) في كتابه ( الحادثة الروحية ) الذى طبع خمس مرات يقول صحيفة (٢٨٣) : « كان الماديون قبل قليل من الزمن يستطيعون أن يطرحوا براهين الفلاسفة الملمين قائلين لهم انها ليست على أسلوب يوصل الى حقيقة ، ولكن باتباع أسلوب الروحيين لا يخشى من الماديين العود الى مثل هذا الرفض . فانا لا نقول للناس يجب أن تعتقدوا فيم أفض علينا بالتسليم وعدم الدليل ، ولم نحرم حرية البحث على أحد من العالمين . بل بالعكس نقول لهم : هلموا اقرءوا وجربوا وابحثوا كل ما يؤكد لكم صحة الحوادث التى ظهرت للعموم ، وكونوا بحائنين مدققين ولا تسلموا بصدق مشاهدة الا اذا استطعتم أن تكرروها بأنفسكم

كثيراً وفي شروط مختلفة . وبالاختصار نقول لكم تقدموا والحذر ملء  
أفئدتكم في سبيل الوقوف على هذه المجاهيل لأن الذي يحشم نفسه بناء  
أصول جديدة يكون معرضاً للغلط والضلال ومتى درست حادثة من  
تلك الحوادث ترها تحدثك بذاتها على كنه طبيعتها ومقدار أهميتها .  
أليست هذه الطريقة هي أسلوب الفلسفة العملية عينها ؟ وبماذا  
يستطيع أن يلاحظ أشد الماديين شكيمة على أمثال ( رويرهار )  
والأستاذ ( مابس ) والمستر ( اكسون ) ؟

« اننا انما نقارع أعداءنا بنفس أسلحتهم لارغامهم على الهزيمة ،  
فبنفس أسلوبهم نعلن على رؤوس الأشهاد خلود الروح بعد الموت .  
« كل النظريات المادية التي تزعم أن الانسان آلة مادية بسيطة  
مجردة عن الروح ، وكل العلماء الذين اتخذوا العلم المادى سلاحاً  
لإثبات مادية الانسان وعدم روحانيته ، قد كذبوا أشد التكذيب  
وبأن ضلالهم بواسطة المشاهدات الحسية الروحية الخ » الى أن قال :  
« إن قوة الاسبرتزم وسيطرته على العقول آتية اليه من تركه حرية  
البحث لذويه ، فان كل أصوله يمكن بحثها والمناقشة فيها وامتحانها  
ولكنها ما وضعت للامتحان مرة الا وخرجت أقوى مما كانت قبلاً .  
والأديان في هذا العصر الأخير تشبه تلك الأربطة اللازمة للطفل  
لتعليمه المشي ، ولكنها صارت لاتفيده الآن ( يظهر أن دولن لا يعرف  
الاسلام ولو عرفه لماعمم حكمه على الأديان ) بل صارت مضرة به  
لبوغه سناً يسمح له بالمشي وحده . والرجل في القرن التاسع عشر

لم أرَ أن تلك الأديان ثابتة لا تتغير على حسب ناموس الترقى أحس أن تعاليمها القديمة لا توافق الدرجة التي وصل إليها من العلم ورأى نفسه بين أمرين : أما التسليم لمقررات العلم الواضحة ، وأما الخضوع للعقيدة التقليدية ، فلم يسعه إلا القاء نفسه بين احضان العلم المادى . ولكن متى رأى مثل هذا الرجل أن هنالك مذهبا يوفق ما بين مطلوب روحه من العقيدة ومطلوب العلم فلا يتوقف عن الأخذ به واتباعه . هذه الملحوظات الموجزة على الاسبرتزم تفسر لك سر سرعة انتشاره هذا الانتشار المدهش . لا يتوهم أحد أن الاسبرتزم عدو الأديان وإنما هو عدو خرافاتها فقط . أما غريمه فهو المذهب المادى ، والذين يشكون بوجود العالم الآخرى وإن لم يكونوا كفاراً للنهاية . »

نقول ونحن لعين هذه الأسباب نكثر الكلام من البحث في علم ما وراء المادة العصرى ونقول بأعلى صوتنا انه أكبر نصير للإسلام وبواسطته ستسلم أوروبا إسلاماً تدريجياً كما اثبتنا ذلك في الفصل الماضى من أقوال ( فيكتور هوجو ) أكبر رجل فى فرنساويين وأقوال الفيلسوف ( ليون دونى ) خطيب الاسبريتيين ، وأقوال ( سينكس ) الكاتب البليغ .

إن اتهام المشتغلين بالاسبرتزم بالهوس والجنون كانت تروج لدى العقول قبل خمسين سنة فى أوروبا ، أما الآن وقد صار المشتغلون بها أعلم علماء الأرض فلم يعد لتلك التهمة وزن ولا خطر ، بل أصبحنا ولا يقولها فى أوروبا إلا الذين لا علم لهم بكنه الحركة الفكرية فى العالم ،



واذا ساغ لنا أن نتهم بمقالة المقتطف عالماً أو عالِمين فكيف يسوغ لنا ذلك وهم الآن يعدون بالآلاف؟ إليك جدولاً بسيطاً يشتمل على عشرات من أسماء علماء أوروبا بالاعلام، نورد لهم بدون القاب ولا تأخر عن إيراد تاريخ أكثرهم والادلال على أنهم جميعاً من رجال النهضة العصرية في الفنون الطبيعية في العالم.

« في إنجلترا »

- |                     |                 |
|---------------------|-----------------|
| (١) وليم كروكس      | (٢) لودج        |
| (٣) دومرجان         | (٤) هكسلي       |
| (٥) فارلي           | (٦) اكسن        |
| (٧) دوكتور تشامبيرس | (٨) هودسن       |
| (٩) سنتوس موزس      | (١٠) مستر بلفور |
| (١١) رسل ولاس       | (١٢) باريت      |
| (١٣) جون لبوك       | (١٤) لويس       |
| (١٥) جان كوكس       | (١٦) جورج سكتون |
| (١٧) دوكتور جمس جلي | (١٨) باركس      |
| (١٩) جلادستون       |                 |

« في فرنسا »

- |                     |                    |
|---------------------|--------------------|
| (٢٠) كاميل فلامريون | (٢١) موتنيه        |
| (٢٢) دوكتور دوزار   | (٢٣) دوكتور أوليقه |
| (٢٤) ساردو          | (٢٥) جول بوا       |

|                      |                     |
|----------------------|---------------------|
| ( ٢٦ ) أوجين نو      | ( ٢٧ ) دور وشاس     |
| ( ٢٨ ) دوكتور داريكس | ( ٢٩ ) دوكتور ريشيه |
| ( ٣٠ ) شارل فوقى     | ( ٣١ ) جان فينو     |
| ( ٣٢ ) فيكتور هوجو   | ( ٣٣ ) جريمار       |

« فى أمريكا »

|              |              |
|--------------|--------------|
| ( ٣٤ ) مابس  | ( ٣٥ ) اليوت |
| ( ٣٦ ) آدمون | ( ٣٧ ) هار   |

« فى ألمانيا »

|                 |              |
|-----------------|--------------|
| ( ٣٩ ) زولنر    | ( ٤٠ ) فيشنر |
| ( ٤١ ) أولتريسى | ( ٤٢ ) ونير  |
| ( ٤٣ ) شبنر     | ( ٤٤ ) وندت  |

« فى ايطاليا »

|                 |                      |
|-----------------|----------------------|
| ( ٤٥ ) لومبروزو | ( ٤٦ ) انجلو بروفيرو |
| ( ٤٧ ) كيايا    | ( ٤٨ ) جيوزيب جيروزا |
| ( ٤٩ ) كياپارلى | ( ٥٠ ) فولبى         |
| ( ٥١ ) بورتيسى  | ( ٥٢ ) فالكومر       |
| ( ٥٣ ) فنزى     | ( ٥٤ ) جيوفانى       |

هؤلاء أربعة وخمسون عالماً شهيراً ولو شئنا لأصعدنا عددهم من نفس كتبهم إلى مئات عديدة وكل منهم له كلام على هذا المذهب وأهميته وتوقع انفراج الأزمة الاحادية به سلكوا فى تقريرهم نظرياتهم مسلك

المتحمسين الغيورين بقدر ما كانوا متشددين في دحضه وراجمين بالجنون  
أشياعه وأتباعه . فان الدكتور الشهير الباحث في الجرائم والقوى العقلية  
( سيزار لومبروزو ) كان من كبار القائلين في النصف الأخير من القرن  
الماضي بجنون من يعتقد في الابرتزم أو يظن أنه يرى بعينه شيئاً فيه وكتب  
ذلك في بعض مؤلفاته ، ثم لما أهداه الأستاذ ( فالكومر ) كتابه المسمى  
( بوصلة المستقبل ) وقرأه الأستاذ قراءة إمعان وتدبر ، تغير فكره واثم  
نفسه وتألم من كتابة ما كتبه قبل أن يفحص ذلك الأمر بنفسه فكتب  
للأستاذ صديقه يقول ما معناه : « لقد جعلني كتابك هذا كالحصاة  
الحقيرة هوت من قمة جبل عال فهي تهبط إلى حيث لا تعلم ، يتلقاها  
سفع ويصدمها سفع آخر . وقد عزمت على أن أفحص تلك المشاهدات  
بنفسي . » ثم صدق في وعده وكتب على دراستها وتجربتها سنة وشهوراً  
عديدة حتى ثبت لديه بالامتحان أنه كان يجهل هذا الأمر بالمرّة وأنه  
كتب عنه ما كتب عن جهل فندم على ذلك ولم يشأ أن يصير على ذنبه ،  
بل كتب كتاباً في هذا الموضوع كذب فيه نفسه واختتمه بهذه الجملة  
الجميلة : « لنحذر من ادعاء دقة العقل واعتقاد أن كل من سوانا مخرفون  
واهمون ولنحترس من الزعم بأننا وحدنا العلماء دون غيرنا فان ذلك  
يوقعنا ولا شك في الضلالة والحيرة . »

واليك الدكتور ( جورج سكستون ) الخطيب الانجليزى الشهير  
كان من أشد الناس طعناً في الابرتزم وأمضاهم سلاحاً ضد الأخذ به ،  
ثم لأمر يعلمه الله حبيب اليه بحته فأكتب عليه بذلك العقل الشكاك المتردد



زيادة عن عشر سنين ثم اعتقده وكتب في مجلة ( سيرتوالى مجازين ) مقراً بغلطه ، وكذلك كان شأن الدكتور تشامبرس والدكتور جيمس جللى أما الاستاذ جورج سكستون فقد كتب عن نفسه يقول ، كما رواه عنه الاستاذ الشهير ( روسل ولاس ) في كتابه عجائب العصر الحالى : « انى تحصلت فى بيتى الخاص وبمعزل عن كل واسطة للتحضير ( غير أصحاب لى لديهم خصيصة استحضار الأرواح ) على البرهان الذى يستحيل دحضه ( تأمل ) والذى هو من طبيعة تؤثر على كل عقل ثابت ، بأن المخاطبات التى تحصلت عليها هى آتية من أصحاب وأقارب ميتين . »

يظهر لنا أن المقتطف لم يطالع ولا كتاباً واحداً فى هذا الموضوع لأنه لو كان فعل لكبر عليه جداً أن يتهم هؤلاء العلماء بالجنون وكل واحد منهم لم يدخل إلى ميدان البحث إلا وهو متسلح بسلاح العلم الطبيعى الحاد ، ومدرع بدرع الفلسفة الحسية الشديدة الشكيمة . هنا ننقل جملة مما كتبه ( الاستاذ كروكس ) فى بعض المجلات الانجليزية ثم نقله فى كتابه المسمى أبحاث على المسائل الروحية قبل أكثر من ثلاثين سنة ، أى قبل أن يصل هذا المذهب إلى ما هو عليه الآن من الشيوع وكثرة الانتصار . ننقل هذه الجملة ليعلم الذين يشكون فى عقل أولئك العلماء كيف أنهم ولجوا باب البحث فى هذا الموضوع وكيف أنهم فيه كما هم فى كل فرع من الفروع العلمية التى يبحثون فيها رجال حزم وعزم وودقة وروية قال كروكس :

« قبل بضعة أسابيع كتب فى مجلة ( ذى اثنوم ) بآنى شرعت فى

عمل أبحاث فيما يسمونه مذهب استحضر الأرواح وبالنسبة لما  
تحصلت عليه من المشاهدات العديدة من ذلك العهد رأيت أن أكتب  
كلمتين في هذه الأبحاث التي ابتدأت فيها . على أنى لا أستطيع أن أقول  
بأن لى حكماً أو فكرياً على موضوع لا أدعى أنى قد سبرت غوره للآن  
فانى أعرف أن الواجب على رجال العلم الذين تدربوا على العمل بأسلوب  
دقيق أن يختبروا الحوادث التي تستلفت أنظار العموم حتى يبينوا حقيقتها  
أو يفسروا إن أمكنهم وجوه اغترار ذوى النوايا الصالحة بها ويكشفون  
تدليسات المدلسين . ولكنى آسف أن يعلن عن شخص بأنه بدأ فى بحث  
شئ قبل أن يحكم هو نفسه بأنه قد حان الوقت المناسب لاشاعة ذلك  
وإذاعته .

« يمكن أن يكون الانسان عالمًا حقاً ويتفق مع الأستاذ (دومرجان)  
فى قوله : « لقد رأيت حوادث كثيرة روحية ، وسمعت بأن كثيراً منها  
حدث فى أحوال وشرائط تجعل الشك فيها مستحيلاً ، بحيث ان أى  
كائن عاقل لا يستطيع أن يقبل أى تعليل لحصولها بالخدعة أو الصدقة  
أو الغلط . وانى من هذه الوجهة أحس بأنى واقف على أرض ثابتة ؟  
أما من جهة سبب حدوث هذه الخوارق فلا يمكنى أن أختار تعليلاً من  
التعليلات التي قيلت فى هذا الشأن . فان من الناس من وجد لها بغاية  
السهولة تعليلات طبيعية ولكنها لا تغنى عن الحقيقة شيئاً . ومنهم من  
علمها بنسبتها إلى أرواح الموتى ، ولكن هذا التعليل مع كونه أشقى للصدر  
من الأول إلا أنه لم يزل غامضاً يصعب قبوله . » انتهى قول الاستاذ

دومرجان .

ثم قال الأستاذ كروكس : « أنا لا أستطيع أن أحكم على السبب المحدث للشاهدات التي رأيته ولكن يوجد منها بعض حوادث طبيعية مثل تحرك الأشياء المادية وحدث اللفظ الشبيه بصوت بطاريات كهربائية تحصل في أحوال لا يمكن تعليلها معها بأي قانون طبيعي معروف . وهذا شيء أراى متحققاً منه تحققاً بأبسط الحوادث الكيميائية . » كل أبحاثى العلمية حلقة مستطيلة من مشاهدات دقيقة فأريد اليوم بأن يعرف عنى بأن المشاهدات التى سأؤكد حصولها هى نتيجة أبحاث بلغت فيها حد الجهد من التحيص والتدقيق ( تأمل ) . أنا لا أستطيع الآن أن أجازف بإبداء أى رأى على سبب هذه الحوادث فانى لم أر للآن ما يقنعنى بصحة ( الرأى الروحى ) ( القائل بأن سبب حدوثها الأرواح ) فان العقل فى مثل هذا البحث يود أن يكون البرهان على ذلك الرأى من الواضوح بحيث لا يتطرق اليه الشك ، فان الحقيقة يجب أن تكون مؤثرة مقنعة بحيث لا يتجاسر أحد على التردد فى قبولها . » من هنا ترى أن هؤلاء العلماء المصدقين بمسألة الاسبرتزم ، وكروكس من أكبرهم بل من أكبر علماء الأرض ، لم يصدقوا بها جزافاً بل أنهم حاولوها بما يحاولون به سائر مساتير الطبيعة بعلومهم التى برعوا فيها ، وعالجوها بعقلهم الخاص لا بالهوس وعدم التروى . هنا يحسن بنا أيضاً أن نترجم لحضرات القراء جملة طويلة من كتاب ( الحادثة الروحية وشهادات العلماء ) تأليف الكاتب الفرنسى



الشهير ( جابريل دولن ) فانها تشمل سير الحركة الاسبريتية في العالم، بالتفصيل الموجز . فاليك ما يخص مقاله تحت عنوان « العلماء » :

يمكننا أن نبداً فصلنا هذا بذكر اسم قانوني كبير من نيويورك هو الآن رئيس مجلس الأعيان الأميركي واسمه ( آدمون ) فلقد كان لخبر دخوله الى مذهب الأرواح رجة عظيمة دوت لها الجرائد الدينية والديوية دويًا هائلاً . فرد ذلك الأصولي على جميع خصومه بكتاب سماه « الحوادث الروحية » كان له صدى كبير في جميع المملكة الأمريكية وبث فيها المشاهدات والتجارب التي استند عليها في تقرير مذهبه ، فصعد أحد الملحنين على المؤتمر المقيم في وشنجتون بضرورة فحص المسائل الروحية الى عدة ملايين ولم يكن قبل كتابه الى خمسة عشر ألفاً

اليك كيفية نفوذ العقيدة الروحية الى فؤاد ذلك القانوني العظيم . قال حضرته عن نفسه : « في ٢٣ ابريل سنة ١٨٥١ كنت أحد تسعة عشر رجلاً جالساَ معهم حول مائدة في وسط الحجرة وكان يعلو المائدة مصباح منير وكان مصباح آخر فوق أنبوبة البخار الذي يسخن الحجرة . فمالبثنا غير قليل حتى ارتفعت المائدة نحو قدم عن الأرض ، وأخذت ترتج وتضطرب الى الامام والخلف بالسرعة والسهولة التي أستطيع أن أحرك بها قدحا بين يدي . فحاول بعضنا أن يوقفها وبذلوا لذلك منتهى ما اتصل اليه قواهم ، فلم ينجحوا . فلم يسعنا الا الابتعاد عنها ، ولم نكد نفعل ذلك حتى رأيناها على نور المصباحين صعدت

مع ثقلها وتعلقت بالهواء . فغريت من ذلك الوقت على متابعة هذه الأبحاث ظاناً ( تأمل ) انى واهم أومغشوش ، وآليت على نفسى أن أسعى فى قشع ظلمات الخرافات عن عقول الناس بفضح سر هذه الألاعيب . ولكنى رأيت ان أبحاثى وتجاربى أدتنى الى نتيجة غير التى كنت أقصدها ، أى الى التصديق بها واعتقاد أنها أمور روحية » ثم قال ( جبريل دولن ) :

« والذى يجب ملاحظته والالتفات اليه فى كل هذه الشهادات التى يقدمها العلماء للناس أنهم انما ابتدوا أبحاثهم وهم مجمعون جازمون بأن هذه المسائل كلها غش وتدليس ، وأنهم ما كلفوا خاطرهم يبحثها وتجربتها الا لشفاء معاصريهم من هذا الداء الجنونى المعدى . قال الأستاذ ( مابس ) الأمريكى الشهير مدرس الكيمياء فى المجمع العلمى الأهلى فى الممالك المتحدة : « لقد رفضت بادية بدء هذه المسائل واحتقرتها ، ولكنى لما رأيت أن بعض زملائى غرقوا فى بحارها وهو على ظنى سحر جديد عزمت على استعمال عقلى وقواى فى بحث هذه المسألة بالدقة ، وغرضى من البحث نجاة رجال متورين محترمين فى كل ما هم فيه ولكنهم على زعمى كانوا على وشك الهوى من هذه المسألة الى مهواة الغفلة والغباوة » قال جبريل دولن : « فكانت نتيجة أبحاث حضرة الأستاذ ( مابس ) مثل نتيجة القاضى ( ادمون ) وهى الغرق التام فى حياض الاسبرنزم » وقد حصل مثل ذلك للاستاذ ( رويرهار ) وهو من أشهر علماء أمريكا ومدرس فى كلية ( بانسيلفانى )

فانه بدأ في البحث سنة ١٨٥٣ وهو زمن كما يقول عن نفسه « أحس فيه بوجوب استعمال كل معلوماته ومداركه لا يقف هذا التيار الجارف تيار المسائل الروحية التي هي ، كما كان يعتقد قبل اعتقاده بها ، نزعة عامة ظهرت رغما عن مقررات العلم وقضايا العقل . » انتهى

قال ( جبريل دولن ) قبل أن يدخل الاستاذ ( رويرهار ) هذا في معمعان هذا البحث كان يعرف نتائج ابحاث الاستاذ ( فاراديه ) على الموائد المتحركة بنفسها وكان يظن ان ذلك الكيماوى الكبير قد وقف على علة تلك الحركات ، وفسرها تفسيراً مقبولا ، ولكنه لما جربها وامتحنها بنفسه وجد أن تعليقات الاستاذ الكيماوى ناقصة فأخذ في تكميلها باختراع الآلات وأدوات جديدة . فأخذ كرات بليارد مصنوعة من نحاس ووضعها على سطح مصقول من الزنج ووضع أيدي الواسطة على تلك الكرات ليتحقق من عدم استعمالها ليديها . فرآى وهو مندهش غاية الدهشة أنه رغماً عن ذلك الاحتراس تحركت المائدة واضطربت بدون فعل فاعل . عند ذلك رأى أن يغمس أيدي تلك الواسطة في الماء بصفة لا تستطيع معها أن تلامس السطح الموجود عليه الاناء الشامل للسائل . فلم يلبث الا قليلا على ذلك الشكل حتى رأى أن قوة تعادل ثمانية عشر رطلا انجليزيا حدثت على ذلك السطح من غير أثر مؤثر مرئى . فلم يقنع بذلك أيضا فوجه أبحاثه وتجارب به وجهة أخرى . وذلك أنه أتى بميزان ذو حلزون له دليل متحرك وأتى بمعول حديدى ثقيل ووضع طرفه على مشبك الميزان فتأثر طبعاً بثقل



المعول ووقف عند حد محدود . أما طرف المعول الآخر فركزه على سطح ثابت غير متحرك ثم أمر الواسطة بوضع أصبعها على ذلك الطرف امام عينه بطريقة لا تؤثر على وزن المعول ولو أثرت عليه لا نقصت وزنه . فلم يلبث الأستاذ حتى رأى أن المعول ازداد وزنه في الميزان جملة أرطال فاندesh غاية الدهشة وقضى بالعجب العجائب .

وسترى بعد قليل بأنه في مثل هذه الحالة صنع الأستاذ الكيماوى كروكس جهازاً يدل على كل تغيرات الميزان في أثناء العمل وذلك ليتقى غش مشاعره ولكي يكون البرهان مادياً محسوساً من كل وجه . لما اعتقد رويرهار بأنه يوجد قوة طبيعية تظهر كما ظهرت له في شروط مخصوصة أراد أن يعرف ما اذا كانت تلك القوة متممة بعقل دراك أم لا . فصنع لذلك القصد دائرة كتب على أحد جهتيها حروف الهجاء جميعها وترك الوجه الآخر خالياً ووضع في وسطها ابرة تتحرك كآبرة الساعة لتشير الى الأحرف المطلوبة على التوالي متى تحركت بأثر يقع عليها . ووضع هذه الدائرة على المائدة بحيث أن وجهها المكتوب كان امام المجريين ووجهها الخالى من الخط امام الواسطة من الجهة المقابلة فتحركت الابرة ودلت على الأحرف المرادة وتركبت بذلك جمل معقولة بدون علم الواسطة ولا تداخلها . « كل هذه التفاصيل مكتوبة في كتاب ألفه الدكتور (رويرهار) وطبعه ونشره باسم ( الأبحاث التجريبية على المشاهدات الاسبريتية ) وكان له نجاح باهر في أمريكا أكبر من نجاح كتاب القانونى آدمون .

لأن كتاب آدمون ربما يفسح مجال الظن لبعض الشكاكين بخلاف كتاب الأستاذ (روبيرهار) فانه بمثابة اقرار رسمي من العلم الرسمي عن لسان أحد أبنائه الذين لهم الحق في أداء مثل هذا الحكم .

« من هذا العهد نشبت الحرب العوان ، وصعد لهيب الجدل الى العنان ، واشتبك بذلك العلماء فيما بينهم أخذاً ورداً ، وتمحيصاً وفحصاً ، ولم يستطع واحد من المكذبيين أن يبرهن على أن ما فعل من التجارب ( تأمل ) غير موافق للشروط العلمية العملية . فبقى النمر في جانب المتصرين للاسبرتزم .

والخلاصة أن أكثر الداخلين في هذا المذهب هم الرجال الذين تعهدوا في مبدا الأمر بدحضه واقامة الأدلة الحسية على فساد مبناه وأصله . ولسنا في حاجة الى زيادة الشرح في هذه النقطة فان المسألة . عينها حصلت في انجلتره . فان رجال العلم الغيورين على صفتهم العلمية في هذه المملكة الأخيرة لم يريدوا أن ينهزموا أمام ما كانوا يعتبرونه وساوس عامية وخرافات جاهلية ، بل رموا بأنفسهم في لجة البحث والتنقيب . ولما أنسوا بأن نتيجة التجارب العمالية أدتهم الى خلاف ما كانوا ينتظرون لم يجبنوا عن إعلان الحقيقة بدون خشية ولا خوف من الاستهزاء والسخرية وهما سلاحا الجهالة والتعصب الذميم .

« من بين الرجال العظام في أمريكا الذين دخلوا الى مذهب الاسبرتزم حديثاً ( روبر دال اوين ) الحائز لصفيتين كبيرتين : أولهما كونه معدوداً

بين العلماء العاملين ، ثانيهما كونه من فطاحل الكتاب المنشئين باللغة الانجليزية . فان كتابه الأخير الذى طبعه فى فيلادلفيا سنة ١٨٧٧ تحت هذا العنوان المبكر « عثرات على حدود العالم الأخرى » مفعم بالأفكار العالية والملاحظات السامية والوقائع المعلمة المهدبة .

«والخلاصة أن الحركة الاسبريتية فى هذه الأوقات أحياء وأنشط منها فى أى زمان كان . فانك ترى فى كل بلدة وعاصمة من عواصم أمريكا وبلادها جمعيات منتظمة متسعة دأبها وهمها البحث فى المسائل الروحية وامتحان مشاهداتها وخوارقها . وبها نحو من اثنين وعشرين جريدة ومجلة تنشر بين الناس لنقل أخبار وحوادث تلك الحركة المدهشة اليهم . ومجلة ( بتراف ليت ) التى تطبع فى ( بوستون ) هنالك من منذ اثنين وعشرين سنة هى الرائد الخبير للاسبريتزم فى أمريكا . ومما يدل بأجل دليل على قوة سير الحركة الاسبريتية فى أمريكا هى الاجتماعات السنوية التى تلتئم سنويا حول شاطئ بحيرة ( كساراجا ) . فقد ابتنى الروحيون هنالك محلات تسع نحواً من عشرة آلاف نسمة ، ومع ذلك فالزحام يشتد هناك لدرجة ان كثيرين من الوفود بعائلاتهم يسكنون الخيام حول المدينة .

كل هذه الأمور تثبت أهمية الحركة الروحية فى أمريكا لا سيما وان مثل هذه الاجتماعات تحصل على شواطئ المحيطين الاطلانتىكى والهادى وجميع البحيرات الامريكية . ولنصف الى هذا أن جميع عواصم الممالك المتحدة لها جمعيات روحية ملتزمة منتظمة ، وقد ثبت



من الاحصاء الذى عمل سنة ١٨٧٠ ( أى قبل ٣٣ سنة ) أنه يوجد  
بأمريكا للروحيين عشرين جمعية للمملكة ومائة جمعية وخمسة جمعيات  
للروحيين أنفسهم ومائتا خطيب وسبعة خطباء واثنين وعشرين واسطة  
تحت طلب الناس غير الوسطاء الخاصين . وقد نقل الأستاذ الفيسيولوجى  
الانجليزى ( روسل ولاس ) فى كتابه ( عجائب العصر الحالى ) ان عدد  
الروحيين فى أمريكا وحدها بلغ أحد عشر مليوناً ( فتأمل ) .

## الاسبرترزم فى انجلترا

« فى انجلترا خصوصاً يجد الانسان ثلة من كبار العقول مشغلة  
دائمة فى درس الاسبرترزم والتعمق فيه .  
وأول ما نبتدىء به من الشهادات على صحة هذا المذهب شهادة  
الأستاذ وليم كروكس الذى تغنينا شهرته عن سرد ألقابه الكثيرة .  
وما له من الاحترام والاجلال فى أفتدة العالم .  
ولأجل الادلال على بعض فضله يكفيننا أن نقول انه هو الذى  
اكتشف الجوهر المسمى (تاليوم) وهو المقيم البرهان العملى على وجود  
المادة الذى تخيلها (فأرادييه) قبله تخيلاً ، هذا الاستكشاف فتح للأبحاث  
العصرية مجالاً فسيحاً وميداناً واسعاً وأبعد مدى التأملات الانسانية  
حتى يمكن أن يقال انه من أكبر الاكتشافات التى حدثت فى هذا القرن .

« لا جرم أن عقلا مثل عقل الأستاذ كروكس لا يجازف بنفسه في مضمار مجهول بدون أن يكون قد أخذ ما يخطر بالفكر من أسباب الدقة . ووسائل الوصول إلى الحقيقة مع الأمن من الخطأ والخطل .

إليك مقاله في شأن الاسبرتزم في فصل كتبه في المجلة الانجليزية المسماة ( كواترلى ريفيو ) في شهر يوليو سنة ١٨٧٠ : ( أى قبل ٣٣ سنة ) « يقول الروحي أن جسيما يزن ٥٠ رطلا أو ١٠٠ رطل يمكن « أن يعلو في الهواء بدون أدنى قوة محسوسة ، ولكن العالم الكيماوى « اعتاد استعمال ميزان حساس جداً بحيث أنه يشعر بنقل ما لوجع « منه عشرة آلاف ضعف لما زاد وزنه عن الحبة . فهو لا يطلب « من تلك القوة المحتجة التى تقول انها عاقلة مدركة وترفع تلك « الاجرام الثقيلة الى السقف ، الا أن تحرك ميزانه الحساس فى شروط « مخصوصة عند ما يكون فى حالة التوازن »

« الروحي يتكلم عن طرقات تسمع فى جهات مختلفة من الحجرة « لما يجلس نفران أو أكثر حول مائدة فى غاية السكون ، ولكن « المجرب العلى يود أن تلك الطرقات تحدث على غشاء فونوغراف . « يتكلم الروحي عن اهتزاز وارتجاج حدث فى غرف بل على « بيوت حتى أحدث فيها خللا بواسطة قوة فوق قوى الطبيعة ، « ولكن رجل العلم لا يطلب الا تحرك كرة البندول الموضوع « تحت ناقوس من زجاج ومرتكز على أساس ثابت . »

« يتكلم الروحي عن أشياء ثقيلة وأنواع من أثاث البيوت تتحرك »

« من غرفة الى غرفة بدون فعل فاعل ، ولكن العالم قد اكتشف عدة »  
 « تقسم له العقدة الى مليون درجة وتراه يشك في كل ما عمله تلك »  
 « القوة المحتجة ان لم تستطع أن تحرك دليل تلك الآلة درجة واحدة »  
 « من تلك المليون درجة ».

« الروحي يتكلم عن سقوط أزهار مكلفة بالندى وعن أثمار »  
 بل وعن كائنات حية أنفذت من خلال الحائط ، ولكن المنقب العلي »  
 « لا يطلب الا وضع جزء من مليون من حبة على كفة ميزانه الحساس »  
 « بينما يكون ذلك الميزان موضوع داخل وعائه الزجاجي المقفل ؛ »  
 « والكيماوى لا يطلب الا ادخال جزء من ألف من حبة الزرنيخ »  
 « فى سائل موجود داخل أنبوبة محكمة القفل »

« الروحي يتكلم عن ظهور قوى تعادل الوف من الأرطال »  
 « بدون سبب مولدها ، ولكن رجل العلم الذى يعتقد بأن القوة »  
 « محفوظة وانه لا ينتج منها شيء فى جهة الا بحدوث فقد يقابلها فى »  
 « جهة أخرى ، لا يطلب من تلك القوى الظاهرة الا أن تحدث فى »  
 « معمله حيث يستطيع أن يزنها وقيسها ويجرى عليها الامتحانات اللازمة »  
 انتهى كلام الأستاذ كروكس . وقال ( جبريل دولن ) عقب هذا مباشرة  
 « من هنا يعلم بأى حذر واحتراس تقدم هذا العالم الكيماوى الى  
 بحث ما تصدى له من هذه المشاهدات . ولم يرد أن يجرب ما يجرب  
 الا فى معمله الخاص حتى يكون واثقاً بأن لا غش ولا خداع فى أقل  
 حركة من حركات تجاربه العلمية ، وهذا هو العقل والحكمة .



وكم بين هذا العلامة الجسور وبين علمائنا الفرنسيين من الفروق  
الجسيمة حيث أن هؤلاء الآخرين ينكرون الاسبرتزم بدون دليل  
ولا برهان ! هذه الجملة التي نقلناها عن كروكس مكتوبة في سنة ١٨٧٠  
ولكن هذا العالم بعد أن أمضى أربع سنوات متوالية دائباً وراء البحث  
وال تجربه كتب سنة ١٨٧٦ يقول :

« أنا لا أقول ان هذا ممكن ( يريد مشاهدات الاسبرتزم ) ولكني  
أقول انه ثابت محقق »

وسترى بعد قليل ماهية التجارب التي أقنعت هذا العالم الانجليزي  
« الجمعية الحديثة التي تكونت في لوندريه سنة ١٨٦٧ تحت رئاسة  
السير جون لبوك ( هو الآن لورد افبرى ) والتي من وكلائها (توما  
هنرى هكسلى) وهو من أعلم علماء الانجليز ( والمستر جورج هنرى  
لويس ) الفسيولوجى الطائر الصيت ، قررت في جلستها المنعقدة في ٦  
يناير سنة ١٨٩٦ بأن تتألف لجنة من أعضائها لدرس الحوادث الاسبريتية  
المزعومة وإعطاء الجمعية تقريراً عنها . فما حدث من الجدل والشغب  
لدى تقرير هذا العزم وإخراجه من القوة إلى الفعل يدل على أن  
أكثر الأعضاء كانوا مكذبين بالاسبرتزم ، وتلقت الجرائد الانجليزية  
هذا الخبر بالفرح والسرور ظانة أنها ستقضى على الاسبرتزم الحاضر  
القضاء الأخير . فلبثت هذه اللجنة ثمانية عشر شهراً دائبة في فحص  
مشاهدات الاسبرتزم ثم قررت صحتها للبلا فلا تسل عن الدهشة التي  
عرت عموم الناس عند ذاك من سماع هذا الخبر

« من بين الأعضاء الذين حضروا هذه التجارب العلامة الطبيعي  
الإنجليزي الشهير ( الفريد رسل ولاس ) نديد ( دارون ) الشهير وزميله  
في أعماله وقد كان قبل حضوره تلك الجلسة معتقداً بصحة الاسبرتزم .  
وقد ألف هذا العالم الكبير كتاباً شرح فيه اعتقاده وفكره في  
الاسبرتزم ولم يخش اللأئمة ، وسمى كتابه ( عجائب العصر الحالي )  
كما فعل قبله الأستاذ ( مابس ) والأستاذ ( هار ) وكثيرون غيرهما

« ومن ضمن الشهود الذين سمعت اللجنة أقوالهم في صالح الاسبرتزم  
الأستاذ ( اجوست دومرجان ) رئيس الجمعية الرياضية بلندره وسكرتير  
الجمعية الفلكية الملوكية . والمستر ( فارلى ) رئيس مهندسى قومبانيات  
التلغراف الدولى وما بعد المحيط الأتلانتيكى ، ومخترع مكثف كهربائى ،  
والذى توصل إلى حل غوامض مسألة التلغرافات البحرية »

« المستر ( دومرجان ) هذا قد أقر بعقيدته علناً بكتابه المسمى  
( فروم ماستراوف سبريت ) وسترى بعد قليل خطاباً من المستر  
( فارلى ) المتقدم ذكره يشكر فيه الأرواح شكراً جهرياً . »

« ان اجتماع آراء مثل هؤلاء الرجال المشاهير في صحة الاسبرتزم  
كاف في تقرير نظريته وتدعيمها تدعياً ثابتاً ، ولكن في مثل هذه المواضع  
الغويصة يحسن بالانسان أن يكثّر من الشهادات عليها . فإليك شهادات  
أخرى : »

« المستر او كسون استاذ كلية « اكسفورد » درس في مدة خمس  
سنين مسألة الكتابة بلا واسطة أى الكتابة التى تحدث بنفسها بدون

تداخل انسان : وكتب في ذلك كتاباً سماه « سبريت ايدانتى »  
الذى سنستفيد منه في الجدليات التى ستلى هذا الموضوع «  
ولنبوه أيضاً باسم المستر ( باركاس ) عضو الجمعية الجيولوجية  
بنيوكاسل ، فلقد قص تجاربه الذاتية فى كتاب مفيد جداً اسمه ( اوتلينس  
اوف انفسيتيجيشن اتوموردن سيريتواليزم ) ولا يسعنا هنا إلا  
استلفات أنظار الذين يودون الاقتناع بصحة الاسبرتزم أن يقرأوا  
هذا الكتاب بامعان وروية «

« الحرب العوان التى قامت فى انجلترا من جراء المسائل الاسبريتية  
لم تكن بأقل حماسة وشدة منها فى الممالك المتحدة بأمريكا ، فلقد تألب  
أعداء الاسبرتزم هنالك أيضاً وجمعوا كل قواهم لهدم الاصول الجديدة  
ولكن فى تلك المملكة التى فيها حرية البحث محترمة مرعية ، والخوف  
من السخرية أقل تأثيراً على النفوس ، لم يتأخر الداخلون إلى مذهب  
الاسبرتزم من الاعتراف بعقائدهم علناً على رموس الأشهاد «

« من بين الشكاكين الجامدين جداً كان الدكتور ( جورج  
سكستون ) الخطيب الانجليزى الشهير الذى كان شاهراً على الاسبرتزم  
حرباً عواناً ولكنه لما أكتب على البحث خمسة عشرة سنة رجع إليه  
واعتقده «

« وهناك عالم آخر الدكتور ( تشامبرس ) الذى عادى المذهب  
الجديد زهناً طويلاً رجع فأقر بصحة الاسبرتزم وكتب بذلك لمجلة  
( سبريتوال مجازين ) «



« ولنصف إلى هؤلاء الدكتور (جيمس جلي) مؤلف كتاب  
في الأمراض العصبية له شهرة فائقة ، ومؤلف كتاب ( قانون الصحة  
في الأمراض المزمنة ) الذي يرحل إليه في انجلترا »

« مما مريبك ترى أن الاسبرتزم قد اجتذب من الناس العلماء الكبار .  
وقد أجرى هؤلاء العلماء على خوارق الاسبرتزم قانون العلم  
العملي وأسلوب الفلسفة الحسية فخرجت منه غالبية منصوره رغما عن  
التجارب المتكررة التي أجريت في ذلك »

من منذ عشر سنين تألفت في انجلترا جمعية اسمها ( سوسيتي فور  
بسيشيكال روتشيرتش ) غرضها توسيع دائرة البحث في الاسبرتزم  
على موضوع ظهور الأشباح . وقد نقلت بالترتيب في مجموعتها المسماة  
( بروسيدنجز ) حكاية مشاهداتها وكتبت كتاباً في ذلك اسمه ( أشباح  
الأحياء ) فيه سرد مائتي حادثة ثابتة لا يشك فيها .

وقد نسب هذه الحوادث ( ميبروجورني وپودمور ) مؤلفو هذا  
الكتاب إلى ( التليياتيا ) أي تأثير الروح الانسانية على انسان آخر عن  
بعد ، فالشبح الذي يظهر في تلك الحالة يسمى خيال صادق . وهذا كما  
لا يخفى محاولة عليية الغرض منها تسرية القوانين الطبيعية المعروفة على  
المشاهدات الاسبريتية .

فاكتسب الاسبرتزم من هنا صبغة جديدة ، وقد رأينا عالماً من كبار  
العلماء مثل ( لودج ) الملقب بدارون علم الطبيعة يلح على الجمعية العلمية  
الانجليزية لترقية العلوم بضرورة التقدم للأمام والالتفات لهذه

المسائل الانسبريتية الآسرة الباهرة الجديدة بالدرس والفحص الواجبين .  
ويمكننا أن نتوه من بين سائر الجرائد الانجليزية الكثيرة باسم مجلة  
( ذى ليت ) التى يديرها المستر ( اكسون ) ومجلة ( ذى مديوم  
ندديريك ) لنفسك القلم هنا ولتنظر فيما حصل فى فرنسا .

## الانسبريزم فى فرنسا

تابع ما قبله من تعريب مقالة ( ج . دولن )

صدى صوت المشاهدات الخارقة للعادة التى كانت تحصل فى أمريكا  
أحدثت فى فرنسا ميلا شديداً الى الوقوف على أمرها ولم يمض غير  
قليل حتى أصبح أمر سؤال المائدة منتشرا بين سائر الطبقات انتشاراً  
عجيباً . فكنت ترى ( المودة الجديدة ) فى الصالات هى القاء الأسئلة  
التافهة جداً على الموائد المتحركة ، حتى صارت تلك المسألة تسلية فى  
أوقات الفراغ ونشبت بالأذواق نشوباً جنونيا .

« مضت سنتا ١٨٥١ و ١٨٥٢ ولم ير أحد فى مسألة الانسبريزم  
الا العوبة ظريفة ولم يكن أحد ليسلك بها مسلك الجد والنظر العلمى ،  
ولما كان الناس يجهلون ما بذل فيها العلماء من العناية فيما وراء المحيط  
الا تلاتيكى زهدوا فى استعمالها وهجروها لأنها لم تكن بالنسبة للجماهير  
الا شيئا جديداً فقط .

« ومع ذلك فقد كان بعض المنشئين مثل ( أوجين نو ) وبعض

رجال المظاهر مثل الكونت (دوريس) والبارون (دو جولدستوييه) التفتوا الى أن المائدة في أثناء حركتها انما تتحرك بعقل وروية فكتب الأخير كتابا سنة ١٨٥٧ سماه ( صحة ظهور الأرواح ) . وفي هذا الكتاب ترى التجارب الأولية التي أجريت في بلادنا على الكتابة بدون واسطة .

« هذا المؤلف لم يحدث أثرا كبيرا في عالم المطبوعات ، فقد قابلته الجرائد على عاداتها الممدوحة (تهم) بالسخرية ببعض أولئك الرجال الذين ثبتوا في فحص هذه المسائل المفيدة ، وركد ربح المسألة الاسبريتية بعد ذلك حتى ظهر (كتاب الأرواح) لمؤلفه الشهير (اللان كاردك) فاشتعلت الحرب العوان بين رجال الاقلام ورأى الناس أجمعون وهم في غاية الدهشة والاستغراب أن ما كانوا يعتبرونه قبل قليل من الزمن العوبة مسلية قد اتجأ أكبر النتائج الفلسفية ، وأنه قد نشأ من تحرك المائدة البرهان المحسوس على خلود الجزء المفكر من الانسان ، وان النوع الانساني بذلك أصبح امام علم جديد بمستقبل الروح بعد الموت .

« هذه المسائل الكبرى لا يمكن أن يقبلها جمهور الناس بدون جدال ونزاع فقابل الناس هذا المؤلف المجازف بصيحات مزعجة من كل مكان . وواجهته الجرائد والمجامع العلمية بالاعتراض والتبكيث ، ولكن من حسن حظ بلدنا (فرنسا) لم يحصل للاسبريتزم ما حصل له في أمريكا من المشاهد الخشنة والمواقف القاسية .

« لم تكد تظهر مسألة الموائد المتحركة ثانية في فرنسا حتى انقسم



أصحاب الفكر فيها الى قسمين : قسم حكم بأن تلك المسألة أكذوبة محضة من أصلها ، وأن حركة المائدة نتيجة التدليس والغش ، أو نتيجة حركة غير اختيارية ناشئة من المجريين . وهذا كان رأى جمعية العلوم و ( راينيه ) و ( شفرول ) وسندرس بعد قليل ما يحتويه هذا الرأى من صلاح أو فساد . والقسم الثانى قرر بأن حركة المائدة وإجابتها على الأسئلة المختلفة نتيجة فعل مغناطيسى ذى تأثير خاص لا يزال مجهولا . ومن القائلين بهذا الرأى ( الكونت ، أجينور دوجا سباران ) الذى له الأبحاث الدقيقة فى هذا الشأن وصاحب كتاب : ( الموائد المتحركة — ما وراء الطبيعة والأرواح )

« هذا التعليل الأخير قبله وجرى عليه عدد من الكتاب مثل ( شفيار ) أما الأستاذ ( تورى ) من جنيف فقد علل هذه الحوادث بعامل خاص بهاسماه ( بيسكود ) وهو سيال يخترق الأعصاب وكل المواد العضوية وغير العضوية مثله فى تلك الخاصية كمثل الاثير الذى اخترعه العلماء . وعللها المستر ( روجرس ) وهو كاتب أمريكى بأنها نتيجة الحركة الذاتية للهرا كز العصبية الخ .

كل هذه الأبحاث وكل هذه المجادلات أو صلت المشتغلين بهذه المسألة للجزم بأن هذه التعليلات غير كافية وأنه يوجد عامل آخر فى حدوثها . فالتجثوا لقبول الرأى القائل بوجود القوة النفسية وإمكان تأثيرها على المادة فى شروط مخصوصة . ولكن هنا أيضا انقسم الناس الى جزئين : حزب الفلاسفة الروحيين ، وهؤلاء حكموا بأن تلك

الحوادث منشأها أرواح الموتى ؟ وحزب الكتاب الدينيين ، وقد قرروا بأن تلك الحوادث لا مصدر لها الا القوة السفلية قوة الشيطان نفسه . ومن بين القائلين بهذا الرأي الأخير كان المركيز ( أودد ومير فيل ) الذي سرد في كتابه ( الأرواح وظهورها ) عدداً عديداً من مشاهدات ونسبها لابليس . وقال بهذا الرأي عينه ( الشفاليه جوجنو ديه موسو ) وسمى الاسبرتزم السحر الحاضر ، وبرهن هو والقس ( فتورا ) من الكتاب المقدس على أن ظهور الجنة للناس منصوبة في الانجيل نفسه وذكرها كثيرون من قسوس الكنيسة . وهنا يجمل بنا أن نتوه بكتب القس ( بوسان دونيس ) والقس ( مارسوا ) اللذين كانا يذهبان هذا المذهب

« كل هذه الاختلافات المذهبية بازاء هذه المسألة ليست بالامر المستغرب ، فان التخالف والنزاع أمام مسألة مجهولة كمسألة الاسبرتزم وذهاب كل حزب في تعليلها على مقتضى الأسلوب الفاسفي في مذهبه أمر طبيعي ، ولكن لا يخطر على فكر عاقل أن يتخيل تعليلاً عجيباً مضحكاً مثل التعليل الذي أتت به جمعية العلماء الفرنسية بشأن تحرك الموائد في جلستها المنعقدة في سنة ١٨٥٩ . فقد اكتشفت جمعية العلوم الطبية وترا في الفخذ يتحرك بصوت مرتفع في بعض الأحيان ونسبت اليه ما يظنه الروحانيون في جاسات التحضير حوادث روحية آتية من العلم الآخر .

« وجد هذا التعليل الغريب ( جوير دولبال ) فلم يسع الجمعية

العلمية الاتحييده والاطراء به لوجدانه في شحم ساق الانسان هذه الخاصة غير المنتظرة . ولكن جمهور الناس لم يعلق أدنى أهمية على هذا التعليل التافه ، وليس علينا من حرج في إشهار أسماء كثير من العظماء الذين قبلوا الاسبرتزم في فرنسا قبولاً تاماً .

« كتب ( اوجست فا كرى ) في كتابه ( فذلك من التاريخ ) بلهجة الحادة الشجيرة التجارب التي جربها هو و ( مدام جيراردان ) في بيت الشاعر الكبير الفيلسوف ( فيكتور هوجو ) وسترى بعد قليل حكاية تلك التجارب مكتوبة بقلم ذلك المنشئ الطائر الصيت الذي تؤثر عنه هذه الكلمة الجميلة : « أنا أصدق بوجود الأرواح التي ظهرت في أمريكا وأسمعت الناس قرعاتها لشهادة خمسة عشر ألفاً من الناس في صحة ظهورها »

« أما أكبر شعرائنا العصريين ( فيكتور هوجو ) فقد قال في موضع آخر « لقد استهزأ الناس كثيراً بالموائد التي تحركها الأرواح ، ولكن مما لا شبهة فيه ان هذا الاستهزاء لا طائل تحته . — فانتا نعرف أن من واجب العلم سبر غور كل الحوادث الطبيعية من أى نوع كانت . وارى أن تجريد الاسبرتزم من مزية استلفات الأنظار التي هو أهل لها ، يعادل في نظرنا تجريد الحقيقة من حقوقها . » انتهى كلام هوجو .

« المسيو ( فيكتور يان ساردو ) (١) قد اعتقد بالاسبرتزم وصار

(١) فيكتور يان سارد وهذا من أشهر مشاهير كتاب المرساويين في القرن العشرين



هو نفسه واسطة تستعمل الأرواح يده في الرسم والتصوير على غير إرادة منه . وقد نشرت المجلة الروحية سلسلة رسوم جميلة رسمتها الأرواح بواسطته وهو مستسلم لها تمام الاستسلام ومعطّل إرادته تمام التعطيل . وتلك الرسوم والتصاویر جاءت قطعاً باهرة أنصنع من حيث الرقة والاتقان الروحاني الحقيقي .

« وقد كتب المؤرخ ( اوجين بونمير ) :

« لقد استهزأت بالاسبرتزم كما استهزأ به الناس أجمعون من قبلي ولكن الأمر الغريب أن الاستهزاء الذي كنت أعده استهزاء ( فولتريا ) لم يكن في الحقيقة الا استهزاء المغفل الأبله ، وهذا الاستهزاء الأخير أكثر شيوعاً بين الناس »

الحركة الاسبرتية اليوم هي أحياء وأنشط مما كانت عليه قبلاً في فرنسا . وقد تكونت في باريس جمعية المباحث النفسية التي تكونت في لوندنر ، تدعى جمعية المباحث ( البسيكولوجية الفزيولوجية ) أي النفسية التشريحية ، الغرض منها درس حوادث ( التليباتيا ) أي ظهور الأشباح . وعينت هذه الجمعية لجنة منها لا تنقاد الحوادث التي تقدم إليها من هذا القبيل . إليك أسماء أعضاء تلك اللجنة :

( ١ ) سلى برودوم ( من الجمعية العلمية الفرنسية ) وهو

رئيس اللجنة

( ٢ ) ج باليه ( أستاذ منتخب من جمعية العلوم الطبية )

( ٣ ) بوميه ( أستاذ في الكلية الطبية بمدينة ( ناسي )

(٤) شارل ريشيه (أستاذ بالكلية الطبية)

(٥) الكولونل دوروشاس (مدير المدرسة الهندسية الفرنسية)

(٦) ماريليه (أستاذ بمدرسة العلوم العالية) وهو كاتم سر

اللجنة وللجمعية مجلة شهرية تسمى (أنال بيشيك) يديرها الدكتور

(داريكس) أسست لنقل مباحث تلك الجمعية ونشرها.

« تكون هذه الجمعية من هؤلاء الأعضاء بمثابة الاقرار عليها من

جهة العلم الرسمي، ولكن الاسبريتيون الفرنسيون لم ينتظروا هذه

التشجيعات فكونوا من عهد بعيد لأنفسهم عددا عديدا من الجمعيات

في جميع أنحاء المملكة الفرنسية »

« يوجد في باريس عدد عظيم من جمعيات صغيرة يحضرون فيها

الأرواح، ولكن هناك جمعيتان عموميتان وهما (المجمع الروحي)

نمرة ٥٥ بشارع (ساتودو) و (جمعية الاسبريتزم العلمي) نمرة ١٨٣

بشارع (سان دونيس).

أما في اقاليم فرنسا فنستطيع أن نتوه من بينها باسم (المجمع

الاسبريتي الليوني) ولهذه الجمعية مجلة تدعى (السلم العام) و (المجمع

الاسبريتي بريمس) و (المجمع الاسبريتي برون) تظهر أعماله كل ثلاثة

أشهر منشورة في مجلة (فكر الموتى) »

« أما مدائن (مارسيليا) و (افينيون) و (تولوز) و (بورجو)

و (نانت) و (تور) و (لومان) و (اورليان) و (لى) و (بارلودوك

و (نانسى) و (رين) و (يزانسون) فلها مجتمعات مؤسسة على

قواعد ثابتة وبواسطتها يزيد عدد الروحيين وينمو يوماً بعد يوم أما أشهر  
المجلات الفرنسية الأسبريتية فهي : «

(١) المجلة الروحية (٢) المجلة العلمية الأدبية للأسبريتزم (٣) الترقى  
الروحي (٤) النور (٥) الديانة بلا كنيسة (٦) مجلة أتباع  
سويدانبورع (٧) منار نورماندى

« سبب انتشار هذه الحركة الروحية في فرنسا هو المؤتمر الأسبريتي  
الذى أقيم في باريس سنة ١٨٨٩ . وقد كتب في خلاصة أبحاث هذا  
المؤتمر أن عدد أعضائه بلغ أربعين ألف عضو ( ٤٠٠٠٠ ) وكان فيه  
مندوبون من كافة الجامعات الأسبريتية .

« سنرى بعد قليل أن الحركة الروحية التى نشأت تحت سماء أمريكا  
لم تبلغ أوروبا فقط بل تعدتها إلى سائر أرجاء المعمور . »

— ❦ —

## الأسبريتزم في ألمانيا

« الدكتور ( كيرنير ) الذى هو أحد أركان المعارف فى ألمانيا  
الحالية شاهد فى سنة ١٨٤٠ بعض حوادث روحية وهو يعالج (مدام  
هوف ) التى تعرف ( بعراقة بريفورست ) وبريفورست هذه هى  
قرية من ( ورتامبرج ) التى ولدت فيها هذه المرأة فى أوائل هذا  
القرن . »

« يقول هذا الدكتور إن هذه المرأة كانت تشكو كثيراً من رؤيا



أشباح بحيث لا يمكن عد حالتها هذه في عداد أحوال الخلل العقلي ، لأن من كان حاضراً معها كان يسمع بغاية الوضوح والصراحة قرعاً يحدث على حواجز الغرف ، أو يرى معها أن بعضاً من أثاثات البيت تنتقل أمامهم بدون فاعل منظور من مكان إلى مكان آخر . »

« أمالقب ( عرافه ) التي الصق الى اسمها فاني اليها من كونها كانت تنذر أهلها بالأخطار التي تكاد تنزل بهم ، وكانت الحوادث تصدق دائماً ما تنذروهم به تمام التصديق . »

« حوالى سنة ١٨٤٠ ظهرت أيضاً في مونتجن ( ورتامبرج ) حوادث روحية ، ومن عهد هذا التاريخ أخذ الناس يشاهدون آناً بعد أن حوادث من هذا القبيل ، كظهور أشباح أو سماع أصوات ، أو مكالمات تدل بلاشك أنها آتية من عالم الأرواح . هذه المشاهدات على ما بهام من الوضوح والبيان لم يكن لها أهمية حتى ظهرت تلك الحوادث الاميريكية فأحدثت في ألمانيا مثل تلك الحركة التي أحدثتها في فرنسا وكونت لها تياراً خاصاً من الأفكار العمومية . نحن لا يمكننا أن ندرس هذه المشاهدات بالتفصيل ، فلنكتف بسرد أسماء رجال العلم الذين اعتقدوا بها وأعلنوا أبحاثهم فيها »

« في مقدمة أولئك الأسماء نضع الفلكي الشهير ( زولنر ) الأستاذ بكلية ( ليزيج ) هذا العالم ألف كتاباً سماه ( أوراق علمية ) سرد فيه التجارب التي أجراها مع الواسطة ( سلاذ ) وأقرباًنه واجه ذلك البحث وهو يأس من حقيقته غير مجوز إمكان حصوله ولكنه أرغم على

الاعتقاد في صدقه بالتجارب الصادقة والحوادث الغالبة . وسرى فيما يلي من هذا الكتاب انها كتشف على أمور جديدة في الروحيات كما كان دخول المادة من خلال مادة أخرى بدون أن يستطيع الانسان أن يرى أثر انحلال المادة التي حصل فيها التداخل . كتداخل حلقة ممتلئة في ساق مائدة بدون أن تشاهد أثرا من أى كسر كان »

« هذا الأستاذ من الذين يعتقدون أن هذه الأعمال منسوبة لتأثير أرواح الموتى على المادة ولا أجل أن يعال تأثيرهم هذا تخيل أن للمادة بعدا رابعا .

شهادة هذا العالم على التجارب الروحية مستندة بشهادة ( ويبر ) وهو الأستاذ التشريحى الكبير . والأستاذ ( فيشر ) الذى أصبحت أبحاثه على القوانين الحساسية الانسانية عماداً يعتمد عليها فى العالم العلى ، وبشهادة الأستاذ ( اولتريسى ) أيضاً »

هذه ثلة من رجال مشاهير وأساتذة أعظم تثبت للناس علناً صحة هذه الخوارق »

« هنا يجب علينا أن ننبه على أمر جدير بالتنبيه عليه وهو أن هذه الحوادث الروحية خاضعة من أول ظهورها لأسلوب البحث النقدى . القاسى جداً وبأشكال مختلفة وبواسطة مجربين متنورين وغاية فى المهارة ، ومع ذلك فرغما عن أن هؤلاء المجربين من الذين لا يعتقدون بشيء فى مبدأ أمرهم فقد استحال أمرهم الى الاعتقاد بالاسبىرتزم وصاروا حماة لبيضته ، وأنصار الحقائقه . أليس هذا أعظم البراهين على الاسبريتزم ،

حقيقة ثابتة في ذاته وأن المشاهدات التي يرتكز عليها غير قابلة للنقض ؟ »

« أما مجلات المانيا ففي مقدمتها جرنال ( الاسفنكس ) ومجلة ( بسيشيش ستوديان ) »

## الاسبر تزم في أرجاء أوروبا

« يجدر بنا أن نضع في مقدمة اسماء انصار الاسبر تزم في روسيا ، الأستاذ ( بوتايرو ) الذي كرر وأعاد تجارب الأستاذ ( كروكس ) الانجليزى بواسطة الواسطة ( هوم ) ونضيف اليه اسم المستشار ( الكسندرا كزاكوف ) وهو من العلماء الذين برعوا في فحص مسألة تجسد الأرواح . وسيكون لنا مجال واسع لايراد ابجائه التي تؤيد وتؤكد أبحاث الطبيعى الشهير الانجليزى ( كروكس ) بالنسبة لحقيقة تلك الأرواح المتجسدة »

« ولقد حدث في الأيام الأخيرة مظاهرة كبرى في صالح التجارب الروحية فان الأستاذ ( اركول كيايا ) من نابلي كرر بواسطة الواسطة الشهيرة ( اوزايا بلادينو ) كل المشاهدات العالية للاسبر تزم مثل جلب الأشياء من أماكنها وتجسد الأرواح وارتفاع الأجسام الى مسافات في الهواء الخ ونشر أبحاثه فانتقدها عليه العلادة البحوث في الجرائم ( لومبر وزو ) »



فلم يسع الأستاذ كيايا أمام هذا الانتقاد إلا أن أعاد تجاربه كلها أمام الأستاذ ( لومبروزو ) نفسه ليكون برهانه أشد إقناعاً له . ثم توالى جلسات تحضيرية كثيرة في أواخر سنة ١٨٩١ كانت نتيجةها كما كانت في أمريكا وإنجلترا وفرنسا ( اثبات حقيقة المشاهدات الروحية ) ولقد استطاع الأستاذ ( لومبروزو ) أن يرى بالحس في جملة مرار هو والأستاذة ( تامبوريني ) و ( فيرجيليو ) و ( بيانكي ) و ( فيزيولي ) أن مشاهدات الاسبرتزم حقة لا غبار عليها . ولكنه لا يذهب في تحليلها مذهب الروحين بنسبتها إلى أرواح الموتى ، بل عللها بتعليل آخر لا يفسر كل تلك الحوادث كما استراه في هذا الكتاب «

« لا شك أن لومبروزو متى تعمق في هذه المسائل في مدة توازي المدة التي درسها فيها الأستاذة ( ولاس ) و ( كروكس ) أو ( فارلى ) يلتجئ لتغيير فكره عليها . فان هؤلاء العلماء الأعلام الذين تقدموه كانوا في مبدأ أمرهم مثله يعتقدون حقيقة المشاهدات وصدقها ولكنهم لا يعزونها للأرواح بل إلى تأثير روح الواسطة ذاتها ، ولكنهم بعد شدة البحث والتحري رجعوا فاعتقدوا نسبتها إلى أرواح الموتى «

« في مقدمة الصحافة الإيطالية توجد مجلة ( لوكس ) وهي شهرية تنقل أبحاث المجمع العلمي الاسبريتي المغناطيسي في روما . ومجلة ( لاسفنج ) يديرها المسيو ( انجر ) و ( فيسيو سبيريتيستا ) التي يديرها المسيو ( فولبي ) «

« أما في هولانده فالمجلة التي تدافع عن الاسبرتزم هي ( أوب

( م — ٢٧ — أول )

جرين) وتنشر في مدينة (لاهيه) «  
 « أمانى بلجيكا فالحركة الاسبريتية في نشاط وحياة كتلك الحركة  
 في فرنسا . فان مدينتي (لييج) و (بروكسل) هما مركزان نشيطان لنشر  
 المبادئ الاسبريتية . ويوجد بها جمعيات مركزية تتركز فيها أعمال سائر  
 الجمعيات الفرعية ، ولها مجلستان (لوميساجيه) و (لومونيكتور سبريت)  
 تنقل وتنشر الابحاث والمشاهدات التي يتحصل عليها الباحثون .  
 ويحدث في بلجيكا خطب كثيرة في صالح الاسبرتزم ، وتظهر كتب  
 ورسائل توزع مجانا كان من نتائجها أن بلغت آثارها أحواض مناجم  
 الفحم الحجري وأصبح المعتقدون بها من العملة يعدون بالآلاف »  
 « أما في السويد (فللا سبرتزم) مجلة اسمها (مور جندو مرنجن)  
 تنشر في (كرستيانا)

« أمانى اسبانيا فالحركة الاسبريتية أنشط فيها مما هي في أي بلد من  
 بلاد العالم وعدد الاسبريتين أكثر اذا نسبوا لعدد السكان مما هم  
 عليه في أي مملكة أخرى ففي كل مدينة من مدنها تجد جرائد ومجلات  
 تابعة لجمعيات في غاية النظام . من بين تلك المجلات الشهيرة (مجلة  
 الابحاث النفسية) في برشلونه وعمرها الآن ٢٣ سنة . يديرها الآن  
 (الفيكونت توريسولانو) وهو باحث وعالم نزيه . ومجلة (الكريتيرو  
 أسبريتيستا) تطبع في مدريد . ومجلة (لوز ديل بروفير) في ليريدا .  
 ومجلة (رفيلاسيون) اليكانت الخ »

« أمانى (أستريا) فقد كان الاسبرتزم قبل بضع سنوات ليس له

أهمية فيها ، ولكن التجارب التي تمت على يد (الارشيدوق رودولف) مع (باستيان) وهو واسطة للتجسيد وجهت أنظار الناس أجمعين الى تلك الحوادث ، وان كان قد اكتشف في اثناء تلك التجارب على شيء من الغش والتزوير ، أما الآن فان عدد الروحيين في استريا قد ازداداً زيادة عظيمة ويمكننا أن نذكر من بين مجلاتها الاسبريتية مجلة ( ريفورميدن يلاتير ) التي تطبع في بودابست أما في ( البورتغال ) فيشخص المذهب الاسبريتي فيها مجلة (أويسيزمو) التي تطبع في (ليسبون)

## الاسبريزم في العالم كله

« يمكننا أن نقول بلا أدنى خشية من التكذيب أن للاسبريزم اليوم أنصاراً وأعضاءاً في كل صقع من أصقاع الكرة الأرضية . ولاجل أن لا نطيل الكلام في هذا الموضوع لكيلا نخرج عن حد الاعتدال نكتفي بذكر الممالك التي يطبع فيها جرائد إسبريتية ، إذ لا يخفى أنه ان لولا وجود ناس يعتقدون وجود الأرواح ويصدقون بمذهبها لم تكن لتوجد تلك المجلات . فيمكن للطالع أن يدرك كنه خطارة الحركة الاسبريتية في العالم بعدد المجلات التي تدافع عنها وأنشئت من أجلها منذ ٤٠ سنة ( ١ ) »

في جمهورية ( ارجنتين ) يطبع في عاصمتها ( ريودوجانيرو ) مجلة

( ١ ) ان لن سوه ها إلا عن أشهر المحلات في كل مملكة لأنه من الممل اعطاء جدول بأسماء

( المؤلف )

سائر الجرائد التي تطبع في العالم طامها كثيرة جداً .



( لوروفورمادور ) وفي مملكة ( پارانا ) يطبع ثلاث مجلات . ففي (لوز)  
 تطبع ( أوريچينيرادور ) و ( ريفيستا اسبيريتستا ) وفي مدينة ( سان  
 بولص دولواندا ) تطبع مجلتا ( فيردال ) و ( لوز )  
 وفي مملكة ( شيلي ) يطبع في مدينة ( سانتياجو ) مجلة ( الپان  
 ديل اسبريتو ) وفي مملكة ( بيرو ) تطبع في ( ليما ) مجلة ( السول )  
 وفي جمهورية ( سان سلفادور ) تطبع مجلة ( الاسبريتيزمو )  
 في مدينة ( شالشوابا ) . وفي مملكة ( فينزويلا ) تطبع مجلة ( الاريفيسنا  
 اسبريتيستا )

وفي مملكة ( المكسيك ) بطبع في مدينة ( مكسيكو ) مجلة ( لا  
 ايللوستراسيون اسبيرتيا ) وفي مدينة ( سيزيولا ) ومملكة ( مازالتان )  
 تطبع مجلة ( ال پريكورسور )  
 وتطبع في جزيرة ( كوبا ) أربع مجلات ( لالبورادا ) في كوبا  
 ومجلة ( لا يونانويفا ) في مدينة ( پورتوريكو ) ومجلة ( لاريفيستا  
 اسبريتيستا ) في مدينة ( هافانا ) ومجلة ( لانويفالانزا ) في مدينة  
 ( سينفويجوس )

وفي جزائر ( كناريا ) تطبع مجلة ( لا كريداد ) في مدينة ( سانتا  
 كروزدوتيرلف ) وفي ( استراليا ) يطبع في مدينة ( مليون ) مجلة  
 ( ذي هارينجراوف لايت ) .

« لنضف إلى ذيل هذا الفصل أن جريدة ( المجلة العلمية الأدبية  
 للأسبرتزم ) التي نديرها نحن لها مراسلون من رؤساء جمعيات إسبريتية

في ( كندا ) و ( السويس ) و ( القاهرة ) و ( جزيرة موريس ) و ( بورنيو )

### ﴿ موجز ما سبق ﴾

« لقد تقرر مما سردناه آنفاً أن ملايين من الناس يعتقدون الآن في صحة المذهب الروحي . وأن الحركة التي تولدت في أمريكا قدسرت إلى سواها من الممالك بسرعة لم يعهد لها شبيه . وأنه ليوجد اليوم نحو من مائة وخمسين جريدة أو مجلة تنشر للجمهور أخبار هذه النظريات الجديدة وأن أعمال وتجارب العلماء الذين ذكرنا أسماءهم قد ترجمت إلى كل لغات العالم على سطح البسيطة ، وقد كانت نتائجها أن نشرت في أرجاء العالم الأرضي هذا الخبر السار خبر خلود الجزء المفكر من الانسان وعدم فناءه بالموت »

« لقد أخفق مسعى العلم الرسمي ومجامع العلم في تأمرها على الصمت المطلق بإزاء هذه الحوادث ، فان الحقيقة أقوى من كل المؤامرات . ولقد تغلغلت هذه الحوادث في الدنيا بأسرها واكتسبت أعضادا وأنصارا من كل قبيل ولا تزال تكتسب للآن . فلا الجرائد بسخريتها واستهزائها ، ولا الكهان بجلبتها وتذمرها ، ولا الماديون بتبكيها وسبها لا يستطيعون صد هذه الدفعة الانسانية التي تدفع الانسان لاكتشاف معلومات حقة يؤكد بها عقيدته في حياته المستقبلية . »

« رغماً عن سوء نوايا العلماء الرسميين ، وامراء العلم الذين يهدم لهم الاسبرتزم نظرياتهم الظلمانية العدمية ، لا يرد على فكر عاقل بأن هذه الحوادث الاسبريتية الخارقة للعادة ليس فيها ما يستلفت النظر أو

يوجه اليها العناية ، بل ان موضوعها الذي تبحث عنه هو من الخطارة والجلالة بحيث استلفت نظر الناس أجمعين في جميع أدوار التاريخ الانساني .

« لقد صيغت النظريات ، وبنيت المذاهب قديماً وحديثاً ولم تكسب نظرية خلود النفس الدليل القاطع ، أما الآن فقد فتح علينا بالوسيلة لدرس مسألة بقاء الروح بعد الموت درساً علمياً ؟ ولم نكن لنحصل على هذا الفتح لولا تداخل الأرواح في شؤون هذا العالم ، وسترى أن الحوادث والمشاهدات التي يركز عليها المذهب الاسبريتي هي أوضح وأقوى الأدلة لاثبات خلود الروح الانسانية بعد الموت »

« قبل أن نختتم الكلام نقول من المستحيل أن تكون هذه الحوادث الاسبريتية نتيجة الغش والتزوير أو الضلال الفاحش »

( أولاً ) لأن هذه المشاهدات درسها وفحصها أعظم رجال العلم ( كـأرأيت ) وان هؤلاء الكيماويين والطبيعيين هم أجدر الناس وأولاهم بمعرفة سلامة الدليل أو فسادة فيما يتعلق بسببية الحوادث ( ثانياً ) لأن هذه المشاهدات قد رويت مراراً عديدة جداً بواسطة مجربين ومراقبين مستقلين وكانوا لا يصدقون بشيء في مبدأ أمرهم ، ولم يكن بينهم وبين المجربين أمثالهم أدنى علاقة من تعارف وقد جاءت نتيجة كل تلك الأبحاث متشابهة متحدة في كل بلد من بلاد العالم ( ثالثاً ) لأن كل هذه الحوادث في مظاهرها الرئيسية واحدة في جميع بلاد العالم الأمر الذي يدل على أن سببها كلها واحد



(رابعاً) أخيراً أنا نعتقد أن مجموع كل هذه الشهادات ومقامها وصحتها من الخطارة بحيث يستحيل دحضها مجازاً بدون بحث دقيق « هذا ما سنحاوله في هذا الكتاب ، وذلك أننا سنستعرض حوادث الأسبرتزم أمام القارئ ، وسنوجه إليها مسار البحث والتمحيص من كل جهاتها ، وسنورد كل التعليقات التي عللت بها بغاية الحرية والصراحة ، ومع ذلك كله فأملنا وطيد في أن القارئ سيرى أن التعليل الروحاني هو التعليل الشافي لرئيس الصدر الناقع لغلة النفس ، المفسر لكل تلك العجائب الخارقة للعادة . »

نقول : هذه مقالة طويلة الذيل افتح بها الكاتب الاسبريتي الطائر الصيت ( جبريل دولن ) كتابه المسمى (الحادثة الاسبريتية) الذي طبع خمس مرات لغاية سنة ١٨٩٧ ، وغرضنا من نقل هذه المقالة اقامة الأدلة الساطعة على أن قادة الاسبرتزم اليوم هم قادة العلوم العصرية في أوروبا ، وان من الجسارة التي لا تخطر بالبال أن يتهم هؤلاء الرجال العظام الذين لهم أكبر الآثار في نهضة النوع الانساني ، بالجنون والهوس وعدم الروية والطيش ، ولئن صح ذلك على فرد أو فردين أو عشرين فرداً في بلد أو بلدين أو عشرين بلداً وراجت خزعبلاتهم على عقل أو عقليْن أو ألْفَي عقل وضرب على وترهم مجلة أو مجلتان أو عشرون مجلة مثلاً فكيف يعقل أن يبلغ عدد أولئك العلماء الألوْف المؤلفة في جميع انحاء الكرة الأرضية كما أريناك ذلك في هذه المقالة ، وكيف تروج خزعبلاتهم على نحو العشرين

هليوننا من الرجال ما بين سياسيين وكتاب ومحامين وأطباء ومهندسين ومنهم فلا دستون الانجليزى وبالفور رئيس وزارة الانجليز الحالية وغيرهم من أهل الفطن والذكاء ، واذا أمكن أن يدعى الانسان (وهو لم يقرأ فى ذلك الموضوع كتابا ولم يجرب فيها تجربة بسيطة) ان ضلة من الضلات تنطلى على كل هذه العقول القوية ، وتلين من تلك الشكائم الحديدية ، وترغم هاتيك المعاطس العتية ، فلا يبعد أن يدعى أنه لا عاقل فى الوجود غيره وكفى بهذا الادعاء مسقطاً لقوله

نحن نقول على رؤوس الأشهاد اننا لا نعتقد بان الذى يظهر فى أوروبا فى جلسات التحضير من الأشباح المتجسدة وغيرها أرواح الموتى كما يقوله السواد الأعظم من الروحيين ، ولكننا نعتقد تمام الاعتقاد بظهور تلك الأشباح وبأنها حقيقة لا يمكن انكارها لتوالى الشهادات على صحتها من كل بلد ومن كل عقل وبكل لغة ، ونظن أنه لا يليق الاستهانة بشهادة العلماء فى مثل هذا القرن على صحة وجود شيء يقولون انهم رأوه ولمسوه بأيديهم وشاهدوه على اشكال متعددة . وعقيدتنا فى وجود ذلك الشيء وحقيقته لا تقضى علينا بالتسليم بكونه روح الميت ، فلا يبعد أن يكون من عالم غير عالم الانسان والعوالم لا يحصيها الا خالقها ومبدعها .

هذه الأشباح التى تظهر لعلماء أوروبا وما يسبقها ويلها من المشاهدات الخارقة لكل نوااميس الطبيعة تثبت بطريقة لا تقبل التأويل ان الانسان عاجز عن الالمام بجميع المعلومات ، وأنه فى وسط بحر كله مساتير وعجائب ، وان

العالم الحسى ليس هو وحده كل ما فى هذا الكون البديع ، بل وراءه عالم أبداع وأعظم ، مأهول بأرواح تسبح فيه سباحاً ولها فيه شؤون خاصة لا نحلم بها ولا نتخيلها .

لهذا ترى الماديين فى كل أمة وفى كل بلد يعارضون هذه الحقائق . ويسعون فى هدمها ، لأنها تقصدهم مباشرة وتخط من كرامة مذاهبهم الظلمانية المؤيسة . ذلك لأنهم قالوا لا موجود الا المحسوس وليس وراء ما تدركه مشاعرنا مرمى ، فجاء الاسبرتزم يريهم قصور مداركهم وضلال أفكارهم ، ويفتح لهم عالماً لا يحيط به الفكر القوى ، ولا التصور البشرى .

وقالوا ان الانسان حيوان من الحيوانات وانما هو أرقى منها رتبة فى سلم الوجود وأنه عبارة عن جسم مادى ليس غير ، وان روحه هذه ليست الا خاصة ذلك التركيب المناسب الأجزاء المتناسق الأعضاء ، فجاء الاسبرتزم ينعى عليهم ضيق تصورهم ، وخرج صدورهم وسوء نظرهم ويريهن ان الانسان ليس بمادة مجردة وانما تلك المادة فيه غلاف لسر مكنون وجوهر هى الروح التى تحركه ، وان هذه الروح من عالم عال كله جمال وجلال ، وضياء ولا لا الخ الخ

لهذا غرى الماديون بمقارعة الاسبرتزم هذا بكل حيلة وبكل سلاح ولا ندري ما حظهم من ذلك ؟ وأى شئ ينالهم لو أثبتوا للعالم أن الانسان حيوان وأنه متى مات تحلل جسمه وفنى وذهب كالهباء فى الغبراء ، وإن العالم محدود على ما يدركه الحس وان الاجمال فيه



الأمم ما تدركه المشاعر ؟ ماذا ينالهم من بث هذه التعاليم وأى فائدة منها للنوع الانساني ، وهي طاعونه الفتاك وميكروب سرطان المستأصل ، وجرثومة بلائه المجتاح ،

لقد أضرت العلوم المادية بالعالم الأوروبي ضرراً بليغاً وأصبح الاتحاد في طبقات العامة جرحاً دائماً في قواد هذه المدنية المادية وبثرة غصنه في وجهها الواضح ، ولقد كادت تلك القرحة القوادية تهوى بحياة تلك الأمم الغربية وتنزل بها أسفل سافلين لولا أن أرسل الله اليهم هذا البصيص من النور وما في الغيب أكثر فقاموا سراعاً ، واحتفوا حوله يتزاحمون بالناكب شوقاً الى النور ولهفاً على الخلاص فنالوا منه مانالوا ، وهامهم لليوم شخوص اليه ينتظرون ما يأتي به الغد من آثار الرحمة الالهية ، وقد نقلنا عنهم في ذلك أشياء كثيرة وسننقل إن شاء الله أكثر مما مر ، فلماذا لانتوه بتلك الحركة للعالم الشرقي الذي بلى في هذه الأيام بمتابعة الغربي في كل شأن من الشؤون ، ليطلع فيرى أن زمن الاتحاد وقد فات وأن أوروبا وإن لم تتوصل الى إثبات وجود الروح بطريق الحس فقد توصلت الى إثبات وجود عالم وراء هذا العالم وإن الانسان ليس بمادة محضة وكفى بهاتين العقيدتين مريحين للضمائر ، ومهدئين لجيشات السرائر .

نحن نتابع البحث في تلك الحركة الأوروبية لنثبت للناس أجمعين معنى قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » كيف لا وقد قام علماء أوروبا في القرون الأخيرة بواسطة العلم الطبيعي

مقاوم الجبايرة العتاة واتخذوا الفوائد المادية التي تنتج من أبحاثهم في عالم الصنائع والفنون أسلحة لهدم تعاليم الأديان ، وآلات لتئيس الانسان من حياة بعده هذه الحياة ، فكتبوا وخطبوا وأرغوا وأزبدوا ، وهدموا وبنوا ، وهزموا وسخروا ، وتظاهروا بالعتو والجبروت كأنهم أصبحوا قادرين عليها . فينهام كذلك واذا بهذه الآلة المدهشة فاسقط في أيديهم وكتب كثيرا منهم مقرا بذنبه في كتبه كما نقلنا عنهم ذلك ، فنحن نورد عنهم أخبار خضوعهم للاسبرتزم اظهارا لقهر الله على العاتين ، وارغاما لمعاطس المعاندين المقلدين من الشرقيين ، والله مع الصابرين ، وهو ولي المؤمنين .

## تاريخ استحضار الأرواح

( حادثة من مس الجن في صيدا )

خوارق العادات على يد غير المسلم

كتب لنا حضرة الوجيه حسن أفندي نحولى من ( صيدا ) بسوريا خطابا تلخصه لحضرات القراء ثم نجيب عليه إن شاء الله . قال حضرته : عثرت في اثناء اشتغالى ببعض كتب الجدل الدينى على قصة صموئيل الأول تشبه مسألة استحضار الأرواح ، نأتى عليها ادلالا على أن مسألة استحضار الأرواح معروفة قديماً لدى الأمم . وفحوى

تلك القصة أنه اجتمع على شاول ملك بني اسرائيل الفلسطينيين  
 فزع واشتد خيفه ولم يكن معه نبي من الأنبياء ليسأله عما يجب عليه  
 عمله كما كانت عوائدهم في الأمور الجسام ، فلما أعبته الخيل أخذ  
 يسأله عن السحرة والعرافين فدلّه بعضهم على ( عرافة ) يقال لها  
 ( عين دور ) فذهب اليها متكرراً لأنه كان مشهوراً بمطاردة أصحاب  
 هذه الصناعة ، فلما انتهى اليها هو وخادمان معه سألها أن تجيبه عن  
 مطلوبه فامتعت خوفاً من الملك ، فلم يزل بها حتى أقنعها بأن تصعد له  
 روح صموئيل فجاءت بهاله فأخذ شاول يكلمها وهي تجيبه عن كل ما سألها  
 عنه . وهذه القصة موجودة في ( سفر صموئيل الأول — الأصحاح  
 الثامن والعشرون من أوله الى آخره ) ويظهر منها أن مسألة استحضار  
 الأرواح كانت معروفة قبل التاريخ المسيحي بقرون عديدة . فلعل  
 القائلين بأن مسألة استحضار الأرواح شعوزة ذهبوا هذا المذهب  
 لاستبعادهم استحضار أرواح الأنبياء . واذا كانت مسألة استحضار  
 الأرواح معلومة كما قررنا من منذ ألفي سنة فكيف يدعى علماء أوروبا  
 أن تاريخها يتبدى من سنة ١٨٤٦ كما قررتم ذلك في مجلة الحياة ؟  
 فنرجوكم اجابتنا عما اذا كان من الممكن استحضار أرواح الأنبياء  
 الكرام صلوات الله عليهم والأصفياء والأولياء رضوان الله عليهم  
 أيضاً ، وما قول الروحانيين في ذلك مع علمنا بأن هذا لدينا ممتنع شرعاً  
 ثم قالى حضرته أيضاً ماملخصه :

وقعت بصيدا حادثة بحضور بعض من أثق بهم من السيدات



أثناء زيارتهن لبعض العائلات ان ابنة لصواحيبات البيت دخلت في دور عصي شديد اصفر لها لونها وانتفخت أوداجها ثم انصرعت الى الأرض ثم تكلم من فيها متكلم قائلاً بلغة يهود صيداً (مسيكم بالخير) فرد عليه بعض النسوة لا عتيادهم على رؤية تلك الحالة في تلك الفتاة، واعتقادهن بأن ذلك جنى يهودى اعتاد أن يتقمص بجسمها في بعض الأحيان، فاحتطن به وأخذن يلقين عليه بعض الأسئلة وهو يجيبهن عنها، حتى سأله من حدثتى ذلك الحديث عن بعض أقربائهن في الاستاتة العلية فأجاب عن كل مسألة بما يقتضيه المقام طوراً بالسلب وآخر بالايجاب . ولما اخبرت بتلك الحادثة نسبتها للأمراض العصبية ورميتهم بسهولة الاعتقاد بدون توقف رغماً عن تحققى من وقوع بعض ما أخبر به تماماً مع شدة انكارى لتلك المسألة وعدتها في عداد الأقاصيص.

ثم حدث بعد ذلك ان اجتمع أولئك النسوة من أقارب المصابة وصرن يتلون عليها ورد أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه المتضمن كثيراً من صيغ الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم . عند ذاك اضطربت المريضة اضطراباً شديداً وصرخ الجنى مستغيثاً ليسكتوا عن التلاوة متوعداً يا عم باضرارها لو أصر واعليها . فلم يصغوا التهديد بل مضوا في التلاوة فلم تمض برهة حتى هدا اضطرابها وذهب الجنى ولم يعد ، وأخذت تلك الفتاة تقوى شيئاً فشيئاً حتى استردت صحتها الأولى .

هذا ما حصل على مرآى ومسمع من أثق بهن من السيدات فهل يستطيع الجن على التقمص بأرواح الناس مع وجود الروح . وهل صدق الجنى فى أخباره بالمغيبات تعد من سلطة الروح على الجسم؟ هل جميع ما تقدم من الرحايات وما ينسب للقوة المغناطيسية وسلطة الروح على الجسم يستوى فى أحداثها المسلم وغيره ممن ليسوا على دين حق . وهل يوجد فى مصر كم حوادث من هذا القبيل نرجوكم الجواب ولكم الشكر .

### تاريخ مذهب استحضر الأرواح (١)

أتينا فى بعض كتاباتنا على موجز من تاريخ فن الاسبرتزم فى أمريكا وأوروبا وفلنا إنه حدثت أول حادثة منه فى أمريكا سنة ١٨٤٧ وسرت منها الى أوروبا بعد ذلك التاريخ فأوهم ذاك بعض حضرات قرائنا ان ذاك التاريخ هو مبدأ ظهوره فى العالم وتبع من ذلك ان فاضلا من أولئك الأفاضل جاء يسألنا بكتاب عن رأينا فيما رآه مكتوبا فى سفر صموئيل من قصة الملك شاول مع العرافة (عين دور) قال ان تلك القصة تدل على أن فن استحضر الأرواح كان معروفاً عند الأقدمين ، فكيف يتفق ذلك مع ما قلناه من أنه ابتداء فى أمريكا سنة ١٨٤٧ ؟

( ١ ) هذه المقالة جواب سؤال حصره الوجه المحترم حسن أفدى محولى من صدا وفه رأى  
حصرات قرائنا السؤال فى الجزء العاشر المقدم .

نقول ان ذلك التاريخ هو تاريخ ظهوره في العالم الغربي ولم يكن معروفاً قبلها بتلك الصفة التي هو عليها الآن . نعم كان يوجد في أطراف البلاد أفراد من الرجال والنساء لهم علم بذلك الموضوع وقدم في مجالاته ولكنهم كانوا مجهولين لدى السواد الأعظم من الناس وكانوا يتحرون أن يبقوا كذلك طول حياتهم لأن الأحزاب الدينية في تلك العصور كانت في غاية حماستها ، ومعمعان قساوتها وصرامتها ، فكانت اذا شامت في شخص بارقة من تلك البوارق التي تتخيل وراءها ضرراً على مركزها أسرع الى القبض عليه وزجته في أعماق السجون وتحقيق جنايته تحقيقاً ناقصاً كله تحامل وصرامة ، ثم ينتهي الأمر بالحكم عليه بالحرق بالنار حياً ؛ كما حصل لمئات الألوف من الناس . لاجرم أن كل من كانت لديه أنارة من علم ما وراء الطبيعة كان يبالغ في كتمانها ، ويغرق في إنكاره خشية من الهلاك على أقبح صورة . هذا كان شأن أوروبا قبل هذه القرون الأخيرة التي تمت فيها الغلبة لرجال العلم على رجال المذاهب الاعتقادية ، ودخل بذلك النوع الانساني في دور التنور والبحث بعد تلك العماية الحماسية ، والغيابة التعصية . ولا غرو بعد هذا ان ظهر تحت ذلك الجو الصاحي مذهب استحضر الأرواح وأصبح له من الاشياء الملايين الكثيرة ، فلا شيء هناك اليوم يمنع بحث الباحثين ، ولا أثر لتعصبات المتعصبين ، وسيرى النوع الانساني من وراء هذه المسألة ان شاء الله العجب العجائب في تصم ظهور الملحدين ، وقصم عرى خزعبلات الماديين وانه غالب



على أمره ، ولا معقب لحكمه .

لكن قرب عهد ظهور فن استحضر الأرواح في أوروبا لا يدل على عدم وجوده في العالم الشرقي قبل تلك المدة بمدد طويلة بل بالوقف من السنين . نعم ان مسألة خلود النفس بعد الموت ، وبروزها في عالم غير هذا العالم لتحيا فيه حياة أبدية كاملة عقيدة شائعة بين جميع أصناف النوع الانساني كله شرقاً وغرباً . ومن العجيب أن مسألة استحضر الأرواح ومكالمتهم كانت ولم تزل ملازمة لهذه العقيدة في بلاد الشرق كله ، وقد أصبح الغرب شريكه في ذلك أيضاً في هذا العصر . وإنما هناك فارق جسيم بين مظهرى هذه المسألة المدهشة لدى الأمم الغربية والشرقية فانها لدى الأمم الشرقية قديماً كانت وفقاً على رؤساء الدين ، ومستورة على غيرهم من الناس ، ولم يكن قصد أولئك الرؤساء من ذلك الحجر الكسب المادى أو ابقاء الناس في ظلمات العماية عما سينالهم بعد الموت ، وإنما كان ذلك منهم لحفظ مرا كزهم العالية ، وصبغتهم الدينية محفوفة من الازدراء والابتدال ليستطيعوا أن يقودوا العامة بزام الطاعة والانقياد هذا ما ينتج من أول وهلة لمن يعتنى بدرس أساطير الأمم الماضية ، فلا يكاد يرى أمة منها إلا وفيها طائفة من الناس جعلوا ديدنهم هذه الوساطة بين عالم الأحياء وعالم الأموات وكان لهم بذلك في نظر عامة الأمم شأن لا يقاس به غيره من سائر الشؤون العادية .

أقدم الكتب المقدسة الدينية التي تعرف الآن هي ( الفيدا ) كتب الهنود التي وجدت قبل ميلاد عيسى عليه السلام بعدة آلاف

من السنين. ذكرت فيها مسألة استحضار الأرواح بنص صريح لا يلتبس على أحد في مغزاه. فقد قال المشرع الهندي الكبير (مانو) في تلك الكتب بالحرف الواحد ما معناه :

« ان أرواح آبائنا الأقدمين يصحبون على حالة لا تراها أعين »  
 « الناس بعض البراهمة الذين يدعون ( للاحتفال بعيد الأموات وأن »  
 « هذه الأرواح لتتبعهم أينما ذهبوا وهم على حالة هوائية وتجلس بجانبهم »  
 إذا جلسوا . »

وقال مؤلف هندي آخر وهو من الأقدمين أيضاً : « ان الأرواح التي لم تأت من الأعمال إلا الخير والبر مثل أرواح العباد الأتقار »  
 « والزهاد الأخيار تكتسب خاصية مكاملة الأرواح التي سبقتها »  
 « إلى العالم الآخر . وهذا دليل لتلك الأرواح على أن دورهم في التناسخ »  
 قد تم وانقضى . »

اعتاد كهنة الأديان الهندية على اعداد أشخاص يسمونهم (فاكير) ليستحضروا بواسطتهم أرواح الموتى ، ويحدثون بهم أكبر المشاهدات في التنويم المغناطيسى .

نقل ( لويز جاكويو ) في كتابه ( الاسبرتزم في العالم كله ) نظرية الهنود على الأرواح السابحة في الفضاء بعد موت أجسادها . وينتج من مطالعة أبحاث ذلك المؤلف ان أسرار مسألة استحضار الأرواح ما كانت تودع الا لمن يقضى أربعين سنة في بيوت الدين تحت النظمات الشديدة والاختبارات الدقيقة .

تلك الأسرار كانت موزعة على ثلاث فرق من أولئك الرجال كما يأتي :

( الفرقة الاولى ) كلهم من البراهمة أصحاب العبادات العامة ، وكنهة الهياكل المكلفين بقيادة العامة . وتعليم هذه الفرقة قاصر على شرح الثلاث كتب الاولى (الفيدا) ، وكيفية رئاسة الطقوس الدينية ، وأداء القرابين . وبراهمية هذه الفرقة يخالطون الامة ويعاشرونها ، فهم قادتهم الأقربون ، ورؤساؤهم الأدنون

( الفرقة الثانية ) تحتوى على طردة الشياطين من الاجسام ، والعرافين للمستقبل وأصحاب النبوات ، ومستحضرى الأرواح ؟ وهؤلاء عليهم فى بعض الظروف الحرجة أن يؤثروا على أذهان العامة بإحداث بعض خوارق الطبيعة . ويسمح لهم بقراءة وشرح ( الاتارفا فيدا ) وهو مجموعة رقيات سحرية

( الفرقة الثالثة ) من البراهمة ليس لهم اختلاط ما بهذا العالم الانسانى ، وليس لهم من شغل فى هذه الحياة الا درس قوى هذا العالم المادى كله ، وإذا ظهرت للناس فلا يكون ذلك إلا لأمر جليل ، وخطب فادح ، ولا يتراءون لهم الا عن بعد .

أما فى بلاد الصين فلا علم بالضبط تاريخ فن استحضر الأرواح . والذي ينتج من الاطلاع على حالهم فى تلك المسألة بنحوق أنها قديمه لديهم جداً .

نقل القس الداعى المير هناك (هوك) أن الصينيين مولعين بمسائل



الأرواح واستحضارها وسرد عنهم جملة تجارب في ذلك الشأن لم تزل مستعملة لديهم في كل صقع من أصقاع بلادهم الشاسعة إلا كناف ، وفي كل طبقة من طبقات هيئتهم الاجتماعية .

وقد امتدت هذه المسألة في جميع ممالك آسيا على طول الزمن وبواسطة هجرة بعض الهنديين للاستعمار في بعض البلاد الأجنبية ، حتى وصلت الى مصر والى العبرانيين كما ثبت ذلك من استقراء أساطير كل من هاتين الأمتين القديمتين .

المحدث المؤرخون جميعهم على أنه كان لدى المصريين الأقدمين اعتقاد في كثير من المسائل التي تعلو عن هذه الطبيعة المحسوسة كأعمال السحر والطلاسم وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة وقد ذكر كثير منها في التوراة ، وثبت أيضا أنهم كانوا يعرفون مسألة استحضار الأرواح ومكالمتها في الشؤون الهامة ، ووجه ثبوت ذلك آت من نهى موسى عليه السلام لقومه في التوراة عن عمل السحر وعن تحضير الأرواح وسؤالها عن المستقبل . وقد علم قراؤنا مما أورده حضرة الوجيه الذي عرض علينا هذا السؤال أن الملك شاول ذهب الى ( عين دور ) العرافة واستحضر بواسطتها روح صموئيل وفي هذا دليل قاطع على أن بني إسرائيل كانوا يعرفون مسألة استحضار الأرواح

لم يقف بعض الناس عند الحد الذي رسمه موسى عليه السلام لقومه من النهي عن تحضير الأرواح بل نألت بعض النفوس الشيقة

إلى الاشراف على عجائب عالم ما وراء الطبيعة فألفوا فيما بينهم حزبا سريا ومذهباً خصوصياً سموه ( كبال ) ولكن ما كانوا يثبونه لأحد حتى يأخذون عليه الموائيق والأقسام بأن لا يذيعه ولو لحقه مالهقه من الاضرار

وقد جاء في التلمود وهو من كتب اليهود ما معناه : ان الذى يحفظ هذا السر سر استحضار الارواح فى قواد تقى طاهر له من الله الكرامة وحسن الزلفى ولدى الناس الفضيلة وحسن السمعة ، ويكون اسمه مقرونا بالاجلال وعلمه غير قابل للزوال ، ويرث بعد ذلك الحياتين وينال السعادتين فى هذه الدار وما بعدها

أما فى بلاد اليونانيين فكانت مسألة استحضار أرواح الموتى معروفة وشائعة جدا . فقد كان فى كل هيكل من هياكلهم نساء يقال لهم (العرافات) أى اللاتى يعرفن المستقبل ، مكلفات بمكالمة أرواح الآلهة ، وكثيرا ما كان يود المستحضر أن يكلم الروح بنفسه فكان يحاج طلبه ويكلم الروح المطلوبة بنفسه .

وقد ذكر الشاعر الكبير اليونانى هومير الذى عاش قبل الميلاد العيسوى بأكثر من ستة قرون قصة استحضار البطل اليونانى الشهير (اوليس) روح (تيريزياس) العراف الشهير ، ومكالمته له ، وقد وصف هذا الشاعر المطبوع الصفة التى حضره بها والاحتفال الذى جرى لذلك وصفاً دقيقاً . وليست هذه الحادثة منفردة فى بابها فقد كان من الشائع المعروف لدى اليونانيين أجمعين ان من يريد استحضار روح أحد

أقربائه أو ذوى خاصته أمكنه ذلك بغاية السهولة بواسطة الأشخاص المتمرنين على الاستحضار .

وقد نقل عن ( أبولونيوس دوتيان ) الفيلسوف الفيثاغورى المشهور انه كان يعتقد كل الاعتقاد بوجود الأرواح وبإمكان تحضيرها والمكالمه معها ، وكان يعمل من الخوارق للطبيعة ما يدهش الألباب ويحير المدارك ، وكان له اطلاع واسع فى أمور ماوراء المادة

أما عند الرومانيين فقد كانت مسألة استحضار الأرواح معروفة أيضاً ومنتشرة جداً وكان المكلف باستحضارها نساء يسمونهن ( سيديل ) . كان قواد الرومانيين يقصدونهن ويسألونهن عن مستقبل الأمور العامة ، وكان رجال الحل والعقد لا يرمون أمراً ولا يشهرون حرباً ، أو يعقدون سلماً إلا بعد استشارة الأرواح بواسطة هاتيك النسوة أما لدينا معشر أهل الاسلام فمسألة ظهور الأرواح للأحياء من الأمور الشائعة للصالحين والمقربين ، وأظن أنه لا يوجد واحد من المسلمين لم يقرأ فى كتاب أو لم يسمع من قارى أن روح فلان الصالح ظهرت لفلان التقي وحصل بينهما كيت وكيت من المحادثات والمحاضرات . بل كثيراً ما تروى العامة فى أساطيرها أموراً تدل على معرفتها بمسألة ظهور الأرواح للناس مثل روايتهم عن بعضهم ان فلاناً تاه فى الصحراء وألقت به الحيرة من كل جانب ولما أوشك ان يقع فى اليأس اذا برجل مرتد بثياب بيضاء ، وعليه جمال وبهاء جاء اليه فدلّه على الطريق ، وأزال عنه بوائق التعويق ، ثم يعقب قوله هذا بأن ذلك الشخص



لا شك في أنه روح التقى فلان الخ الخ من أمثال هذه الحكايات التي تعوز النظر ولا يليق بنا أنكارها على عجل .

## مسألة من الجن

يحمل بنا للأجابة على هذا السؤال ان تنقل ما كتبناه في (الحياة) ببعض تصرف ففيه الكفاية . وهو :

ان فكرة استيلاء الجن على جسم الانسان والتأثير عليه بالمرض والاذى شائعة من مبدا الخليفة فقد كان الناس عموماً ينسبون الأمراض أياً كانت الى الأرواح الشريرة وكان لهم في ذلك طرائق عجيبة وأعمال غريبة لم تزل للآن منتشرة في كل البلاد المتوحشة . وقد كانت هذه الفكرة آخذة في التناقص شيئاً فشيئاً حتى كادت أن تنتهي الى الصفر خصوصاً في العالم العلى ولكنها قد حيت الآن حياة قوية وصار يستطيع المنتصر لها ان يقيم على صدق قوله ألف دليل محسوس وسبعان مغير الشؤون . روت المجلة الروحية في هذا الشهر ( قبل ثلاث سنوات تقريباً ) عن جريدة (نيويورك ميل اندا كسبرس) ان الاستاذين الشهيرين ( ريشار هودسن ) و (جيمس هيزلوب) اللذين درسا الاسبرتزم بواسطة ( مدام بيبير ) مدة ١٢ سنة قد نشرا نتيجة ابحاثهما في كتاب جاء فيه هذه العبارة : « ان عدداً عديداً من المجانين الذين يحبسون

في البيمارستانات ليسوا مصابين بأمراض عقلية بل مملوكين لأرواح قد استولت عليهم واستخدمتهم . »

هذاما ينادى به استاذان عظيمان بعد أن عدت هذه من دلائل التوحش والهمجية وفي أوروبا وأمريكا ألوف من العلماء لا يداخلهم الشك في هذه النظرية . فلتنظر كيف حصل لهم البرهان عليها فنقول : ان حل مسألة استبلاء الجن على جسم الانسان تتبع حل مسألتين وهما : هل في الطبيعة قوة عاقلة مجردة عن المادة ؟ وهل لهذه القوة سلطان على المادة وعلى الجسم الانساني ؟ . أما المسألة الاولى فمحمولة ومثبتة بأدلة حسية لا تدخل تحت حصر فان كل تجارب الروحيين تثبتها . وقد وقف الاستاذ الشهير ( ولیم کروكس ) أمام مئين من أعضاء الجمعية الملوكية الانجليزية حيث فوض اليه رئاستها في سنة ١٨٩٧ وفاه بخطبة مهمة جاء فيها هذه الجملة : « وليس في تاريخي العلمي ما هو أشهر من اشتغالي بالمباحث النفسية فاني نشرت منذ ثلاثين سنة وصف تجارب تجربتها من مقتضاها ان وراء ما ندركه علمياً قوة يتولاها عقل غير عقل الانسان العادي . » ( روت هذه الخطبة أكثر جرائد العلم وهذه الجملة ترجمة المقتطف . )

بقي علينا أن نسأل هل لهذه القوة تأثير على المادة وعلى الجسم الانساني ؟ أما تأثيرها على جسم الانسان فما لا يصح التردد فيه لأن حالة الوسطاء الذين يستعملهم علماء الروح في الاستحضار يثبت ذلك إثباتاً محسوساً . فانا نرى الواسطة يدخل في دور تشنج هائل وربما

لطم صدغه وخمش وجهه ثم تتخشب أعضاؤه ويصير في حالة مؤلمة . فتارة تستولي الروح على يده فيكتب ما لا يراه ولا يعلمه وتارة تستولي على لسانه فيتكلم في شؤون لم تمر على مخيلته . لاشك أن كل هذا يكفي للدلالة على سلطة تلك القوة على جسم الانسان في بعض الأحوال ولدينا أدلة محسوسة على هذه القضية نستنتجها مما تحدثه الأرواح عند تجسمها ( عذرا على هذا التعبير ) من الآثار السيئة على جسم الواسطة . روى الاستاذ ( اكزاكوف ) الروسى في كتابه ( المذهب الحيوى والاسبيرتزم ) أنه شاهد هو وعدة دكاترة معه أن الجزء الأسفل من جسم الواسطة وهى ( مدام ديسبرنس ) قد تلاشى بالمرّة بينما كانت الروح قد تجسمت من نصفها الأعلى . قال وقد فحصنا ذلك باللمس والنظر فلم نزد الا اقتناعا ولما ذهبت الروح عاد ثانياً . أما فى سائر أحوال التجسيم فان وزن جسم الوسيط يستحيل الى النصف ولاشك أن نقصان وزن الجسم أو تلاشى قطعة منه يدل على أن تلك القوة تستطيع أن تؤثر على الانسان آثارا سيئة . ومن أحسن الشواهد وأغربها على امكان استيلاء تلك القوة على الجسم مارواه الدكتور الالماني ( سيرياكس ) عن نفسه كما رواه عنه الكاتب الشهير ( جبريل دولن ) فى كتابه ( الظاهرة الروحية ) . هذا الدكتور كان مراده درس الاسبيرتزم بنفسه بدون واسطة ليكون اقتناعه ذاتياً ، وذلك لشدة تشككه وجلس لتلك الغاية هو وامراته وبعض اخوانه ١٩ مجلساً فى غاية الخشوع ينتظر روحا تطرق المائدة أو تظهر بأثر آخر كما يحصل



بحضور الواسطة فلم يـ شيئا ولكن لم تنخر عزيمته . قال : « في الجلسة العشرين شعرت باحساس خاص من برودة وحرارة متعاقبتين . ثم أحسست بمرور تيار هوائي بارد على وجهي ويدي . ثم شعرت بأن ذراعي الأيسر قد تنحدر تماما وصار مشلولا . ثم شعرت بمن يحركها تحريكا شديدا بحيث لم أستطع إيقافه . ولما كانت تلك الحركة تشبه حركة يد الكاتب أتت امرأتى بقلم وورقة فاستولت عليهما . يدي اليسرى وأخذت تتحرك في الهواء بسرعة عجيبة حتى خاف الجلوس أن تصيبهم في حركاتها . ثم لطمت هي المائدة فجأة وكسرت القلم . عند ذلك هدأت يدي فعلت عليا يقينا بأن لا أدخل لارادتي في حركة يدي كما لا أدخل لها في سكونها . ثم لما برى القلم أمسكته يدي اليسرى وأخذت ترسم في الورقة خطوطا غير منتظمة ثم أخذت ترسم أحرفا أولية كما يفعله الأطفال ثم شعرت بتيار هوائي كالمقدم فزایل يدي كل ألم وكل تشنج . فرفعنا الجلسة وأنا مسرور لتحقيق ان في الطبيعة قوة مستقلة عن ارادتي . الى أن قال : ومن ذلك الحين أخذت خاصية الواسطة تنمو معي بنصائح اخواني الأمريكيين فابتدأت بالكتابة ثم حدث انها رسمت ( سبتا ) ملوفا زهرا . هنا يجب على أن أقول اني لا أستطيع عمل شيء يدي اليسرى حتى ولا يمكنني أن آكل بها . أما الرسم فلست احسنه قط ولا يدي اليمنى . فأنا الآن مقتنع تماما بأن القوة التي ترسم أو تكتب بواسطة مستقلة عنى ولها عقل غير عقلي لأنى في أثناء ظهورها أرانى متمتعا بكل

قواى العقلية ولا أحسن بأدنى حادث غير ما يحصل فى يدى اليسرى  
التي تظهر كأنها ليست يدى طول مدة الجلسة وكأنها تحت تصرف  
غيرى . وانى أستطيع فى أثناء هذا الأمر أن اكلم الذين حولى  
بكل حرية . فأراد أحد زملائى الدكاترة أن يوقف حركة يدى  
فضغط عليها يديه بطريقة جعل ثقل جسمه كله عليها ، ولكنه  
لم ينجح ، واستمرت يدى تحت ضغطه تعمل بقوة ونظام ، مع انى  
أستثقل بطبعى ضغط اليدين مجردتين . انتهى  
أليس فى كل هذا ما يدل على أن فى الوجود قوة عاقلة لها على  
جسم الانسان سلطان فى بعض الأحوال ؟



﴿تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى﴾

## فهرست

## \* الجزء الاول من كتاب الإسلام في عصر العلم \*

صحيفة

- |     |                                                                        |
|-----|------------------------------------------------------------------------|
| ٣   | (١) مقدمة                                                              |
| ٣٧  | (٢) معرفة الانسان نفسه - الفصل الاول                                   |
| ٤٩  | (٣) الفصل الثاني - العوامل الذاتية                                     |
| ٦١  | (٤) العوامل العمومية - أرواح الجيل العمومية                            |
| ٦٢  | (٥) مناقشات في التعليقات المصطلح عليها                                 |
| ٧٥  | (٦) داؤنا روح الجيل                                                    |
| ٨٤  | (٧) أصل الروح العمومية السائدة في هذا الجيل                            |
| ٨٥  | (٨) الدين قبل ظهور العلم                                               |
| ٨٦  | (٩) يقظة العقل                                                         |
| ٨٩  | (١٠) مبدأ النظر في السكون                                              |
| ٩٠  | (١١) الادوار التي تتاب العقائد الباطلة                                 |
| ٩٣  | (١٢) نظرة على ماسبق                                                    |
| ٩٧  | (١٣) نشأة الروح العلية التي يسيطر بها الغرب على الشرق                  |
| ٩٩  | (١٤) سبب توق اليونانيين إلى فتح فارس                                   |
| ١٠٠ | (١٥) نتيجة هذا الفتح على اليونانيين وتأثير المدنية على العقائد الباطلة |



صحيفة

- ١٠٣ (١٦) لماذا تؤثر المدنية على العقائد
- ١٠٩ (١٧) تأثير فتح بلاد الفرس على اليونانيين من جهة العلم والفلسفة
- ١١٣ (١٨) وفاة الاسكندر وتجزؤ ملكه
- ١١٤ (١٩) دار آثار الاسكندرية وكليتها العلمية
- ١١٧ (٢٠) دستور العلوم الطبيعية في هذه المدرسة الكلية
- ١١٨ (٢١) دستور العلوم الادبية في كلية الاسكندرية
- ١٢٢ (٢٢) نظرة على ماسبق
- ١٢٤ (٢٣) تاريخ الفلسفة
- ١٢٦ (٢٤) مذهب فيثاغورس
- ١٣٢ (٢٥) افلاطون
- ١٤٢ (٢٦) ارسطو
- ١٤٨ (٢٧) مذهب ارسطو
- ١٥٤ (٢٨) مذهب ابيقور
- ١٦٤ (٢٩) فلسفة بيرون
- ١٧٦ (٣٠) نظرة على ماتقدم
- ١٧٨ (٣١) مبلغ حظ الفلاسفة الاقدمين من ادراك الحقائق الاولى
- ١٧٩ (٣٢) مبلغ مدارك فلاسفة اليونانيين بالمسألة اللاهوتية
- ١٨١ (٣٣) مدارك سقراط في المسألة اللاهوتية
- ١٨٩ (٣٤) مدارك افلاطون في المسألة اللاهوتية

## صحيفة

- ٢٠١ (٣٥) براهين ارسطو  
٢٠٤ (٣٦) نظرة على ما تقدم

## كتاب

- ٢٠٨ ﴿حياة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم﴾  
٢٠٨ (١) تمهيد  
٢١٩ (٢) وجه لزوم السيرة المحمدية لكل إنسان  
٢٣١ (٣) كيف كان العالم قبيل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام  
٢٤٣ (٤) الاسلام حيال الادوار التي تنتاب العقائد  
٢٤٤ (٥) هل يمكن أن يعيش الانسان بلا دين  
٢٤٧ (٦) ماهو الدين  
٢٥٣ (٧) الاسلام وهو الدين العطرى  
٢٦٣ (٨) نظرة على الادوار التي تنتاب العقائد  
٢٧٣ (٩) سحر المدنية المادية  
٢٨٥ (١٠) الشبه العلمية والعقائد  
٢٨٨ (١١) دستور الكائنات ودستور الانسان  
٢٩٤ (١٢) الناس أمام العقيدة بالعالم الروحاني  
٢٩٥ (١٣) حال المعتقد بالعالم الروحاني  
٣٠٠ (١٤) أثره في الوجود  
٣٠٣ (١٥) حال الذي لا يعتقد بالعالم الروحاني



صحيفة

- (١٦) أثره في الحياة ٣٠٦
- (١٧) المعتقد بالوراثة ٣٠٨
- (١٨) الفضائل والذائل ٣١٠
- (١٩) بيان طبيعة مبدأ طلب الكمال ومبدأ تنازع البقاء ٣١٢
- (٢٠) المدنية الاسلامية والمدنية الحديثة ٣١٦
- (٢١) رجوع للمقصد الاصلى ٣٢١
- (٢٢) محاكمة مدارك الفلاسفة الاقدمين في المسألة اللاهوتية ٣٢٤
- (٢٣) النفس المستعدة للايمان بالفطرة ٣٢٧
- (٢٤) النفس الكافرة بالفطرة ٣٣٠
- (٢٥) النفس الجامدة بالفطرة ٣٣٣
- (٢٦) نظرة على ماسبق ٣٣٦

كتاب

- (١) ما وراء المادة ٣٤٠
- (٢) ما وراء المادة على حسب الاسلوب العملى ٣٤٠
- (٣) أهمية ما وراء المادة عند علماء أوربا ٣٥٢
- (٤) مذهب استرلينج والبرونز ٣٦٤
- (٥) اعتقاد الشاعر الفيلسوف الشهير ( فيكتور هوجر ) ٣٦٥
- برسالة نينا عليه الصلاة والسلام
- (٥) كيف كان اسراء النبي صلى الله عليه وسلم ٣٦٣



## صحيفة

- (٦) رد على مجلة المقتطف في مسألة وراء المادة وسرد أسماء ٣٨٢  
العلماء المعتقدين بها
- (٧) الاسبرتزم في انجلترا ٣٩٩
- (٨) الاسبرتزم في فرنسا ٤٠٦
- (٩) الاسبرتزم في المانيا ٤١٣
- (١٠) الاسبرتزم في أرجاء أوربا ٤١٦
- (١١) الاسبرتزم في العالم كله ٤١٩
- (١٢) موجز ماسبق ٤٢١
- (١٣) تاريخ استحضار الأرواح ٤٢٧
- (١٤) مسألة مس الجن للإنسان ٤٣٨